رواية



لوحكي يوسف

كوثر الحمزة

(لو حکی یوسف)

@ART_OF_BOOK

لو حكى يوسف

لكوثر حمزة

ART_OF_BOOK

على هامش إلهامهم

كلمة تقديرٍ تعبر المسافات..

لأولئك الذين يتنشقون دروب الحياة بصمت محاطين بظلالها، إلى الذين
يواجهون الطوفان بقوة لا تعرف الانكسار، تلوح في أعينهم بقايا الأمل،
يقاومون انحسار الورد بين أصابعهم يرفضون انسيابها كالرمل..
إلى من يظن العالم أنهم هناك،

وهم حاضرون هنا معنا، في كل نبضة قلب، في كل فكرة، في كل لحظة تجلٍ..
أنتم الذين تكتبون حكايات الصمود بأقلام لا تعرف الفشل، كل عزم يتلألأ
بين أحلامكم هو خطوة نحو النور الذي لا يغيب.

١

أنا يوسف

كانت أنفاسي تفرّ مني قبل أن أفرّ بجسدي الصغير الممتلئ ككرةٍ فُرّغ منها بعض هوائها. فغدت بطيئةً، ثقيلة. تآزري الحركي الواهن يعوقني يتربّص بي، ويشدّني للسقوط..

غرقتُ في سرابيل الرمال كالمعتاد، لكن رهبتي هذه المرة كانت تسبق ثقلي! انتشلني توتري بسرعة، وهربتُ إلى شقتنا في الطابق العلوي. ارتعشتُ كمن نزل ببطن الجليد وأنا أُفرغ على رأسي الماء الفاتر.. علّه يغسل ارتجافي وكل ما علق بجسدي من تراب، ويساعدني على إزالة ما فررت منه..

مشهد ظل يتكرر بإلحاحٍ في ذهني على مدار أيامٍ طويلة.
وقد نجحتُ في محوه، قبرته وأهلتُ عليه تراب النسيان، حتى كاد لا يخطرني إلا نادرًا، فما كان عمري يومها يتجاوز الخامسة.
أحيانًا كنتُ أظنه حلمًا داهمني في المنام، فامتزج الوهم بالواقع، رغم أنني لم أفهم معناه آنذاك.
لكن الستار كُشف عن ذهني الضبابي، ولمعت الحادثة من جديد كالبرق الصاعق!
مذ رأيته أمامي.. لعثمني الارتباك

وجالت تلك الصورة في عينيّ ترقص بجنونٍ وجبروت، فلا أرى سواها! صرت متوجسًا!

هل أطلق كلماتي كرصاص الكلاشنكوف، لا أرحم بها أحدًا؟!
هل أُفصح أمام الجميع وعلى هذه المائدة تحديدًا لتسقط الأقنعة؟!

وأسدد بها جمرات انتقامٍ لم أعنه قط! وأحرق، ببراءتي، كل من حرقني؟!
فلعلها تولّد معها حقائق كانت غائبة.. تنقذني مما أنا فيه..
وجدتني في تلك اللحظة أعود بذاكرتي إلى أدراج الماضي، أنقّب عن خيوطٍ أربطها..

خيوط تحفزني على البوح والجرأة، رغم الصعوبات التي تحاربني بسيوفها الحادة كلما هممتُ بعقد خيوطٍ معنوية.. أو حتى حقيقية.. نعم، عضلاتي الدقيقة بأناملي لا تسعفني كما أريد، قدراتي الإدراكية كثيرًا ما تخونني حين أرغب في ربط مسائلٍ حياتية أو حسابية، حركاتي.. خطواتي، كانتْ دائمًا صخورًا قاسية تهشم معنوياتي، وتجزُّ جذور ثقتي بنفسي.

أما أخي الأصغر (حسن) فكان الجحيمَ التي تستعر في صدري!

لا أعلم.. أمن سوء حظي أن يكون أخي الطفل الأكثر ذكاء وفطنة وتفوقًا؟ أم من حسن حظه أنني الأخ الذي يُوصم بكل مصطلحات الفشل، أو عرفًا.. بالأبله، فيزداد هو ثقةً وبريقًا ككوكبٍ دريٍّ في سماء العالمين؟

فقبل هذا اليوم المشؤوم.. أي قبل أن تتفجر الكارثة في يدي بفترة وجيزة..

رغم أنه في الصف الأول الابتدائي، كان قد اعتلى منصةَ التفوق المفروشة بسجادٍ أحمرَ قانٍ في الحفل المدرسي، بشموخٍ أخّاذٍ يسلب الألباب. خلفه مسرحُ العرض يزدهي بأقمشة بيضاء وذهبية منسدلة، تعانقها ورود نُسقت ببراعة. كان يرتدي قميصًا أبيض بدا أنيقًا يبرز جسده النحيل - فجسده مثاليّ لا يشبه امتلائي - وعلى كتفيه يستريح وشاح التفوق اللامع باختيال.

شمل الجماهير بنظرةٍ واثقة أخضع بها كُل آفات التوتر التي قد تنبس بداخله، وبدأ بإلقاء قصيدةٍ عصماء حفظها عن ظهر قلب، كعادته في المناسبات الكبرى.

وأنا، الأكبر سنًا، في التاسعة من عمري بالصف الثالث الابتدائي، كنتُ أجلس تائهًا، وجهي ممتقعٌ.. أصفر اللون.. بجوار والدتي (ليلى).

وددتُ في تلك اللحظة، لو أهَتك طبقات الأرض، وأحدِث زلزالًا، علّها تشيح ببصرها عن أخي، ولا ترصده بكل هذا الافتخار والاعتزاز. أرى عينيها ترقصان طربًا وتنثران قطراتِ النبيذ فرحًا..

بادرتُ لأقطع وصلَها بضحكتي المرتبكة، وأنا أشير إلى إحدى معلماتي، أنوي فقط أن أُلهيها عن هذا الاستغراق:

- انظري أمي.. أمي .. سأريكِ..

ألجمتني بنظرة غاضبة، رحتُ أواري إحراجي بالتلفتِ هنا وهناك، وتمنياتي بأن يخفق أخي في عرضه المُتباهى به.

وللأسف، كان أداؤه عظيمًا أبهر جميع الجماهير من معلمات وأولياء أمور. نهض بعضهم مصفقًا بحرارة وتكالب بعضهم عليه ليعانقوه ويثنوا على تميزه، فيما والدتي تسكب أنهار السعادة من مآقيها، تنظر إليه وكأنها لا تجد في هذا الكون سواه.

أقبل وغاص بحدائق حضنها يرتشف من أزهار حنانها وتغذيه قبلاتها الثمينة وهي تردد:

- يا فخري ومالك قلبي..

دنوتُ منه مباركًا أصحب معي شبح ابتسامتي العريضة المزيفة، علي أخفي احتقان الغيرة الذي يلطخُ وجهي عن الآخرين..

كانت أمي تقف بجواره وأشرعة اختيالها لا تُحدد بحد، والجميع يقف عندها ويغبطها لمواهب ابنها المتفردة، أما أنا فانتبذتُ مكانًا قصيًا، بعيدًا في معزل، حتى لا أشوه بهاء صورتهما المثالية.

يدٌ تفيض بالحنو طوقت كتفي في تلك اللحظة، وصوتها الدافئ من هدير الطبيعة يسأل عن أخباري، كانت معلمتي (نادية) اختصاصية التربية الخاصة بالمدرسة.

زممتُ شفتيّ خجلًا وهززتُ رأسي إيجابًا دون أن أنبس ببنت شفة..

اقتربتْ من والدتي بابتسامة عريضة:

- تهانينا، ألف مبروك تفوّق حسن.. متميّز ومبدع حقًا!

ثم أردفتْ بلطف، وقد خفُت نبرتها قليلًا:

- هل لي ببضع دقائق؟ أودّ التحدث إليكِ بشأن يوسف.

فجأة امتقع وجه والدتي بلسعة كهربائية، وراحت تتلفت بارتباك يمينًا ويسارً وكأنها تخشى القبض عليها بالجرم المشهود. ثم تمتمت على عجل:

- أعتذر أستاذة.. ربما في وقتٍ لاحق..

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

٢

همهمات (ليلى)

ما الجواب الذي تودُ أن ألطخ به مسامعكَ دون أن تلفظني بزنازين الغياب؟!

عيناكَ الداكنتان تلك اللغز الآسر قد أسرتا كبرياني المهشّم! كم أغظتني في لقائنا الأخير! ربما كان خوفكَ من المجهول هو محفزك..

كل قسوتكَ كانت نتاج غضبكَ مني، وصدقني مهما دار الزمن وتبدلت الأمكنة، لم أنسكَ أبدًا.

كنتَ دائمًا حاضرًا في داخلي بكل لقاء جمعنا، سواء كان مصادفة هامشية أو لحظة مليئة بالمعاني، أنتَ نبض لي لن يخبو، مهما أخفتكَ المسافات أو حاول الغياب أن ينتصر.

من لقاءتنا الهامشية التي لم ترحل لأدراج النسيان..

حين كنتُ برفقة ابني (يوسف) يحملنا المصعد الزجاجي للطابق الأرضي بالمجمع التجاري، ويوسف يترنم بصوته العالي بعض الأناشيد التي بدت لي مؤذية بصوته المزعج، ولكنني آثرتُ الصمت وأنا أطل ساهمةً من زجاج المصعد، وإذا بي أراكَ تدخل إلى محل التموينات.. تجمّدتُ بموضعي ..

شهقت!! هل هذا أنتَ حقًا؟؟! لم أكن متأكدة، فنظاراتك الشمسية حجبت بريق الرصاصتين، انتبهتُ على ابني يوسف وهو يهزني بابتسامته المرتبكة كالعادة: «ماما .. وصلنا..»

ART_OF_BOOK

شعرتُ بتوترٍ كبير لرؤيتكَ وسبقته مسرعة إلى المحل نفسه وهو يجري خلفي ويقول: «ما كل هذه العجلة يا ماما.. انتظريني..»

التفتُ ناحيته وداريت إحراجي بزجره: «أسرع، لا تمش بخطواتٍ بطيئة كالسحلفاة.»

طأطأ رأسه بامتعاضٍ متأففًا دون أن يحظَ باكتراثي، أسرعتُ في خطواتي علني أراك مرةً أخرى، فمنذ سنواتٍ والفضول ينهشني حول أخبارك..

قصدتُ ركن المخبز في المركز، وركن الثلاجات، وأدوات المنزل، بحثت هنا وهناك ولم أجدك .. وابني كالعاتق بطلباته وتحقيقاته التي لا تنتهي:

- ماما أريد هذا.. ماما.. ما بكِ؟ عمّ تبحثين؟

أخذتُ نفسًا عميقًا: «فقط اسمح لي بدقائق وخذ كل ما تشاء»

مضى يجرُّ العربة، تغمره الغبطة كأنما حاز مفاتيح صندوق كنزٍ عظيم، فلا شيء يُثير أطياف فرحه كالأطعمة، وبخاصة الحلويات والمرطبات.

شعرتُ بالراحة لغيابه برهة من الزمن لأتمكن من البحث عنك في هدوء وسكينة.. ثم وجدتك أخيرًا، كنتَ تحمل بعض علب الحليب وتقترب من المحاسب، وجمتُ مرةً أخرى وأنا أنظر إليكَ من بعيد.. لأتأكد إن كنتَ أنتَ.. نعم.. كنتَ أنت ..

رفعتَ نظاراتكَ السوداء على شعرك الكثيف الناعم تتخلله أمواجٌ مهذبة وأدرتَ وجهك ناحيتي في لحظة مباغتة، وكأن سهمًا صوبني في لجة استغراقي، فوقع قلبي بين قدمي.. ولكنك سرعان ما أشحتَ ببصركَ ومضيت.

رايتني يا ترى!! أيعقل أن تكون رأيتني وتجاهلتني! لا أعلم!

معكَ لم أعد أستبين الخيط الرفيع بين الحقيقة والوهم، تشابكت المشاعر حتى باتت ملامحها عصية عليّ لا أفهمها، ولا أملك سوى أن أبحر في دوامتك خشية أن ألمح خط النهاية.

في تلك اللحظة تخيلتُ حياتي لو تمسكتُ بكَ أنت! قطع حبل شرودي (يوسف) بصوته العالي الفاضح: «ماما.. أريد هذه..»

انتبهتُ له وقد ملأ عربة التسوق بشتى أصناف الحلويات.. وكل ما هو ضار ومساهمٌ في مزيدٍ من السمنة، تأففتُ.. أحاول الإمساك بلجام غضبي أمام المارة: «ألم نتفق أن نبتعد عن الحلويات؟»

رفع رأسه يُجادلني برجاءٍ وإلحاح، وأنت تعلم بأنكَ لن تجد شخصًا أكثر إلحاحًا من يوسف لحظة إصراره .. فقدتُ سيطرتي وصحت به:

- أنت تنتفخ كالبالون! حتى صرت لا أعرفك!

رأيتُ عينيه تنكسران، وامتقع وجهه وسقطت ابتسامته في صراعٍ خاسر مع الجاذبية. تقدّمتُ أمامه، آمرة إياه بدفع العربة..لكن بعد خطواتٍ معدودة.. التصق بي شعور خانق.. لماذا يشغلني المظهر إلى هذا الحد المزعج!

كيف اختزلتُ ابني في هيئة سطحية!

ولتكفيرٍ لا يُجدي ابتعنا كل ما أراد.. فعادت ضحكته، كأن شيئًا لم يكن..

اسمح لي الآن.. لأروي لكَ حكاية الزواج تلك.. هل تذكر حين أخبرتكَ أنها ليست كما ظننتَ؟ بل، لا تُصدّق! يومها طالعتَني بعينٍ مرتابة، ووعدتكَ أن أرويها لكَ ذات يوم.. وها أنا ذا.. أفي بوعدي

٣

صف الأبطال

مرّت أيام على حفل التفوق، هو أمرٌ لا يعنيني وليس عالمي، كنت جالسًا بمقعدي بعد انتهاء وقت الفسحة، حين جاءني أحد زملائي المشاكسين يترنح يمينًا وشمالًا مقلدًا خطواتي.. ضحك الزملاء ولذتُ بالصمت، ثم حاولت اغتصاب ضحكة لأجاريهم، أردفَ وهو يفتح عينيه تمهيدًا لحديث مهم:

- أيها البطريق.. أمكَ هنا.. مع المعلمة نادية ..

غمرني الحماس والتوتر وفررتُ من صفي محلقًا نحو تلك الزاوية الهادئة من المدرسة إلى (صف الأبطال) حيث تعطي معلمة نادية دروسها الخاصة والفردية للطلاب ذوي صعوبات التعلّم، أولئك الذين يشاركونني بعض الخصائص النمائية والأكاديمية.

ولكن يا للأسف، أنا لستُ مدرجًا بينهم، كم تمنيتُ أن أرتاد صف الأبطال! وكم غبطتُ أولئك الذين يفعلون!

صف أشبه بقاعات الملاهي- ولكن الملاهي الآمنة، لا المرعبة- ينبض بالحياة والجمال.. الجدران مفعمة بالألوان الزرقاء الفاتحة، تزينها لوحات صغيرة تحمل عبارات تشجيعية ورسومات مبهجة صنع بعضُها الطلاب بأيديهم. في إحدى الزوايا توجد مكتبة صغيرة مليئة بالكتب المصورة والقصص الملهمة، محاطة بوسائد ملوّنة وشجرة بألوان كرة القدم، وبجوارها سجادة زرقاء

واسعة، حيث يمكن للأطفال الاستلقاء والقراءة براحة. طالما تخيّلتهم يقرؤون لأنفسهم كما يشاؤون، بحرية تامة، دون أن يعكّر حروفهم خوف، أو تعترضهم أعين تنتظر زلّتهم.

الأثاث صُمم بعناية ليكون عمليًا وجذابًا، الطاولات والكراسي ملونة بالأصفر والأزرق، وفي صدر الصف امتدت لوحة كبيرة تعلوها أسماء الطلاب ونجوم التعزيز والمكافآت، وعلى رفوفٍ بيضاء اصطفت بانتظام على أحد الجدران، تستريح ألعابًا تعليمية مبتكرة ومتنوعة، مثل مكعبات الحروف وألواح الرسم التفاعلية وألعاب الأرقام، وكرات جذابة مهدئة وألعاب حسيّة لاستعادة التركيز.

جميع ما بالصف يجذبني وأتمنى لو أستطيع اللعب بالأدوات والألعاب كما يلعب بها زملائي ممن يندرجون في برنامج صف الأبطال.

استرقتُ النظر من نافذة الباب الزجاجية المستطيلة، فرأيتُ أمي تجلس على مقعدٍ أزرق أمام مكتب الأستاذة نادية، وعيناها تتقلبان بتبرم بينما كانت معلمة نادية تتحدث:

- شخصيةُ يوسف مميزة.. هادئ ومؤدب ومحبوب وفق ملاحظات الجميع.. ولكنه بحاجة لينضم إلى برنامج التدريس الفردي معنا هنا في صف الأبطال، لكي..

قاطعتها أمي بحدة:

- أرجوكِ، لا تشوّهي سمعة ابني! لِمَ هذا الإلحاح على وصمه بالإعاقة أو الغباء؟ قلتُ لكِ سابقًا وأكررها: لا أوافق على ضمه لهذا البرنامج.

قاطعتها المعلمة في محاولة لتوضيح مفاهيمها الخاطئة والسطحية، لكن دون جدوى.

كنتُ أنصتُ إليهما ومشاعرٌ من الإحباط والحزن تخيّمُ على صدري، أتمنى ان توافق أمي ولا تكابر على انضمامي لهذا الصف الجذاب.

قالت المعلمة في رجاء:

- على الأقل انتبهي له أكثر وقدمي له الدعم الذي يحتاج إليه في المنزل.

نهضتْ بغضب وكأنها لا تريد أن تثقل كاهلها برعايتي وقد أزعجها أسلوب المعلمة:

- أنا امرأة عاملة، لا أملك له وقتًا.. ثم لمَ أهدر وقتي وهو كأرض قاحلة، لا تنبت مهما سكبتُ فيها من ماء!

- هو ابنكِ .. والأجدر بوقتك.. ويحتاج اهتمامك قبل أي أحد.

طالعتها أمي بنظرة استخفاف وهي تلوح بيدها:

- هذه قواعد الماضي ونظام البطريركية، أنا أعمل كوالده تمامًا.. سأخبر أباه ليهتم هو به!

خرجت متبرمة لتفاجأ بي واقفًا خلف الباب أتلصص بنظراتي المتوترة.

تغيّر وجهها وارتدت قناع اللطف في حضور المعلمة:

- ماذا تفعل هنا يا يوسف؟ ألا توجد لديك حصة دراسية؟

كنتُ أبتسم وندت مني ضحكة بريئة رغم ما سمعت منها قبل قليل، وعانقتها بفرحة غامرة تشع كلحن هائج من بين وجناتي المكتنزة، وقلبي يبحث عن ملاذ دافق بحضنها.

بلغة طفلٍ لا يعرف كيف يُخفي مشاعره، مستدرجًا بوجودها بين أسوار المدرسة إحساسًا دفينًا بالأمان..

قربها يُوقظ في قلبي حنينًا فطريًا لا يهدأ: « أحبكِ ماما..»

اكتفت بابتسامة مقتضبة تخفي وراءها ما لا أدرك تفسيره..

مسّدت رأسي بخفة وكأنها تؤدي واجبًا أكثر مما تمنح حبًا، ثم أزاحت ذراعيّ عنها بهدوء ومضتْ في عجالة قبل أن ترويني بما شغفتُ من أجله.

تمنيتُ فقط أن تبادلني الكلام قائلة (وأنا أيضًا أحبك)، عبارة تزهر من كل أم وإن كانت بآلية، كان وقعها في قلبي الصادي للحب سيكون عميقًا..

لكنها لم تفعل.

ندهتني معلمة نادية فاقتربتُ منها بخجل، ووقفتُ أمامها وكأني أبحث عن شيء فقدته في حضن أمي..

ربتت على كتفي بحنانٍ دافق وعيناها تشعان بالشفقة، انحنتْ نحوي قليلًا وهمست بصوتٍ حمل لي دفئًا افتقدته:

- وأنا أحبك يا يوسف.. ليتني أستطيع مساعدتك أكثر، لكنني هنا دائمًا لأجلك.

كانت كلماتها ضمادًا لجرح لا يندمل وفي الوقت ذاته ذكرتني بما قد لا أتمكن من الحصول عليه، حنان أمٍ أو رحمة أب.

نعم.. ولي مع أبي حكاية أخرى..

****

حين مالت الشمس واستراح النهار..

خرجنا نحتفي بتفوق حسن في مدينة ملاهٍ حديثة الافتتاح، تزهو بأضوائها الباهرة كمهرجان علّق المرح بأذيال السماء، ورغم بريقها كنت أشعر بانقباض داخلي.. فهذه النزهات لم تكن إلا بوابة لفضح مخاوفي.. ساحة معركة أكره خوضها مع أبي!

هناك.. انتصبت الألعاب شامخة بألوانها المختلفة مثل وحوش ميكانيكية تتهيأ لابتلاع شجاعتي، وتحدّق إليّ كأنها تتحداني في مواجهة طالما سعيت لتجنبها.

راح حسن يقفز بحماسٍ متقد كلما وقعت عيناه على لعبة يرغب في صعودها. جسارته وشغفه بالمغامرة حقًا سلاح يشحذه ليغرسه في ضعفي وجرحي.

أمي وقفت في موقعها بين الحذر والتشجيع، وصوتها يلحّ عليّ بخوض تجربة آمنة لا تثير الذعر، أما أنا.. فكنت عصفورًا صغيرًا يرتجف في قفص مفتوح، يملك حرية الطيران لكنه يهاب الفضاء، ولأضع حدًا أمام الإلحاح المزعج من الجميع، اخترت لعبة واهنة لا تهدد شجاعتي..

مجرد لعبة على شكل سيارةٍ صفراء صغيرة تتهادى بلطف بين الأمام والخلف، مصممة لأولئك الذين لم يتجاوزوا عتبة الخامسة من عمرهم..تمامًا كما لو كنتُ أخشى أن أخطو خطوة واحدة خارج طفولتي المبكرة.

اقترب أبي مني وعيناه تومضان بالغضب..

أمسك يدي بقوة لا تقبل الرفض وسحبني رغمًا عني ليجلسني بجوار حسن

في لعبة أشبه بإعصار جامح، ترتفع نحو الأعلى ثم تهوي بسرعة وتلقي براكبيها في فم الفراغ.

جلس بجانبنا محاولًا طمأنتي رغم أن اللعبة كانت مخصصة للصغار، لا للكبار.

لكن خوفي كان غولًا ضاريًا لا تهدئه كلماته ولا يروّضه قربه..

قبل كل شيء بدأ قلبي يقرع ضلوعي كطبول حرب.. واندفعت دموعي كسيلٍ جارف، بينما هو يرمقني بنظرات تحذيرية صارمة ثم جلجل صوته في أذني كالرعد:

- اهدأ!! توقف عن البكاء فورًا.. وإلا سيكون حسابك وخيمًا.

صرت أرتجف بين رهبتين.. رهبة غضبه الذي لا يرحم ورهبة السقوط في هاويةٍ أشعرها تبتلعني وإن فقط نظرت إليها.
انتصر رعبي من المرتفعات فكان أعتى من تهديداته.. أشرس من صوته، أعمق من عينيه.. مزّقتُ قيود مقعدي وفررت من اللعبة قبل أن تبدأ.

كان يؤمن حدّ اليقين بأن خوفي لن يُهزم إلا بالمواجهة، وأن ارتعاشي أمام الألعاب ليس إلا مرضًا يحتاج إلى علاجه القسري، أراد أن يقتلع خوفي من جذوره بيدٍ من حديد لأنه وجد أن الرفق استمر طويلًا دون جدوى.

لم أرضخ لتهديداته طوال وقتنا بقاعة الألعاب.. فتوعدني بالأشد.

بكيتُ طوال طريق العودة في السيارة، وتحولت النزهة إلى عذاب لنا جميعًا.. صوت بكائي، توبيخه المخيف، جدال أمي معه لطريقته الخاطئة في التربية، ولكنه لم يستسلم عند هذا الحد، فعند وصولنا لبيت العائلة لم يسمح لي

بالانصراف لشقتنا مع أمي وأخي، بل جرني خلفه إلى منزلنا الجديد الذي انتهى من بنائه حديثًا.

ارتقى بضع طوبات متراصة قرب السور الأبيض وشدني بعصبية وهو ينهاني عن البكاء، لأرتقي بقربه أعلى سور المنزل وهو يهتف بي:

- تشجع.. انظر حولك، ماذا يخيفك الآن؟ كف عن البكاء!

لم يدرك أنني في تلك اللحظة كنتُ أشبه بالمحتضر، روحي تتقلص بين ضلوعي وقلبي يخفق بجنونٍ كطائر مذعور.

تشبثت بذراعه بكل رعبي وأغمضتُ عيني بإحكام حتى لا أرى الهوة السحيقة تحتنا والمسافة الفاصلة بين ارتفاع السور والأرض.

حين رأى انهياري خفتت نبرته، هدأ كأنما أدرك جنونه، طلب مني أن أسترخي، أن أتنفس بعمق، لكن أنفاسي كانت متقطعة، والهواء نفسه قد تخلى عني.

في خضم هلعي، أخرج هاتفه من جيبه وكأننا في نزهة عادية.. ولسنا معلقين بين الأرض والسماء.. أمرني بحزم: « ابتسم»

وقبل أن أفهم كيف يُمكن للابتسامة أن تزهر في مأتم كهذا! كان قد التقط الصورة. ظهرتُ فيها بملامح جنائزية لاتصفها أي كلمات.

لم تمضِ سوى لحظات حتى اهتز هاتفه باتصال غاضب من أمي، لم تحتج إلى تفسير، كانت الصورة وحدها كفيلة بإشعال قلقها، فنزلنا بسلامٍ شملنا الله به رغم كل شيء.. لكن السلام الحقيقي لم يكن في انتظارنا..

****

عند عودتنا لبيت العائلة استقبلتنا أمي وجدتي بعاصفة من التقريع، حفلة شجار استحقت كل ما فيها، ارتميتُ في حضن جدتي الدافئ وقد تحول خوفي إلى غضبٍ وتعاسة، راحت تضمني بكل ما أوتيت من قوة وكأنها تخفيني عن وحشيته، شعرت بها تستعر كاللهب، وأصابعها ترتعش على ظهري، توبّخه بحدة:

- ما الذي دهاك؟! ما هذا التهور؟ أيّ أبٍ يتصرف بهذه الحماقة!

لم يتحمل الإهانة، خاصة أمامنا. قال مكابرًا يجاهد في كتم غيظه:

- كُفّي عن تدليله، أنتِ السبب في شخصيته المهزوزة هذه.

لم تحتمل اتهاماته في حقها، وبطبيعتها الحساسة المفرطة، جزعت وبدأت تصرخ، وتلوم فشلها في تربيته. تفاجأ لهذا المنحنى من الإساءة أن يصل حد تربيته!!

ازداد سعيرًا وأدرك أنه لا يستطيع مجابهة ردودها ومبالغتها المستفزة، ولا يرغب في أن يثقل جرحها أكثر.

فاستدار ناحية أمي، علّه يجد في لومها متنفسًا لانفعاله المتأجج:

- لماذا تبوحين بخصوصيتنا وتشتكينني للآخرين؟!

لم يدرك أنه تاه أكثر بكلمته الأخيرة، فزادت من نزف جدتي، حسبتها طعنةً أخرى أشد وطئًا، فارتجف صوتها مذهولًا بوجع، واندفعت تردد مستنكرة:

- أنا الآخرين؟! هل أصبحتُ غريبة الآن؟ أنا من ربيتك.. أنا من أطعمتك ..

استمرت جدتي في ذكر أفضالها عليه صغيرًا وكأنها تندب نفسها.

ART_OF_BOOK

ولسوء حظه لم تكن ردود فعل أمي متوقعة، فتارة تبتلع الغضب وتارة تنفجر بغير هدىً، وفي هذه المرة حملت جمرة مشتعلة وألقتها في لب الجدال، لتزيد النار أوارًا:

- تسميها خصوصيات؟! أتلقي بابني إلى التهلكة.. وتظن أنني سألوذ بالصمت؟!

لن أخفي .. شعرتُ بشيءٍ من الطمأنينة وسط هذا اللهيب، كلمات أمي بدت كسورٍ يحيطني ويمنحني إحساسًا بالانتماء والأمان، ودفاعها النادر عني خفف من غلّي تجاه والدي، لكن هذا الأخير لم يتراجع أمام عاصفتها محرجًا، فردّ بصرامة وهو يشير بسبابته:

- لا ترفعي صوتكِ

ردت وكأنها توجه له صفعة أمام والدته:«وأنتَ لا ترفع صوتك! احترِم..تُحترَم»

في هذه اللحظة شعر أنه محاصرٌ بين إهانات هاتين المرأتين، عاجزٌ عن لملمة كبريائه، فاشتد به الغضب واستدار خارجًا، صفق الباب خلفه بعنفٍ حتى كاد يحطمه.

هي المرة الأولى التي أشهد فيها شجاره مع أمي خارج نطاق أسرتنا الصغيرة وتحت سقفٍ آخر، فقدسية العلاقة الزوجية بالنسبة له كانت فوق كل اعتبار ولا يمكن استعراض خفاياها بأي شكل، بل سرًا مصونًا حتى عن والدته رغم أننا نتقاسم معها البيت نفسه.

لم يكن يعلم.. أنني كنتُ النافذة التي تتسلل منها تلك الخصوصية، اللسان الذي ينقل كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل حياتنا إلى أذن جدتي. لم تكن مجرد

مستمعة بل كاتمة خبيرة للأسرار، تحفظها كما يحفظ البحر أسراره في أعماقه دون أن يبوح بها لأمواجه التي تعانقه.

هدأتُ وبدأت أضغط على يد جدتي المتهدجة أواسي قلبها المكسور.. لخيبة لم تتوقعها من ابنها الذي طالما اعتادت برّه وحساب كلماته قبل أن ينطق بها.

سعت أمي لتهدئتها وبدلًا من أن تستكين أدارت غضبها نحو أمي بعدما وجدت فيها شماعة لتخفف عن ذاتها هذا الوجع.

وقالت بحرقة: «أنا متأكدة أنكِ من تبثين الأفكار السامة عني في عقل ولدي! وإلا كيف له أن يصفني بالغريبة، ويلقي عليّ كل الأمور السيئة!»

تفاجأت أمي من ردة الفعل هذه، وكأنها تلقت هجمة مرتدة لم تكن تتوقعها. ارتفع حاجباها دهشة، لترد بانفعال:

- أمطرتِه بكل تلك الإهانات، ثم تلومينني إن غضب منكِ؟

- أين احترامك لزوجك! ترفعين صوتك هكذا في وجهه!! أعانه الله على سوء أخلاقك!

قالت جملتها الأخيرة مستنكرة، متناسية ألمها للحظة وهي تستدرك سوء حظ ابنها.أدركت أمي عبثية الجدال فصعدتْ إلى الشقة منهيةً النقاش قبل أن يحتدم أكثر. أما أنا، فبقيت في حضن جدتي، تمسد شعري بأناملها المرتجفة، وتدمدم بعبارات حانقة عن والدتي بلا توقف، بينما رحت أتأرجح بين ذكريات اللحظة المرعبة على سور المنزل، وأرتعش مرة أخرى وأدرك أن خوفي من المرتفعات لم يُهزم..

بل تضاعف، كغولٍ أكثر رعبًا، لا ينفك عن مطاردتي.

٤

(ليلى) والحب

لن أطيل حديثي لكَ عن أسرتي الأولى، أسرة أم زبانية!! بيتٌ أم جحيم!! حكايتي لا تختلف عن حكاية (ساندريلا) وعن كثر ممن فقدوا والدتهم في سنٍ مبكر..

كنتُ أنا وأختي الكبرى (سعاد) من أولئك المنكوبين..

فقدتُ أمي قبل أن أعرف معنى الأم، قُذفنا تحت قدمي زوجة أبٍ لا تخشى الله، فسلبتْ منا حتى ظلال الأب رغم وجوده، فكان لا يأتمر إلا بأمرها ولا ينتهي إلا بنهيها.

ببضعة أعوامٍ سبقتني أختي باجتياح القفص الذهبي، وولت إلى جنةٍ غناء قريرة العين هانئة مع زوجٍ أحاطها بحبٍ وحنانٍ وأنبت أزهار الحياة بين نواجذها.

وكنتُ أنا في المحطة التالية، رغم أني قد ارتدت الجامعة حديثًا إلا أن الطالبين كانوا يحتشدون أمام الباب منذ المرحلة الثانوية، فشهرتي ربما لون عيون كانعكاس ضوء الشمس على صفحة البحر، وجسد ممشوق يحمل لمنتصفه شعرًا منسابًا مظلمًا تشوبه حمرة الأصيل.

لم تراودني فكرة الزواج قط، إذ كنتُ منصرفةً بكل جوارحي لتحقيق أحلامي الأكاديمية، أكرّس وقتي للدراسة وحصد أعلى الدرجات، متطلعةً إلى إتمام

دراستي الجامعية بشغفٍ لا يعرف التراجع. ورغم الغضب المستعر والنار التي كانت تلتهم جدران البيت بشراراتٍ توقدها زوجة أبي على الدوام، ظللتُ متمسكة بأهدافي ولم أنصع لضغوطها المتكررة على زواجي، فكنتُ أرفض كل من يطرق الباب طالبًا يدي قبل حتى أن أراه أو أسمع اسمه.
كانت تستعجل طيْ وجودي كأنني عبءٌ ثقيل، حجر عثرة في طريقها، تسعى لإقصائي عن المنزل والاستيلاء على غرفتي لأحد أبنائها.
بل ولم أفكر بالحب إلا في ذلك اليوم..

في خريف ٢٠٠٥م، حين ارتميتُ على الكنبة الخضراء في غرفة المعيشة، أبحث عن فيلمٍ أشاهده. وقد أعددتُ لي كوبًا كبيرًا من القهوة الداكنة، ومنتفخات الذرة مع ألواح متباينة من الشكولاتة التي أعدّها دائمًا طوقًا من السعادة.

لم يكن بالمنزل سواي، بعد أن خرج الجميع إلى استراحة وبقيتُ وحدي أسرح وأمرح أتنفس حريةً لا تضاهى، فمثل هذا الوقت أعده ساعات ذهبية، كطفلةٍ تقفز بمدينة الأحلام بلا قيود، وأمتلك الدنيا حين أمسك بجهاز التحكم وأغير قنوات التلفاز كيفما أشاء..

فالمنزل في الأيام العادية أشبه بساحة معركة، وجوه مكفهرة، أصوات متعالية، وصراع دائم على ملكية جهاز التحكم، والذي غالبًا ما يكون تحت إمرة إخوتي لأبي أو والدتهم التي كنتُ أسميها سرًا بيني وبين نفسي(الساحرة)، بالطبع ساحرة الشر لا الخير.

تلاشى حماسي للحظة كما يتبدد الدخان.. فقد كانت قنوات التلفاز جميعها خارج الخدمة. نقرتُ جوانبه الضخمة بقلق، وراحت يداي تعبثان بالأجهزة المحيطة به كأني أنعش قلبًا توقف. وفي غمرة انشغالي، فاجأني رنين الهاتف

ART_OF_BOOK

الرمادي المركون على طاولة خشبية قرب التلفاز.

مددت يدي ورفعت السماعة وأنا أعبث بالسلك المتلوّي منها بين أصابعي:

- نعم أبي؟
- سيأتي عمال الساتلايت.. نسيت الأمر تمامًا.. افتحي لهم الباب، ثم عودي إلى غرفتك وتأكدي من إغلاقها بإحكام.

تأففتُ من هذا العطل الذي جاء في أسوأ توقيت، وقبل أن أنسحب إلى غرفتي دوّى جرس الباب.

ارتديتُ خمارًا طويلاً ساترًا على عجل وأسرعت نحوه.

كنتُ أتهيأ لاستقبال عمال آسيويين، لكن المفاجأة كانت.. شابًا بهي الطلة، يستند على سيارة صغيرة بيضاء، تتصاعد من نوافذها أنغام صاخبة تلوّن الهواء من حوله. تنسدل بعض خصلاته الناعمة من تحت قبعته السوداء على جبينه. وقف مستقيمًا حين رآني ثم اقترب بخطى واثقة وخفّض نظارته الشمسية على أنفه ليتحقق من ملامحي.. لم تخف عليّ ومضة الانبهار؛ إذ ظلّ متسمّرًا وتمتم بشيء لم أفهمه، كأنه خارج التغطية.. حرفيًا وعاطفيًا:

- ألماسٌ حقيقي أم مزيف؟

عقدت حاجبيّ مستفهمة: «ماذا؟»

استدرك مبتسمًا وأعاد نظاراته على عينيه:

- أعتذر.. لقد أحضرتُ العامل لتركيب جهاز الساتلايت الجديد..

فهمتُ بعد هنيهة مغزى سؤاله، فقد اعتدت أن تكون عيوني الملونة مثار

دهشة وتساؤل أينما حل بريقهما، كان الأمر مألوفًا، إلا أن وقع سؤاله هذه المرة حمل شيئًا مختلفًا، ربما لحضوره ونظراته المباشرة والجريئة!

جمعتُ شتات شجاعتي وقلتُ بصوتٍ خافتٍ كهمس النسيم، ألوّن خجلي ببعض المرح المرتبك:

- إنهما عيناي الحقيقيتان، بلا زيف، ولا عدسات لاصقة.

لم أجرؤ على رفع طرفي ناحيته، فلم أشهد انفعاله، سواء أكان إعجابًا أو مجرد فضول.

سارعت بخطواتي مُفسحةً له الطريق نحو السلم. صعد العامل إلى السطح وكنت سأنصرف لغرفتي فإذا بالشاب يستطرد كمن استشعر تجاوبًا من عبارتي:

- أنا صاحب العمل، لدي محل صغير تخيلي رغم صغر سني..

لم أتمكن من النظر له حياءً، بل أشحت ووضعتُ أصابعي على شفتي أكتم ضحكتي؛ يحكي لي قصة حياته، رغم أنني لم أسأله شيئًا!

كان خفيف الظل بطريقته الخاصة .. عيناه لا تبارحان وجهي، ربما باغته جمالي على حين غرة، فأوقعه في شباك الإعجاب.

استدرتُ منصرفة، فإذا برنين هاتف المنزل يقطع اللحظة، فأسرعتُ لالتقاط السماعة:

- أهلًا أبي، نعم، إنهم هنا.. سأعود الآن إلى غرفتي.

ما إن أغلقتُ السماعة حتى لمحتُ الشاب يصغي إلى حديثي بتركيز، وقد

ارتسمتْ على ملامحه أمارات السعادة، وأمانيه كأنها بدأت تخطو أولى خطواتها نحو التحقق.ابتسامته العريضة كشفت غمازته في خده الأيمن وسأل:

- إذن هذا منزل والدك؟ لستِ مرتبطة، صحيح؟

عواصف هبّت داخلي لم أدرِ كيف أجيب، لكنني تماسكت وهززتُ رأسي نفيًا، والورد يوشّح وجنتيّ. أسرعتُ نحو غرفتي في الطابق الأول، وهو يصعد خلفي ببطءٍ ينوي متابعة عامل الساتلايت الذي توجه قبله إلى سطح المنزل.

وقبل أن أبلغ باب غرفتي، وصلني صوته خافتًا:

- ما اسمكِ؟

قلتُ قبل إغلاق الباب وأنا مطرقة: (ليلى)..

استندتُ على الباب أتنفس بسرعة ثم ارتميت على السرير ضاحكة، لا أدري لِمَ شعرتُ أن نبضاتي تقرع آذاني، وما الذي أصابني! كُثُر انهالوا لخطبتي، ورفضتهم دون تفكير، فهل لفتني حضوره وجرأته!

أم أن هذه مجرد طبيعة فطرية لفتاة لم ترفع طرفها قط لشابٍ يلاطفها بصورة مباشرة؟ أو هو فضولٌ يجذبني لاجتياح هذا العالم الغامض الذي لم أطرقه بعد!

بعد لحظات سمعتُ صوتًا بالطرف السفلي للباب، قفزتُ من سريري مستطلعة، فوجدتُ ورقةً صفراء صغيرة كُتب فيها:

«لاح طيف الحبْ وامتدت يداه .. و تسامى دافقا فيض عطاه

حائمًا ما بين قلبي فاعتلاه .. هاتفًا هذا لجينٌ أم خلاه!

رجوتِ لا تبخلي عليّ برقم هاتفك أو بريدك الالكتروني)»

تأملتُ الورقة الصفراء بلونها الفاقع الذي يسرّ الناظرين، أمسكتها بأنامل مرتعشة. ارتميتُ على السرير تارةً أخرى وأنا أعيد قراءتها مراتٍ عدة وقد راودني شعورٌ بأن هذا الشاب مميز! أضحكني اندفاعه في التعبير عن إعجابه بالشعر والأدب.

نهضتُ متجاسرة على اجتياح مغامرة من هذا النوع للمرة الأولى، فكتبتُ بريدي الإلكتروني على قصاصة زهرية تُشبهني، طويتها ونهضتُ لأفتح الباب..

لم أجرؤ، حاولتُ مرارًا أن أمسك بمقبض الباب وأسلمه القصاصة ولكن دون جدوى.

أدبرتُ عائدةً إلى جهازي «المسجل الصغير»، كم كنت متعلقة به! لونه أسود بحجم الكف تقريبًا، لا أظنك ستجد له مثيلًا اليوم! فتحتُ بابه الصغير وأدخلت شريط الغناء الذي أهوى، كانت أغاني الغرام تصدح بأرجائي، تشجعني وتحفزني على فتح الباب وتسليم الورقة..

استجمعتُ قوتي وقد أسكرتني الأغنية بشجنها، وما إن أمسكت مقبض الباب، حتى باغتني صوت أبي الجهوري وهو يتحدث أثناء صعوده السلم.

تراجعتُ متوجسة، أحمد الله في سري مئة مرة لأنني لم أفتح الباب..

****

في اليوم التالي، استيقظتُ وأنا أحلق بأجنحة النشاط، حماسٌ يتدفق بأوصالي، كلما غازلني طيف الأمس، ارتديتُ خماري وعباءتي المحتشمة وحملتُ ملفاتي الجامعية وأنا أسرع خطاي قبل أن تفوتني الحافلة، كنتُ قد وصلت للمحطة في اللحظات الأخيرة وكل الطلاب قد وفدوا بالداخل.

دخلتُ بسرعة والحافلة بدأت تسير فور صعودي وقبل أن أجد لي مقعدًا، كدتُ أن أهوِي أرضًا.. لولا أن امتدت يدي بعفوية تستند إلى كتفٍ قريب، صرختُ بالسائق أستنكر تهوره واستعجاله، ولم أدرك حتى تلك اللحظة أن يدي كانت لا تزال مستقرّة على كتف أحدهم..

ذلك الكتف كان.. كتفكَ أنتَ!

تجمّدتُ مكاني حين أدرتَ وجهكَ إليّ مبتسمًا.

وبكل هدوء سألتَني: «هل أنتِ بخير؟»

سحبتُ يدي سريعًا وهززتُ رأسي وأنا أعتذر منك، كانت المرة الأولى التي ألحظ وجودكَ بالحافلة رغم مرور أكثر من شهرين على التحاقي بالجامعة، وسرعان ما غبتَ عن ذهني، وامتحتْ مرة أخرى صورتك من ذاكرتي..

ولكنكَ كنتَ مصرًا على أن أراك بقلبي أو بعيني على الأقل..

ففي ذلك النهار وبعد أن تناولت مع صديقاتي وجبة الإفطار في استراحة الجامعة، انطلقتُ نحو خزانتي لأضع بعض حاجياتي وكتبي، وإذا بي أرى رسالةً مطوية ببطن الخزانة، تعجبتُ وخالجني الحماس لأفتحها، أتكون من شاب (الساتلايت) ذي الغمازة؟! ولكن لم يسبق أن رأيته معنا بالكلية، فتحتُ الرسالة وكانت الصدمة! إنها منكَ أنت!

عندما قرأتُ اسمك بدايةً لم أستطع تذكر من تكون، ولكنك ذيلت الرسالة بعبارة (كما استندتِ اليوم على كتفي، أتمنى أن أكون لكِ السند طوال عمري).

اجتاحتني موجة ضحك عارمة، فلم أكن أصدق ما يحدث! (اعذرني لوقاحتي)

ولكن أيعقل أن أنتبه لشابٍ بدا وكأنه خرج من أرشيف النكات القديمة!!

كان جسدكَ أشبه بقلم الرصاص، نحيل جدًا وطويل جدًا كظل شجرةٍ أبانَ الشروق، ذقن حليقٌ تمامًا وبلا شارب، أما الملابس فحكاية أخرى تمامًا، فضفاضة إلى درجة أنك تكاد تختفي داخلها، ألوانها وطرازها القديم يصرخ بانتمائها إلى زمن غابر، ربما قبل عقدين أو أكثر، والشعر قد امتلأ بأطنان من الزيت ويصل لمنتصف قفاك.

انتبهتُ لصديقتي وقد جاءت تسألني عن سبب هذا الضحك، فعرضتُ رسالتكَ لسخرية عينيها لكنها بدت أقل تنمرًا مني حين قالت:

- أشفقتُ عليه، ولكن أتعلمين؟ إنه ذكي! ألم تلاحظي أنه الأكثر تفاعلًا مع الأستاذ في مقرر الإحصاء؟

لملمتُ آخر قهقهتي وأنا أغلق خزانتي وأردفتُ:

- بصراحة لم أكن أعلم حتى بوجوده معنا في مقرر الإحصاء.

دخلتُ وصديقتي لقاعة المحاضرة ونحن نثرثر بصخب عفوي، وإذا بكَ تدخل القاعة بعدنا وألاحظك للمرة الأولى. طالعتَني من خلف نظاراتك الكبيرة بتوتر وحياء وجلستَ غير بعيدٍ عن مجموعتنا، تبادلتُ مع صديقتي اللمز والغمز وضحكاتٍ في خفوت، قبل أن يسود الصمت مع دخول الأستاذ.

كان ضوء النهار يتسلل عبر النوافذ العالية، مكسوًا بهالةٍ من الهدوء الأكاديمي، ويكشف هذا الضوء نظراتك المسروقة نحوي، ترمقني كل حين وكأنك غارقٌ في تفاصيل وجودي وغائب الوعي عن الأسئلة السابرة التي يطرحها أستاذ المادة، ولكنك كنتَ تجيب عن أعقد المسائل سريعًا ودون تفكير أو تردد،

براعت الفائقة أشبه بلغزٍ مثير..

لغز جعلني.. لأول مرة، أنظر إليكَ بعدم استخفاف.

وما إن انتهت المحاضرة وخرجنا تبعتنا تحاول اقتناص فرصة أكون فيها وحدي، ولم تحظ بتلك الفرصة إلا بعد أن انتهت كل محاضراتي ومضت صديقتي إلى سيارتها الخاصة الجديدة

بينما يتوجب عليّ انتظار موعد وصول الحافلة وحدي اليوم.

ولألتهم ساعات الانتظار ذهبت لمركز مصادر التعلم بالجامعة لأول مرة، فعلاقتي بالكتب ليست حميمة ولكنني أغرمتُ حقًا بهذا الصرح الشاهق..

شعرت أنني وطئت أرضًا مقدسة، تشع منها أريج الهيبة والعظمة، بارتفاع يلامس حدود الخيال، وأسقفها البيضاء مزينة بنقوش تألق في رونقها بديعة تحاكي عراقة الزمن..

الرفوف امتدت كمتاهة بلا نهاية، خطرتُ بين زواياها وأقسامها أتأمل تلك الرفوف وهي تحمل على أكتافها عوالم الفلسفة والمعرفة. عالمٌ متكامل يعد كل من يدخله -وإن كان لا يهوى القراءة مثلي- برحلة لا تنتهي في دروب الفكر والارتقاء بالذات.

مررتُ بأرفف الكتب أتأملها وأغازل عناوينها علها تجتاح قلبي وأغرم بها كما يغرم بها الآخرون.. ولأن مشاعر الأمس لازالت حاضرة وتختلج في صدري، وصورة شاب الساتلايت مع قصيدته تراودني

قصدت زاوية الكتب الأدبية ورحت أبحث عن كتب الشعر، وفي لجة استغراقي أثناء البحث، باغتني صوت خافت:

هل أنتِ بحاجة للمساعدة؟

انتبهتُ وإذا به أنتَ.. مرةً أخرى!

خلف خزانة الكتب من الجهة المقابلة، لا يظهر منك سوى ملامح مشتتة بين الرفوف، في الحقيقة لم أرغب في صدك، فقلتُ متداركة لأستغل الفرصة وأسدي لنفسي معروفًا: «هل تعني في مادة الإحصاء؟»

ضحكتَ بسعادة وكأنك ملكت الدنيا وبانت أسنانك اللؤلؤية المرصوصة في فمك الصغير. أخال تلك الأسنان من الأمور القليلة التي لم تتغير بك حتى الآن:

- مساعدتي لكِ.. فضلٌ علي.

شكرتك، فأنا رغم تفوقي لستُ مولعة بالرياضيات، تبادلنا أحاديثنا ونحن نستتر بالكتب، كلٌ في طرف وجهة أخرى من الخزانة، وانصرم الوقت سريعًا، ومضينا تباعًا للحافلة التي جمعتنا صباحًا، كنتَ تسير خلفي بخطواتٍ قليلة، وما إن اقتربنا قليلًا من الحافلة حتى ندهتَ عليّ بلطف: «من فضلك..»

استدرتُ نحوك وأنا أتلفتُ حولي، أنبهك خلسة للحذر من الأعين المتربصة، فاستدركتَ في ارتباك:

- لن أطيل، فقط أردتُ أن أخبركِ أنني وضعتُ رسالةً في خزانتك.

تعمدتُ إظهار علامات الدهشة وغياب العلم لعدم امتلاكي الشجاعة الكافية لأن أعلن رفضي وأنا أنظر لكَ مباشرة، ورغبتُ كذلك في الاستفادة من دعمك في مادة الإحصاء، فوعدتك بأنني سأطلع عليها في اليوم التالي..

كنتَ سعيدًا وقد نفضتَ عبء إخباري بموضوع الرسالة عن قلبك

العاشق وكأنك تنفض جبلًا لتظهر لي ما أثمر تحته من بساتين الغرام.

وكانت المفاجأة الأخرى بانتظاري بعد ترجلي من الحافلة..

فبينما أسير بخطواتٍ متعبة بعد قضاء يوم طويل في الجامعة، كان شاب (الساتلايت) يستند على أحد جدران منزل الجيران المقابل لمنزلنا، مرتديًا نظاراته السوداء التي حجبت معظم وجهه وقبعته السوداء المعتادة، وبدا واضحًا أنه يترقب خروجي أو دخولي للمنزل..

اعتدل في وقوفه وهو يلوك لبانه، وقد انشقت نواجذه عن ابتسامة راقصة ما إن رآني أقترب.

خفق قلبي بقوة، تلفتُ يمنة ويسرة وللوراء وإذا بي أراكَ تسير خلفي على بعد أمتارٍ معدودة، ازداد صراخ قلبي خوفًا من الفضيحة، بل غشاني الرعب.. فأسرعتُ الخطى وفتحتُ باب المنزل ليبتلعني.

صعدتُ إلى غرفتي ركضًا وأنا التي قبل قليل لم أكن أقوى على رفع قدمي، فتحتُ ستائر غرفتي المطلة على الشارع بحذر، ورحتُ أرصُدكما..

رأيتكَ تحلّق لا تمشي، هالةٌ من الفرح تشع منك. وكان جليًا أنك تعرف تمامًا أن هذا هو منزلي، إذ لم تلقِ نحوه نظرة واحدة.

مضيتَ إلى داخل القرية بخطى واثقة، فاكتشفتُ في تلك اللحظة فقط أنكَ تسكن في الجوار.

أما شاب (الساتلايت) فقد ظل يحدق من خلف نظاراته السوداء في جميع نوافذ المنزل وكأنه يعلم أنني أتوارى خلف إحداها. ضحكتُ حتى أخرجني صوت أخي المزعج مع طرقات الباب:

- أمي تقول أسرعي..الأولى بانتظارك.

نفضتُ الستارة من أصابعي وأنا أتأفف كعادتي، وإذا بشاب (الساتلايت) يومئ إليّ من بعيد من خلال حركات يديه، وجمتُ ولم أحرك ساكنًا وأنا أنظر إليه خشية أن يراه أحد.

كان يطلب رقم هاتفي، ولكن في ذلك الوقت لم يكن الهاتف الجوال رائجًا، فلا تستلم الفتاة هاتفًا جوالًا إلا إذا بدأت في قيادة السيارة، وذلك حلمٌ بعيدٌ عليّ. فهززتُ رأسي نافيةً امتلاكي لهاتفٍ خاص، فأومأ بأصابعه كمن يكتب في الهواء، فهمتُ أنه يريد بريدي الالكتروني.

أسرعتُ نحو البطاقة الزهرية التي كتبتها سلفًا وقمتُ بطيّها مصممة طائرةً ورقية صغيرة، وفتحتُ النافذة بيدٍ ترتعش وأطلقتُها نحوه، ورحت أتابعها بكل ترقب وهي تهوي في وسط الشارع..

انطلق مسرعًا وخطفها من الأرض وأخفاها بسرعة في جيبه، وكأني بغمازته المميزة تشع من بعيد.

أشرتُ بيدي أن اذهب، وتواريت خلف الستارة وارتسمت ابتسامة عجزت عن كبحها، وتحولت ضحكاتي المكتومة إلى موسيقى سرية تعزفها روحٌ متشوقة للمجهول.

وإذا بصوت أخي يطرق مسامعي ويوقظني من سكرتي مرة أخرى.

لبيته مستسلمة لأوامر تلك (الساحرة)..فعوضًا عن استقبالي بكأس عصير يتعرق بالبرودة، ومائدة شهية بعد ساعات الدراسة الطويلة جدًا بالجامعة، يتم استقبالي بالأعباء المنزلية، وهذا روتيني اليومي.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

٥
حب مشروط

كنتُ تفصيلًا صغيرًا، نوتة عابرة وربما تالفة في سمفونية أسرتي النرجسية..

نعم، أسرة نرجسية.

كثيرًا ما سمعتُ أمي تصف أبي بالنرجسي، لأنه نادرًا ما يتحدث أو يعبّر عن مشاعره تجاهها.. وكنتُ من منظاري الصغير أراها أشد نرجسيةً منه تُغدق عليه وعلى حسن من نبع حبها.. لكنها تشحّ عليّ وكأن النبع يجفّ قبل أن يصل إليّ..

كنتُ أراقبهما مثل عصفور صغير يراقب صقورًا ضخمة غاضبة على الدوام لا يفهم لم هذه الأعين معقودة بلا نهاية ولا مدى.. أبي وأمي، تلك الثنائية التي بدت لي كمرآتين متقابلتين تعكسان صورتيهما في تحدٍ سرمدي.

كانت تلك الابتسامة الدائمة المنقوشة على شفتي درعًا يواري تمزقي الداخلي وقناعًا خلفه تتأجج زوابع الخوف والقلق.. بل قيدًا يحاصر ضعفي ويمنعني من الانهيار أمام كل ذي جبروت.. هي إحدى أبوابي الساحرة لاجتياح قلوب الآخرين وحبهم، وذاتها أحد أسباب انزعاج والديَّ مني.. ومصدر ضيقهما وسخطهما علي.

بل لا شيء مما يبدر مني يعجبهما

فلطالما نبهتني والدتي(كن جادًا أكثر .. لا تبتسم في كل وقت كالأبله)

ART_OF_BOOK

وتوبيخ والدي المتكرر: (متى تكون صلبًا رجلًا وتتمتع بصفات الرجولة؟! أكره أن أراك كالجيلاتين.)

لا أصدّق أحيانًا أنهما يحاوراني بلطف!

ظللتُ أشعر أن حبهما مشروط.. مشروط بمدى اعتزازهما بي أمام الآخرين، وكأن قيمتي تُقاس بمدى ملاءمتي لصورتهما المثالية، لا بما أكونه حقًا! وما هكذا يجب أن يُقاس حب الآباء!

ومع ذلك.. كنتُ أساير هذا المقياس المجحف! وأُجبر نفسي أحيانًا على تجاوز حدود قدراتي، علّي أحظى بشيءٍ من الرضا.. بشيءٍ يشبه الفخر.

من بين محاولاتي.. كانت تلك الفرصة التي بدت لي ثمينة لأُظهر لهما ما يمكن أن يفخرا به، تحديدًا بعد أيام من موجة الشجار الثلاثي بينهما وبين جدتي.

استمرّ الخصام بينهم جميعًا وأعرض أبي عن رؤية والدته بعدما خدشت كرامته بكلماتها الجارحة.. وربما هي المرة الأولى التي يقاطعها مما زاد من استيائه وعصبيته.

أنا كعادتي أراقب تلك العلاقات المتشابكة، أتصفّح صمتها وضجيجها، وأهتمّ بتفاصيلها عن كثب، فهؤلاء الثلاثة أهمّ ركائز في حياتي.. لا أكفّ عن تأملهم ولا أملّ من رصد تفاعلاتهم.. وكأنني أخشى أن تنفلت من أحدهم شظيّة لاسعة تمسّني في أيّ لحظة.. فأفقد أماني المتأرجح بلا ثبات.

أما حسن فكان على النقيض تمامًا.. لا يُبالي بشيء، وكأن ما يُثقل الأجواء مجرّد غيم صيفيّ بلا قيمة.. لا يمسّه. يمضي يومه بثقة طفلٍ يعلم يقينًا أنه في أمان وأن العاصفة مهما اشتدّت لن تطاله.

ومع كل هذا التوتر تشاركنا الحماس لهذا اليوم الاستثنائي «عيد الأم»..

تبضّعنا الهدايا البسيطة لمعلماتنا برفقة أمي وكان لي طلب خاص منها.. بعد أن كانت تدرب حسن على إلقاء كلمة لمعلمته، تمنيتُ أن ألقي أنا أيضًا كلمة أمام الزملاء لمعلمتي، علي بذلك أبزغ في عينيها وفي عيني أبي

كنتُ سعيدًا جدًا لتمكني من ترديد الكلمة القصيرة التي حفظتها بصعوبة بعد تدريباتٍ مكثفة ومليئة بالمشاحنات معها

في لحظة وقوفي بصدر الصف أستعرض الكلمة المرتبكة، توحّدت كل ألوان الدنيا على وجهي ولم يكن ذلك خفيًا على أحد! لم أجرؤ على رفع بصري عن الورقة المرتعشة في يدي، لا لأقرأ منها.. بل لأحتمي خلفها فقط.

كانت العيون كلها عليّ.. تلتهمني بنظراتها المتحفّزة، وها هي كاميرا الهاتف التي تحملها المعلمة تزيد من ارتباكي وتلعثمي، وما إن انتهيتُ حتى عانقتني المعلمة بسعادة غامرة وهي تقول:

- شكرًا يا يوسف، أسعدتني كلماتك وإلقاؤك الجميل.

انتحيتُ مقعدي بصعوبة والخجل يفتكُ بي وثناء المعلمة يثقل كاهلي وكأنني عاجزٌ عن حمل كل هذا القدر من سعادةٍ لم أعتدها.. فغدت خطواتي بطيئة زاحفة.. وبدا مقعدي بعيدًا لا أكاد أصله لأرتمي عليه وأغيب فيه عن عيون الزملاء ونظراتهم المعجبة بما قدمت.. خاصةً بعد ثناء المعلمة على أدائي.

رحتُ أعدّ الدقائق والثواني بشوقٍ.. مترقبًا لحظة عودتي إلى المنزل، متلهفًا لارتشاف فرحة أمي وأبي بمقطع الفيديو الذي تم التقاطه لي كأول إنجازٍ مدرسي أفخر به.

ما إن توقفت الحافلة حتى قفزتُ منها، أطلق ساقي للريح متسابقًا مع حسن، لا لأصل أولًا فحسب، بل لأخبر الجميع بإنجازي الذي لن تكتمل فرحته بقلبي إلا بمشاركتهم.

رويتُ أولًا لجدتي أدق التفاصيل وحتى تعليقات الزملاء واحدًا تلو الآخر، تسبقني ضحكتي قبل كلماتي كعادتي، فيما هي تنصت إليّ باهتمام لم أعرفه يومًا من والديّ، وعيناها تغزلان الدفء فيّ، بينما يدها التي تحرك الملعقة الخشبية في القدر المعدني الكبير، تنسج بين البخار المتصاعد لمسات حنانٍ تشعرني بالأمان.

حين صمتُ لالتقاط أنفاسي. سألتني بصوتٍ خفيض لا يخلو من الفضول:

— كيف حال والديك؟

ببراءة أجبتها دون تفكير: «بخير.»

— ألا يزالان متخاصمين!

هززت رأسي إيجابًا وقبل أن تتمكن من نبش المزيد من أسرارنا، لمحتُ عقارب الساعة تتقدم معلنةً موعد عودة أمي من عملها.

خرجت من المطبخ، خطفت حقيبتي ثم انطلقتُ بسرعة أتحدى جسدي الممتلئ. صعدت السلم وأنا لا أنفك عن منافسة حسن اللاهي أمام التلفاز، يستغرق في المشاهدة بكل برود.

أتعجب كيف لا يختلج فيه الحماس كالذي يشتعل بأوصالي!

صحت مندفعًا: «حسن.. سأهزمك..»

ART_OF_BOOK

تناقلت حركته ونهوضه تحت وطأة التعب الذي خلفه يومه الدراسي الطويل، وتزامن اندفاعي عبر الباب الداخلي للشقة مع دخول أمي من الباب الخارجي، فسارعتُ للارتماء في حضنها ورصد وقع إنجازي عليها، فبادرتُ مناديًا:

- هل أرسلت المعلمة الفيديو؟ هل شاهدتني ماما؟

ابتسمتْ وشجعتني باقتضاب وهي تطبطب على ظهري: «نعم، كنتَ جيدًا.. أما أنت يا حسن، كنتَ سالبًا للألباب كعادتك.»

قالت جملتها الأخيرة وهي تفتح ذراعيها لحسن تعانقه بحبٍ جارف، بالطبع فلابد أن يقوم حسن بإلقاء الكلمة بإبداعٍ مغاير. ولكنني كنت سعيدًا بما قدمته، ولم ينطفئ حماسي بل صرت أنتظر عودة أبي من العمل ليشاهد الفيديو، وما إن سمعت صوت الباب يفتح وأصوات المفاتيح تتلاطم كالمعتاد، أدركت عودته..

قفزت نحوه وكلي خجل وحماس بآن واحد وأنا أنده أمي لتريه إنجازي ومجدي.

ارتمى أبي على الكنبة الوثيرة وأمسك بالهاتف يشاهد شاشته بكل تركيز وجدية.. وأنا أتمعن قسمات وجهه والتوتر قد التهمني، نبضات قلبي تتصارع دون توقف.. فإذا بغضبه قد تفجر في وجهي:

- ألا تجيد المشي؟ تزحف بقدميك زحفًا؟

رمى بهاتف أمي بمنتهى العصبية على المقعد.. ثم نهض يشتم ويلعن كل من في البيت..

فبدأت أبكي بصمت خوفًا وإحباطًا، أسرعت أمي والتقطت هاتفها وهي مستاءة من تصرفه وفوران أعصابه المباغت!

ولكنها لم تسع لتهدئتي فهذا مشهدٌ مألوف يتكرر كل يوم تقريبًا فلا جديد، وهمّت بإعداد المائدة في ضيق ودعت الجميع لتناول الغداء، وقد يكون ضيقها وتجهمها أكثر عائدًا لسقوط هاتفها.. وليس لسقوط قلبي!!

هويتُ في قوقعة الحزن والبؤس وامتلأت معدتي كمدًا، وعزفتُ عن التحلق حول المائدة معهم..

كيف ذبحوا فرحتي وأحالوها إلى غصةٍ بحلقي!

وامتدتْ دموعي كنهرٍ يتلوى على وجناتٍ اعتادت هذا الجريان. وما هي إلا دقائق حتى سمعتُ صوت أبي يناديني لأشاركهم الطعام ويصر بكل الطرق وكأنه بذلك يعتذر عم بدر منه.

مسحتُ دموعي وجلستُ أتناول الطعام بهدوء والحزن جاثمٌ فوق لقمتي، فبادرني لاجمًا سخطه بعدما أعاد ترتيب أسس التربية السليمة في خاطره، وأردف بهدوء: « ألم أقل لك ألف مرة أن تمشي كعامة الناس؟ لماذا تمشي هكذا نافخًا معدتك بقدمين تزحفان زحفًا؟ وأمام طلاب الصف! هل تريد أن يعايروك؟ أنا أريد مصلحتك»

قلتُ مكابرًا والأسى متسمرٌ بثغري:

- هكذا أنا أمشي .. كنتُ متوترًا .. دائمًا تنتقدونني.

قفز حسن من مقعده بكل صفاقة ليعلمني كيف أمشي ويقول: «انظر يا يوسف، يجب أن ترفع قدميك قليلا عن الأرض لـ...»

ART_OF_BOOK

قاطعته بغضب: «اسكت، أنا أعرف كيف أمشي .. مغرور.»

كنت أريد أن أنقض عليه وأوسعه ضربًا من ضرباتي الواهية التي تخفق أكثر مما تصيب ولكنني أخشى إشعال شجار بوجود أبي، فيكفيني نصيبي اليومي من التوبيخ.

****

بعد أن نهضنا من المائدة تفرقنا في صمت، كلٌ إلى ركنه..

انغمس أبي في مشاهدة مباراة رياضية، وضاق العالم حوله ليصبح شاشة صغيرة أمامه، بينما استسلمت أمي لهاتفها تتشاغل به، وعيناها تلاحقان أبي بصمت.

وجلستُ أنا في زاوية الصالة أرتب ألعابي في محاولة للهروب من واقعي وسط فوضى مشاعري المحبطة.

فجأة كسر حسن الصمت بوقوفه أمام والدتي ليُخرج من خلف ظهره زهرة حمراء نضرة، ومعها بطاقة بسيطة صممها بنفسه، تملؤها القلوب وكلمات الحب البريئة

ارتسمتْ على وجهها ابتسامة مشرقة، واحتضنته بعاطفة فيّاضة، وكأن تلك الزهرة لامست في قلبها وترًا في لحظة حساسة. نهضتُ من مكاني على الفور وعانقتها أنا أيضًا، ولساني يلهج بالتهاني والتبريكات بمناسبة هذا اليوم المميز، ولكن شعورٌ بغصة اخترقني وكأن حسن تفوق عليّ للمرة المليون بتلك الوردة!

سألته مستغربًا: «من أين حصلتَ عليها؟»

ابتعتها من المدرسة.

أجابني ببراءة، فتذكرت عربة صغيرة رأيتها اليوم عند بوابة المدرسة، تبيع الورود بمناسبة يوم الأم، لكنني لم أكن نبيهًا كحسن، لم أغتنم الفرصة، والآن، ها أنا أقف فارغ اليدين بينما هو يتوج لحظته البسيطة بانتصارٍ دافئ في حضن أمي.

شعرت بوخزة خفيفة من الحرج، لمحتْ هي ذلك في عيني، فاختلستْ النظر لزوجها وخصيمها منذ يومين، وقالت بلؤم: «لا تحزن يا يوسف، أعلم أن سعادة العطاء لا تضاهيها سعادة .. بإمكانك أن تهديني خاتمًا مثل هذا (وهي تدير شاشة هاتفها نحوي) خفيف الوزن، لكن أثره عظيم، ولن يؤثر على ميزانية أحد.»

كان واضحًا بأنها تعني ميزانية البناء التي أرهقتْ والدي.

أخذتُ هاتفها وانقضضنا على أبي أنا وحسن نطالبه بشراء هدية أمي بكل حماس. كنتُ مترددًا، متوجسًا من تجهمه الصارم، لكن وجود أخي بجانبي مدني بالجسارة، ومع ذلك، لم أكن أجرؤ على المواجهة كما فعل هو بكل ثقة.. تسلق حضن أبي، غير آبه بجمود ملامحه، وراح يستفزه بضحكاته وحركاته العابثة على وجهه، جاهد أبي في كتم ضحكته محاولًا إبعادنا وهو يتأفف مداعبًا وكأنه يعني أمي بذلك:

- ماكران! لا أعلم ممن تعلمتما هذا المكر!

فيما أمي تراقبه بابتسامة خفية على الأريكة الأخرى..

****

مع انسدال الليل كشَعرٍ أسود ناعمٍ، كان الخاتم في علبته السوداء بين أيدينا.. تلمع به أنوار المساء.

قدّمناه، أنا وحسن لأمي بسعادةٍ تغمرنا

قبلتنا وشكرتنا بعناقٍ مخملي، فيما كان أبي يجلس على مقعدٍ رفيع، قرب المنضدة الرخامية في المطبخ المفتوح على الصالة، يرصد فرحتها بالهدية، ويحتسي كوبًا من الشاي بارتياح.. بعد لحظات طلبتْ منا الانشغال بمشاهدة التلفاز.

أسرع حسن يستلم جهاز التحكم ويدير القناة للرسوم المتحركة واندمج بعالمه الطفولي، فيما أنا أفضل الاندماج بمشاهدة مشهدٍ آخر، أكثر سحرًا من أي كرتون، أراقب بكل فرح وبلا رمشة عين مشهد أمي وأبي وهما يعيشان لحظة صفاء تضيئها تلك الهدية الصغيرة التي لم تكن مجرد خاتم، بل خيط رفيع يعيد وصل ما انقطع بينهما في هذه الأيام المتوترة.

رأيتها تقترب منه بغنج، تجر المقعد الآخر حتى يلاصق مقعده، وتعبث بخاتمها الجديد بإصبعها ليرى كم يبدو براقًا بأناملها الرقيقة.

ثم جلستْ تتفحص كيسًا ذهبيًا غامضًا كان إلى جانبه على المنضدة. نظرتْ إليه بدلال يحمل في طياته مزيجًا من الامتنان والمصالحة. وقالت بصوت خافت: «لأنك دعمت أطفالي وأسعدتهم بإهدائي، سأسامحك.. ولكنّي أنتظر اعتذارًا على تصرفك العنيف مع يوسف وتعريضه للخطر.»

ازدادت دقات قلبي وأنا أسمع اسمي يتردد بينهما.. فيما هو يطالعها متعجبًا من ثقتها المطلقة في طلب الاعتذار.

رفع حاجبه ثم قال بنبرة حازمة تختلف عن نبرتها الهزلية، كأن ما حدث في ذلك اليوم، قد مسّ شيئًا عميقًا بداخله.. مسّ رجولته:

- الزوجة التي تقدر زوجها.. تعتذر حين تُخطئ، قبل أن تُدعى لذلك.

وكأنها تجاهلت رغبته الجادة في اعتذارها، استطردتْ وهي تتفحص الكيس الذهبي الذي أثار فضولها: «وماذا بداخل هذا الكيس؟ هديتك لي؟»

جاراها أبي وقال يبادلها اللهجة الشقية ذاتها، مما أشعل بينهما شرارة المشاكسة بلا توقف: «في هذا الكيس.. عقابك، خاتمٌ لوالدتي أثقل وزنًا من خاتمكِ.. حتى تتعلمي كيف هو احترام الزوج، ولا تسقطي كرامته أمام الآخرين.»

شهقتْ، حاجباها مرفوعان في دهشةٍ، تخمل في ملامحها استنكارًا لما سمعت. تضرب صدرها، تضج نبرتها بالمرح المشوب بالاستهجان في محاكاة ساخرة من حساسية جدتي المفرطة:

- (الآخرين)!! تصف والدتك مرةً أخرى «بالآخرين»؟ وا أسفاه عليك! هيا، اعتذر لي فورًا.. وإلا أخبرتها!

توجستُ خيفة في تلك اللحظة من أن ينفجر غضبًا لسخريتها، فبعض الجراح تظل مفتوحة، تؤلم ولو مرّ عليها الدهر، فما يغضبني مثلًا يستمر في إغضابي ويعذبني ذكره ولو مرت شهور، ولكنني تفاجأت به على النقيض ينفجر ضاحكًا ضحكةً عالية وكأن الحنق الذي كان سيحطم الباب قبل يومين لم يكن سوى سحابة صيف! ضحكتُ بمفردي لضحكاتهما، شيءٌ بداخلي يدغدغني كلما رأيتُ صفوهما.

من مكاني في الصالة، تشاغلتُ بلعبتي قليلًا، متظاهرًا بأنني لا أراهما، قبل أن يدير أبي طرفه ويخطفني وأخي بنظرة سريعة يتمنى غفلتنا عنهما.

كان يهمّه جدًا أن يظل حديثها في منأى عن مسامعنا، حتى وإن كان مزاحًا، فهيبته أمامنا ليست ساحةً للمرح. توارت ضحكته وطالع ساعته وهو يهمّ بالنهوض وتمتم بنبرةِ استسلام، يائسًا من أن يسمع منها ما يشبه الاعتذار:

- لا أمل يُرتجى منكِ.. وكأننا لم نتفق ألا تجعلي مني فرجة لأحد!

امتقع وجهها فجأة، وكأن كابوسًا قديمًا باغتها، تلعثمت.. بينما هو يستدير دون أن يلاحظ توترها. لكنها سرعان ما أفلتت من شرودها وأمسكت يده بلطف وجذبته ليجلس مرة أخرى:

- حبيبي.. أتضع والدتك وأولئك الذين أترفع عن وصفهم في كفة واحدة!

طالعها متعجبًا: «من تعنين؟»

- أصدقاؤك.

- لا أفهم سبب بغضك لهم! ثم.. نعم، حين يتعلّق الأمر بنا، فالعالم كله يوضع في كفة.. حتى أمي.

- لا أبغض جميعهم.. فقط الأوغاد منهم، وأنت تعرف مَن أعني.

بدت عليه الحيرة وكأنه عاد يسترجع شيئًا. ثم قال مستنكرًا وقد لوّنت الدهشة والإحراج وجهه:

- أما زلتِ هناك؟! أفي كل عامٍ سنعود لننبش ذلك الأمر بمناسبة أو من دونها؟! بدأتُ أضيق ذرعًا حقًا! أنتِ بحاجة لعلاج نفسي!

بتهكم، فأسرعت تبرر والتوتر تسلل إلى ملامحها: «من حقي أقلق.. كلما سمعتك تحادثه عبر الهاتف، أخشى مما قد يدعوك إليه.»

- وهل أنا مغفّل أمامكِ! أستجيب لأي شيء!

نظرت إليه بريب دون أن ترد. فتح محجريه على اتساعهما ثم انقبضت ملامحه بحدة:

- ماذا أفهم من صمتكِ هذا!

بدت وكأنها ترغب في الفرار من مواجهة لترغب فيها، فحدّقت في خاتمها البراق تستجدي من بريقه الشجاعة لقطع الجدال والبوح بالاعتذار العالق على طرف لسانها. جاء صوتها محمّلًا بالحب.. لا يخلو من بعض العناد:

- أعتذر عمّا جرى قبل يومين.. لم أقصد التقليل من احترامك أمام والدتك، لكنك زجرتني، ولم أحتمل.. أنتَ أيضًا مخطئ.

هزّ رأسه مستنكرًا تلك الطريقة الملتوية في الاعتذار. فشهقت بدهشة، وكأنها فجأة ترى الموقف من زاوية خارجية: «بل ليتني لم أخبرها شيئًا.. سكبت كل غلها عليّ.»

ضحك بمكر، فهو يعرف تمامًا كيف تُحكم والدته قبضتها على الفريسة.

قال بتشفٍ لا يخلو من لذّة السيطرة المعتادة:

- تستحقين ذلك.. لتتذكّري دائمًا ألا تتمردي على القوانين التي أضعها، فهي لمصلحة كلينا.

زمّت شفتيها بتعالٍ متصنّع لشعوره بالزهو، ثم بدا أن بداخلها كلام كثير عن

ذلك الجدال.. تودّ أن تفضفض لكنها كبحت اندفاعها وانتقت كلماتها بحذر، خشية أن تنزلق مجددًا إلى دوامة الخصام التي خرجا منها للتو.

مدّت يدها تعبث بشاربه، وخفّضت صوتها حتى صار أقرب إلى الهمس، ظنّت أن آذاننا الصغيرة لن تلتقطه:

- بصراحة.. استأتُ منها حين وبّختك.. وكأنك في عمر أبنائك.. ألا ترى هذا الشارب!

اعتدل في جلسته وصوته ينساب بثقة، يمنح والدته عذرًا لا يقبل الجدل، يبرّها وإن عكرت صفوه: « ألا تعلمين أن الأبناء لا يكبرون أبدًا في عيون أمهاتهم؟ بل يستمرون أطفالًا مهما امتدت أعمارهم وتغيرت ملامحهم! وحتى لو غزا الشيب مفرقهم.»

- لا .. لم أكن أعلم، ربما لأنني لم أعرف كيف تكون الأم أصلًا! فقدتها قبل أن أدرك ملامحها.

قالت ذلك بصوتٍ يحمل بين طياته جرحًا قديمًا لم يندمل، تسلل الحزن لنبرتها

وخيم الصمت بينهما للحظة، وكأن الهواء ذاته أثقل من أن يُستنشق، ربت أبي على ذراعها بحركة بطيئة، يحاول أن يبعث فيها طمأنينة لم تجد طريقًا إليها بعد، فأردفت:

- ربما لهذا أنا أمّ سيئة!

كان صوتها واهيًا، كأنها تبوح بسر تخشى الاعتراف به حتى لنفسها، عيناها تلتهمان الفراغ. فيما أصابعه تعبث بذقنه دون أن ينبس ببنت شفة، لكن صمته كان أبلغ من أي كلمات، طالعته أمي وقد قطبت جبينها:

هل تراني حقًا أمًا سيئة!

وضع ذراعه على المنضدة، وأخذ يدير الصحن أسفل كوب الشاي، يبحث عن الكلمات في دوامة الحقائق التي تتعرى بداخله، صوته جاء هادئًا يزيح اللثام عن إحساسٍ طالما أخفاه في أعماقه:

- إذا أردتِ الصراحة يا ليلى.. كلانا سيئان.

لم ترق لها إجابته، فسحبت علبة المحارم من المنضدة بجانبها وضربت بها ذراعه بحركة سريعة، وكأنها تحاول دفع التهمة بعيدًا عنها، وحرصتْ على أن تحافظ على نبرتها خافتة:

- أنتَ حقًا تصبح أبًا سيئًا في أغلب الأوقات، لكنني لستُ كذلك.

تناقضها أرغمه على الضحك مجددًا، لكنها سرعان ما استعادت جديتها.

تنهدت قبل أن تبادر بالتعبير عن رغبتها في تعديل أسلوبها معي أنا على وجه الخصوص، مؤكدة بأنها ستكون أكثر لطفًا وهدوءًا وصبرًا.

هزّ رأسه يوافقها، نظراته تمنحها فرصة لتبرهن على كلماتها، وأنا صرت أختلج بمشاعرٍ شتى، بالفرح والخجل والاختيال لأنهما يفكران بي وقد فزت باهتمامهما في هذه اللحظة، حتى إنهما يرغبان في تهذيب أنفسهما من أجلي.

نهض، حمل الكيس الذهبي الأنيق، وتهيأ للخروج. فاندفعتُ نحوه مسرعًا، أتوق لمرافقته، لرصد اللقاء الآخر بينه وبين جدتي، وكيف سيخمد النار التي أوقدها الخلاف الأخير:

- بابا سأرافقك.

- لا، تناول مع أخيك طعامكما، واخلدا للنوم مبكرًا.

لم أستسلم بهذه السهولة، تشبثتُ برغبتي وإلحاحي، فالفضول كان ينهشني وأحب رصد مشاهد مليئة بالأحداث على أن لا أكون محورها، وكأنني الآن أختبر عزمهما الذي لم يمض على إبرامه لحظات:

- أرجوك بابا..

تنفس الصعداء يقاوم إلحاحي الذي يزعجه، وتعابيره بدأت تتعكر، وقبل أن يعلن فشله في ضبط أعصابه، تدخلت أمي بحزم وطلبت مني أن أنفذ الأوامر دون تكرار، ابتلعتُ خيبتي، وأذعنت للصمت.

استوقفته أمي قبل انصرافه بلطف وعانقته وهي تهمس له ببعض كلماتها الرومانسية، فيما هو يشعر بوقوفي بينهما وتأملي بكل شاردة وواردة قيدًا لعفويته، فانسحب إلى الخارج دون أن يبادلها الكلمات.

وللمرة الأولى تستهلك طاقتها ووقتها من أجلي..

نظرت إلى عيوني مباشرة .. شعرت بهما وطنًا فسيحًا يدثرني..

ثم أمسكت بيدي وأجلستني قربها تشرح لي بلغة بسيطة سبب رفض أبي مرافقتي له.

عبرت أنه بحاجة إلى التحدث مع والدته على انفراد، ليتيح لجدتي التعبير عمّا تريد كيفما تريد بحرية، دون عيونٍ راصدة..

يخفض جناحه لها، فرضاها جنته.

ART_OF_BOOK

٦

اللقاء الغامض

انقضى اليوم وأنا أتفقد بريدي الالكتروني عبر جهاز الحاسوب في صالون المنزل والمشترك بين جميع أفراد الأسرة، والتردد على برنامج (الماسنجر) وهو برنامج المرسال الأشهر في ذلك الوقت، أحد برامج التواصل الاجتماعي، أتحدث فيه مع زميلاتي بالجامعة ونناقش الواجبات والأمور الحياتية.

كنتُ متعجبة من تأخر «شاب الساتلايت» في التواصل معي رغم إلحاحه السابق والمناورة حولي. جلستُ وحدي في الصالون بعد أن نام الجميع في هدأة الليل أتصفح موقع منتديات الجامعة الالكتروني وأقرأ مشاكل الطلاب وتعليقاتهم المتباينة وأحاول أن أقتنص ما ينفعني من نصائح للمستجدين أمثالي.

سرحتُ قليلًا، وراحت أناملي تطرق على جوانب الشاشة الضخمة بإيقاع متردد بينما أدندن بلا وعي. فجأة، صدح تنبيه الماسنجر برنته التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، وإذا بالرسالة تظهر أمامي، قصيرة، مقتضبة، ومزلزلة:

- السلام عليكم

انداحت دقات قلبي كطبول حرب، شعرتُ بأن «شاب الساتلايت» قد وصل أخيرًا.

غالبتُ ارتباكي، تأخرتُ قليلًا في الرد، وتظاهرت بالانشغال، وضبطت حالتي

على «مشغول»، كي لا أبدو كطفلة تلهث خلف أول المغامرات، وحين كتبتُ ردّ التحية، انتظرتُ بضع دقائق أخرى..

طال صمت رسائله، خيّل إليّ أنه يكتب ويمحو، يتردّد، يتخبّط في صياغة كلماته، ثم جاءت رسالته الأولى: «هل تتذكرين الشاب الذي كان يعتمر قبعة سوداء اليوم وطلب بريدك؟»

- نعم، بلى.. عرفتك. أرجوك، ليبقَ ما بيننا طيّ الكتمان.. إن انكشف لأحد، لأي مخلوقٍ كان.. فسأنتهي.

- بالتأكيد، اطمئني..

عاد الصمت من جديد، أطول مما كان.. خُيّل إليّ أنه يقيس كلماته بالمِلّيمتر، بينما كنت أترنّح بين الحذر والفضول. وفي لحظةٍ من الجرأة، لا أعلم كيف تسلّلت إليّ، بادرتُ: «أنا ليلى كما أخبرتك، عرفني بنفسك.»

أبطأ في الرد مجددًا، وفي قلبي قفز الندم على تلك المبادرة، ما الذي يدفع فتاة مثلي لتسلق حبل الكلام أولًا؟ لكن الرسالة وصلت أخيرًا:

- اسمي «محمد».. في الواقع أنا شابٌ مستقيم والعبث لا يناسبني..

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ ثم كتمته، وسخريةٌ خفية تسربت من صدري تابى الخفوت، شاب مستقيم؟! هكذا ببساطة؟

كأنني أسمع جملة محفوظة من مسلسل قديم أو أقرأ السطر الأول من ألف قصة مكرّرة عبر الإنترنت، أعدتُ تشكيله في ذاكرتي، شاب بنظراته الجريئة نحوي.. ينغمس في سماع الغناء والطرب، ثم يأتيني الآن بوجهٍ مغسولٍ بالتقوى!

ART_OF_BOOK

كم (محمدًا) هذا مرّ على الفتيات يا ترى؟ جميعهم مستقيمون، وجميعهم لا يناسبهم العبث! مع أنني للمفارقة، لم أضع يومًا (الالتزام) شرطًا في فارس أحلامي..

بدأتْ رسائله تتوالى بخفة: «ما الذي ترغبين في معرفته عني؟ مثلًا.. لدي محل رائد لتركيب أجهزة الساتلايت وتصليح الحواسيب..»

داخلته مازحة: «أحسبكَ قلت محلًا صغيرًا!»

أجاب برمزٍ تعبيري لوجهٍ يبرق خجلًا، وكأنه يلوّح بتواضع مصطنع أو حياء مهذّب. لم أشأ الإلحاح، خجلتُ من التطفل أكثر ، فاكتفيتُ بما يجود به من نفسه: « عمري ثلاثة وعشرون ..»

تعجبتْ، فقد كنت أظنه أصغر من ذلك. بدا الأمر أكبر من توقعاتي حين أخبرني أنه مهندس حاسب آلي يعمل في كبرى شركات النفط والغاز الطبيعي.

- وأنتِ حدثيني عن نفسك ..

- أنا في سنتي الجامعية الأولى، عمري ثمانية عشر عامًا.. وبكل صراحة أنت أول شابٍ أتجرأ وأحادثه .. فأنا من أسرة محافظة جدًا، خاصة فيما يتعلق بأمور كهذه.. لو علم أبي لدفنتُ حية.. (قلتها مازحة وجادة بالوقت ذاته)

- لا قدر الله..

طال حديثنا ذلك المساء، وغرقت بعوالم من المتعة والدفء، رحنا ننسج بيننا خيوط حكاية سرية لا يعرفها أحد، كنت أكتب باندماج، ألاحق أفكاري في سطور ممتعة.

استدرت برأسي للحظة، وإذا بي أُباغت بوجه زوجة أبي! كالظل الشيطاني

المتربص تقف خلفي!! بعينين تتوهجان خبثًا ووقاحة، لا بل نافدتين إلى الجحيم، والظلام المنتشر في أرجاء الصالون ما زاد مظهرها إلا وحشية، كأنها خرجت للتو من كوابيس الليل..

نظرتها لم تكن مجرد تطفل؛ كانت اختراقًا وقحًا لخصوصيتي، راحت تقرأ بتركيز كل محادثتنا المكشوفة على شاشة الحاسوب.

ظل محمد يكتب دون مجيب. قفزت من مقعدي مرتجفة وركعت أتشبث بثيابها وأتوسل أن تحفظ سري، وإذا بها تنادي أبي بأعلى صوتها وتصفق بمبالغة فجة براحتيها فيتكرر صدى صراخها بهدأة الليل:

- أبا جمال! أسرع وشاهد ابنتك.. ألبستنا العار وأنت غافل!

وأكملت بصوتها المتهدّج المتشفّي تمده وتثقله باتهاماتٍ باطلة في حقي:

- تسرح بين الشبان كما أخبرتك مرارًا، ولم تصدقني! الآن فقط تفهم لمَ كانت ترفض كل من يطرق بابنا؟

لم تجد توسلاتي لها صدى، كانت تستمتع بمشاهدتي وأنا أتعثر في كلمات عاجزة عن إيقاف شرها، بيدٍ مرتعشة أسرعتُ إلى إغلاق نافذة المحادثة قبل أن يصل أبي عسى أوصد بابًا على أسرارٍ لاتحمل سوى رعب العار، لكن الوقت كان أقصر مما حسبت.

ماهي إلا لحظات وحتى قبل أن أرى وجه أبي أو أدافع عن نفسي، هجستُ رأسي يرتطم بزاوية الطاولة وينهرق من جبيني الدم كشلال لا ينضب.

هويتُ على الأرض كالذبيحة مستسلمة للموت المحتم، وأنا أشهد براكين الغضب تفيض من محاجره وتلتهمني كُلي، أمسك شعري يشده بعنف مرة

غير آبهٍ للدماء النازفة، يصرخ وقد خرجت عيناه من أم رأسه فغدتْ أكثر رعبًا وصوته كالسوط ينهال على رأسي:

- أين تلتقين به؟؟ ومتى أيتها الفاجرة..

رماني وحمل شاشة الحاسوب الضخمة غير آبهٍ بأسلاكها المتشابكة ينوي قذفها عليّ وتحطيمنا ببعضنا: «سأتخلص منكِ ومن هذا الشيء اللعين مدخل الشيطان وأساس الخراب.»

وكمن لسعها عقرب انقضتْ زوجته تهدئه خشية أن تنفضح ويذاع عن زوجها (قاتل ابنته) وتمنعه أيضًا من تحطيم الشاشة في لحظة غضب.

بحركاتٍ مدروسة، تدير زوجها كيف تشاء، أمسكت يده وهي تشجعه على إرجاع الشاشة البيضاء الثقيلة على الطاولة، فهذا الحاسوب صديق أبنائها ويعينها على واجباتهم المدرسية، همستْ كفحيح الثعبان:

«سندفن ما حفرته لا تقلق.. سنزوجها منه ونتخلص من فضيحتها، خيرٌ من أن نتخلص من جهازٍ ينفعنا.»

كانت كلماتها سهامًا مسمومة تخترقني، وأنا أرى تواطؤها يغزل مؤامرة جديدة.

طالعها بجنون واندفاع: «أي زواج! ومن هذا؟ نحن لا نعرف منه إلا عبثه، وبالتأكيد لا يريدها .. من يريد من تعبث معه قبل الزواج!»

ركلني بضع ركلات وهو يلقي كلماته الأخيرة وأنا متكومة أسفل الطاولة الخشبية ووجهي يتوارى خلف دمائي والأنين رفيقي.

تابعتْ هي بدهاء:

- إذا كان ما تحدث به حقيقيًا فلن تجد لها زوج أفضل منه، مهندس.. ووظيفته جيدة.

مسدتْ على كتفيه وصدره تهدئه وهي تعده بأنها ستحل كل شيء والأهم التخلص مني بسرعة، لم ينصرف إلى داره إلا بعد أن تسلم صكًا بوعد زوجته ومنعني الاقتراب من عتبة المنزل:

- لا ذهاب للجامعة إلا بعد زواجكِ من هذا المنحط أو غيره.

أجهشتُ بالبكاء، تتدافع شهقاتي مع كلماتٍ ملتهبةٍ بالسباب واللعنات، أطلقها عليها وهي لا تبالي، مكتفية بالنظر إليّ باستعلاء وتمنّ على إنقاذ حياتي: «انهضي بسرعة وافتحي نافذة البرنامج.. وتحدثي مع زوجك الغبي»

صحت فيها بعصبية بعد ذهاب أبي: «لن أتزوجه .. لا أعرفه، كلمته للتو».

- حسنًا .. إذن لا طريق للجامعة مرة أخرى.

ازداد بكائي، فما كنتُ حقًا أرغب في الزواج بهذه السرعة. كنتُ أتمنى أن أتعرف إليه أولًا، وإذا ما تأججت مشاعري نحوه بالحب.. نمضي إلى الزواج برغبة لا بإجبار. رغم أنني أعلم تمامًا أن تلك أمنية محرّمة، بل خطيئة سوداء كارثية في عيون مجتمعنا المحافظ.

نهضتُ باستسلام أفتح نافذة البرنامج بأنامل ترقص خوفًا وإعياءً، كنت متيقنة من أن محمد قد انصرف، ومحالٌ أن يقبل بالزواج من فتاةٍ التقى بها للتو! فقط سأعرّض نفسي للذل أمامه..

لكن ما أدهشني، هو إقباله عليّ فور دخولي مجددًا إلى البرنامج، وقد عاجلني برسالة: «ماذا جرى؟ هل انفصلت لديكِ خدمة الانترنت؟»

دفعتني الساحرة جانبًا واستولت على المقعد وأخذت زمام الأمور بكل براعة، فلا شيء كان يهرب من أناملها الماكرة، حتى الكتابة على الحاسوب تعلمتها من أجل أبنائها لأداء واجباتهم المدرسية بتميز. قرطعت أصابعها مستعدة لخوض معركة حاسمة واندفعت تكتب بخبث متقن، متقمصة دوري:

- ساعدني أرجوك، فُضح أمرنا.. أبي سيقتلني إن لم تزرنا غدًا مع أسرتك وتخطبني.

لم أتمكن من منعها، كنتُ أبكي على حالي وأراني كدمى العرائس، خيوطي بيديها تتلاعب بحياتي كيفما شاءت، انقبض قلبي بعد أن أطال محمد الصمت. فندت ابتسامة ازدراء منها:

- هل رأيتِ؟! لستِ مرغوبة.. فقط يريد العبث بكِ.. سأزوجك أحد أقرباني الذين رفضتهم سلفًا..

قضتْ سنوات وهي تنخر في ثقتي بنفسي، تنتقصني في كل فرصة، تُمعن في إذلالي باسم المصلحة. وحين هممتُ بإغلاق الشاشة بكمدٍ ويأس. بادر:

- آسف جدًا لما حصل، فاجأتِني، هل يناسبكم غدًا الساعة السابعة مساءً؟ هل أنتِ بخير الآن؟

تنفستُ الصعداء وشعرتُ براحة غريبة، أقلها لم يجعلني طعمًا للشامتين.. زمّت الساحرة شفتيها امتعاضًا، ثم عادت تكمل دورها في مسرحية الخداع عبر الماسنجر، ولكي تضمن أنه لن يفلتْ من قبضتها، باغتته بعرضٍ مغرٍ، مؤكدةً أن المهر سيكون زهيدًا حدّ التفاهة، فقط ليُقبل على هذا الزواج بأي صورةٍ كانت.

وانصرفتُ أنا بجسدٍ يرتعش لحجرتي أغسل عن وجهي الدماء بحذر، وأداوي جروح القلب والجسد بلا دواء، فالشعور بالعار قوضني والتهمني بلا رحمة كوحشٍ جائر.

في مجتمعنا المحافظ - كما تعلم- وفي ذلك الوقت تحديدًا.. لو قتلني أبي لكان معذورًا في نظر البعض، فتلك النزوات الطائشة أن تبدر من فتاة هي خطيئة لا تغتفر، وكأنها عجزت عن إخماد ما يشتعل داخلها من رغبات محظورة، إنها لحظة السقوط التي تُخشى، اللحظة التي تجرها فيها تلك النزوات إلى مصيدة الذئاب البشرية، أولئك الذين يتربصون بضعفها لتفترسها أنيابهم بلا رحمة، ثم يلقون بها على قارعة الحياة، خاوية بلا شرف، بلا كرامة، جسدًا بلا روح، وذكرى مشؤومة تحوم حولها اللعنات.

انسحبتُ في دائرة خجلي منزوية على ذاتي، أخشى أن يزاح الستار وأفضح أمام الجميع، حتى صديقاتي وشقيقتي (سعاد) لم أبح لهم بحقيقة ما جرى، وحده أبي وزوجته كانا يعلمان بخطيئتي، وهذه الأخيرة بسبب تلصصها على كل تفاصيل المحادثة بيني وبين محمد، كانت الوحيدة التي تدرك أن علاقتنا بدأت للتو وبلقاء عابر، وبأنني تجرأت وسلمته بريدي الالكتروني..

وكأنني بذلك سمحت له اجتياح عالمي المقدس، وبدا جليًا أنها منذ مدة تنفث سمومها في عقل أبي ولم تتورع عن الطعن بعفافي، وأنا.. أعلم تمامًا أنني لا أزن شيئًا في كفه، ولا أملك أن أدافع عن نفسي أمامه..

لذا، كان تخلّصه مني بالزواج السريع هذا، في نظره، تكرُّمًا منه عليّ..

****

في اليوم التالي جلستُ حبيسة الغرفة.. لم أخرج منها خجلا من وجهي المتورم ككعكة خبزٍ منتفخة، ولأنني لم أجرؤ على رفع طرفي في وجه أحد. انكفأت في زاويتي..

أترقب مصيري والخطبة التي ستتم كلمح البصر.. وكأنها عملية تهريب.

أغلقتُ المصابيح وجلستُ بجوار النافذة حتى لا يكشفني أحد من الخارج. راقبتُ الطريق ورأيت أضواء سيارة الخاطبين وهي تلتصق بالمنزل، أغلقت الستائر جيدًا وارتميتُ على التخت بكمدٍ عظيم.

تغلفتُ بلحافي الزهري وأجهشتُ بالبكاء مرةً أخرى، أشفقتُ على نفسي كيف أظهروني كبضاعة فاسدة أمام من سأتزوجه! باعوني له بثمنٍ بخس فكانوا بي من الزاهدين!

أنا تحدثت معه فقط ولم أرتكب فاحشة! لكنني عوملتُ كمن تدنس بها..

وأشفقتُ على محمد، كيف يُجبر على الزواج بهذه السرعة!

عظم قدره عندي، حتى بات في مخيلتي أقرب إلى صورة فارسٍ نبيل، لا تُثنيه المواقف عن مبادئه، ولا ينحني أمام عواصف الأنانية أو الخوف، وتجلتْ شهامته كضوءٍ يخترق عتمة كل آلامي. -

جلستُ أُسلّي نفسي بالخربشة في دفتر الجامعة، وإلى جواري المسجل الصغير يصدح بأغنية حزينة.

ما إن أقبلت «الساحرة» بفرحةٍ زائفة وزغرودةٍ مزعجة، حتى سارعتُ إلى إغلاقه. اقتربت تقبّلني، وأنا معرضة عنها، وتهلِل.. طالعتها دون أن أنبس بكلمة.

ART_OF_BOOK

جلست على السرير تسرد بكل متعة، كما لو أنها تتسلى بقشر البذور في سمر طويل: «الحمد لله أن أباك تمالك أعصابه حين انفرد بالشاب، لكنه لم يُطل الحديث معه، أرسله مباشرة إلى مجلس النساء بحجة الرؤية الشرعية»..

ضحكتْ بزهو وسعادة تتابع:

«لو رأيتِني كيف تصدّرتُ المجلس وألقيتُ أوامري على والدته المكفهرّة.. حدّدتُ لهما موعد عقد القِران، واشترطتُ ألا يتأخر الزواج! وعريسكِ لا يرفع رأسه خجلاً، لا يقول سوى (لكم ما تشاؤون).. وحين أخبرته أنكِ مريضة ولا يستطيع رؤيتك، انخطفت ألوانهما من الدهشة.. فكيف له أن يرى وجهك الذي يبدو كالرغيف؟!»

كادت تختنق بضحكتها وطفرت دمعة من عينيها. زممتُ شفتي وأعرضتُ عنها.. فتابعتْ وهي تلكز كتفي مازحةً وجادة بالوقت ذاته:

«فزتِ حقًا بهذا الزوج، لا تستحقينه.. ومبروك عليكِ.. العقد، الأسبوع القادم.»

فغرتُ فاهيَ مستنكرة: «ماذا؟!»

- لا اعتراض. صلّي واسجدي لله شكرًا. فيمكنك الآن الذهاب للجامعة بعد أن تهدأ تورمات وجهك.

أخرجتْ من كيسٍ كانت تحمله علبة بيضاء لهاتف جديد، دسّتها في يدي وهمست بحذر:

«حين لم يتمكن الشاب من رؤيتك.. استأذن بضع دقائق وابتاع هذا الهاتف من المتجر الصغير المجاور، وعندما سبقته أمه للسيارة، سلمه لي بتردد، ولن

هكذا يتعلق بكِ أكثر ولا يفر قبل الخطبة.»

وأضافت: « اغتنمتُ الفرصة لأؤكد له أننا نثق به، وأننا لا نريد شَبْكة ولا حفل زفاف، والمهر... هو يعلم تمامًا أنه لا يتجاوز ثمن حذائه»

زعقتُ ساخطة: «أما اكتفيتِ من تقزيمي أمامه!»

- وجه والدته المحتقن لم يرحني! لو وضعتُ عليه قطعة لحم، لنضجت.

انفجرت ضاحكة بطريقتها المستفزة، ثم أوصتني بضرورة إخفاء الهاتف، والتحدث معه سرًا، مؤكدة أن والدي لا يعلم شيئًا عن هذا الأمر.

نظرتُ إلى علبة الهاتف.. فبرد غضبي قليلاً، لا أصدق أنني سأمتلك أخيرًا هاتفًا خاصًا بي!

فتحتُ العلبة ببطء، وأخرجتُ الجهاز أقلبه بين يدي وجهًا وظهرًا.

كان أحمر قانيًا، لامعًا كحلم صغير، وشاشته رغم خلوها من الألوان، بدت لي يومها خلابةً على نحو لا يُنسى..

وصلته بالشاحن، وعدت له بعد ساعة أعبث بأزراره بحماسٍ وفضول أدرّب أصابعي عليه كما لو كنتُ أتعلم لغةً جديدة، وفي قائمة الأسماء لم أجد سوى اسم واحد (محمد). وعن طريق الخطأ، ضغطت زر الاتصال.. انتبهتُ فجأة وتوترت.. فقطعتُ الخط مباشرةً، وكأنني اقترفت جرمًا!

لم تمضِ دقائق حتى رنّ الهاتف.. لكن رنين قلبي كان أعلى. أدنيته من أذني بحذرٍ وصمت، حتى جاءني صوته:

- ليلى؟

توقّف الزمن للحظة! لأول مرة شعرتُ أن اسمي يتضمن شرارة كهرباء تشعلني.. اختُصر العالم كله في تلك النبرة. لم أكن أدرك كم هو صوته عميق.. مُهيب بجاذبية، إلا الآن.

أجبته بخفوتٍ وارتباك، كأنني أتنفّس اسمي للمرة الأولى، وأعيه بكل حواسي: «نعم..»

- كيف حالكِ؟ طمئنيني.

- الحمد الله بخير.

- أعتذر.. الهاتف متواضع، ولكنه يفي بالغرض حاليًا..

شكرتُ لطفه وكرمه، وعبّرت له عن فرحتي العظيمة بالهاتف، لكن الكلمات خانتني وأنا أرتجف تأثرًا بها:

- بل إنه للحظات.. شغلني عن الألم والحزن الذي كان يستبد بي..

لم أدرِ كيف انهارت مقاومتي! كيف انفجرت دموعي بلا استئذان وأنا أحدثه عبر الهاتف للمرة الأولى!

في صوته دفءٌ وأمانٌ لم أعهده.. سمحتُ لنفسي بالسقوط بين حروفه، فسمع نحيبي، وتلعثم.. شابَ صوته الأسى والقلق، وراح يعتذر غارقًا في الذنب ويلوم نفسه بحرقة: «كل ذلك بسببي»

لم يكن يتخيل أن والدي عنّفني بتلك القسوة حتى سالت الدماء من رأسي.. وتعجّب أكثر من تصرف زوجة أبي المشين.

راح يُهدّئني، يُبدّد وحشتي، ويزرع في قلبي أملاً نديًا.. يعدني بكل جميل..

كلماته كانت بلسمًا لجراحي، وطلب مني أن أتوجه لله بالدعاء لنا معًا، كان لكل حرفٍ ينطقه وقعٌ آخر بقلبي، غيّر مجرى ألمي إلى راحةٍ واطمئنان ورضا..

أنهينا المكالمة، نهضتُ بسرعة أنفذ وصيته، توضأتُ برفق حتى لا أؤذي جرح جبيني، وأمسكتُ القرآن ورحت أطهر غمي من خلال آيات الله..

هدأتُ كثيرًا، شعرتُ بخفة كبيرة وكأنني أفرغت لله كل لواعجي.

فكما قال محمد (كل همٌ مهما تعاظم، يتضاءل ويتلاشى عندما نقترب من الله بقلوبٍ خاشعة، إذ في رحابه تهدأ الأرواح، وتزول الأوجاع)..

أغلقتُ القرآن وقبلته..ارتميت على سريري أحتضن هاتفي، غارقة في كل كلمة قالها.. أستعيد صوته، نبرته فأتنهد وأبتسم دون أن أشعر.

في الأيام التالية، صار حديثنا الليلي فرضًا لا يُكسر، لا أنام إلا بعد أن نخوض في حديثٍ طويل، لا يقترب من الحب، ولا يبتعد عنه.. أقرب ما يكون إلى تعارفٍ يُبنى على مهل. أما في النهار.. فتظل رسائلنا الصغيرة تتقاطر، يطمئن من خلالها بأسلوبٍ لا يخلو من لطفٍ رجوليّ، أنني لا أحتاج إلى دعمٍ مادي إضافي لإتمام ترتيبات الزواج.. وفي إحداها كتب:

(سألتُ وفهمت الآن ما تعنيه «الشبكة».. اختاري ما يليق بكِ).

غرّد قلبي لدماثته نكاية بزوجة أبي، وانفلتت مني ضحكة دافئة، تثمر ربيع حبه بأرجائي. وانغمست في تفاصيل التحضير.. أتنقّل بين المتاجر برفقة سعاد، كانت تمسك قائمتي وتراجع معي كل ما أحتاجه.

أما تلك الساحرة، فبدت غارقة في التحضيرات الميدانية لحفل عقد القران البسيط.. والحماسة تسكنها أكثر مني!

ART_OF_BOOK

٧

في مدرستي

رغم أن المدرسة لم تكن في أغلب أيامها إلا جحيمًا يحاوطني، إلا أنني كنت أول الملتزمين بالحضور اليومي، تتعجب والدتي من استيقاظي المبكر قبل الجميع واستعدادي معتمدًا على نشمي، وإن طلبت المعلمة منا إحضار أدوات للدروس أكون أنا الأكثر حرصًا على إحضار المطلوب، حتى إن ذلك كان مثار سخريتها: (وكأنك الأكثر تفوقًا بالمدرسة!)

في الصف..أجلس بجوار الحائط، لا أتحرك، لا ألتفت الانتباه، كما لوكنتُ جزءًا منه.. أراقب الحصة بجمود .. تبدأ معلمة اللغة العربية درسها..

أحدّق في السبورة الذكية، أتابع الكلمات المتحركة، أحاول فك شفراتها، أومئ برأسي كلما سألت، وكأنني أكثر من يفهم، من يراني يعتقد أنني أستوعب كل شيء، لكن ما إن تطلب مني القراءة أو الإجابة حتى يدرك الجميع أنني لا أختلف كثيرًا عن الجدار المجاور لي.

أحاول قراءة الكلمات في الكتاب، أتعرف على معظم الحروف لكني لا أستطيع أن أربطها معًا لتشكّل كلمة واحدة ذات معنى، أتهجى بصوت خافت بيني وبين نفسي.

أنظر للكلمة المكتوبة أمامي.. لكنها تعاندني..تتقافز، تكبر وتصغر، وكأنها تتلاعب بي، أفتح عيني على اتساعهما في محاولة لتثبيتها لكنها تبقى

متأرجحة.

أحاول قراءة (حامد) فأنطق أسماء الحروف بيني وبين نفسي:

(حاء- ألف - ميم – دال)، لكنني لا أفهم شيئًا، المحاولات المتكررة أرهقتني منذ زمن، ففقدتُ شغفي بالمحاولة وما عدتُ أرى جدوى من المقاومة.

يدق الجرس..معلنًا عن حصة الرياضيات..

ومع ذلك، لا أشعر بأي ارتياح، بل على العكس، أشعر أنها أسوأ من سابقتها، إذ تبدو كألغاز معقدة.

أراقب المعلمة بعينيّ فقط، لا أسمح لنفسي بأن ألتفت نحو النافذة خشية أن تنهرني كما فعلت مع سعد، أو ترمقني بنظرة غاضبة مثلما حدجت مراد.

أنظر إلى الأرقام..

أحاول التعرف عليها، أستطيع قراءة الأعداد حتى العشرة، وأتعرف على بعض الأرقام مثل أربعين وخمسين وستين، لكن ما بينهما.. يبدو لي ضبابيًا، غامضًا، بلا أي منطق، أخلط بين الاتجاهات، ويفزعني ظهور الرقمين اثنان وستة، فهما متشابهان، أو ربما أنا من أراهما كذلك.

أما حين تبدأ المعلمة بطرح المعادلات (الطرح، الضرب) حينها أشعر وكأنها تتحدث بلغةٍ أخرى، لا أفهم منها حرفًا واحدًا.

وعادة ما يكون أسوأ جزء بالحصة هو الأخير، عندما تقول المعلمة:

- افتحوا الكتاب على الصفحة خمسة وأربعين، واكتبوا الإجابات في الدفتر، ثم ضعوا دائرة حول الإجابة الصحيحة..

تضيع مني بعض التعليمات، أفتح الكتاب، أبحث عن الصفحة بصعوبة إلى أن تساعدني المعلمة في فتحه، ثم تمضي لطالب آخر، فأنسى الخطوة التالية، بينما ينتهي الجميع من تكليفهم.

أظل أحدق في الصفحة، أنتظر أن يخبرني أحد بما عليّ فعله بعد ذلك.

ينتهي الكابوس، وتدخل معلمة اللغة الإنجليزية..

هنا، أشعر أنني أخرج قليلًا من الظل.. فهذه الحصة تمنحني فرصة صغيرة للظهور، إذ إنني أستطيع التعبير ببعض الكلمات الإنجليزية التي تعلمتها في المدرسة الخاصة قبل عام، عندما تعرض المعلمة صورًا على السبورة، أرفع يدي بحماس لكن ما إن تتوجه العيون إليّ حتى تتبعثر كلماتي..ترفض الخروج مرتبة.

أبدأ جملتي، ثم أتعثر في منتصفها، أنسى ما كنت سأقوله، فتتبعثر الحروف على لساني، ويشتعل وجهي بحرارة الخجل، ورغم ذلك، يبقى تعبيري غير المتقن البسيط أكثر تميزًا من بعض زملائي الذين يجدون صعوبة في هذه اللغة.

تبتسم لي المعلمة.. تثني عليّ، للحظة أشعر أنني موجود بينهم، لكن ما إن تطلب منا فتح الكراسات والبدء في الكتابة، حتى تنطفئ تلك الفرصة قبل أن تكتمل.. تتفاجأ المعلمة بخطي المشوه الذي لا يكاد يشبه الكلمات!

بحروفي المتعرجة التي تأبى أن تستقيم، بعدم قدرتي على كتابة حتى أبسط الكلمات رغم معرفتي لجميع الحروف الهجائية بهذه اللغة! يرتسم على وجهها ذات الإحباط الذي رأيته مرارًا على وجوه بقية المعلمات، فأخفض رأسي..

وأتمنى أن تنتهي الحصة بسرعة.

لا أحد يدرك كم أكره القلم! كم تزعجني الكتابة!

كم يبدو لي الإمساك به على النحو الذي تريده المعلمة أمرًا مستحيلًا، حتى حين تحاول مساعدتي، لا أفهم ما تعنيه بـ(الإمساك الصحيح)، ولا أستطيع حتى إن حاولت تقليد زملائي.. يتحول القلم لعصا جامدة لا تتحرك وفق إرادتي، والخطوط التي أرسمها تبدو مرتجفة، غير متصلة، وكأن الحروف تتشاجر مع بعضها بعيدًا كل البعد عن السطر.

في النهاية، أغلق الكراسة، أندس في الظل، وأصير مرة أخرى جزءًا من الجدار.

****

في ذلك الصباح بوقت الفسحة، خرجت من صفي مثقلًا كالعادة، أحمل نقود طعامي وأخشى أن تسرق مني كما حدث في مراتٍ عديدة.

الممر الطويل المؤدي إلى ساحة اللعب يبدو وكأنه أطول مما أحتمل، كممرٍ إلى محكمة لا أنتظر فيها سوى الإدانة والتهكم والتنمر والسلب.

اقتربتُ من المقصف المدرسي وأنا أتلفت وإذا بالوحوش الضارية قد أقبلت، ضباعٌ يتحلقون حول بقايا فريسة، أطلقوا سهامهم المسمومة بكلماتٍ تتكرر كل يوم على مسامعي: «يا بدين.. يا غبي.. أين النقود؟»

ترددت تلك الكلمات في أذني كصدى في كهف مظلم، حتى صارت جزءًا من صوتي الداخلي، حاولتُ في ذلك اليوم أن أقف بوجههم فخرج صوتي ضعيفًا، مترددًا كصوت آلة صدئة لم تُستخدم منذ زمن: «لا يوجد عندي نقود.»

ART_OF_BOOK

ضحكوا، ليس على كلماتي فحسب بل على الطريقة التي نطقت بها وكأنهم رأوا في ارتجافي فرصة جديدة لتمزيقي أكثر.

حاولتُ ابتلاع دموعي وكبحها، أحاول أن أطفئ حريقًا داخليًا دون أن أفضح نفسي أكثر، ولكنني عجزتُ وانهرقت دموعي بصمت ومددت يدي لجيبي لأخرج النقود لهم مستسلمًا قبل أن أخوض في عراكٍ لا أجيده.

وإذا بأخي حسن وحجمه الصغير الذي يصل لأكتافهم قد جاء بكل شجاعة وبسالة، وقف قبالتهم بوضعية المدافع في الفنون القتالية (التكواندو)، كفارسٍ صغير بزغ من إحدى الحكايات الكورية القديمة: «هيا ابتعدوا عن أخي.»

قال بصوت لم يكن مرتفعًا لكنه حاسم، كالسيف حين يُسحب من غمده، للحظة ساد الصمت، قبل أن تنفجر الضحكات من جديد.

-ماذا ستفعل أيها الجرو؟

تساءل أحد المتنمرين بنبرة ساخرة، لكن حسن لم يتراجع، وقف أمامي مثل سد منيع واستطرد:

- ربما أطبق تمارين ما تعلمته بالنادي على وجهك الساخر.

كانت كلماته تحمل شجاعة وفطنة تفوق عمره بكثير، رغم أن صوته ارتعش قليلًا، لكن نظرته لم تهتز.

كانت الضباع تتبادل النظرات، غير مصدقة جرأة هذا الغزال الصغير، أراد أحدهم قياس مدى قوة شوكة هذا الصبي فانقض على حسن كثورٍ هائج.. وقبل أن يصل ناحيته، ركله حسن بقوة في صدره ووقع المتنمر على ركبته

تاوه ويئن، فيما حاول أحدهم النيل مني بالتسلل من الخلف ونجح في لكمي على وجهي..

فنال جزاءه من حسن عدة ركلات بمواضع مختلفة فولى مدبرًا..

تلك اللكمة على وجهي كانت كفيلة بانفجار ينابيع دموعي بلا توقف، وبـ احتشاد الطلاب جاءت بعض المعلمات المناوبات في الفسحة، فرقن الحشد وحاولن تهدئتي، بينما كان أخي يطلب منهن معاقبة المعتدين بصوت يملؤه الغضب ووجه محتقن من حرارة الشمس والانفعال.

وهكذا وجدنا أنفسنا بعد دقائق في غرفة الإرشاد الاجتماعي، حيث تتم المساءلة.. بينما انخرطتُ أنا في موجة بكاءٍ عجز الجميع عن إيقافها. لم يكن في صدري سوى رجفة، وفي عينيّ سوى سيل لا ينضب..

مرّت معلمة التربية الإسلامية الأستاذة «فضيلة»، وعندما أبصرت حالي، انحنت عليّ بحنوٍّ خالص، كأنها أمٌّ التقطت ابنها من حافة الغرق.. جلست قربي وربتت على كتفي ثم طلبت مني أن أكرر بعض السور القرآنية بصوتٍ منخفض.

كانت تتلو الآيات آية آية، وتطلب مني أن أعيدها خلفها بنفس الطريقة وبنفس النغمة. تدريجيًا، بدأ صدري يستكين، وهدأت نفسي وجفّت دموعي، ثم ابتسمت لي وقالت برقة: «أريد أن أسمع صوتك الجميل هذا في الصف أيضًا خلال التلاوة.»

ابتسمتُ بخجل وهززت رأسي إيجابًا، ورحت أتمتم بيني وبين ذاتي الآيات القرآنية التي لقنتني إياها، وأخبرتني بأني أذكرها بابنها في صغره، فقد كان طعمة سائغة في فك المتنمرين لا يُجيد دفعهم ولا ردعهم، لكنه مع الوقت

ART_OF_BOOK

اكتشف حيله الصغيرة التي حمته من أنيابهم. سألتها بفضول:

- ما هي هذه الحيل؟

بدت وكأنها كانت تنتظر سؤالي، فنظرت إليّ نظرة أمٍّ تُعدّ وصايا النجاة وقالت:

- أوّلها: ألا يُظهر خوفه أبدًا.. المتنمّرون يشمون رائحة الخوف كما تشمّ الضواري دم الجرح.. ثانيًا، لا يبقى وحيدًا، بل يرافق من يرتاح إليهم دومًا. لأنهم لا يهاجمون من في جماعة.

توقفت لحظة، ثم تابعت بابتسامة: ثالثًا، كان يردّ عليهم بكلمات لا تشعل المعركة، ولا تفضح ضعفه.. مثلًا، يقول: «هل انتهيت؟ لدي ما هو أهم»، ويمضي. كان يحرمهم من متعة الانتصار.

وضعت يدها على صدرها، وقالت: «والرابعة يا يوسف.. كانت روحه. كان يقرأ القرآن كل صباح. تلك السكينة منحته ثباتًا، حتى حين كان الداخل يهتز.»

نظرتُ إليها بصمت. كنت أعرف أنها لا تزال ترى الخوف في عيني، ذلك الخوف الذي لا أعرف له بابًا ولا مخرجًا.

كل ما ذكرته شعرت أنني عاجزٌ عن تطبيقه..

لكنها لم تمهلني كثيرًا، قالت بصوتٍ مشجع:

«تعال إليّ في وقت الفسحة كل يوم. نقرأ بعض السور معًا. نملأ صدورنا بالنور، ونحتمي به. سأكون معك، لن تكون وحدك، وستكون بعيدًا عن

@ART_OF_BOOK

المتربصين.»

هززتُ رأسي موافقًا، وقد انشقت ابتسامتي المألوفة على استحياء.. وودعتني بعينيها كأنهما بحرين من أمان لا يجفان.

في تلك اللحظة شدني صوت حسن من الغرفة المجاورة.. كان واقفًا أمام مكتب المرشدة، يدافع عن نفسه بصلابة.

تمنيتُ لو أنني كنتُ مثله، لا تشع منه هالات الخوف أبدًا. لقد تعلّم كيف يحمي نفسه..

منذ عام ونحن نرتاد نادي التكواندو معًا لكنه وحده من حمل من الدروس روحها، لا حركاتها فقط.. بل ويواجه حتى الأكبر منه سنًا..

وصلني صوته المرتفع وهو يرد على عتاب المرشدة لاستخدامه الفنون القتالية ضد زملائه بالمدرسة:

- أنا لم أهاجم.. كنت أداقع عن نفسي وأخي.

كان صوته صلبًا، يكرّر بثقة تعليمات مدربنا في النادي: (الهجوم ممنوع.. نحن فقط ندافع عن أنفسنا) نظرتُ إليه بامتنانٍ عميق، شعرتُ في تلك اللحظة بأنني سعيد لأنه أخي.

وتوهجت مشاعر الحب والأخوة قد وأينعت بجوانحي، ولكن تلك المشاعر تتوهج حينًا وتكبو أحيانًا أخرى.. بمنفاخ أسرتي.

ART_OF_BOOK

٨

قران ليلى

لو عدتُ معكَ مرة أخرى بتفاصيل ذاكرتي إلى العام ٢٠٠٥، هناك كنتُ أقف كفتاةٍ يافعة بثمانية عشر ربيعًا، بغرفتي الصغيرة أمام مرآتي،.بفستاني الأخضر الشعبي مع تفاصيلٍ تعد حديثة في ذلك الوقت، فلم يكن فضفاضًا بل ضيقًا متناغمًا وقدّيَّ المنحوت المتناسق.

رحتُ أتمايل مع أنشودة تقليدية أرددها بانتشاءٍ وسعادة، أصفق ونظراتي لا تغادر صورتي المنعكسة بالمرآة، أدقق في تفاصيل حسني الأخاذ، شعري قد أسدلته أنهارًا متفرقة على كتفيَّ وكشلالٍ يلامس أسفل ظهري، وغرتي نامت بنعومة على جبيني، مكياجي الناعم أبرز ملامحي فبانت عيناي كمرآتين عاكستين لمعنى الجمال، غدوت كلوحةٍ أو حوريةٍ لا إنسية..

كنت أخاطب نفسي وأستشعر كل ثانية بوعيٍ حاضر، لأستطعم الفرحة التي لن تتكرر إلا في العمر مرةً واحدة .. ولا ألبث أردد بصوتٍ أشبه للهمس بأغنيتي التقليدية:

- ((حناكِ عجين .. يا حلوة حناكِ عجين .. حناك عجين يا ليلى حناك عجين))

بتر تغريدي اقتحام (زوجة أبي) الغرفة وهي ترتدي فستانًا أخضر قبيحًا، وأصبح أكثر قبحًا على جسدها الممتلئ.. تمامًا كالمدرعة الشيطانية.

كانت تعتقد بأنها ستنافسني بارتدائها اللون الأخضر، قالت بعد أن شملتني

بنبرة خاطفة سرعان ما أبعدتها: «لا بأس بكِ .. لا تبدين سيئة..»

أحضرتْ غطاءً أخضر مطرزًا بخيوط ذهبية وزخارف دقيقة تسر الناظرين..

ذلك الرداء الذي نطلق عليه في تقاليدنا (مشمر العروس) رمز الفرح والاستعداد للرباط الأبدي، غطتني به جيدًا وكأنها تلفني بحكايات الجدات والماضي العريق.

خرجنا إلى القاعة المجاورة لغرفتي حيث اجتمع شمل من نسوة العائلة وآنساتها، عمات وخالات وبناتهن. ما إن وقع نظرهن عليَّ حتى تعالى الهتاف والتهليل وتقاذفن عليّ مباركات كزهور الربيع، وأعينهن تفيض بالسرور والإشراق..

انتبه الجميع على صوت والدي بعد أن تنحنح وهو يقول بصوت جهوري يستأذن الدخول:

- يا الله .. يا الله .. افسحوا الطريق .. (المأذون وصل) ..

أسدلتْ النسوة أغطيتهن وخمرهن على وجوههن المتبرجة وابتعدن بخطوات هادئة، يفسحن المجال لتبدل الأدوار.

جلستُ أنا في صدر القاعة على المقعد المذهب المعد لي بعناية مثل نجمة العرض، بعد أن تأكدتْ زوجة أبي من تغطية وجهي بحرص بالغطاء الأخضر، وتأكدتْ من ستري وخدري من الرأس حتى القدم.

كنتُ في ذروة الحماس والتوتر.. أتحرّقُ شوقًا لأجمل لحظة تجمعني بشريك حياتي الذي لم أتعرف عليه إلا قبل أسبوع!

عيناي من خلف القماش الأخضر الخفيف مسمرتان على مدخل القاعة،

ART_OF_BOOK

مرعب لحظة دخول العريس واقتناصه هو فقط..

دخل والدي يتقدمه المأذون الشرعي بوقاره المهيب، ووراءهما مجموعة من الرجال من مختلف الأعمار.

انتظموا في جلستهم حول المأذون، ملامحهم جامدة ونظراتهم مترقبة للحظة تتكرر باستمرار، لكنها فارقة بالنسبة لي بل تطوي كل مصيري.

كنتُ أنظر إليهم بدقة من خلف غطائي..

أبحثُ بين الوجوه عن محمد..

هل استعصت عليّ الرؤية بسبب القماش المسدل على وجهي!

فلم أجد ضالتي بينهم! أو لعل ارتباكي هو ما زاد الأمر تعقيدًا!

قلبتُ نظراتي بينهم بسرعة، وقلبتُ معها نبضاتي التي راحت تدق كأجراس إنذارٍ تصمّ الآذان، حتى انتبهتُ للمأذون الذي جلس أبي عن يمينه وعن يساره شابٌ في ثوب أبيض وبشتٍ أسود، تنسدل على رأسه غترةٌ مرتّبة بعناية.. كان مطأطئ الرأس كأنه يترقب مصيرًا غامضًا.

بصوته الرزين، وبعد مقدمةٍ عن أهمية الزواج وقدسيته، وجه إليّ المأذون سؤاله بصيغةٍ محددة للزواج: «ليلى جاسم يونس إبراهيم، هل تقبلين الزواج بـ(محمد منصور ياسر عبد السميع)...»

كان السؤال كموجةٍ ترتطم بصدغي وتهزني من الأعماق، شعرتُ بالدوار يلتف حولي كإعصار وعيناي لا تكفان عن البحث والتسلل بين الحضور، تنقبان بين الوجوه عن وجهه وكأنهما تطاردان سرابًا. صمتي لثواني حُسب على الحاضرين دهرًا.

بدأ المكان يضيق حولي حتى جاءتني قرصةٌ قوية بذراعي من زوجة أبي الجالسة بجواري وهي تهمس تخشى انفجار اللحظة:

- أجيبي بسرعة، والدك لن يحتمل أي خطأ.

رمقتُ والدي وهو يتنحنح والتوتر كدخان المدخنة يصفّر من رأسه، لم أجرؤ على النطق أو الكلام، وبماذا سأتفوه وسط هؤلاء القوم من الرجال والمأذون.. وأبي؟؟ لم أرَ محمد بينكم؟!

صوبتُ نظري للشاب الجالس على يسار المأذون مرة أخرى، عيناه ثابتتان في نقطة ما على الأرض، كان يبدو كالعريس تمامًا، ملابسه وأناقته! محط أنظار الجميع واهتمامهم ولكنني لا أعرفه، أراه لأول مرة في حياتي!

بدأتْ أصواتٌ تهمهم وتسود وقبل أن تعلو.. قطعها صوت المأذون بهدوء:

- هل توجد مشكلة يا ابنتي؟

تدخل والدي لاجمًا انفلات أعصابه يكز على أسنانه، يثني انفجارًا لن يرحم:

- خجل الفتيات يا شيخنا.. هيا يا ابنتي.. المأذون لديه مشاغل أخرى غيرنا.

طرح المأذون صيغة عقد الزواج مرة أخرى، وكان صوته كالنبض يتردد في أذني، يتناثر بين ثنايا الروح، ويقف عنده الزمن ليخنقني، ويحطم أحلامي وآمالي..

لم أجد أمامي إلا مخرجًا واحدًا، أمام هذا الحشد من الناس وأمام رجل كأبي!

فلو أخبرته بشكوكي وترددي لما زاده ذلك إلا طغيانًا وظلمًا.

قلتُ بصوتٍ متخثر لم يجد له فرصةً للنجاة.. غير الاستسلام: «أقبل.»

ART_OF_BOOK

تنفس أبي بارتياح وكأن الحمل الثقيل قد أزيح عن قلبه، وطبطبت زوجته على ذراعي بفرحٍ وكأنها تنكأ جرحي، مغمورة بمعركتها التي حاشى أن تهزم فيها.

لم أستعد وعيي إلا على زغاريد النساء وتصفيقهن الذي ملأ الأثير بعد إبرام عقد الزواج، وانصراف جميع الرجال الذين لم يبق منهم سوى هذا الشاب الغامض.. أعني العريس!

دفعته أخواته نحوي والأهازيج تصدح..

وقف في مواجهتي يفرد طوله وهو يرتب بشته الفاخر.. كنتُ بالكاد أبلغ ذقنه المرفوع وهو يرتب غترته. تفحصته بإمعانٍ من خلف الغطاء الذي بدا يرفعه برفق ليكشف عن وجهي، فأمسكتُ معصمه لأمنعه مما يفعل، ولكن بهدوء حتى لا أثير الانتباه.. تساءلت بخفوت:

- من أنت؟

أشاح بنظره جانبًا، وانحنى قريبًا من أذني وهمس بجرأة:

- زوجكِ..

رفع الغطاء الأخضر عن وجهي بعد أن أنزلت يدي المرتجفة وأنا أنظر بضبابية وغمامة سوداء تخيم على عيني، فلم أعد أرى جيدًا. قبّل جبيني كما جرت العادة في مثل هذه المناسبات، وابتعد عني بضع خطوات.. نظراته لا تبارح الأرض.

أخفضتُ بصري أنا الأخرى قصداً، لا أقوى على مواجهة شقيقتي سعاد رغم أنني لا أرى عينيها، فقد أغلقت وجهها المتبرج بإحكام، وهي تساعد إحدى

أخوات العريس في تقديم «الشبكة» ووضعها على الطاولة أمامنا.

كنتُ أشعر أنني سأنهار إن التقت عيناي بعينيها.. أو إن خاطبتني بلهجتها الحانية في لحظةٍ كهذه. كل ما حولي ضوضاء، طنينٌ باهت لا أفهم منه شيئًا.. انتبهتُ له فجأة يقترب من جديد، كأنّه يوشك أن يطوّقني بذراعيه، فارتجفتُ وابتعدت تلقائيًا. دنت سعاد وهي تضحك ثم همست بأذني:

- ما كل هذا الخوف! سيلبسك العقد فقط.

رأيتُ العقد الذهبي بين أصابعه، واستسلمتُ ليديه وهما تلتفّان حول عنقي، فيما الكاميرا توثق اللحظة. لكنني لم أتمالك نفسي.. بل لم يتمكّن حتى من إكمال الطقم الذهبي؛ إذ عصف بي الدوران، وتمايل جسدي فجأة، فأسرعتُ بالاتكاء على ذراع المقعد بعد أن اختل توازني بالكامل.

أمسكتني سعاد، وتبعتها النسوة، وقد توجّسن خيفة واقتربن بارتباك، يسندنني ويحطن بي من كل جانب، وهو يسعى معهن.. سمعته يطلب منهن فسح المجال لأتمكن من استنشاق هواءٍ أداوي به رئتي المتعبة..

****

وجدتني على سرير غرفتي ممددة بعد أن فقدت وعيي وهو يغلق الباب، وأحضر زجاجة عطرٍ من على رف عطوري ومررها قرب أنفي، فاستفقت جيدًا ولكنني خاوية القوى. جاهدتُ في الجلوس لأتمكن من شرب كوبٍ من الماء حتى أسترد أنفاسي التي سرقها مني هذا الرجل الغريب!

فأنا لم أره قبلًا! كيف سيكون زوجي!!

كنتُ متأكدة في قرارة نفسي أنني لم أره!

لم أفهم، كيف حدث ذلك!

نظرتُ إليه بفزع من خلال عينين ملطختين بخربشات الكحل السائل، كحلٌ كان قبل دقائق كلوحةٍ فنية. كان قد خلع بشته وطواه بترتيب على المقعد القريب من طاولة الزينة، ثم بعدما تيقّن من أنني استفقت تمامًا، اطمأن وسحب المقعد إلى جوار السرير وجلس قبالتي.. ناشدته بضعف فلم أكن قادرة على تلقي المزيد من الصفعات:

- أرجوك من أنت .. هل أنت محمد حقًا؟

أجاب بلطف: «ماذا تعنين؟ أنا محمد .. ما الذي يدور بذهنك؟ شاركيني لأتمكن من مآزرتك.»

شبكتُ على رأسي بملامح مرهقة:

- أرجوك.. لا تسئ فهمي.. ولكنني أتذكر بأن مظهرك كان مختلفًا عندما رأيتك سابقًا..

قال مازحًا: «وكيف ذلك؟ ربما أكون بسبعة وجوه كالأطفال الصغار.. وحتى لو اعتقدتِ بأن مظهري كان مختلفًا.. ربما جراء هذه الغترة والثوب أو حلاقة الذقن! فهذا محمد مهندس الحاسوب.. زوجك ..الذي تتحدثين معه عبر الهاتف كل مساء، والذي طلبتي يده عبر الماسنجر..»

ضحك وهو يقول جملته الأخيرة فشعرتُ بالخجل، ولاحت غمازة بخده الأيمن طمأنتني أكثر، بل إن هذا فعلا صوته العميق الذي تعلقتُ به، تعجبتُ كيف يمكن أن تكون ذاكرتي مشوشة لهذه الدرجة:

- صحيح ما تقول.. ربما أنا أعاني من اضطراب ما بسبب توتر

ART_OF_BOOK

التحضيرات، والأحداث الأخيرة.. كم أنا غبية ومحرجة منك!

- لا مشكلة ..

انتبهتُ أنه لم يمعن النظر إليّ، عيناه وكأنهما تبحثان في الأرض عن شيءٍ ما معظم الوقت، ألم يكن شغوفًا برؤيتي! ولم يثنِ على مظهري البتة، نهضتُ من السرير على عجالة أسحب فستاني الأخضر لأطمئن على صورتي.

وقفتُ في موازاة المرآة أرتب شعري وتبرجي المبعثر وأنا أقول بدلال:

- يبدو أنني لم أعجبك.. فأنت لم تشد بزينتي!

كان لايزال جالسًا على المقعد بجوار السرير معرضًا عني، لم يدر رأسه ناحيتي، وأنا أرمق صورته المنعكسة بالمرآة. بدا متوترًا يشبك يديه تارة ويحك جبينه تارة أخرى، ضحك متحرجًا وهو يعزي حالته هذه لإغمائي، فكأنه استجمع قوته ونهض..

اقترب مني بخطواتٍ بطيئة حتى قابلني .. وللمرة الأولى تلاقت عيوننا..

أمعنَ النظر في وجهي، فأسدلتُ جفنيّ بخجلٍ لم أعرف له مثيلاً من قبل..
غمرني كالموج، شعرتُ بأنني عمياء عاجزة عن ردّ النظرة أو مجاراتها..
وتصاعد احمرار وجناتي الساخنة حتى طغى على مساحيق تبرجي..

وقبل أن يعبر بكلمة باغتتنا سعاد، سبقتها هالة القلق الموجّه نحوي رغم استتارها التام. اخترقت اللحظة فتنحنح محمد وابتعد بهدوء مطرقًا برأسه من جديد.. أعطتني كوبًا من العصير لأشربه وهي تقول بحنو:

- هل أنتِ أفضل الآن؟ ألم أقل لكِ مرارًا أن تهتمي بطعامك؟ ضغط الدم سينخفض في كل مرة.. ثم تنهارين، هكذا، دون إنذار!

رتبتْ مظهري ومكياجي، وشبكتُ أصابع محمد الدافئة وخرجنا لاستقبال تهاني الأنام الذين احتشدوا بالقاعة..

وشيئًا فشيئًا استعدتُ مشاعر السعادة بعد أن تبلدت في بداية الليلة عند رأيت محمد..

وسعيتُ إلى تجاهل صوت أفكاري التي تصدح بأنني أراه للمرة الأولى.

****

مرّت فترة الخطوبة - أو عقد القران - سريعًا، لم تتجاوز شهرًا واحدًا كما قرر سلفًا زوجة أبي، انقضى بين انهماكي في دروس الجامعة، ولقاءات متقطعة مع محمد، لا تتم إلا بعد أن أبعث إليه بسؤالي المعتاد: «هل سنلتقي؟»

يوافق دائمًا، ويصحبني إلى السوق لأبتاع ما يلزم استعدادًا للزواج. لم يخطر له أن يأخذني إلى منزله سوى مرة واحدة، وذلك بعد أن سألته في بداية خطبتنا عن رغبتي في التعرف على أسرته. فرتّب زيارة قصيرة تعرّفتُ خلالها إلى والدته، ووالده المقعد جراء جلطة دماغية، وأخواته الأربع — ثلاث يكبرنه، وأخرى تصغره — رأيتهن ليلة عقد القران.

في تلك الجلسة السريعة، بدت لي والدته أيقونة للطيبة والحب..

لكن الأيام كشفت لي حقائق أخرى لم تخطر ببالي قط!

انقضت ليلتي الأخيرة في منزل والدي، والتي تعد ليلة زفافي، مستفيدين من تزامن الإجازة الأسبوعية مع إجازات الأعياد الوطنية، حتى لا أتغيب عن جامعتي أكثر من يومين..

ساعدتني أختي سعاد في إنهاء زينتي ثم جلستُ وحدي أنتظر عريسي بينما

أتأمل غرفتي التي سأودعها بعد لحظات، ولن يعود لي مكان فيها بعد اليوم..
ولا في هذا البيت الذي لم أشعر يومًا أنه بيت أبي بل بيت زوجته.. زوجته
التي لم تفلت حتى ليلة العمر من أذاها. جاءت تبثُّ سمومها، تتمغّن في
طلّتي ساخرة ثم دنتْ من النافذة تحدق في الشارع:

«ها قد وصل.. أعانكِ الله على أيامكِ معه.»

عبارتها استوقفتني؛ فهي لم تملّ من امتداحه طيلة الأيام الماضية. اقتربتُ
أسترق النظر معها ..كان يترجّل من سيارته بأناقة طاغية.. ليهبط في قصيدة
تغزلها عيناي، أسند جسده إلى مركبته في انتظاري وتركنا نتأمله مع الزمن،
طقمه الأسود ما زاده إلا سحرًا.

أكملتْ، ولسانها أفعى: «سيخونكِ بالتأكيد.»

- وهل قرأتِ ذلك في جبينه؟

ابتعدتْ عن النافذة، وقالت ببرود: «الفتيات لن يتركنه لكِ.. لا يميّزكِ شيء،
سوى عينيكِ.. ونظراتكِ كجنّية مرعبة.»

شتمتُها في سري.. وشتمتُ نفسي، لأنني منحتها من وقتي ما يكفي لتسممني.

أسرعت أرتدي عباءتي وخماري، ثم ودّعتُ أبي بعباراتٍ مقتضبة، تمنى لي
خلالها حياةً سعيدةً ومستقرة، لكنني تعمّدتُ ألا أنظر في وجهه، فلم أجد
فيه يومًا دفء الأبوة ولا حتى معرفة معناها. أما سعاد، فعانقتها دامعة فهي
ظلي وسندي الوحيد في هذه العائلة.

كان محمد في استقبالي، فتح باب السيارة بلباقة، دخلت وأنا أقبض على
توتري بين أصابعي المرتعشة.. وأسدل جزءً من خماري على وجهي المتبرج.

حاولت دفن كلام «الساحرة» بعيدًا.. ومضيت أراقب تفاصيله. وقعتُ في حبّه خلال الشهر المنصرم، رغم قلّة اللقاءات بيننا..كان حضوره كافيًا ليغمرني بالسكينة، ويمنحني كل ما أحتاجه دون أن أطلب.

ما يميّز محمد عنكَ، وعن سائر شباب الجامعة، هو اكتمال رجولته في ذلك الوقت.. ربما يُعد صغيرًا في نظر المجتمع، لكنني، بعمري آنذاك وتجربتي كنتُ أراه ناضجًا.. رصينًا، وواعياً بالحياة على نحوٍ يطمئنني..

برفقته، وجدتُ ما كنت أفتقده طويلًا.. الاحتواء، الأمان، والشعور بأنني لستُ وحدي في هذا العالم.

قصدنا استوديو التصوير لالتقاط بعض الصور للذكرى..

دخلتُ قبله لغرفة التصوير يسبقني توقٌ هادر لأن يراني بكامل زينتي بفستاني الأبيض الناعم، فهو لم يرني دون خمار إلا ليلة عقد القران، فلم يحدث أن اجتمعنا بمنزلي طوال فترة الخطبة.

بهدوءٍ متروٍّ، خلعتُ خماري وعباءتي، وأعدتُ ترتيب طرحة الزفاف الصغيرة على شعري بأناملٍ حذرة.. ثم وقفتُ في منتصف الغرفة منتصبةً تحت وهج الأضواء، أترقّب طلّته.. وانبهاره بعروسه.

دخل مع المصوّرة في اللحظة ذاتها، ألقى عليّ نظرة سريعة ثم انشغل بتعديل ياقة معطفه الأسود أمام المرآة، والتأكد من هندامه، ثم اقترب مني أمام العدسات، وأنا أراكم داخلي شوقًا لعبارةٍ تنفلت من فمه، لشيءٍ يُشبه الدهشة أو حتى التأمّل. فبادرتْ المصوّرة الآسيوية إلى الثناء على جمالي بحماس، وندت ابتسامته الجذابة كتأييدٍ لكلامها.

وقفنا جنبًا إلى جنب تحت أضواء الأجهزة الساطعة، كنتُ أتأمله بخفوت. لم تتلاقَ نظراتنا، ظلّت عيناه شاردتين لا تستقران عليّ، وكأن توتر اللحظة يشدهما بعيدًا، وحين اقترحت المصوّرة بعض الوضعيات العاطفية المألوفة، اعتذر بلطف دون أن يوضح السبب!

فلم نجد ما نستنجد به سوى المقعد المذهّب في غرفة التصوير، نتناوبه وكأننا نخوض لعبة الكراسي الموسيقية.. جلسة لي وأخرى له، ووجه المصوّرة يزداد حيرة مع كل لقطة باهتة..

وهكذا جاءت صورنا.. رسمية، جامدة، كأنها توثيق لمراسم صلح بين دولتين، لا لألبوم زفاف!

وصلنا إلى المنتجع. عشتُ في تلك الليلة كملكةٍ تُزفّ إلى عرشها. حملني بين ذراعيه بخفةٍ مدهشة، من أول الجناح حتى الشرفة الواسعة وأنا أسكر بضحكاتي الخجلة، أجلسني على مقعدٍ وثير، وسجدت أمامنا مائدة طعامٍ فاخرة تزهو بما لذّ وطاب. وإلى جانبها، حوض سباحة متوسط الحجم تتراقص أمواجه الصغيرة بتناغم شاعري، كأنها ترانيم من الجنة.

تناولتُ ألذ وجبة عشاء في حياتي رغم أن السعادة قد أشبعتني سريعًا.. همتُ في جمال منظر الطبيعة من الشرفة. دردشنا مطولًا، كنتُ ممسكة بلجام الحديث وهو ينصتُ باهتمام بالغ.

لم يخفَ عليّ أنه كان يضطرب كلما حلقتْ لحظات صمت ويشيح النظر عني معظم الوقت.. حتى إنه باغتني حين وضع يده على فمه يواري تثاؤبًا خافت بعد الطعام. شعرتُ بوخزةٍ في صدري، تساءلتُ في سري إن كنتُ السبب في تسلل الملل إليه.. ثم، بخجلٍ متوجس أشرتُ إلى فستاني وقلتُ:

- سأذهب لارتداء ملابس مريحة.

هز رأسه مشجعًا، فأسرعت نحو دورة المياه وغبت في جمال ديكورها الذي اتخذ شكل الأدغال بتصميم دقيق، وحوض استحمام غلف بأحجار طبيعية تجذب الراحة والاسترخاء الناجم عن الطبيعة..

رغبت في الارتماء والاسترخاء فيه ولكنني آثرت الإسراع لزوجي، فباشرت بأخذ دش سريع وارتديت قميص النوم الحريري الأبيض الطويل، وتحممت بزخات العطور المتنوعة، ومسحت كل تبرجي الذي سخرت منه «الساحرة»، واكتفيت بملمع خفيف على الشفاه، وأنا أتأرجح بين أعظم لحظات التوتر والحماس.

أخذتُ نفسًا عميقًا وخرجت من دورة المياه الملكية..

وإذا بي أرى محمد..

قد غط بنوم عميق دون أن يغير ملابسه، بقميصه الأبيض وبنطاله الأسود الرسمي، بل لم يخلع سوى حذاءه ومعطفه.

شعرت بالألم يستحوذ على قلبي، لا أعلم هل هذا ينبئ شرًا أم مجرد مبالغة مني!

جلستُ على طرف السرير فيما هو ينام على الطرف الآخر بمسافةٍ عظيمة ويشيح بوجهه جهة النافذة الضخمة المطلة على المسبح، حتى خشيتُ سقوطه من التخت لقربه من حافة السرير.

ارتميتُ ليس ببعيدٍ عنه وأنا أتجاذب أفكاري ذهابًا ورواحًا، ما هي المشكلة يا ترى؟! أتكون المشكلة فيه؟! مريض أو مضطرب؟! أو ربما يحب أخرى!

أم أنا المشكلة؟! فلم أنل إعجابه!

نعم، فهو لم يثنِ على جمالي لكنه سعى جاهدًا للزواج بي! أيكون تزوجني شفقةً علي؟! حيث كان زواجنا شبه إجباري وتحت التهديد بقتلي على يد والدي!

كان هاجس عدم إعجابه بي هو الأشد وطأة!

فأنوثتي لن تحتمل أبدًا أن لا يراني زوجي جميلة وستكون تلك المشعوذة (زوجة أبي) على حقٍ في رأيها المحبط عني.

خلصتُ إلى أنني سأجرب في اليوم التالي بعض الطرق التي قرأتها سابقًا في أحد المواقع الالكترونية النسائية، وقد أتمكن من الكشف عن المشكلة

آه.. حياتي بؤرة لا تجذب إلا المشكلات!

****

غرقتُ في نومٍ عميق تلك الليلة، وعندما استيقظتُ خيّل إليّ أن المساء قد حلّ من جديد، فالغرفة كانت غارقة في ظلمة تامة. امتدت يدي تتحسس الفراش فلم أجد محمد بقربي..

خفق قلبي بعنف، وفزعت من فكرة داهمتني بلا رحمة «هل هرب؟ في نهارِ زواجنا؟!» كلّ شيء في الأمس أوحى بعدم رغبته بي، وغيابه الآن يصرخ بالريبة.

قفزتُ من السرير نحو الستائر الثقيلة وسحبتها دفعةً واحدة، فإذا بالنهار يصفعني بضوئه الساطع، حتى أوصدتُ عينيّ من شدته، واستدرتُ لأتفقد الساعة فاطمأننتُ قليلًا.. كانت الواحدة ظهرًا.

بحثت عنه في الأرجاء فلم أجد له أثرًا. رفعتُ الهاتف بيدٍ مرتجفة واتصلت،

لا أعلم ما المصير الذي ينتظرني!

جاءني صوته الهادئ الذي رمّم تشققات قلبي:

- وجدتك نائمة ولم أشأ إزعاجك. أنا بالطابق الأرضي، بانتظارك.

تنفستُ بارتياح، ارتديتُ ملابس زاهية: قميصًا طويلًا واسعًا جدًا مع بنطال جينز، ثم أسرعتُ بالنزول. حسبت أنه سيستقبلني بالقبل أو العناق على الأقل! كان ينتظرني قرب المصعد وما إن رآني حتى غادر ببصره يعبث بهاتفه وهو يقول بابتسامة مهذبة:

- نسيتِ عباءتك، أليس كذلك؟

لم أحر جوابًا خجلًا.. عدتُ أدراجي مرة أخرى أرتدي عباءتي..

فلأننا نقيم بالمنتجع ظننتُ أن لا مشكلة إن لم أرتدِ عباءتي. نزلتُ مرة أخرى وكان قد سبقني إلى قاعة الطعام، شملني بنظرة رضا وناولني صحنًا لأختار ما أشاء من الأصناف المختلفة.

قضينا بقية النهار نتنزه بمرافق المنتجع المختلفة، فتارة نفترق لحمام البخار والمساج وتارة نلتقي لتناول المثلجات والمشروبات بقرب الشاطئ. وعندما غالبنا الإرهاق والتعب عدنا لدارنا، فارتمى على الكنبة الوثيرة وغط بنومه مجددًا.

ومضتْ بقية الأيام بين نزهاتٍ وتبضعٍ مستمر، حتى لم يبقَ سوى آخر ليلة لنا بالمنتجع، انفردنا نتناول طعام الغداء تحت قبة الصمت، عيناه لا تغادران صحنه ويتناول طعامه بهدوء كعادته، وأنا أتناول أفكاري ومخططاتي بهدوء أيضًا لأكسر غموضه هذا. بادر:

- هل تذهب إلى التنزه؟ أو إلى السوق إذا ترغبين بعد الطعام؟

رفعت رأسي أنظر إليه، وقد تسلل الامتعاض إلى ملامحي رغم محاولتي إخفاءه، شعرتُ بأن الأمر أكثر جدية مما يبدو، لكنني أجبت بلطف:

- شكرًا، لا داعي.. أريد أن نقضي الوقت هنا.. فقد انصرمت أيامنا وسنعود غدًا وأريد الاسترخاء أكثر.

انتهينا من طعامنا وصعدنا لمستقبلنا الغامض، جلس هو على المكتب الصغير في زاوية الجناح وكأنه يراجع حسابات عمله الخاص..

واتجهتُ أنا إلى حقيبة الملابس.. كنتُ قد قررت هذه المرة أن لا أكتفي بالمراقبة، أن أتوشح بشيءٍ من الجرأة، وأفهم أخيرًا، ما الذي يختبئ خلف هذا التجاهل العظيم.

راحت يدي تقلب الملابس، قطعة بعد أخرى.. أخرج ثوبًا ثم أعيده، كمن يختبر نبضه مع كل اختيار.

حتى بلغتُ ثوبًا أسود، قصيرًا على نحوٍ مشاكس يصرخ بالتحدي. تردّدتُ لحظة، ثم انتزعته قاطعة أمري في معركةٍ داخلية طويلة. ارتديته بيدٍ ترتعش، ثم أرخيتُ على كتفيّ شالًا شفافًا، يمدني بالجسارة وكأنه عبثًا يُخفي ما كُشف، فهذا أقصى ما يمكنني فعله. خرجتُ وخاطبته وأنا أرفع شعري للأعلى كذيل حصان، أحاول أن أتلبس الجرأة مجبرة:

- ما رأيك.. لو نغتنم هذا اليوم وننزل إلى المسبح؟ لم نستثمر جماله بعد..

رمقني بنظرة كوميض خاطف ثم طأطأ سريعًا يصفع نظراته بالأوراق المبعثرة أمامه، تاهت ألوانه. وبنبرة محايدة أجابني:

- سأنهي عملي وأتبعكِ..

خرجتُ لشرفة المسبح بضيق، وشعرتُ أن الحلقة الأخيرة بمسلسل محاولاتي قد باءت بالفشل. وقفتُ على طرف المسبح أراود الماء بأصابع قدمي واليأس يتناولني كلقمةٍ سائغة، أرمق زوجي من خلف الباب الزجاجي منغمسًا في أوراقه التي لا ينتهي همها، مثل متاهة يلوذ بها مني، تمزق ثقتي وتبث غصةً بصدري..

انتبهتُ على مسجلٍ كبير ينام في زاوية قريبة من المسبح، اتجهت ناحيته وفتحت بابه الصغير وأخرجت شريطًا أبيضًا أصغر من حجم كف اليد، قرأتُ محتواه على ظهره، تهللت أساريري، فكم كنت بحاجة إلى أن أضيع بكلمات هذه الأغنية!

أعدتُ الشريط داخل المسجل ورحت أضغط الأزرار الكبيرة أسرّع تارة وأعود للوراء بالشريط تارة أخرى، ورفعتُ صوت المسجل عندما وجدت أغنيتي المفضلة وضالتي، وضللت في ألحانها وسكرتُ بحروفها..

أغمضت عيني المنكسرة ورحت أتمايل بهدوء حتى ذاب الزمان والمكان. هتفتُ معها وأنا أدور على حافةِ المسبح..

كفراشة بيضاء ترفرف على شفاه الريح: (يا محمد عيني محمد.. يا محمد) أسدلت شعري كشلالٍ هادر، ينثر ظلاله يمينًا وشمالًا، أبدع فنًا خليجيًا مع تتابع الكلمات وقد وُلدت ابتسامتي من جديد (يمين.. يسار .. فوق .. واسبح..)

فجأة أغلق المسجل وساد الصمت ووجمت مكاني!

صوت متهور من محمد باغتني وهو يصيح بحماس وكأنه يكمل الأغنية التي أسكتها: «اسبح..»

قفز بالحوض بسرعة رياحٍ عاصفة، أرعبتني وأفقدتني توازني.

سقطتُ بلجة الماء أنا الأخرى.

أظلمتْ الدنيا بعَيني فجأة، ورحت أغوص وأغرق كلما ضربتُ الماء غايتي بلوغ السطح، دون جدوى.. فأنا لا أجيد السباحة البتة.

وما هي سوى لحظات حتى وجدتني ممددة على الأرض المكسوة بالعشب الصناعي بجوار المسبح بعدما أخرجني وجثى بقربي، وأنا أكح بقوة لألفظ الماء قبل أن يجتاح رئتي، كان يحاول مساعدتي والقلق يعصف بقسماته..

ظللت مستلقية على ظهري، أراقب السماء التي تميل إلى الزرقة وهيبة الذنب تقيّد عينيه أمامي، قلتُ له بمكر خافت ألطف الأجواء:

- هل كنتَ تتلصص عليّ!

رمقني بنظرة غريبة لم أحسن فكّ رموزها..هل كان معجبًا؟ أم مثقلًا بشيء لا أعلمه! فجأة بدرت منه ضحكة مكتومة:

- بحماسكِ لنزول الماء، كدتُ أظنكِ سباحة ماهرة

شعرتُ بالإحراج وغطيت وجهي بكفيّ أصطنع البكاء أمازحه..

انتبهت ليديه تطوقان معصميّ ليبعدهما عن وجهي وثبّتهما على الأرض قرب رأسي، واقترب بوجهه المبلل وقد التصق بعض شعره بجبينه..

تأملني بصمت ..حتى خُيّل إليّ أن اللحظة المرتقبة ستزهر.. لكنّ تأمله تحول

ART_OF_BOOK

فجأة إلى نظرة جادّة، وقال بنبرةٍ حازمة أثقل من الماء:

- انظري إليّ جيدًا.. هل ترغبين بي حقًا كزوجٍ لكِ؟

فاجأني سؤاله، لم أنبس حياءً ودقات قلبي تشق أضلاعي، رحتُ أراقبه بطرفٍ خفي.. قميصه القطني الداخلي المبلل يلتصق بجسده الرياضي ويكشف عن عضلات ذراعه السمراء التي ازدادت بروزًا وهو يطبق على معصميّ.

اقترب أكثر وهمس بنبرة مطمئنة، يخشى أن يخيف هذه الفراشة:

- لن أكون زوجكِ إلا إن رغبتِ بذلك.

أفلتَ قبضتيّ وأعرض بهم بالنهوض. فأدركتُ أنه لم يكن واثقًا من محبتي له.. أمسكتُ بساعده وأنا أتحامل على خجلي وأشد على لجام الجرأة لأقول له بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «أنا.. حقًا أحبك.. وكثيرًا»

أدار طرفه ناحيتي.. وخطفني إليه بشغفٍ من طال كبته حتى أضناه، فاستجبنا لنداء الحب وحلقنا في عالمنا، ذلك العالم الذي غيّر محمد، ما عادت عيناه تفرّان مني.. كأن نذرًا قد انحلّ، فانطلقتا إليّ دون حذر، بل صارتا لا تعرفان وجهةً سواي. فأقمنا من الهوى وطنًا، لغتهُ الدفءُ والحنين.

ولا أنسى أنه في صباح اليوم التالي حين استيقظنا، تبادلنا أطراف الحديث بهمسٍ ناعس، وسألته بعدما تذكرتُ أمرًا غاب عني: « لِمَ أغلقتَ المسجّل بالأمس؟ كنتُ أظن أنكَ لا تمانع الاستماع إلى الغناء.. أنا متأكدة أنني سمعت الموسيقى تصدح من سيارتك يوم لقائنا!»

- ربما تغيرت.. هذبتُ نفسي لأحيد عن طريق المحرمات ما استطعت.

لا يمكنني ان اصف لك! كم انقبض داخلي حينها!

لم أتوقع أن يكون محمد أكثر تشددًا من عائلتي التي طالما رأيتها ذروة في التحفظ. كنتُ أطمح برجلٍ متحرر أعبُر معه الحياة بطولها وعرضها دون أن أتعثر بقيود تُعيدني إلى ذات القصة القديمة، تحررتُ من سجن أبي لأجد نفسي مهددة بالانزواء خلف قضبانٍ جديدة أشدّ برودة وأضيق أفقًا.

وكأنما استشعر أفكاري المتزاحمة، عدّل من وضع وسادته وهو مستلقٍ على ظهره، ثم جذبني برفق لأجلس في حجره ورفع ركبتيه خلفَ ظهري لأستند إليهما براحة. قال يطمئنني:

- بالطبع.. أنا أحكم نفسي فقط. لكِ حرية الاستماع لما تشائين، هذا أمر شخصي، لا أتدخل فيه.

تحدث عن حدوده وقوانينه، أوضح أنه لن يتدخل في أموري العبادية والعقائدية، فهي بين العبد وربه، ثم مرر أصابعه بين خصلات شعري الكستنائي الطويل، وأكمل بنبرة لطيفة لكنها لا تخلو من الجدية:

- لكنني رجل شرقي غيور.. تهمني عفّة زوجتي. أريد أن يبقى حجابك وعباءتك كما هما الآن، أتمنى أن لا يتغيّرا يومًا..

هززتُ رأسي موافقة، كطالبةٍ مطيعة لا تحيد عن تعليمات معلمها، لا تجادل ولا تناقش فما كان يهمني حينها سوى نيل استحسانه. ابتسم، وكأن تلك الإيماءة وحدها أرضته تمامًا.

هممتُ بالنهوض لأحزم أمتعتنا استعدادًا للعودة إلى عشّ الزوجية الجديد في بيت عائلته، لكنه أمسك يدي وعيناه تلمعان:

ART_OF_BOOK

- جددتُ حجزنا هنا لعدّة أيام إضافية.

- لكن.. اليوم هو الأخير في الإجازة، وغدًا تبدأ الدراسة من جديد.

- لا بأس، سأوصلكِ للجامعة بنفسي.. فإجازتي مستمرة.

ابتسمتُ مؤيدة فكرته، فتابع وهو يضع إحدى ذراعيه تحت رأسه:

- لعلكِ ترغبين في استثمار المسبح كما قلتِ..

قال عبارته وهو يضحك يشاكسني لغرقي في اليوم السابق وكأنه لم يكتفِ بالأمس. رفعتُ حاجبيّ وتقاطعت ذراعاي فوق صدري متظاهرة بالعبوس:

- لئيم..

ازداد ضحكه ثم جذبني برفق يعانقني، وهو يتساءل:

- هل تنامين بعدساتك الملونة كل يوم؟

رفعتُ رأسي واتسعت حدقتاي مصطدمة بسؤالٍ شارد من عالمٍ موازٍ. أيعقل أنه نسي؟ لقد أخبرته في لقائنا الأول أنني لا أرتدي عدسات لاصقة:

- هل تمازحني؟ إنهما عيناي! أم نسيت!

ظل للحظات صامتًا غارقًا في تأمله وكأني بإحراجٍ يطفو بملامحه، ثم قال بمرح:

- بالطبع أمزح.. وهل يُعقل أن أنسى؟

لم أفهمه تمامًا حتى في عبارته هذه.. وبداخلي رغبة ملحة لأنتقم منه لسخريته المتكررة من مهاراتي في السباحة. فانتزعتُ وسادة وهويت بها على وجهه. زمّ شفتيه كاتمًا ضحكته، ثم أغمض عينيه كأنه يستسلم لي.

ضربته ثانية وثالثة، لكنه بقي ساكنًا.

اعترضت: «هذا لا يجوز! على الأقل تأوّه.. أنت كالحجر تمامًا!»

فتح عينيه بمكر وسحب وسادته بتأهّب: «هل انتهيتِ؟»

قفزتُ بسرعة أدفن رأسي بين ركبتيّ، وسمعته يهددني بشقاوة:

- ستنتهين الآن!

لم ألبث سوى لحظة حتى باغتني.. ذراعاه تحملاني، ويداه تهاجمانني بدغدغة شرسة. كنت أطير حرفيًا أركل الهواء وأصرخ ضاحكة وهو يواصل هجومه بلا رحمة.

حتى ارتمينا معًا، ألهث ودموعي تتقافز. شهقت وأنا أقول بين قهقهات متقطعة: «كدتَ تقتلني من الضحك!»

مسحت دموع ضحكاتي، فيما هو هدأ شيئًا فشيئًا، اقترب يحتضن وجهي بكفّه: «ليتني لا أُبكيكِ إلا فرحًا..»

وضعتُ يدي فوق يده، أهمس: «عدني بذلك»

طالعني بنظرة رجاء غامضة وقبل أن ينطق سمعنا طرقات على الباب، تعلن وصول إفطارنا للغرفة..

مضت تلك الأيام القليلة دافقةً، مترعةً بالدفء واللحظات العذبة..

وأغمضت قلبي فيها عن الغد الذي يلوح لي من بعيد .. بشيء لا أفهمه.

ART_OF_BOOK

٩

وأنتَ.. تشبهنا

في مكتب المرشدة الاجتماعية، جلستُ بجوار النافذة المطلة على المدخل الرئيسي للمدرسة، أراقب الساحة الخارجية المجاورة له، بينما النقاش بين المرشدة وأخي وغرمائه من الطلاب الذين اعتدوا ثم اشتكوا، لا يزال مشتعلًا.

كان صوت الجدال يعبر المسافات، وذهني سرح بعيدًا حتى ارتسمت ابتسامة على وجهي وأنا أرى والدي يعبر بوابة المدرسة للمرة الأولى

لطالما كانت أمي هي من تلبي استدعاء ولي الأمر، لكن هذه المرة جاء هو، كان حضوره كإعصار هادئ، يمشي بخطوات واثقة بقميصه الأسود الأنيق وبنطال رمادي ونظاراته السوداء.

أقبل إلى غرفة المرشدة فأسرعتُ نحوه بعفوية، وعانقته بشوقٍ فطري، أتمسك بخيطٍ من الدفء أخشى أن ينفلت مني.. كان في حضنه انتماءٌ وأمان كم كنت أتحرق إليه!

رمقتُ حسن من طرفي مستغربًا جموده، لم يزحزح خطاه ولم يقترب منه، بل ازداد جبينه تقطيبًا، كأنه يتحسس التوبيخ قبل أن يقع!

رحبت المرشدة بوالدي ثم بدأتْ تسرد تفاصيل ما جرى، متحدثة عن (أساليب خطرة وعنيفة) استخدمها حسن في التعامل مع زملائه، فبدأ حسن يقاطعها بين الحين والآخر مدافعًا عن نفسه كفارس صغير يذود عن سمعته.

لم تخلُ عينا أبي من الإعجاب به، لم يغضب، ولم يُعنّف، بل كان يراقب صغيره وكأنما يرى انعكاس مجده في هذا الشبل.

مسح على رأسه برفق، ثم قال - وكأنها زلة لسان خرجت دون قصد - بصوت يشوبه الفخر: «سِرّ أبيك.»

تعجبت المرشدة فعوضًا عن توبيخه يشجعه: «أبا يوسف.. لو سمحت، أنتَ تشجعه على ارتكاب السلوك الخاطئ بالمدرسة.»

ابتسم معتذرًا ولم يتخذ الموضوع بالجدية المطلوبة. التفتَ إلى حسن بنبرة تحمل في طياتها مزيجًا من الحزم والحنو، مؤكّدًا عليه أن يلتزم بحُسن السلوك غير أنه في اللحظة ذاتها، غمز بعينه غمزة خفية في تواطؤٍ صامت لخداع المرشدة.

فهم حسن الإشارة على الفور وكشفت نواجذه عن ابتسامة عريضة تحمل في طياتها الرضا والارتياح، وكأنه يدرك أنه نال استحسان أبي ورضاه حتى وإن لم تُقال الكلمات صراحة أمام المرشدة الغاضبة.

كان حسن طفلًا يشيع حوله سكينة الأدب ونبل الأخلاق؛ لا يمرّ في ردهات المدرسة إلا وخلفه أثر طيب، يشهد له طلابها قبل معلماتها. ولكنه بالوقت ذاته يحمل داخله شعلة تمرد تنفجر فيه فجأة، تجعله لا يميز كبيراً من صغير إن شعر بانتقادٍ يطاله أو توجيه بسلوكه. كان كبرياؤه رقيقًا كزجاج، ينكسر بسهولة أمام أي محاولة للمساس به، لكنه يعود دومًا أكثر إشراقًا..

وكأن ذلك التمرد لم يكن سوى جانب من جوانب عظمته.

أغدق أبي عليه بأحضانه يطوّقه بذراعه وكأنه يحتفي به ككنز ثمين طيلة

جلوسه أمام مكتب المرشدة، فيما اكتفى تجاهي بنظرةٍ حيادية، لا غضب فيها.

خلال ذلك أقبلت امرأتان. إحداهما بدت مرهقة، وجهها يشي بالضيق وكأن تكرار الاستدعاء صار عبئًا يحفر في معالم وجهها.

أما الأخرى، فكانت نقيضها تمامًا.. ابتسامتها مشرقة، تنقل بصرها بيننا وبين المرشدة بشيء من الفضول.

- تفضّلي يا أم ناصر.. كيف حالكِ اليوم؟

سألت المرشدة بنبرة ودّية. فأجابت المرأة المتعبة وهي تجلس على مضض ، ونظراتها تنهش ابنها المتنمر المتجهم أمامها: «كيف سأكون وناصر أفسد فطوري مع صديقتي (صباح).. هذا الصباح ككل صباح.»

انفلت ضحكٌ خفيف من بيننا، كان في لهجتها المتذمّرة حس فكاهي على غير قصد.. أما أبي، كان يطالع ساعته ونهض.. ضاقت به الغرفة، كأنه تاه فجأة وسط عالم لا يناسبه، نساءٌ وضحك وعيونٌ فضوليّة.

وقبل أن يعلن انسحابه، اقتربت منه السيدة «صباح» بمظهرها اللافت.. شعرٌ أشقر ينسدل تحت خمارٍ بالكاد يُخفيه، ومكياجٌ صارخٌ يتحدّى بألوانه دفء الغروب.. قالت بلطف لا يخلو من جرأة:

- ملامحكَ مألوفة.. هل نعرف بعضنا؟

فتّش أبي عن مهرب داخل صمتنا، يوزّع نظره بيني وبين حسن دون أن يجرؤ على النظر إليها مباشرة، ثم قال بجفافٍ متحفظ: «لا أعتقد ذلك»

ابتسمت وأشارت إلى حسن: «ابنك يشبهك كثيرًا»

تسللت ابتسامةٌ واهنة إلى شفتيه وهو يحرك أصابعه في شعر حسن.

شكر المرشدة على اهتمامها، وعاهدها ألا يتكرر مثل هذا السلوك من أبنائه.. شريطة أن يلتزم الآخرون بالأخلاق القويمة، وألا يُترك أبناؤه عرضةً للتنمّر مرة أخرى.. كان يتحدث بلين وهدوء مدروس، رغم ذلك كانت «أم ناصر» تزدرد حرجها وتدير وجهها بعيدًا عنه بخجل من سلوك ابنها. وصديقتها تتابعه.. فمضى ونحن نشيعه بتوديعنا وسعادتنا..

****

وكان للشقة نصيبها من فصول الحدث؛ إذ اجتمعنا حول مائدة الغداء، وصحون الأرز مع الدجاج المشوي والبطاطس تشهد معنا على حسن وهو يروي لأمي ما جرى خلف أسوار المدرسة، بفخر طفولي يختال كعائد من معركة ظافرة. وأبي غارق في هدوء مبتسمًا. ثم اختتم القصة منتزعًا الختام من فم حسن:

- يقلن إن حسن يشبهني كثيرًا.

مال حسن يسأل ببراءة ساخرًا: «ما اسم المرأة؟ صباح أم مساء؟»

ارتفعت الضحكات إلا ملامح أمي قد بهتت لحظة، وبنبرة تخالط الجدّ باللعب تساءلت، وهي تشير بسكين الطعام الناعمة:

- ومن هذه أيضًا؟! لا أقبل أن تقول لكَ إحداهن ذلك..

ساد الصمت، لحظةَ التوتر تلك التي تُربك حتى قرقعة الملاعق. ثم تابعت بتعالٍ مصطنع:

- لأن حسن يشبهني أنا، هذا أكيد.

@ART_OF_BOOK

ضحك أبي وقد بدا أنه استرد شيئًا من أنفاسه، ثم هز رأسه ممعنًا في استفزازها: «يشبهني»

- بل يشبهني

فيما تبادلا هذه المبارزة التي لا يملانها، حسن يضحك معتادًا هذه المناوشات التي تدور حوله. وأنا شعرتُ للحظة وكأنني خارج مدارهم، كضيفٍ بلا ملامح.

حتى ابتسمتُ بأسى، فالجدل كله كان عن «من له الفضل في وسامة حسن»، بينما لم يشر أحد إلى ملامحي أو يبحث في وجهي عن انعكاسهما.

ضحكت معهم، وتناولت طعامي دون تعليق. لا رغبة في فضح ما يعتمر داخلي غير أن شيئًا صغيرًا في قلبي كان يأمل أن يقول أحدهما يومًا ولو عرضًا (وأنتَ.. تشبهنا)..

قطع حسن الجدال حين نهض وعانق أمي:

- آسف ماما، لكنني أشبه أبي.. لستُ فتاة.

صافحه أبي وصفّر منتصرًا. أما هي فمطّت شفتيها تفتعل الغضب وسط هذا الجو الطافح بالضحك. غير أن أبي على غير عادته، نظر إليها فجأة بنظرة نادرة فيها بريق لمّاح، كأنها ومضة من زمنٍ آخر: « لا شبيه لهاتين العينين.»

توردت وجنتا أمي إذ لم تعتد كلمة غزلٍ منه، وتألقت فرحًا حتى أمسكت يده في مشهدٍ رومانسي وكأن كل العالم تلاشى من حولها وهي تقول:

- أحبك..

ART_OF_BOOK

لنا وقد مرّ على وجهه شيء من الحرج، ونحن نتابعهما باندماج. ثم قطع حسن الأثير بضحكة عالية أضحكتنا جميعًا وهو يصيح مداعبًا:

- ما كل هذا الحب!

كم تمنيتُ أن ينتهي حديث المائدة بهذه الأجواء المرِحة، أن تبقى الضحكات عالقة في الهواء! لكن ذلك لم يدم طويلًا. بينما كانت أمي تمضغ طعامها مسرورة محلقة بخفة.. توقفت للحظة، وضعت الملعقة جانبًا، ثم أدارت رأسها نحوي وسألت بنبرة يكسوها العجب:

- عامٌ كامل في نادي التايكوندو، ولم تتعلم شيئًا!؟

كلماتها هوت كحجر في بحيرة سكوني فارتجف الماء بداخلي، شعرتُ بالهمّ يطبق على صدري من جديد، وقلتُ بصوت متردد بالكاد يسمع:

- بلى.. تعلمت..

انتبه أبي وكأنه أفاق وتعكرت ملامحه، ثم بصرامة قاطعة أمرني:

- أرنا ما تعلمته خلال هذه الأشهر.

نهضتُ بثقل أحمل على كتفيّ جبلًا من التوقعات الثقيلة، واستعدتُ في ذهني تلك الحركات والمهارات التي تعلمناها في النادي، حاولت تطبيقها، لكنني كنت بطيئًا كسلحفاة، أو كأنني في مشهد سينمائي بالحركة البطيئة. أستدير ببطء، أرفع قدمي مترنحًا، وأركل الهواء بفتورٍ خالٍ من الحماس، أتوقف للحظات، أحاول استرجاع الحركة التالية كل حين..

فجأة دوّى في المكان صوت انفجارٍ غير متوقع، ضحك.. ضحك مجلجل ساخِر،

آتٍ من أمي التي تراخت على الكرسي، تكاد تنزلق منه من فرط ضحكها.

أما أبي فكان النقيض، احتقن وجهه بالغضب وراح يُشتم ويسب، نادمًا على المبالغ الطائلة التي صرفها على هذا النادي الذي لم يثمر إلا خيبتي، وهو يصفني بـ(بلاته العظيم)، وهي الكلمة التي لا يكف عن ترديدها كلما استشاط غيظًا بسببي..

لا يعلم بأن الغد قد يخبئ له بلاءً أشد وأعظم!

فجأة قفز حسن بسرعة يدافع عن النادي، وكالنمر الصغير يطير في الهواء برشاقة مشابهة (لتيغريس) في فيلم (كونغ فو باندا)، يركل بحركات سريعة متقنة يستعرض مهاراته القتالية بفن مفرط ويصيح بحماسة صاخبة: (هيه! هيه!) وكأنه في معركة مصيرية، بينما كنت لا أرى في نفسي سوى شخصية الباندا (بو) في بداية الفيلم..

غلى الغضب في صدري، وتحولت عينيّ إلى ينابيع لم أستطع السيطرة عليها، انصرفت للغرفة تاركًا ضحكاتها خلفي، تطاردني بسياطٍ من السخرية والقمع، سياطٌ عاهدت أمي نفسها قبل أيام أن تلجمها بعيدا عني..

ولكنها سرعان ما أخلفت وعودها الزائفة.

****

في اليوم التالي قصدت غرفة المعلمات واسترقت النظر من نافذة الباب، كانت معلمة التربية الإسلامية تجلس بجانب معلمة نادية يتجاذبن أطراف الحديث، عندما شاهدتني معلمة نادية أذنت لي بالدخول، أقبلتُ في استحياء فبادرت معلمة «فضيلة»:

- ابنٌ حلال يا يوسف.. للتو كنتَ أنت موضوعنا.

رحّبت بي بحفاوة ورافقتني برفقٍ إلى مركز مصادر التعلم في المدرسة، حيث يمضي الطلاب أوقاتهم في أنشطة هادفة ومتنوعة، اخترنا زاوية هادئة بإحدى الطاولات.

وضعتْ المعلمة جهاز التسجيل الصغير الذي تحمله دائمًا معها، وأدارت شريطًا يحمل تلاوة عذبة لسورة الانشراح بصوت الشيخ محمد محمود الطبلاوي، وقالت: «هل تذكر حين حدثتك بالأمس عن ابني؟ لا يزال متمسكًا منذ صغره بهذا القارئ وأنا كذلك. صوته يتفرّد بجلالٍ خاص وروعة في الترتيل.»

سألت عن رأيي. غشاني الخجل فأومأت مؤيدًا كلامها. ابتسمت برضا، ثم تابعت: «أريدك أن تنصت جيدًا .. استمع لها مرارًا، حتى يتشرّب قلبك روحها.»

فعلت.. كنت أصغي بكل جوارحي، كأنني أستقي من نهرٍ صافٍ من السكينة والنور.

عندما عدت إلى المنزل..

تناولت الجهاز اللوحي وطلبت من حسن أن يقوم بتشغيل السورة ذاتها.

جلستُ في غرفتنا أستمع بكل تركيز.

دخلت أمي ترتّب الملابس في الخزانة، ونظرت إليّ بدهشة. تشتّت انتباهي فورًا وعلق في وجهها. تمنّيت أن تبادر، أن تهتم.. لأنني أنشغل بشيء مفيد في هذه اللحظة.. كما كانوا يطالبونني دائمًا، لكنها لم تفعل.

جاء حسن بعد قليل، ضاق ذرعًا: «ألم تنتهِ؟ أعطني إياه..أريد أن ألعب.»

- لم أنتهِ بعد.

- ماما.. يوسف يستمع لنفس السورة منذ ساعات!

رفعت أمي بصرها نحوي أخيرًا، ثم قالت تخاطبه: «إذا كان تكليفًا مدرسيًا، فانتظر حتى يُنهيه.»

تهللتُ وسارعتُ أسرد لها بحماسة كيف التقيتُ بالأستاذة فضيلة خلال الفسحة المدرسية، أروي التفاصيل بابتسامتي، لكنها خرجت من الغرفة قبل أن أكمل عبارتي، وتركتني وسط كلماتي المشتعلة، معلّقة في الهواء.

اقترب حسن بهدوء عازمًا على سحب الجهاز، فتمسكت به غاضبًا:

- قالت أمي بعد أن أنتهي.. ولم أنتهِ.

راح يشكو ثانية، فسمعتها تقول له: «لا تقلق يا حبيبي، سأطلب من والدك شراء جهاز آخر لك.»

كنت أعلم أنني إذا تراجعت عن الاستماع، سيأخذه مني فورًا. فتمسكت به عنادًا وواصلت الاستماع إلى أن داهمني النعاس في الليل ونمت والجهاز بحضني.

في المدرسة، طلبت مني المعلمة أن أرتّل ما تدربت عليه. تملكني الخوف، ارتجفت. تنفّست بعمق، وثبّتُّ عيني على نقطةٍ في الجدار، كما نصحتني.

بدأت أرتّل ما حفظت.. ربما خمس آيات.. لكنني فاجأت نفسي. وفاجأت المعلمة.. ابتسمت وأثنت عليّ، وقالت إنها فخورة بي. وأزهرت كلمتها في صدري كنبعٍ دافئ.. منذ تلك اللحظة، صرت أرتّل كل يوم تحت رعايتها.

@ART_OF_BOOK

١٠
إزاحة الأقنعة

خرجنا من المنتجع نحمل بجوانحنا أريج الحب والسعادة، كما تحمل الورود قطر الندى، وصلنا إلى بيت محمد (عُشّ زواجنا)، كانت لي شقة صغيرة، تتكون من صالة واسعة تحتضن زاوية بسيطة للشاي والقهوة وغرفة نوم فرشها محمد وفق ذائقته المميزة.

استقبلتني والدته وأخواته بحفاوة عذبة، فوضعن قطعة نقود على قدمي كرمزية للتوفيق، وسكبن ماء الزهر لتُسكب البركة على عشنا، ونثرن المشموم الذي عبق المكان بعطره الآسر، بينما رددت شفاههن أهازيجًا تقليدية تشبه ترانيم المطر، وبين هذه الطقوس التي بدت لي بنكهة غريبة ولطيفة..

كانت يد محمد تستكين في جيب بنطاله، بينما كفي تقبض على ذراعه، أغزل من دفئها وشاح أماني، كتفه يحتويني كجبلٍ ثابتٍ لا يحيد عن دعمي وحمايتي خلال خطواتي الأولى.. نحو عالمي الجديد بين أفراد عائلته.

مع انبلاج صباح اليوم التالي، داعبت أشعة الشمس وجهي فاستيقظت مبتسمة ممتنة لزوجي بهذه السعادة.

نهضتُ وأنا أحمل في قلبي نشاطًا منبعه العشق، وبينما كان غارقًا في نومٍ عميق، طبعتُ على خده قبلةً خفيفة، ثم اغتسلتُ وزينت وجهي بألوانٍ زاهية، وارتديت فستانًا خمريًا يستر نصف ساقيّ، رفعتُ شعري الكستنائي

ART_OF_BOOK

كذيل حصان وارتديت أقراطًا ذهبية تتلألأ كضوء الشمس الذي داعب وجهي هذا الصباح، غمرتْ ملامحي بهالة من السحر والجمال ..

كان هذا الاستعداد والحماس لنهاري الثاني في بيت العائلة..

كنتُ قد قررت أن أعد الإفطار الشهي لزوجي، لأعزز حبي في قلبه عبر معد كما يقولون.

لم يكن في شقتي الصغيرة مطبخ بعد، فنزلت للطابق السفلي وخطفت بسر الغرفة الأولى، كان (والد زوجي) المقعد لايزال نائمًا. انتبهت لوالدته تخرج من نفس الغرفة، كانت رغم بساطة ملابسها تبدو غاية في الترتيب، ودائمًا تعبق منها رائحة ماء الورد والبخور. كان لافتًا أنها ترتدي خمارًا على الدوام و(جلابية) فضفاضة ومريحة تخفي جسدها النحيل.

أدركت الاختلاف بين ما اعتدتُه وما رأيته هنا؛ فزوجة أبي مثلًا، تخرج محتشمة تمامًا من رأسها حتى أخمص قدميها، لكنها داخل المنزل ترتدي ملابس كاشفة وضيقة نوعًا ما. وأنا كنتُ مثلها..لأنني كبرت على ذلك، لكن بدا أن الوضع هنا مختلف.

ألقيتُ عليها التحية وأنا في قمة السرور: «سأعد الفطور لكم.»

شملتني بنظرة تعجب: «أين ستركِ وحجابك يا ابنتي؟»

نظرتُ لفستاني وأنا أقول باستغراب:

- ولِمَ؟ لا يوجد بالمنزل إلا محارمي، عمي وزوجي.

تلعثمتْ وامتقع لونها:

- يكثر زوارنا من الأهل يا ابنتي، ارتدي خمارك وعباءتك عند النزول.

هززت رأسي موافقة وشعرت بالإحراج يغزوني، واستأتُ من تشدد محمد وأسرته، فالمنزل في معظمه فارغ حتى أن شقيقاته الثلاث متزوجات، ولا يوجد بالمنزل سوى شقيقته الصغرى والتي تكبرني بعام «ياسمين»! وهي لا ترتدي خمارًا داخل البيت!

فلماذا أنا مجبرة على ذلك!

نفذت الأوامر وأنا أغمغم بيني وبين نفسي (إن تملصت من محمد لن أتملص من والدته) ألقيتُ الخمار على رأسي كيفما اتفق وتسلحت بعباءتي وعدت أدراجي.

قصدتُ المطبخ ووضعت الإبريق الزجاجي الممتلئ بالماء والشاي والمكونات العطرية على الفرن.. وقعت في حيرتي! كيف أشعل الفرن؟ مفاتيح الإشعال فيه تبدو مختلفة عن ذاك الذي بمنزل والدي.

فجأة فُتح باب المطبخ المؤدي للممر الخارجي.. في لحظة قطعت صمتي وحيرتي التافهة مع الفرن.. تدفقت أشعة الشمس ساطعة مع الباب، لكن معها.. سقط قلبي في هوّة لا قرار لها!

عاجزة عن استيعاب ما أراه أمامي! تخيل!!

إنه ذلك الشاب (فتى الساتلايت) الذي تعرفتُ عليه لأول مرة في بيت أبي والذي.. حسبته.. زوجي!!

كانت صورته قد تلاشت من درج ذاكرتي مع مرور الأيام، لكنّ رؤيته الآن أعادتها دفعة واحدة. كان يرتدي ملابسه القطنية الخفيفة كعادته، وللمرة

ART_OF_BOOK

الأولى أراه بلا قبعة.. وبلا نظارات شمسية.

بوغت هو أيضًا، ولكنه سرعان ما كسر الصمت، وراح يتنحنح وهو يحمل حقيبة ملابسه على كتفه: «يا الله.. يا الله ..»

وبسرعة عدلتُ من وضع خماري النائم بلا ترتيب على شعري بأنامل ترتعش.. لُجم لساني.. كنت أريد أن أتحدث، أن أعبر، أن أقول ماذا يجري؟ ماذا يحدث؟ من أنت؟! دون جدوى..

كانت الثواني تمر وكأنها دهرًا.

لاحظ وقوفي بجانب الفرن، اقترب مني.. وقف جواري، ضغط زر التشغيل، وانبعثت شعلة النار أمامنا:

- هكذا يتم تشغيله، ومبروك لكما الزواج السعيد..

صوته المتهكم كان كالسُمّ وقبل أن ألتقط أنفاسي وأتحدث.. اقتحم محمد الأثير وكأنه استشعر غيابي بسرعة! كان ما يزال بثياب النوم، قميص داخلي قطني وسروال فضفاض بلونٍ أزرق داكن تتقاطع عليه خطوط خفيفة، شعره مبعثر وملامحه مرهقة، كأنّه قفز من السرير إلى المطبخ مباشرة.

نظر إلى الشاب محتقنًا: «ما الذي أتى بك؟!»

تجاهله الآخر وعدّل وضع حقيبته مستعدًا للانصراف بصمت.. لكن محمد لم يمنحه فرصة، شد ذراعه و صاح بغضب: «عُد من حيث أتيت! هيا!»

- ألا يكفي ما فعلته بي؟! هذا بيتي كما هو بيتك .. أنتَ من عليه أن يغادر!

أفلتَ الشاب ذراعه من قبضة محمد بعصبية وصعد السلالم قاصدًا إحدى

الغرف وأغلقها، بعدما ترك خلفه الهواء مشحونًا بالكهرباء.

في اللحظة التالية، تحوّل محمد.. انفجر!

استحوذ عليه شيطانًا مرعبًا ..

انقلبت المقاعد، وتحطّم إبريق الشاي دون أن يبالي بسخونته، وصوت الزجاج المهشم دوّى كجرس إنذار يُنذر بانهيار كل شيء!

وأنا! أقف وسط الزلزال، عيوني تمطر من هول الدهشة، لا دموعًا فقط بل صدمة تحرقني حتى الأعماق.

أكان زواجي كلّه وهمًا!

كذبة أتقنت حياكتها حول غبائي وتفرقعت الآن دون أن ترأف بي؟

كل ما ظننته حبًا، صدقًا، شغفًا.. هل تبدد!

أفقتُ من شرودي على وقع خطواتٍ متلاحقة وصوت والدته وهي تقترب، تتبعها ياسمين، وذعر حقيقي في عينيهما. وقفتا عند باب المطبخ، تتمعنان في الكارثة..

قطع زجاج متناثرة.. شاي مسفوك وفوضى مقاعد، وأنا في الزاوية أضم ذراعيّ إلى صدري أحاول النجاة من كل شيء.

حينها فقط طالعني.. صرخ بي لأول مرة.. صوته جاف، غاضب، لم أعهده:

- ماذا قال لكِ ذلك الـــ؟!

انتفضتُ وصرختُ ببكاءٍ هادر وأنا أحدّق فيه، أبحث عن تفسير واحد لكل

ART_OF_BOOK

هذا الخراب: «من هذا؟ أخبرني؟ لماذا هو هنا؟ كيف أصبحتَ أنتَ.. بعد أن كان هو؟!!»

شد ذراعي من بين صيحات أمه المولولة ودهشة أخته، ودلف بي إلى الشقة وهو في حالة من الجنون الجامح المخيف، رمى بي على المقعد في الصالة وهتف بي:

- لماذا تبكين؟ هل ندمتِ الآن على الزواج مني؟!

ازداد نحيبي خوفًا منه وتقطعت كلماتي:

- أنا لا أعلم ما الذي يجري! من يكون؟!

وكانت المفاجأة كطلقة من عيارٍ ثقيل اخترقت احتضاري بتلك اللحظة لتترا في أعماقي رجفة لا تهدأ، وصدى يتردد ويهز أركاني بعنف لا يحتمل:

- أخي
- أخوك! وكيف لم أعلم قبل الآن بأن لكَ أخًا؟!
- لأنه أصبح عدوي .. ارتحتِ!

عادت المقاطع وكأنها من فيلمٍ مفكك، منذ لقاني بأخيه وحتى حديثي معه.

عبثًا حاولت لملمة قطع الأحداث وربطها، دون جدوى. نهضتُ، تتقافز الأسئلة والدموع في آن، وصحتُ به غاضبة:

- كيف حدث ذلك؟! هل تزوجتني لأنكَ تكرهه؟! أنا فقط وسيلة انتقام!

انهرتُ أكثر لهذا الاستنتاج، وارتميتُ على الكنبة مرة أخرى ورحت أشاهق

وكدت ألفظ آخر أنفاسي.. فهدأ غليانه قليلاً وأقبل يسعى إلى تهدئتي سبيلًا:

- لا ..لا .. ليس كذلك .. اهدئي..

ناولني كوبًا من الماء وجلس قربي، ينفث نيرانه بصمت لا يدري كيف يجيب، بينما انخرطتُ في بكاءٍ هستيري، كأنني عالقة في عين إعصار لن يهدأ.. بدا واضحًا أنه تزوجني.. فقط لينتقم! فلم يبرر.. بل لاذ بالصمت.

أنا التي كنت أحسب أن نظرة تكفيني لأشعل الدنيا، أُخدع بهذه السذاجة؟

لا حبّ، لا إعجاب، فقط تصفية حسابات!

كلما ترددت الفكرة في رأسي انفجر النحيب من جديد، كأن الطعنة تتكرر دون توقف..

انتبهتُ إليه يقفز من مكانه وقد ضاق ببكائي، يقطع الصالة ذهابًا وإيابًا، والأرض لا تكفي غضبه، صاح يملي أوامره بعصبية:

- لن تخرجي من الغرفة إلا بعلمي! لا لإعداد طعام ولا غيره..

دخل يستحم.. قضى وقتًا طويلاً، ربما يحسب أن الماء سيخمد النيران التي تلتهمه بضراوة. خرج بعدها جامد الملامح، أغلق على نفسه باب غرفة النوم بحدة وكأن سخطه موجّه نحوي! لم أفهم ماذنبي!

بعد أن ارتدى ملابسه مر أمامي وهو يغلق ساعته بعينين زجاجيتين، وكأنني غير مرئية. لم يرمقني بنظرة، لم يلفظ حرفًا!

كنت رغم فاجعتي وخذلاني.. أرجو تفسيرًا، أو حتى كذبة تشبه التبرير تخفف وطأة الزلزال بداخلي، لكنه لم يمنحني شيئًا.

ART_OF_BOOK

فقط.. انصرف وأغلق الباب خلفه.

بقيتُ وحدي، أغرق في طوفان دموعي، تائهة .. بلا وجهة..

وما كان أدهى وأمر من ضياعي هذا إلا شعور الوحدة القاتلة التي مزقتني في هذه اللحظة، لمن سألجأ؟! لا منزل سيأويني! غرفتي في بيت والدي.. أصبحت من نصيب أخي، ولو علم أبي بحقيقة ما جرى سأكون أنا المذنبة بنظره، أنا من سلمت نفسي لهذا المصير الفاضح!

فكرت في سعاد، ولكنني أيضًا لم أرغب في إقحامها بمشاكلي..

نهضتُ متجاسرة، مخالِفةً أمره بالعزلة، وخرجت من الشقة بخُطى حذرة. كنتُ أتشبث بخيط أملٍ أن أعرف شيئًا، أيّ شيء من أخته أو والدته. لكنني ما كدت أبلغ عتبة السلّم حتى سمعتها بصوتٍ ممتعض تخاطب ابنتها:

- لو أنكِ تركتِ زوجته تنظف الفوضى التي أحدثها بالمطبخ.
- لا، ما زالت عروسًا و..

قاطعتها تشتمُني بجفاءٍ خالٍ من الرحمة. اختنقتُ، ووقفت أُصغي من حيثُ لا يراني أحد. سألتها ياسمين:

- أخبريني، ماما.. كيف علمتِ بكل هذا؟!

فبدأت تروي لها تفاصيل الخطبة وما تبعها.. بحكاية كاملة دقيقة وأنا أذوب في مكاني، أتنصّت وأحترق بصمت.

وفجأة، سمعتُ حركةً في الغرفة المجاورة لشقتنا.. صوتٌ يُنذر بخروج أحدهم. ارتعدتُ، وأسرعت أعدو عائدة إلى شقتي، أغلقت الباب خلفي أموت بسخطي وألمي.

****

صوت طرقات على باب الشقة.. نهضت بتثاقل.. كانت ياسمين، دخلتْ بأمارات حزن على وجهها وهي تسأل عن حالي، سعت إلى تهدئتي وجلست جواري على الكنبة، فسألتها بحنق ودمي يغلي: «هل كنتِ تعلمين أيضًا بهذه الخطة القذرة؟! صفقتم واستمعتم بالتلاعب بي كدمية تالفة!»

استدركتْ سريعًا: «أقسم لكِ يا ليلى، ظننتكِ على دراية بكل ما حدث! اعتقدتُ بأنكِ فضلته على أمير، فهذا ما فهمناه من محمد.. حتى أمير يظنك فضلتِ محمد عليه!»

قلتُ بتهكم وأنا أشعر بالإشفاق على نفسي: «للتو فقط عرفتُ أن اسم أخيك الآخر (أمير)! لم أكن أعلم عنه شيئًا سوى مظهره الخارجي.. بل ولم أره جيدًا إلا اليوم!»

- أعتذر عن كل ما حصل، اعتقدناك ظالمة وفضلتِ شقيقًا على الآخر، ولكن في الواقع كنتِ أكثر من ظُلِم.

جعلني كلامها أشعر بالسوء أكثر!

فماذا اقترفتُ حتى يجعل مني محمد فتاةً بلا قيمة بل سيئة في نظر الآخرين لهذه الدرجة!

وبغضب يتقد بعروقي وإصرار طلبتُ منها إخباري بتفاصيل إقحامي بهذه الجريمة.

١١

البناء الزائف

سأسرد عليكَ تفاصيل ما جرى.. كما باحت به ياسمين، وما التقطته أذناي خلسةً من حديث والدتها التي تبغضني..

قبل فترة وجيزة من عقد قراننا، عاد محمد للمنزل ذات مساء وهو يحترق حنقًا، الشياطين تتقافز برأسه وهو عاجزٌ عن دحرها..

كان كمن خانته الأرض، بصوتٍ محترق يكاد يخنق الكلمات.. صرخ أمام والدته:

«ابنكِ الناكر للجميل.. اقترف أعظم خيانة! نهب خلاصة تعبي، وافتتح محلًا ينافسني به في الخفاء! نسخ كل ما بنيتُه حجرًا حجرًا، ونفّذه كما لو كان له! أتعلمين كم من الليالي أحرقتها أمام الشاشات أبرمج أنظمة الطلبات، وأربط شبكة الموردين بالخارج ضمن مسارات دقيقة لا يعلمها سواي؟! لقد صمّمتُ برمجيات خاصة لإدارة التركيب، وتنظيم الفواتير، وتأمين بيانات العملاء، وكلها من بنات أفكاري وجهدي!! ذلك المشروع لم يكن متجرًا فحسب! بل كان امتدادًا لي، لتعبي وسنواتي التي لم أعشها كبقية أقراني، والأدهى من ذلك أنه استدرج اثنين من عمّالي، فاستقالا دون أن أفهم السبب، بينما كان هو من وراء الستار يسحبهم واحدًا تلو الآخر! وكنتُ كلما سألته في الأشهر الماضية إن كان هناك ما يخفيه عني.. يصر على الإنكار!! والآن سمعت من أحد أصدقائنا

الحقيقة، تخيلي صدمتي وإحراجي أمام صديقي.. تمالكت نفسي حتى لا أظهر له أن أخي خدعني بهذه الصورة!»

حاولتْ ياسمين ووالدتها تهدئته، فاستعانتا على ذلك بما تعرفانه عن مشاعره تجاه أمير، وبما يُكنّه له من محبة وشفقة. قالت والدته بصوتٍ متهدّج:

- أنتما إخوة، هو لا يريد سوى أن يبني مستقبله، أن يعتمد على نفسه، أن يتحمّل نفقات دراسته دون أن يُثقل كاهلك في كل مرة..

صاح محمد محتدًا:

- أمي، لا تدافعي عنه!! لماذا لم يناقشني في الأمر؟؟ كنت سأشاركه بأفكارٍ لمشاريع أخرى!! لا أن يسرق فكرة مشروعي وعمالي!! أين موقع محله؟

قالت ياسمين بحذر محاولة تجنب تصعيد الموقف أكثر:

- وما أدرانا يا أخي أين المحل، ثم لمَ لا تتشاركان؟ كثير من الشركات والمحال تنشأ بين الإخوة، وتنمو معهم!

لكن عبارتها تلك خنقته، وكأنها غرسَت سكينًا في قلبه! انتفض، وانفجرت شرايينه من شدة الغيظ، وصاح: «كفى .. ما هذا الذي تقولينه!! أنا أترفع عن نطق اسم هذا الخائن!! فكيف تجرئين على دعوتي لمشاركته!»

ارتعد قلبها من نبرته التي لم تعهدها في تعامله معها على وجه الخصوص، بينما تجمدت والدته في مكانها، وعيناها تتبعانه وهو يندفع نحو الباب، يتوعد، يهدد، وكل شيء فيه يصرخ: «الغدر من الأخ لا يُغتفر.»

****

لن يفهم أحد مقدار الغضب الذي حمله محمد سوى أسرته، فهو لم يكن مجرد أخ لأمير بالذات، بل كان يدعمه كأب أيضًا!!

والدهم مقعدٌ منذ سنوات طويلة، وحتى قبل ذلك، لم يكن يهتم بهم، همه الأساسي الاستمتاع بالحياة كيفما يشاء..

وعندما هوى في فراشه، لم تسعفه سوى أسرته، فعاش الأبناء حياتهم دون تذوق طعم الأبوة وعدم استنباط أدوارها الحقيقية..

كان محمد عصاميًا.. كالنهر الجارف الذي يشق مجراه بعزم لا يلين، متجاوزًا الصخور والمنحدرات، لا ينتظر أن يُفسح له الطريق، بل يصنعه بعرقه وإصراره، كبر قبل أوانه، وكأن الزمن استعجل في ركضه معه منذ اللحظة الأولى حين وُلد في يناير، ودخل المدرسة مبكرًا عن أقرانه، وتخرج أصغرهم سنًا.

أكمل دراسته بشق الأنفس، يقسم نهاره بين المقاعد الدراسية وساعات العمل المتواصلة في وظائف جزئية، حتى استقر به الحال مبكرًا على مشروعه الخاص معتمدًا على ذاته، بدأ بسيطًا في مجال «الساتلايت» إلى جانب تصليح أجهزة الحاسوب، لم يكن الطريق ممهدًا ولا النجاح سهلًا، والقدر كرّم اجتهاده، فلم يتأخر عامًا واحدًا عن تخرجه، والتحق بإحدى كبرى شركات البترول والغاز كمهندس متميز.

ومع مرور الوقت، راح يوسّع مشروعه، وجعل منه منصة ناجحة ولم ينسَ عائلته يومًا، فساهم في دعم أمه وإخوته الأصغر منه سنًا وعلى وجه الخصوص(أمير).

كان حريصا منذ البداية على ألا يطّلع أي من العمال على تفاصيل عمله،

احتفظ لنفسه بالأسرار التي طوّرها بجهده وخبرته «كمهندس حاسوب» من برمجيات خاصة للعمل، أوكل كل تلك الأسرار، من دون تحفظ، لأخيه أمير فقط، لأن ثقته به كانت عمياء، بل أشبه بالإيمان.

أمير يصغر محمد بثلاثة أعوام، قدم له الدعم المادي الذي يحتاجه، لم يتمكن أمير من مواصلة الدراسة الجامعية محليًا، فبعد عام من انتظامه بالدراسة تم طرده من الجامعة لانخفاض معدله.

وظل ينتقل من جامعة لأخرى دون جدوى، يمولها محمد دون تبرم، وضمه إلى عمله، براتبٍ يفوق بذله في العمل، وقبل بضعة أشهر أعرب أمير لأخيه عن شعورٍ يراوده بالملل، ورغبته في التفرغ التام لدراسته الحالية عبر الانتساب لجامعة خارج البلاد.

ولم يخطر بذهن محمد أن أخيه يبني في الخفاء مشروعه الخاص على أنقاضه، تحت مظلة التفرغ للدراسة.

فقرر محمد أن ينتقم من أخيه بخبث وهدوء كالطعنة التي تلقاها تمامًا..

فمضت تلك الأيام بطيئة بالنسبة لجميع أفراد الأسرة..

كان أمير خلالها يتحاشى رؤية أخيه ويفر هاربًا ما إن يحين وقت عودة محمد للمنزل أو يحكم إغلاق غرفته..

كانت خطة الانتقام التي رسمها تبدأ بمراقبة أخيه، المراقبة الدقيقة دون أن يشعر الآخر، ثم على إثر هذه الدراسة والمراقبة الحثيثة سيدرج إجراءات انتقامه..

****

في ذلك المساء وبينما محمد يدخل شقته، رأى ياسمين تدخل غرفة أمير المجاورة له وتغلق الباب خلفها، وبدا واضحًا أن هناك سرًا سيتم تداوله بالغرفة، فاقترب بحذر متجردًا من اندفاعه وأرهف السمع. قالت ياسمين لأخيها: «أغلق المحل فورًا.. محمد يكاد ينفجر، ويسأل عن العنوان بلا هوادة.»

- لا عليكِ منه.. غضبه كالفقاعة.. لدي موضوع أهم..

بحماس تساءلت: «أخبرني ما هو؟»

جاء صوت أمير خافتًا: «هناك فتاة أعجبتني.»

ضحكت ياسمين ثم قالت ساخرة: «وكأنها الفتاة الأولى التي تعجبك! المهم، وهي معجبة بك بالطبع؟»

- لا.. ليس بعد. رأيتها اليوم فقط، لا تعرف أي شيء عني ولا اسمي حتى، وتبدو من عائلة محافظة. طلبتُ بريدها الإلكتروني ولم تتجاوب.

صمت للحظة ثم تابع بنبرة شبه راجية: «أريد أن أتعرف إليها، لو تساعديني .. هي من حيّ قريب لمنطقتنا. ليلى جاسم يونس. ربما تعرفينها، ولا وقت لديّ أضيعه في البحث عن وسيلة للتواصل معها»

- لا .. لا أعرفها.

(رغم أن ياسمين تذكرتني بسرعة لأننا فعلاً كنا سويًا بالمدرسة الثانوية، وبسبب عيوني الرمادية المميزة على حد وصفها، فالعيون الخضراء ليست بتلك الندرة بمجتمعنا كالرمادية، إلا أنها أخبرتْ شقيقها بأنها لا تعرفني حتى لا تخوض بمشاكله الرومانسية المعتادة)

@ART_OF_BOOK

أحبط أمير بردها، ثم تمتم متنهّدًا: « أريد أن أحادثها قبل سفري.. تعلمين بعد غدٍ سأسافر لتأدية الامتحانات.. أريد أن استغل وقت الفراغ في العشق والهيام»

- دع الفتاة وشأنها.. ليست كمن اعتدتَهن..

- ألم تدعي بأنكِ لا تعرفينها يا مجرمة!

تلعثمت: «لا أعرفها، ولكن بدا من وصفك أن طريقك لا يشبهها. ثم منذ متى أتدخل في قصص غرامك!»

- اختلافها يشدني أكثر إليها. ثم ..ربما أكون جادًا هذه المرة ما أدراك!

ضحكت باستخفاف لعبارته، فتابع يائسًا: «ظننتكِ ستساعدينني، سأسعى للقائها غدًا، رغم ضيق الوقت.. هيا انصرفي.. أختٌ بلا جدوى»

خرجت، فوجدت محمد مسنِدًا ظهره إلى الجدار قرب الباب. شحب وجهها، وأغلقت الباب خلفها بسرعة وهي ترفع نبرتها تنبّه من في الداخل: «محمد!»

ما إن سمع أمير إنذارها أسرع وأدار المفتاح في القفل، فيما ارتسمت على شفة محمد نصف ابتسامة ماكرة، تمتم بخفوت:

- ترتعب من غضبٍ كالفقاعة.. يا جبان

لم تفطن أخته أن عبارته تنبئ بسماعه لحديثهما. مضى نحو شقّته بخطى وئيدة كعادته، غير أن خطاه هذه المرة مثقلة بنيته في مراقبة أمير، للوصول إلى موقع محلّه ثم الشروع في تنفيذ خطّته ليطفئ هذه النار التي تأكل قلبه منذ أيام.

ART_OF_BOOK

في اليوم التالي، كلّف محمد أحد عمّاله بالمهمة الخفية: مراقبة أمير!

ومع انقضاء عمله ظهيرة ذلك اليوم تواصل مع ذلك العامل الذي تحوّل إلى عينه السرّية واكتفى منه بالمعلومات ثم صرفه بهدوء، بعد أن تبادلا المركبات لتستمر المراقبة الخفية.. والمهمة لم تنجح في بدايتها، فلم يتردد أمير على المحل طوال الساعات المنصرمة بل ظل يتنقل من شارع إلى آخر إلى أن توقف قبالة منزلي.

جلس محمد في السيارة متوارٍ خلف سورٍ حجري قرب بيت والدي، يسترق النظر بخفوت.. يتابع أمير وهو يقف غير بعيد، يستند إلى جدار بيت الجيران المقابل لنا، عيناه وراء نظاراته الشمسية المعتادة ويراقب الباب بملل.. لا يدري أن كل حركة منه تُرصَد بدقة من قبل أخيه. إلى أن ظهرتُ أنا أخيرًا، أحمل كتبي الجامعية، متوشحة عباءة سوداء فضفاضة كعنوانٍ لأسرتي المحافظة، ولاحظ التفاتتي بسرعة ناحية أمير واستدارتي في اتجاهات مختلفة بتوتر وقلق، واندفعتُ للمنزل بسرعة..

دون أن أعلم أن تلك اللحظة جمعتكم أنتم الثلاثة في المشهد ذاته:

أمير .. محمد .. وأنت!

في تلك الأثناء راح محمد من موقعه المتواري يراقب إيماءات أخيه في حواره بلغة الإشارة معي وأنا أطل من النافذة، وكما أخبرتكَ سلفًا فتحتُ النافذة ورميتُ لأمير الورقة الزهرية التي تحمل عنوان بريدي.

التقط أمير الورقة وراح يقفز طربًا، صعد سيارته وصوت الأغنية العالية الحالمة تسيطر على الطريق، يجوب الشوارع لمآرب أخرى..

إلى أن وصل للمحل أخيرًا، دخل على عجل، تحدّث مع العامل، بينما كان محمد في الخارج على بعدٍ قريب، يتفحّص المكان بعينين مشتعلتين..والغيظ يتأجج في جسده.. حافظ على هدوئه الظاهري، ثم عاد إلى المنزل..

لم يترجّل من سيارته بل بقي فيها ينتظر أخاه كبركانٍ في قمّته على وشك الانفجار.

وصل أمير بعد قليل يدندن بفرحٍ منعش، يلوّح بمفتاحه في الهواء، لكن ابتسامته سرعان ما تلاشت عندما سمع زمجرة محمد من خلف السيارة:

- أيها الخائن اللعين.. يا زير النساء.. وبمَ أصفك أيضًا!

تفاجئ أمير لعبارة أخيه، وحوصِر ولم يتمكن من الفرار..

تلقى بعض اللكمات المتتالية، وصرخ وهو يحاول حماية نفسه بدفع أخيه بعيدًا: «ابتعد يا مجنون!»

مع خروج ياسمين ووالدتها من المنزل في فزع، تمكن أمير من التملص وهو يداري وجهه المتورم.. يلتقط أنفاسه مستندًا على مدخل المنزل ويقول برجاء:

- اسمع أنا لا أنسى أفضالك عليّ، ولكن هذا عمل .. الأرزاق بيد الله، لن أقطع رزقك.. ولن تقطع رزقي.

- ومن أنتَ حتى تقطع رزقي! أغلق المحل وتب عن خيانتك وإلا سأحطمك وأحطم محلك تمامًا.. سأجعلك تندم.. لا تجبرني على ذلك أيها المغفل.

- الموضوع ليس بهذه البساطة .. أنا ..

لكن لم يكن الوقت يسمح له بإكمال جملته، بعد أن سحبته ياسمين بسرعة

إلى داخل المنزل محاولَةً إبعاده عن شقيقه المشتعل في نيرانه.

انتبه محمد على صوت والدته تصيح بأن العين والحسد هما سبب هذا البلاء، فأمرها أن تدخل حتى لا تثير فضيحة أمام الجيران، ومضت وهي تضرب صدرها وتبكي لصراعهما..

قبل أن يدلف للداخل، لمح شيئًا على الأرض.. الورقة الزهرية التي تضم البريد الالكتروني! سقطت من جيب أمير خلال الشجار، فخطفها بآلية!

وصعد شقته..

اتصل بأحد عمّاله الموثوقين، وطلب منه التوجّه سرًّا إلى محلّ أخيه بعد أن زوّده بالعنوان. كان بحاجة لمعرفة نوع الأجهزة، ونطاق الشبكة، وكل ما يلزمه للنفاذ إلى النظام.

وفي هذه الأثناء سمع صوت أمير في الممر الموازي لشقته يسأل والدته عن الورقة الزهرية التي فقدها: «بحثت في كل مكان حتى خارج المنزل وبالسيارة ولم أجدها»

- ورقة ماذا يا بني.
- لا تهتمي، سأذهب غدًا وأحصل على ورقة أخرى.

قال أمير جملته بخبث وهو يضحك.

طالع محمد القصاصة وتأملها، وقد عقد النية على محادثتي ليخبرني عن شخصية أخيه العابثة، وأبتعد عنه قبل أن يزورني مرة أخرى ويطلب البريد

كان مترددًا ويجد صعوبة بالغة، فهو لم يتجرأ لهذا اليوم على محادثة فتاة بشكل خاص..

بعكس أخيه وخبرته الواسعة بهذا الميدان ..

وإنْ عقدتُ مقارنةً بينهما، فلا بد أن أقرّ لك بأن أمير لديه الوقت الكافي والجرأة للمغازلة ومظهر يعلم بأنه ملفت، شعرٌ بني لامع ينسدل على جبينه، وبشرة فاتحة تميل للبياض وملامح تغمرها نعومة طفولية وجسد نحيف ولسان معسول.

أما محمد فوسامته من طراز آخر، رغم التشابه الكبير بينهما كأخوة.. حنطي البشرة، بتقاسيم أكثر حدة ورجولة.. بشعره الفاحم، ومنكبيه العريضين ذو بنية عضلية منحوتة بعناية، تبرز تفاصيلها دون مبالغة. كأنه انسل من دور عرض الأزياء لكنه في صميم قلبه لا يمتلك الثقة الكافية عند إحلاله في موضع المقارنة السطحية مع أخيه، وما أراها إلا ثقة هشة ليست في محلها، قد تكون عائدة إلى التزامه الديني وحرصه على مبادئه الصارمة التي تمنعه عن الانزلاق بعلاقات وهمية مع الفتيات.. وإلا لكان أدرك هو قبل غيره مدى جاذبيته..

وأخيراً بعد مدٍ وجزر مع أفكاره ، عزم على محادثتي..

كانت خطته فقط أن يبعدني عن أخيه.. لا أن يتقمص دوره.

عكف على جهاز الحاسوب، أضاف عنوان البريد في برنامج (الماسنجر). وماهي إلا لحظات حتى شاهدني على صفحة البرنامج. رتب أفكاره وحزمها وبادر بإلقاء التحية، وظل صامتًا لا يدري كيف يبدأ:

«هل تذكرين الشاب الذي يعتمر قبعةً اليوم! وطلب بريدك الالكتروني؟»

وأنا بكل بغباء وضعتُ بعض الرموز التي توحي بالخجل، ودمرتُ خطته عندما قلت: (نعم، بلى.. عرفتك. أرجوك، ليبقَ ما بيننا طيّ الكتمان.. إن

انكشف لأحد، لأي مخلوقٍ كان.. فسأنتهي).

انطلاقًا من هذه العبارة عجز عن التعبير والبوح بما يسيء إلى سمعة أخيه كطرفٍ ثالث يعلم بأمر علاقتنا.. والتي يجدر بها أن تكون سرية للحفاظ على اطمئناني!

تحير كيف يجيب، وتوتر.. فتأخر في الرد، وعبارتي اللاحقة جاءت كمحفز آخر:

- (أنا ليلى كما أخبرتك، عرفني بنفسك).

تذكّر حيثيات حديث أمير عني مع أخته ياسمين..

يقلبها ذات اليمن وذات الشمال.. حتى تغيرت خطته تمامًا، ووجد أن يجاريني بعد أن أدرك بأنني لا أعلم أي شيء عن أمير، بما أننا تقابلنا قبل يومٍ فقط، كمن وجد منفذًا آخر يوجه منه انتقامًا لا يرحم. وكأنني لعبة بين أيديهما! فتابع يسرد معلوماته الشخصية الحقيقية: «اسمي محمد..»

جرى بيننا ذلك الحوار الذي أخبرتكَ عنه، لكن انقضاض زوجة أبي وفضحها لمحادثتنا كانت صدمة أولى لم تخطر له على بال.

وضعه ذلك تحت وطأة الزواج المفاجئ، وكأنه تلقّى عقابًا إلهيًا ما إن بدأ يميل عن الصراط المستقيم.

لم يستطع أن يتملص من سياط ضميره، فوافق على زيارتنا للخطبة، بنيةٍ مخبأة، وهي أن أكتشف بنفسي في لقاء «الرؤية الشرعية» الخدعة.. أن أراه فأدرك أنني وقعتُ في فخٍ.

لكن الصدمة التالية فاقت توقّعاته.. لم أتمكن من رؤيته أصلًا، فاضطر لشراء هاتفٍ ليتمكن من التواصل معي وإخباري بالحقيقة.

انصرافه من بيت والدي في تلك الليلة لم يكن إلا عذابًا وصراعًا آخر، فوالدته لم تستوعب سبب هذه الزيارة العجلى والمبهمة.

وما إن أوصد باب السيارة خلفه، حتى انفجرت فيه بعدما حبست بجوفها إعصارًا طوال الأمسية ولم تعد تحتمل!

أغرقته توبيخًا بعباراتٍ تلهب أذنيه، وهو يقود الطريق بصمت، تائهٌ وسط حقل ألغام. شعرت أنها أُهينت فلم تجد خطبة كهذه! ظلت تصيح به مطالبةً بتبرير يروي غليلها.. فقد جذبها معه لمنزلنا دون أن يزد على عبارته:

- أمي رافقيني للخطبة

وحين ألحّت لتفهم هذا الغموض المريك، وعدها بأنه سيفسر كل شيء بعد انتهاء الزيارة.

فأمرته أن يوقف السيارة ليشرح كما وعد. وعند أحد المنتزهات في طريق عودتهما، أذعن أخيرًا. أوقفها، لكنه ظل واجمًا عاجزًا عن كل شيء.. بدا خجله أكبر من أن يُروى. التفتت إليه تحدّق فيه بعينين تقدحان شررًا، صاحت:

- لماذا تصمت!! ثم لماذا كنت خاضعًا لزوجة أبيها هكذا؟ كأنك مذنب! وكأنك.. ارتكبتَ فاحشـــة.

شهقت.. قطعت عبارتها، ثم وضعت يدها على رأسها بذهول، صُعقت من هول ما نطقت. طالعها بدهشة واستياء: «العياذ بالله! أمي.. بالغتِ حقًا.»

وحين ألقى إليها بترددٍ وحرجٍ شديد.. تفاطيل ما حدث، اشتعل غضبها كالنار في حقل قش. فأطلقت حكمها كالسيف المسلول: «هذه الزيجة لن تتم!»

وافقها برد فاجأها: «بالطبع لن تتم، وأنا لا أرغب أن يُبنى زواجي على خدعة

سامجة كهذه. ولكن الفتاة قد تؤذى بـــسبب..»

قاطعته بحدة يغلفها الازدراء:

- وما شأننا بها؟ تبًا لقلبك الواهن.. ينهار من أول نظرة لفتاة لا تعرفها؟!

اشتدت قبضته على المقود يتحامل على نفسه بصعوبة: « تعلمين أن الأمر ليس كذلك»

استحال سخطها إلى عويلٍ ممضّ، تندب حظها العاثر. قبّل رأسها وحاول أن يذرّ عليها شيئًا من الطمأنينة: «سأحدثها الليلة.. وأعترف بكل شيء.»

حين هدأت قليلاً، أعاد تشغيل السيارة لكنّها سرعان ما فاجأته من جديد، تنهال عليه تقريعًا حتى وصلا إلى المنزل، فاندفعتْ إلى الداخل تسبقه كاللهيب المشتعل.. لم تطمئن لكلمته.

لحظات مرت وهو يستكين بالسيارة يحاول استعادة توازنه حتى سمع رنة قصيرة مني في هاتفه كانت عن طريق الخطأ.

فتحولت بعد دقائق إلى مكالمتنا الأولى. كان ينوي الاعتراف خلالها بالحقيقة، لكنني لم أترك له فرصة.. حين انفجرتُ باكية، أشكو له ألمي، فتعاظم ذنبه في عينيه، وكأن قلبي الموجوع تمزق بصدره، فلم يستطع أن يوجّه إليّ طعنة أخرى.

****

سفر أمير لأداء امتحاناته في الخارج ساهم في تحقق هذه الخديعة.. فبعد أن عجز عن العثور على بطاقة بريدي، جاء إلى جوار منزلنا صباحًا وانتظر خروجي أو إطلالتي من النافذة.. لكنني كنت في بوتقة اكتئابي لا أغادر

السرير ومعاقبة حبيسة المنزل، فاضطر للرحيل خالي الوفاض..

وبعد بضعة أيام من سفره، شاع في البيت خبر موعد قِران محمد. جاء النبأ من والدته التي كتمت الأسرار في صدرٍ مفتت واستسلمت لرغبته، فهي لا تستطيع أن تديم عليه السخط، فمكانته في قلبها لا يزاحمها أحد.

وحين سمعت ياسمين باسمي أنا العروس، ذُهلت! قصدت شقة أخيها فورًا، وبعد مقدمات طويلة أفرغت ما في صدرها:

- تراجع عن هذه الزيجة يا أخي، سأختار لك فتاةً خيرًا منها. ألم تقل دائمًا إنك تؤمن بالزواج التقليدي، وإن الحب والتعارف لا يشبهانك؟ وفعلاً .. من الطبيعي أن يجعلك التزامك سريع التأثر.. و..

حدجها بحدة؛ فهذه المضامين باتت كالسياط تنهال عليه من كل اتجاه. تجاهلها عمدًا، منشغلاً في شاشة حاسوبه، وهي تكرر الشريط ذاته الذي صدّع رأسه؛ فقد ظلت والدته تردده منذ أيام. لكنّها باغتته فجأة مستنكرة: «وهل تعلم هي أن أمير أخوك!»

أيضًا لم يجب. فقط رفع أحد حاجبيه بنظرة مستعلية، فهمتْ هي منها.. أنني أعلم!

اتسعت عيناها ذهولًا: «تعلم.. ووافقت على الزواج منك!»

وبنبرة محتدة أجابها: «وهل تحسبينها مغفلة لتختار شخصًا مثله؟!»

انفلتت منها بعض الشتائم تنهش بي، لكنه أشار إلى شفتيه بسبابته، تنبيهًا صارمًا، أنه لن يسمح لها بالإساءة لخطيبته. صمتت لحظة، ثم قالت بامتعاض: «أليس هناك طريق آخر للانتقام؟!»

أخذ نفسًا عميقًا، كأنه سمع أكثر مما ينبغي، وكتم سخطًا فوق ما يحتمل، ثم هز رأسه: «بلى، ستسمعين صياحه قريبًا..»

وقبل انصرافها سمعته يقول باستخفاف:

- لا أريد أن تسمع بقية الأخوات عن التفاصيل. وأمير.. «صديقك الصدوق».. لا تخبريه قبل عقد القران، كي لا تحدث له مشكلة في سفره.. لا قدّر الله.

علاقة ياسمين بأمير كانت دومًا وطيدة، يكبرها بعام واحدٍ فقط، مما جعلهما حقًا كصديقين، تكثر بينهما الأسرار والشجارات أيضًا.

****

بعد مرور أسبوع على حفل عقد القران، فاجأت ياسمين أخيها بما جرى! وأخبرته أنني قد فضلت محمد عليه.

وقع عليه الخبر كالصاعقة، فعبّر لها عن استيائه وبأنه شعر بأفظع خيانة صوبت بقلبه من قبل شقيقه الذي كان يعتبره مثاليًا..

لكن الصفعة الأكبر لم تكن تلك وحسب، بل وبعد يوم فقط من استقباله لهذا الخبر، داهمه الانهيار الحقيقي حين اتصل به أحد العمّال مذعورًا يخ أن شاشة الحاسوب الرئيسي تعرض رسالة غريبة: « تسرق جهد غيرك؟ إذن استنسخ الفوضى..»

عندها أدرك أن محمد اخترق النظام، سحب قاعدة البيانات كاملة وزرع شيفرة خبيثة في عمق البرنامج ثم انسحب بصمت.

توقفت الطلبيات، تجمّدت الفواتير وعمّت الفوضى بحق! فما كان منه إلا أن اتصل بأمه باكيًا يشكو محمد وتوسلها أن تتدخل لإعادة البيانات.

وأخبرها بنبرة يائسة أنه سيمدد إقامته.. أو ربما لا يعود أبدًا، بسبب ما اعتبره جرائم لا تُغتفر ارتكبها أخوه في حقه.

كانت متأزمة.. جاءت إلى شقة محمد بنبرة استنكار: « يكفي يا بُني.. ماذا فعل بك الشيطان؟! لم تكن هكذا أبدًا. أعد لأخيك ما أتلفته، هذا لا يجوز! الفتى في فترة امتحانات، حالته سيئة جدًا، لا تدمّر عمله ومستقبله.. ألا يكفي أنكَ سلبته الفتاة التي..»

كان خلال ذلك مشغولًا بارتداء قميصٍ داكن جديد، فقاطعها بحزم وهما يسيران باتجاه غرفة نومه: «هي لا تخصه. كان سيخدعها، كما يخدع الجميع على أي حال.»

- وكأنك لم تخدعِها أنتَ الآخر!

اتسعت عيناه، ثم ارتدّ بخطًى سريعة نحو الباب يغلقه بإحكام، خشية أن تلتقط أذنا ياسمين شيئًا من حديثهما. أما هي فكانت قد سبقته إلى الداخل، وجلست على المقعد المجاور للسرير، تتابع حديثها بغيظٍ متصاعد:

- ومتى ستخبرها بالحقيقة؟! مرّ أكثر من أسبوع! لو أنك اعترفتَ بكل شيء ليلة قرانكما، لكُنّا انتهينا من هذه المهزلة.

- وأفضح أمام تلك الحشود؟! كان العار سيلبسنا جميعًا، ولن تتمكني حتى أنتِ من رفع رأسكِ بين الناس.

- ليتني ما أطعتكَ في شيء، ثم.. لماذا كل هذا التأنق؟! ملابس جديدة، كأنك عريس حقيقي!

امتعض وهو يعيد ما تناثر من ثيابه إلى الخزانة بعناية، متشاغلًا عن نظراتها

التي تخترقه، ثم أجابها ببرود: «ومتى لم أهتم بأناقتي! لم أفهم ما تعنين»

قالت باستخفاف: «أعني وكأنك تنوي خلع قلبها، قبل أن تبوح لها بنيتك في الانفصال!

- لن أخبرها برغبتي في الانفصال.. سأعترف بالحقيقة، وهي من تقرّر.

- وكأنّ الكلام يتغير كل يوم! لقد وعدتني بأن هذا الخطبة لن تتحول إلى زواج.

جلس إلى جوارها، كأن ما يشغله شيء آخر. وقال بحذر:

- سأحضرها لزيارتكِ غدًا. وأخبري أخواتي أيضًا.. ليتعرفن عليها.

- ولماذا التعارف؟! وأنتما بلا مستقبل معًا! سأسهّل عليكَ الاعتراف الذي عجزتَ عن النطق به، وأخبرها بكل شيء غدًا.

امتقع لونه، جذب يدها يمسكها يستجديها:

- أماه، أتوسل إليكِ.. كوني لطيفة معها غدًا، وصدقيني، سأصارحها في الوقت المناسب.

حدّقت فيه بدهشة تمتزج بالقلق: «أبلغ تعلّقك بها أن تتوسل إليّ! هذا ليس من عادتك؟!»

أبعد نظره عنها، وتمتم بتوترٍ يغلّفه الغضب: «أنا لا أتعلّق بأحد! ولا أضعف.. سئمت حقًا من اتهاماتكم هذه، لم أعد أحتملها.»

ظلّت تتفحّصه، وكأنها تسبر أغواره، تدرك ما يضطرب في قلبه، لا ما تنطق به شفتاه. لانت نبرته وهو يبرر: «أطلب منكِ هذا، لأنها يتيمة، أظهري لها بعض

الحنان فقط، قُربةً لله.»

- بشرط.. رمّم ما دمرته في عمل أخيك: لستُ أفهم في العمل، لكن أعِد إليه راحته

نهض وانشغل برش عطره بتعالٍ وزهو، ثم أردف بنبرة مشبعة بالظفر:

- بما أنه أدرك ألا يعبث معي مجددًا وتأدّب، سأعيد له النظام.. رغم أنه لا يستحق.. فقط من أجلكِ.

- من أجلي.. أم من أجلها؟

قالت عبارتها بسخط، فلم يستدر واكتفى بإكمال طلته، ثم انحنى يقبّل رأسها وانصرف. وظلت هي هناك.. تتلوّى، تتمزق بصمتٍ مريب من هذه الخطبة، التي أقنعها وأقنع نفسه، بأنها لن تتبرعم لشيء آخر..

فإذا به يغيّر قراراته منذ الأسبوع الأول!

بدأ قلقها ينهشها على ابنها الآخر.

وفي أعماقها، لم ترَ فيّ إلا اليد التي تهدد شمل أبنائها.. وألقت على كاهلي ذلك الوزر الثقيل.

وعندما حانت ليلة الزواج..

أدركتُ - متأخرة - أنه كان يخشى أن يمعن أكثر في ظلمي، فآثر الامتناع، وهرب بعينيه بعيدًا.. رغم انجذابه.. إلى أن لمحني أفتح له باب القرب بخجل. وقوعه في شباكي، ألهاه عن حسبان ساعة لقائي بأمير..

وكيف ستقلب الموازين! وكيف ستكون مشاعره التي ستقوضه.. هو أولًا!

١٢
الإشارات الخفية

عندما كنت في نادي التايكوندو، كنتُ أمنّي نفسي بلحظة الانسحاب، لم أكن أهوى الرياضات القتالية أو غيرها، ففكرة أن أُصاب بضربة أو أسقط أرضًا كانت تؤرقني، لكن المفارقة أنني عندما انسحبت فعليًا، لم أشعر بالراحة كما تخيلت بل غمرني إحباط ثقيل، وكأن محطات الفشل في حياتي تتكاثر يومًا بعد يوم، دون أن أملك القدرة على إيقافها.

كان مدربي يعاملني بخصوصية تامة، كأنه يفهم وضعي ويعلم يقينًا بأنني أحتاج إلى أسلوب مختلف عن الآخرين، رغم أنني لم أُتقن المهارات المطلوبة، إلا أنه منحني الحزام الأصفر، ثم البرتقالي، ربما ليمنحني بعض الثقة التي أنا في أمس الحاجة إليها، ذلك لم يكن كافيًا لإرضاء والدي كان يتوقع أن أتغير سريعًا، أن أصبح شخصًا آخر بمجرد أن تطأ قدماي النادي، وكأن الأمر أشبه بعملية سحرية..

لا أعلم.. متى سيدرك هو وأمي أن احتياجاتي مختلفة، أنني ربما أحتاج وقتًا أطول، رعايةً أعمق، دعمًا أكثر تنوعًا، لا مجرد أوامر وتوقعات مسبقة.

لكن وللإنصاف، أبي ورغم أنه يغضب مني بشراسة على الدوام ويشتعل سريعًا، إلا أن قلبه يلين بنفس السرعة، وكأن بداخله صراع لا يتمكن من إدارته في تعامله معي أنا بالذات!

بعد أن تم سحبي من النادي في لحظة غضب، جلس معي وسألني بهدوء إن كنتُ أرغب في العودة للنادي مرة أخرى، فلابد وأن ضميره بدأ بمضايقته، ولكنني خشيتُ من العودة وأُطالب بمزيدٍ من التوقعات العالية والمسؤوليات التي قد يستحيل عليّ تحقيقها، حينها أجبته بأنني لا أريد المواصلة، ولو كنتُ أعلم أن هذه اللحظة ستترك داخلي كل هذا الفراغ والإحباط، ربما.. أقول ربما.. لأجبت بشيء آخر.

بقيتُ أراقب حسن وهو يذهب للنادي متحمسًا، بينما أنا أقضي الوقت مع الجهاز اللوحي الذي أصبح لي وحدي، لم أكن منغمسًا في الألعاب بل بل أستمع إلى سور القرآن التي عليّ حفظها، حتى أتمكن من تسميعها أمام معلمة التربية الإسلامية في اليوم التالي خلال وقت الفسحة المدرسية..

كنت أجدها بانتظاري غالبًا بمركز مصادر التعلم لتسمع مني، وأحاول أن أقدم لها أفضل ما لديّ، كنتُ أعجبُ من الطريقة التي تعاملني معلماتي بها، كل هذا اللطف والود والشفقة.. بينما يجب أن أُواجَه بالغضب والزجر كما تفعل والدتي وكذلك والدي، لأنني فاشل ولا أتمكن من اكتساب المهارات الأكاديمية اللازمة!

في ذلك اليوم، عندما دخلت مركز مصادر التعلم كما اعتدت لم أجدها بل وجدت معلمة نادية مع مجموعة غير متجانسة من الطلاب، البعض من ذوي الاحتياجات الخاصة وحتى العاديين والمتفوقين، كانت تقدم لهم محاضرة تبدو ملهمة، لم يكن بوسعي التراجع، فقد دخلت بالفعل.

وقفتُ عند الباب مترددًا، لا أريد أن أقطع حديثها، لكن المعلمة التفتت إليّ وابتسمت، ابتسامة دافئة كنت أحتاجها، طلبت مني الدخول، جلستُ في

ART_OF_BOOK

مكانٍ أقرب لأجهزة الحاسوب بسبب امتلاء المقاعد في وسط مركز مصادر التعلم، منتظرًا قدوم معلمة التربية الإسلامية.

اندمجت مع المعلمة نادية وهي ترسم خطًا مستقيمًا على السبورة ثم رسمت بجانبه طريقًا مليئًا بالمنعطفات، وقالت:

«أيهما يشبه طريق النجاح برأيكم؟»

بدأت التعليقات تتوالى، البعض قال إن النجاح يشبه الخط المستقيم، والبعض الآخر رأى أن الطريق المتعرج هو الأقرب للحقيقة.

ابتسمت المعلمة، ثم عرضت صورة لرياضي مشهور، ومخترع، وكاتب معروف، وسألت: «هل تظنون أنهم وصلوا إلى النجاح بخط مستقيم؟ أم واجهوا إخفاقات وتحديات؟»

وأيضًا علت النقاشات والتوقعات مرة أخرى، ثم قالت:

«أحيانًا، يظن الناس أن النجاح خط مستقيم، أنهم بمجرد أن يبدأوا العمل، ستتوالى الإنجازات دون تعثر، لكن في الحقيقة، الطريق في معظم الأوقات مليء بالحفر والمنعطفات، بعضنا يسير فيه بسرعة، وبعضنا يتعثر مرارًا، وينهض وحده..

والبعض يحتاج لمن يأخذ بيده ويدله على الطريق.. ولكن النجاح في نهاية الطريق ينتظر الجميع..»

راودتني رغبة في طرح سؤال، ولكن لم أجرؤ على التلفظ به، فأنا لا أشارك إجاباتي إلا إذا طُلب مني، ولكن أحد الطلاب وكأنه يعيش وضعًا لا يختلف

عني سأل:

- ماذا لو لم نجد أحدًا؟ ماذا لو كنا وحدنا؟

تنهدت معلمتي، ثم قالت بهدوء:

«نحن لسنا وحدنا أبدًا، حتى في اللحظات التي نشعر فيها أننا معزولون عن العالم، هناك دائمًا إشارات، دروس مخفية، أشخاص يمرّون في حياتنا ليعلمونا شيئًا دون أن ندرك، الله يضع لنا العون في أماكن لا نتوقعها، لكن المشكلة أننا أحيانًا نكون غارقين في إحباطنا، في خيباتنا المتراكمة، فلا نرى اليد الممدودة نحونا..

تلك اليد قد تأتي بأشكال مختلفة.. قد تكون كلمة عابرة من شخص لا يعرف أنه منحك النور في لحظة ضعف..

أو في طائرٍ يتعلم كيف يحلق رغم الرياح، في كتاب يسقط أمامك في المكتبة كأنه اختارك دون قصد، في صديق يفتح لك قلبه دون أن تطلب، في فيلم تشاهده مصادفة لكنه يترك أثرًا عميقًا في روحك.. وأحيانًا، في معلمة تقف أمامك الآن، تحاول أن تخبرك بأنك لستَ وحدك أبدًا».

ربما لم أفهم كل ما شرحته، لكن طريقتها الهادئة ونظراتها الدافئة جعلتني أشعر بالأمان والأمل..

١٣

بعد انكشاف الستار

غادرتني ياسمين بعد أن ألقت بين يدي حقائق الزوبعة الخادعة، وكأنها أفرغت حمولة ثقيلة لتريح ضميراً يؤرقها لتعرضي لظلم جائر، تركتني في مواجهة صاخبة مع مشاعري التي تجمعت حولي كدوامة لا أملك الفكاك منها..

كنت وحدي أصارع هذا الطوفان الذي اجتاحني بلا رحمة، تحاصرني تفاصيل ما روت، كل كلمة منها تُشعل في داخلي تساؤلاتٍ وغضبًا وأسىً، حتى شعرت بأنني عالقة في متاهةٍ بلا مخرج، مستسلمة للمصير المجهول.

عندما أسدل المساء لسانه ساخرًا من قدري.. جاءني محمد عابسًا وأمرني بحزم ملابسي لننتقل في شقةٍ مستقلة، وكأن المسافة وحدها قادرة على إخماد نيران غيرته، كان جليًا أنه لم يتخيل أن لقائي بأمير سيفجر داخله هذا القدر من الغضب والانفلات، فربما حين نسج خطته بمهارة لاعبي الشطرنج، لم أكن في نظره سوى بيدق صغير يسيّره كما يشاء، يتحرك بي خطوة بخطوة لهزيمة خصمه (شقيقه)، وسيلة لتحقيق غايته لا أكثر، لكن.. كما في كل لعبة، أحيانًا تنقلب الأدوار وتتغير القواعد، اليوم لم أعد مجرد قطعة على رقعة شطرنجه، بل أنا نقطة ضعفه في هذه الحياة.. زوجته وشرفه الذي يُقتل.. دون أن يُخدش!

عند مغادرتنا المنزل، كان أمير يشيعنا من خلال نافذة غرفته بالطابق العلوي، يودعنا تشفيًا بعدما رصد المعركة التي فجرها محمد وأدت إلى حتفه.. كمن سجل هدفًا عكسيًا في شباكه، رغم أن أمير لم يعرف حقيقة القصة.. بل ما يزال يحسبني فضلتُ محمد عليه! ولكن غضب محمد وغيرته الفاضحة، أشعلت في قلبه شعور الانتصار.

نظر إليه محمد بحقدٍ عارم قبل أن يدخل سيارته ويغلق الباب بقوة كأنه يحاول إخماد عاصفته معها.

كانت ليلة عصيبة جدًا على كلينا، فأنا لم أستطع ابتلاع خداعه الذي لا يغتفر، وهو لا يجد للهدوء من سبيل، وما زاده إلا دموعي التي كانت كالوقود تشعل نيرانه كلما سكبتها وتزيد من تأججه ولعناته.

ظل يتقلب ذات اليمين وذات الشمال يود أن يسرق بضع لحظاتٍ من نومٍ هانئ لم يستطع، وحين أغلق عينيه بضع ثوان..

شاهدني خلالها أهرب من الغرفة وأرافق أخيه..

فز مرعوبًا مرة أخرى، وراح صدره يعلو ويهبط بسرعة..

جال ببصره في أنحاء الدار، فشاهدني مستلقية على المقعد يظن أن النوم سرقني، انتبهتُ له دون أن أحرك ساكنا وقد غطى رأسه بوسادته بعصبية..

ها قد ابتعدنا عن بيت العائلة وعن أخيه وهو لايزال يتلظى بتلك النار!

وكثيرًا ما تكرر هذا المشهد خلال الأيام اللاحقة، بل ازداد الوضع سوءًا حتى أهمل عمله الخاص الذي كان سببًا في كل هذه الزوبعة! وكره كل شيء حوله!

علاقته بي أضحت جحيمًا رغم أنني سعيت جاهدةً لأطأ كرامتي مراتٍ لا

تحصى، ورغبت في التجرد من رداء الكبرياء لإخماد النيران المستعرة بيننا، إلا أنني أجد نفسي أنهار كلما فكرت.. كيف استغفلني وخدعني بهذه البشاعة!

فينكسر جسر الوصل مرةً أخرى قبل أن يشيد..

وتستمر دوامة الصمت.. حتى لم تعد الكلمات تجد طريقها إلينا، كأننا غريبان يقتسمان سقفًا واحدًا.

يأتي كل ليلة بعد منتصفها، خطواته مثقلة وصمته أشد وطأة، يرتمي على السرير ليقتنص بضع ساعات من النوم، ثم يغادر مع أول خيط ضوء، تاركًا خلفه فراغًا يتسع كل يوم.

وكأنه أدرك فداحة ما اقترفت يداه بزواجه بي.. ويفتش عن سبيل للفرار، ليتحرر من ألمه، بعدما غدت شكوكه صخرة سيزيف تحطمه ذهابًا وإيابًا، وأنا أرقبه بقلق.. أتحسس أمارات الانفصال في الأفق..

جاءه طوق النجاة عندما طلبت أمه عودته للمنزل؛ فهو عماد الأسرة ولا يمكنه الغياب مع اشتداد مرض والده وحاجته لرعاية ومتابعة، فابتعد..

في غيابه عني لم تهدأ والدته، استغلت حاجتهم إليه لتؤججه ضدي، وتشجعه على قطع الطريق بيننا مادام في بدايته.. وصار البعد عني أكثر راحة له.

كانت تلك الأخبار تتسرب إليّ من ياسمين، الشخص الوحيد الذي بدا وكأنه أشفق عليّ.

****

أسبوعان انصرما لم أرَ فيهما وجهه، اختفى من عالمي، سلّمني بطاقة مصرفية وتابع حافلتي الجامعية عن بُعد، كمن يؤدي واجباته مجبورًا ومعتمدًا على

سلم سعاد.

نعم، سعاد.. أختي، وسندي، وقطعة الروح الوحيدة التي لم تخذلني في هذه الحياة، كنت قد صارحتها مؤخرًا بكل ما حدث، بعد أن غاب محمد عن الشقة، فاحتضنتني كأم ثانية لا تغيب عني، تزورني برفقة ابنتيها الجميلتين كل مساء، تنثر بهما الفرح على أطراف وحدتي..

في إحدى تلك الأمسيات، كنتُ أستلقي برأسي على حجرها، وهي تمرر أصابعها برفق على شعري، تلعنه وتسبّه دون انقطاع، كأنها تحاول تمشيط الهمّ عني كما تمشط خصلي، لكن! ما باليد حيلة.

رنّ هاتفي فجأة!

نغمة الرسائل النصية المعتادة، لكنها هذه المرة اخترقتني كإنذار خطر. جلستُ بتثاقل، مددتُ يدي نحوه ببطء، كأنني ألتقط قنبلة على وشك الانفجار، تردّدتُ، قلبي يقرع كطبول حرب. ثم فتحتُ الرسالة.. وقرأت الكارثة:

(أنا آسف.. اتخذتُ قراري. سأطلّقك. سأفقد نفسي إن بقيتُ في هذه الدائرة.. وتصبحين حرّة باختيارك).

حدّقتُ في الشاشة مذهولة!

سقط الهاتف من يدي المرتعشة، غير مصدقة!

أحقًا يُنهي كل شيء برسالة؟!

انهارت دموعي كالسيل، فهذه الكلمة هي الرعب ذاته، الرعب الذي طالما خشيتُ حتى من اسمه. حاولتْ أختي تهدئتي، وأرادت مهاتفته وشتمه،

ART_OF_BOOK

لكنني خطفتُ منها الهاتف وأسرعتُ نحو غرفتي.

اتصلتُ به، مغالبةً نشيجي وصرخت فيه دون هوادة:

- كنتُ أعلم أنكَ أناني وانتهازي، ولكنني لم أدرك أنك جبان!! لا تستطيع حتى مواجهتي!! فعلًا أنت طفلٌ عصبي أحمق!! أنت لم تنتقم من أخيك، بل انتقمت من نفسك! وانتقمت مني.. تقتلني دون أن أذنب بحق أحد!! كنتُ البريئة الوحيدة في قصتكم القذرة.

انتظرتُ صراخه، أن يبادلني الشتم أو يصرّ على قراره، لكن صوته جاءني مرتجفًا، كأنما يقاوم ليبقيه صامدًا:

- ليلى.. سامحيني، أرجوكِ.. سأجن. صدقيني، حاولت. لكنني لا أستطيع.. الحل الوحيد أن أمحو أحدكما من حياتي لأستمر.. هو أخي لا أستطيع أن أقطع صلتي به ولو أردت.. نتقاسم الدم ذاته!

- لا، لا.. لن أسامحك، لن أغفر لك، وسيكون حسابك عند الله أعظم.. ظلمتني أيما ظلم!! ولن تتخلص من هذا الألم وعذاب الضمير أبدًا، فإن كان هو أخيك، فأنا أم طفلك! أنا حامل.. دمك الذي تتعذر به يكبر بين أحشائي!

رميتُ الهاتف وكأنني معه ألقيت ألمًا ثقيلًا جاثمًا بصدري ومسحتُ دموعي، تنفست الصعداء أزفر بقايا همي، وأتساءل إن كان طفلي سيسحبني من بين أنياب الطلاق المروع! فلو سمع أبي بأمر الطلاق السريع هذا وكأن خلفه تتلصص الشبهات، لأطلقَ عليّ وتخلص مني! كما يتخلّص من عارٍ لا يُغتفر.

****

مضت أختي بعد أن رجوتُها أن تتركني وحدي.. كنتُ على يقينٍ من عودته،

وإن طالعتني هي بعينٍ تملؤها الريبة. فرغم كل شيء..

رغم سذاجتي وغبائي، إلا أنني أعرف جوهره..

ولم تمضِ ساعة مذ أغلقتُ الهاتف، حتى وجدتهُ راكعًا تحت أقدامي، بندم أطفأ ما تبقّى من صلابته، وخجلٍ أراق ملامحه بذلّ الاعتذار.. الذي جاء متأخرًا.. ومتأخرًا جدًا.

رغم أنه عصيّ الدمع، إلا أنه راح يواري عينيه يخشى أن أرى بريقهما المرتبك.

اعتذر عن جرمه الذي لا يُغتفر، وعن رسالته التي أرسلها هربًا من مواجهتي.. وعن كل خيبةٍ ألقتني في حضن الليل باكية.

رفعتُه عن الأرض.. وما كنتُ أحسب أن رؤيتي له بتلك الحالة من الانكسار ستوجعني! وتتهاوى من حولي جدران الأنفة والمكابرة.

ارتميتُ بين ذراعيه..

دفنتُ وجهي في صدره المحموم ووددتُ لو أختبئ هناك، ألوذ به.. منه.
ستتعجب، أعلم..

وربما تخطر في بالكَ الأسئلة.. أين كرامتي؟ كيف أغفر له كل ما فعله برمشة عين؟

وأنا نفسي كنتُ لا أملك جوابًا شافيًا..
لكنني أيقنتُ في تلك اللحظة، أنني لم أكن أهرب من شبح الطلاق خشية أبي فقط، بل لأنني ضعيفة أمامه.. ضعيفة أمام حنيني وشوقي إليه.
آمنتُ حينها أن الكبرياء يتلاشى، يتبدد، ويغدو بلا معنى.. حين يكون محمد هو الجرح.. وهو البلسم.

جلسنا جنبًا إلى جنب، وأمسك يدي.. يتأملها بحرجٍ وامتنان، دون أن يجرؤ على النظر إليّ مباشرة.

تحدثنا عمّا جرى، وأخبرني بعض التفاصيل.. ذات التفاصيل التي أخبرتكَ عنها سابقًا.. كانت مزيجًا من مصادر عدة.

صمتَ قليلاً ثم راح يمرر يده في شعره بتوترٍ مشتعل، قبل أن ينطق بما بدا أنه السؤال العالق في صدره منذ اللحظة الأولى التي عرفتُ فيها الحقيقة.. السؤال الذي أخّره طويلاً لأنه أثقل من أن يُقال.. صارت عيناه تدوران في الفراغ وكلماته تتلعثم كأنها تتصارع مع غيرته:

- ألم.. تندمي على زواجكِ بي بعدما رأيته؟ ربما.. يا إلهي، لا أستطيع حتى أن أتلفظ بذلك..

نهض من مقعده وأدار لي ظهره يهرب بعينيه، راح يضرب بقبضته على فمه.. إلى أن قال دفعة واحدة:

- هل أنتِ معجبة به؟

كانت أنفاسه تتسارع لكنه يصمت بصبر..

لأول مرة يطرح تساؤلاته بهدوء، ويترقب أجوبةً هذه المرة ليصدقها لا ليهاجمني بها، إذ لم يعد أمامه سوى الإيمان بي.

نهضتُ ووقفتُ أمامه، رفعتُ يدي بلطف إلى ذقنه وأجبرته على النظر في عيني، نظرة لا تتذبذب:

- لا يعجبني رجل في هذه الدنيا سواك.. أنا مغرمة بشخصيتك، وسامتك، رجولتك، بكل ما فيك.. عدا خداعك لي.

أدار وجهه قليلًا وخفض بصره عني، ثم تمتم بصوتٍ مكسور:

- ظننتُ أنكِ ترغبين في الانفصال. أردتُ أن أهبكِ حريتكِ التي سلبتُها.. لأنك كنتِ تبكين باستمرار.. خلتها دموع خيانة لا أحتملها. ربما تريدينه.. وأنا كنت أمنعـ..

تراجعتُ خطوة إلى الوراء وأنا أقاطعه، مصعوقة:

- دموعُ خيانة؟! كنتُ أبكي من الخذلان.. من مرارة أنني لم أكن اختيار قلبك، تمنيتُ لو أنك تزوجتني لإعجابك بي، لا لأنك ظننتني دمية بلا أهل ولا مشاعر. شعرتُ بأنني بلا قيمة.. مغفلة خُدعت بالرجل الذي أحببته بكل جوارحي.. والذي وجدني فقط وسيلة للانتقام.

اغرورقت عيناي من جديد. همس بصوتٍ بالكاد يسمع وهو يقترب مني:

- لم تكوني يومًا وسيلة انتقام.. صدقيني.

طالعته مستفهمة وهو يمسح دموعي بكفه الدافئة، ثم جذبني إلى صدره. وهو يتابع بصوتٍ مبحوح: «دموعكِ غالية .. أنتِ قارورتي الثمينة، كيف تجاسرتُ بكل حماقة على تهشيمك.»

ظل يهمس في أذني برجاء: «سامحيني».. يكررها بين قبلة على جبيني، وأخرى على كل موضعٍ تصل إليه شفتاه، وعدتُ إليه.. زوجة، وحبيبة، وأمًا لابنه.

وحتى لا يبقى ممزقًا بين عائلته وبيني، قرّر توسعة شقتنا في بيت والده، فاستولى على معظم غرف الطابق العلوي، مخصصًا لي مطبخًا أنيقًا مفتوحًا على الصالة، أسعدني اختياره وتنسيقه.

أعدّ غرفةً خاصة لطفلنا المرتقب، وغرفة للمكتب لأعمالنا، إضافة للصالة

وغرفة نومنا السابقة، لتغدو الشقة رحبة، مستفيدًا من غرفة ياسمين التي انتقلت إلى الطابق السفلي، مُفسحة المجال لشقيقها ليُعيد تشكيل شقته كما أراد.

أما غرفة أمير، فقد أخلاها وغادر إلى المُلحق التابع للمنزل، بضغطٍ من والدته، إذ لم يكن من اللائق- برأيها- أن تبقى غرفته على مقربة من شقتنا.

ولم يتوقف محمد عند هذا الحد، بل شيّد سلّمًا خارجيًا مستقلًا، كي لا أضطر إلى الدخول والخروج عبر قلب بيت العائلة بكثرة.

وفاجأني بخادمة خاصة لي تمنحني مزيدًا من الراحة في الشهر الأخير من حملي لكنني آثرت أن تسكن لدى والدته وتكون تحت إشرافها، فمساحتي تظل صغيرة نسبيًا... وسرعان ما وجدت والدته في وجود الخادمة راحة لم تكن تعلم أنها تحتاجها، حتى غدت لا تستغني عن وجودها.

وظلّ الخلاف بين الشقيقين قائمًا، باردًا صامتًا حتى جاء يوم ولادتي لأول أفراحنا.. يوسف.

بإشراقته على دنيانا، استطاع يوسف أن يذيب الجليد بين الأخوين؛ فبرك طُويت صفحة سوداء معتمة من تاريخ العائلة.

وازداد هذا التقارب عمقًا بعد أشهر قليلة حين فقدا أباهما المريض.

في لحظات الوداع الثقيلة.. وقف الأخوان كتفًا إلى كتف يتساندان بصمت، كأن الحزن رمّم بينهما ما عجزت الكلمات عن ترميمه.

وعادت علاقتهما تمور بالمودة والرحمة، كما لو أن الألم كشف لهما جوهر الأخوّة التي لا تُفقد بسهولة، وإن توارت طويلًا خلف الخصام.

١٤

ملامح طفولتي المبكرة

بدأت سنواتي الأولى من حياتي بصورة مغايرة في عينيّ والديّ..
سمعتُ أمي تقول في مرات عديدة أنني تأخرت في كل شيء.. زحفتُ متأخرًا حدّ القلق، ومشيت بعد أن جاوزتُ السنة والنصف. إلا أنها وأبي، كانا يهربان من الحقيقة كلما طفت على السطح، يعلّلان تأخري الحركي لرعاية جدتي.. والتي أفرطت في احتضاني كأني هبة من السماء لا تبعدني عن حجرها.

كنتُ أول حفيدٍ لابنها الذكر.. الابن الذهبي، فصرتُ امتدادًا لحبّها الأعمى، وتربةً خصبة لتعليقات العائلة التي لم تهدأ، كانوا يتهكّمون من تقديسها لي، مثل تمثال صغير في محراب لا يُمسّ بالنقد.

ومع أن المؤشرات النمائية كانت واضحة، ظلّ والداي يؤمنان بأنني «مشروع عبقري»، ثمرة جيناتهما المميزة، وبأن الوقت وحده كفيل بكشف نبوغي.

ورغم سقوط أولى الضربات بثقلٍ مفاجئ حين دخلتُ الروضة في سنتي الثالثة إلا أن ذلك الإيمان ظل صامدًا، كدرعٍ فولاذيّ يصدّ الشكوك، لكنه بدأ يتصدّع في قلب أمي حين بلغت الخامسة، وظهر الفارق بيني وبين حسن صارخًا، لا يُمكن التستّر عليه. منذ ذلك الحين، صارت أمي تتحاشى السؤال عني في رياض الأطفال، حتى لاتعود وهي تحمل خيبةً لا تجرؤ على البوح بها. وبإحباطٍ لا يجعلها حتى تنام قريرة العين.

أتذكّر ذلك اليوم.. اليوم الذي اشتعل فيه الفتيل وتسبب في اندلاع الكارثة بيدي..

كان عمري آنذاك خمس سنوات. ورغم أن الأحداث في ذلك العمر كانت باهتة في ذاكرتي إلا أنني أستحضره بوضوح ولقطات من حدثٍ يسبقه..

كنت ممددًا على الكنبة في غرفة المعيشة، غارقًا في متابعة التلفاز، حين التقطْ صدفةً فرأيت حسن، وقد أمسك بعلبة ألوان، وراح يخربش بها على الجدار، خطَ خطوطًا مبعثرة بمرحٍ طفولي، كأنه يكتشف العالم للمرّة الأولى، وغطّى بها جزءًا من الحائط، تسمّرتُ في مكاني. لم أصدق جرأته!

انتظرت استيقاظ أمي وأبي من قيلولتهما، شعرت أنّ عليّ إبلاغهما.

وما إن أطلت أمي من باب الغرفة، حتى سارعتُ بالوشاية :

- ماما.. انظري لحسن.. ماذا فعل!

لحظة واحدة فقط، شحب فيها وجه حسن، ثم تقلّص خوفًا إلى زاوية الحائط وهو يخفي الألوان خلفه، بينما أنا أرتقب أمي ما.تصنع! لكن ردها لم يكن ما توقعته. رمقته، ثم.. ابتسمت! بل أشرق وجهها فرحًا وانحنت إليه تعانقه وتقول بانبهار:

- ما أجمل ما رسمت يا كنزي!

حدّقتُ فيها مذهولًا. لا أنا ولا هو فهمنا ما يجري! وقبل أن أفيق من صدمتي نادت بلهجةٍ تفيض بالفرح: «محمد.. تعال يا حبيبي.»

دخل أبي إلى الصالة وهو يجفف شعره بمنشفته، مستجيبًا للنداء، فسارعت أمي تبشّره تقدّم كشفًا طبيًا يحمل أخبارًا سعيدة:

- انظر.. انظر ماذا رسم حسن!

تأمّل أبي الجدار، وقال بهدوء: «وما الذي يُفرحكِ بهذا؟ لقد شوّه الجدار.»

أجابت بنبرة مخنوقة بالسعادة، تكاد تُبكي الحائط نفسه:

«لأنه طبيعي، يا محمد.. طفل طبيعي يخربش كغيره، يبعثر الألوان.. ليته يخربش على كل جدران الشقة.. لن يصبح كيوسف.. يوسف الذي لم يترك أثرًا واحدًا كالأطفال!»

ضحك وهو يهز رأسه باستخفاف، لكن لم يُجادلها: «هيا نظفه.»

قالها لحسن وهو يطوي المنشفة ويجلس، سكب لنفسه الشاي ولم تُفارقه تلك الابتسامة المعلّقة على زاوية فمه.

أما حسن ذو الثلاثة أعوام، فركض بجسده الصغير واثقًا وراح يمسح الجدار بالمناديل المبللة، بينما أمي تنجني تارةً تساعده وتارةً تضمّه إلى صدرها، وهي تُثني على خربشاته كأنها ترى فيها الأمجاد كلها.

وقفتُ هناك أراقبهما، أنا الذي لم أخربش قطّ، لم أسعدها قطّ، لم أثبت أنني «طفل طبيعي» قطّ!

وفي اليوم التالي.. اليوم الذي لا يمكن لذاكرتي أن تغضّ عنه الطرف، فقد انطبع في داخلي مثل ندبة لا تمحى، لا لأنني كنت حاضرًا بكل حواسي فيه فحسب، بل لأن أمي أيضًا لم تدعه يَخفت بل أعادت بثه مرارًا.. تارة في جلساتها مع خالتي سعاد وتارة وهي تسر لعمّتي ياسمين التي كانت تعدّها صديقتها المفضّلة دون سائر العمّات.

كانت ترويه حينًا بسخط.. وحينًا بلهجة متألمة، لتُسلّط الضوء على

(غبائي الفريد)، كما كانت تُسميه.

فبعد عودتها من العمل راحت ترتب المائدة التي تم إعداد طعامها من قبل جدتي كالعادة.

لا أدري ما الذي دفعني للتسلل نحو غرفة المكتب حينها، وكأن شيئًا خفيًا قادني بخطى هادئة. رأيت على طاولة المكتب مفكًا معدنيًا صغيرًا، بدا لي - في عقلي - كأنه قلم! قلمٌ غريب.. أسهل في الإمساك من الأقلام الرفيعة التي لا أجيد مسكها ولا أطيق ذلك.

كان أبي قد اقتنى مؤخرًا حاسوبًا جديدًا بمواصفاتٍ ذات جودة عالية، رأيت شاشته مفتوحة لكنها مطفأة..تعكس وجهي بلونٍ معتم مهيب كأنها مرآة سحرية.

جلستُ على كرسيه أتأرجح ثم أمسكت المفك، ورحت أجرّه ببطء على سطح الشاشة.. أراقب تلك الخطوط الرفيعة التي تخطّها يدي بانبهار، كأنني أبدع في رسم لوحة فنية لا تقدر بثمن.

كنت أتصوّر أن أمي ستفرح بي، ستنحني كما فعلت مع حسن وتقول:

«ما أجمل ما صنعت يا حبيبي!»

فقد قالت البارحة إن الخربشة تعني أنني «طبيعي».. وأنها تجعلني مثل سائر الأطفال.

فعلتُ ذلك بتفانٍ ورضا.. حتى سمعت صوت المفاتيح المعدنية وهي ترتطم بحلقة الباب المعدني، نغمتها المألوفة، دلالة لا تُخطئ على عودة أبي من عمله.

اقتحمت مكاني لم أهرب.. رغبت فقط أن تسبق أمي دخوله، أن ترى هي ما فعلتُه وتُباركه. لكنها لم تأتِ..

دخل أبي، رآني جالسًا على كرسيّه، وعلى وجهه ظهرت أولى علامات الاستغراب! اقترب ببطء، يتفحّص ما بيدي حتى وقعت عيناه على شاشة الحاسوب. انكمش كل شيء في ملامحه.. كأن الزمن توقف لثانية، ثم فتح عينيه على اتساعهما، كأن الذهول آخر غضبه لحظة. ثم انفجر:

- ليلى!!

نداؤه اخترق جدران الشقة كلّها، رجّ قلبي بعنفٍ لم أفهمه بعد. لم أفهم لماذا صرخ.. لماذا لم يضحك؟! لماذا لم يقل لي كما قالت أمي لحسن: «ما أجمل ما صنعت!» لماذا شعرتُ فجأة بأنني لم أكن طفلًا بل خطأ؟ خربشة غير قابلة للمحو!

جاءت أمي مسرعة، تحمل بيدها الصحون المعدّة لتُرتّب بها المائدة، وقد علا صوتها مستنكرة: «ماذا هناك؟»

ردّ بانفجارٍ كصاعقة وهو يشير للشاشة:

- انظري لابنكِ الغبي! دمّر الشاشة! أين كنتِ عنه؟

نظرتْ إلى الحاسوب، بدت عليها الدهشة، ثم رمقته بنظرة مشتعلة وأجابت بحدة: « وهل أنا أخطبوط؟ لأقوم بمشاغلي، وأتابع الأطفال! لست سكرتيرة عندك.. ثم..»

زم فكيه وقاطعها بصوت مكدود من الغضب:

- حسنًا، اخرجي.. وأغلقي الباب.

ترددتْ، ثم التفتت إليّ، رأتني محشورًا في الكرسي، مرتجفًا، لا آنبس ببنت شفة، تتوسّل عيناي إليها ألا تتركني له. اقتربتْ، وضعت الصحون على المكتب وأمسكت بيدي لتُخرجني معها، لكن صوته الصارم أوقفها:

- قلتُ اخرجي.

ردت بعناد: «ماذا تنوي أن تفعل؟! هو ابني، لن أسمح لكَ أن تؤذيه.»

تقدم خطوة نحوها وقال ببطء، نبرة صوته تنذر بالخطر:

- لن تسمحي لي؟! راقبي ألفاظكِ.. واخرجي الآن.

- لن أخرج.

حدّق بها، وقد بدا أن المعركة خرجت عن مسارها، ولم تعد بينه وبين «ابنها الغبي» كما وصفني، بل بينه وبين امرأةٍ تتحدى سلطته. تبادلا نظرات حادة، ثم هدأت هي قليلاً وقالت بنبرةٍ متصلبة، تكابر ولا تذعن:

- حسنًا.. عدني ألا تضربه.

أذكر أنني رغم رعبي تعجبت من طلبها! فهي نفسها كثيرًا ما كانت تضربني وتبكيني، لكن يبدو أنها لا تزال تملك قلبًا يخاف عليّ من أبي وقسوته.

تساءل بازدراء: «أأنا مجرم لأضرب طفلًا؟ هيا، اخرجي وخلصينا.»

غادرت وتركتني في غرفة ضاقت عليّ كأنها زنزانة. نظراته كانت كالرماح، وأنا أجلس مرتعشًا محاولًا التشبث بشيء لم يكن موجودًا.

- لماذا فعلت هذا؟ هل أنتَ أبله لهذه الدرجة؟! هل لديك عقل يفكر! ما شأنك بأجهزتي؟!

ART_OF_BOOK

لا أتذكر بالضبط ماذا كان يقول، ولكن الذي أتذكره هو أن صوته بدأ يرتفع أكثر فأكثر، كأن زئيره يندفع ليصل جوفي، وانفجرت بالبكاء، بكاء لا يحتمله صدر طفل بخمسة أعوام، رعبٌ وخذلان..

لم أجد بين يديّ إلا دموعي وصوت صراخي العالي، لا أحمل أي كلمة.

دخلت أمي فجأة بفتور، متعمد كما بدا لي.. هدفها قطع هذا الوضع:

- هيا.. الطعام جاهز.

لم يقل شيئًا، ظل نظره ثابتًا عليّ واعتدل في وقوفه، ثم أشاح وجهه.

هربتُ سريعًا إلى عند جدتي في الطابق الأرضي، كنت أبكي، أرتجف، وأحمل في قلبي ذعراً لم أختبره من قبل..

وربما كانت هذه أولى بوّابات التقريع الذي صار منذ ذلك اليوم، عادة لا تنكسر.

احتميت بحضنها خائفًا، وانهرت في بكاءٍ جديد. سألتني بقلق عما جرى، وما إن أخبرتها حتى هزت رأسها باستنكار ولم تؤنبني على فعلتي، فقط.. انسدل الصمت على عينيها في حزن لمواساتي.

قضيتُ بقية النهار عندها، أصول هنا وهناك، أحب الأمان الذي يحتويني في أرجاء شمسها، وبدأ الغسق يزحف على الجدران..

يحمل معه ذلك الكابوس الذي فتك بلحظتي..

وتكاثر بداخلي على مدار سنوات مضت.

١٥

اليوم الأسود

أعلم بأن الفضول طالما ساورَكَ حول محمد.. وسأصارحك الآن بكل شيء، دون رتوش أو زيف.. حقائق فقط.. وكيف حملتني تلك اللحظات إلى مصيرٍ آخر.

محمد نموذجٌ حيٌ لرجل من ذوي الياقات البيضاء، يتشح بالرصانة وينبض بالدقة في مختلف الأمور، كان وجهه متجمدًا كصفحة خالية من العواطف إلا فيما ندر، ابتسامته كظل خفيف، يهتم بعمله كآلة مضبوطة على إيقاعٍ صارم، أدواته مرتبة، وكلماته قليلة ترد بطيئة لكنها في الغالب تحمل وزنًا ثقيلًا.

لم أكن بحاجة إلى تكرار طلبي عليه لإصلاح ما يتعطّل في السكن ليسارع في حل المشكلة. أغدق علينا بسخاء وكأن رفاهنا المادي في نظره واجب لا مجرد تلبية للاحتياجات، فلم أجدني يومًا أدفع قرشًا واحدًا من راتبي لقضاء حاجة لي أو لأبنائي.

رغم ذلك، ظلّ دائمًا لغزًا بالنسبة إليّ..

يشبه كتابًا أنيقًا مغلقًا بإحكام، لا يبوح بشيء.

لم يحدث أن أخبرني بما يجري في عمله، أو في عائلته، أو مع أصدقائه مثلاً، كنتُ أحبّه، بل أهيم به عشقًا، وهذا العشق يتجاسر ويكبر في صدري يومًا بعد يوم، فهو أسرتي وعالمي. لكنني، كأيّ زوجة أتلهف لكلمات الغزل من

زوجي. رغم أنني لم أعد تلك الفتاة الصغيرة في مقاعد الجامعة، فقد تخرجتُ وأنجبت، وتوظفتُ في عملٍ جيد، وأصبح عملي شاغلي الآخر، إلا أنني ظللتُ متعلقة به تعلقًا شديدًا.

ذاك التعلق وذلك التركيز الهائل عليه هشّم شيئًا في داخلي..

خاصةً أنني منذ طفولتي أشعر بفقدٍ عاطفيّ وجوعٍ خفيّ.

وكأن في أعماقي بذورًا نرجسية، يرويها الآخرون بإعجابهم الدائم، وانبهارهم بجمالي ورشاقتي، حتى بعد أن أنجبتُ أطفالًا..

إلا أن محمدًا كان بخيلًا في غزله، شحيحًا في ثنائه، كأنما كلماته مغلقة عليه، لا يخرجها إلا بثمنٍ فادح!

لا أعلم، أحيانًا ألقي باللائمة على تحريض والدته التي لا تفوّت فرصة لانتقادي أمامه، وأحيانًا أخرى أتساءل: هل يخشى إن أغرقني بالمدح أن أتمادى وأزداد غرورًا؟ أم أنني لم أعجبه يومًا!

كان يراقبني فقط بعينيه، يتفحصني كشرطيّ دقيق قبل خروجي من المنزل:

«غيّري هذا، لا ترتدي ذاك..»

وإن خرجنا معًا إلى مقهى أو مطعم، ورآني بتبرجٍ لافت أمرني بهدوء أن أخفف الألوان أو أزيلها.

في البداية، كنت أستاء من غيرته في صمت. لا أُظهر انزعاجي. ثم، شيئًا فشيئًا، اعتدت الأمر.. واقتنعت به.

بل بدأت أرى فيها وجهًا آخر للحب، ذلك الذي لم يعرف كيف يبوح به بالكلام، فترجمه بحذرٍ وقلقٍ عليّ.. تأثرتُ به. وصرتُ، دون أن أشعر، أكثر التزامًا، وأكثر تدينًا.. لا كمظهر فقط بل كحقيقة تسلّلت إلى وعيي بهدوء، وكأنه أعاد ترتيب قلبي من الداخل.

لكن يا للأسف..

غضبي منه في ذلك اليوم مزّق كل تلك القناعات، وكم تمنيتُ من أعماقي أن تكون تلك اللحظات كابوسًا لا حقيقة مريرة! لو أن آلة الزمن بيدي لمحوت ذلك اليوم من عمري بلا تردّد..

والذي أطلقت عليه بيني وبين نفسي باليوم الأسود!

بعد ما يقارب ثلاثة أعوام على ولادة صغيري حسن، نشبت بيني وبين محمد مناوشات خفيفة مألوفة. كان السبب.. يوسف وعبثه بحاسوبه الجديد. أعلم أنني اليوم اعتدت على قسوته، وتوبيخه اليومي ليوسف حتى صرت أتجاهله ولا أكترث. لكن في ذلك اليوم، قلقت.. ربما لأنها كانت أول مرة أشعر أنه ينوي معاقبته.

حين أمرني أن أخرج من الغرفة وأغلق الباب، اسودّت مخيلتي. لم أذعن له إلا بعد أن تيقنتُ أنه لن يؤذيه.

أعرف محمد جيدًا.. ولكنني تعلمت أن لا أثق بأحد..حتى بنفسي! فأنا التي كنت أرفض ضرب الأطفال رفضًا قاطعًا، لم أتورع عن ضرب يوسف مرات عديدة!

أجهل ما قد يفعله بي الضغط أو الغضب..

فكيف أثق بأن محمد في لحظة احتقان، لن يفعل ما أفعله أنا؟

أرعبني بإجراءاته التي بدت غريبة علي في تلك اللحظة، لكن حين اقتحمتُ الغرفة عليهما ورأيت يوسف يفرّ هاربًا، خفّت وطأة الخوف في صدري، وسرت في جسدي طمأنينة باردة، وكأن أعصابي التي كانت مشدودة قد

ارتعشت فجأة ثم سقطت في نقيضها. ظلّ محمد معرضًا بوجهه عني لثوانٍ، فلم أتمالك نفسي انفجرتُ ضاحكة، لم أقاوم نزعة السخرية بداخلي:

- تُخرجني من الغرفة وتُغلّق الأبواب وكأنك في تحقيق جنائي! لِمَ كل هذا؟

التفت إليّ ببطء، حدجني بنظرة ساخطة ثم مضى نحو الصالة دون أن يرد، جلس على الكنبة والتقط هاتفه كأن شيئًا لم يكن. لحقتُ به، أجلستُ حسن على المائدة وسكبت له طعامه والصغير بدأ يلتهم لقيماته ببراءة.

دعوت محمد ثانية وأنا أتصنع الضيق: «هيا.. أعددت المائدة وحدي اليوم لم تساعداني أنت وابنك، فقد كنتما منشغلين بالتحقيقات». قلت عبارتي الأخيرة ضاحكة.

رمقني بنظرة أخرى أكثر حدة وكأنه يحذرني أن هذا ليس وقت السخرية اللعينة مني. ثم أعدت المحاولة بلين وأنا أقف أمامه: «رتّبتُ كل شيء بعناية، وأضفت لمساتي الرائعة على كل طبق أعدته والدتك.. تعبتُ اليوم وبذلت الكثير من الجهد.»

كان لا يزال يحدّق في هاتفه ثم قال ببرود كأنه يلقي جملة عابرة في طريقه:

- جيد، فأنتِ بحاجة لبعض الحركة.. ربما تفقدين بعض الوزن وتعودين كما كنتِ.

تجمّدتُ ثم هويت على الكنبة الأخرى كمطعونة..كلماته انغرست في قلبي كحدّ السكين. فأنا أجاهد كل يوم لأبدو في عينيه أجمل النساء، لأكتشف أنني كذلك في عيون الجميع.. ما عدا عينيه! لم يكن يُثني على جمالي، فلم أعرف أبدًا كيف يراني. وليته ظل في تلك المساحة الرمادية المبهمة بين الإعجاب

ART_OF_BOOK

والنـ دون أن يجرؤ على العبور منها إلى السواد الصريح.

بالطبع لم تكن المرة الأولى التي ينتقدني فيها؛ وكنتُ غالبًا أردّ له الصاع صاعين حتى يندم على كل حرف تفوّه به. لكن هذه المرة كان الجرح أعمق.. انتقد مظهري. وذلك ما لم يفعله قط!

شتمته في داخلي، لم أرغب أن يرى ضعفي وهشاشتي بوضوح. تمنيتُ في تلك اللحظة لو كان سمينًا أو ببطنٍ بارز، أو أي عيب أشهره في وجهه. لكن جسده كما لو صُقل من الرخام، بكمالٍ قل نظيره! لا مكملات غذائية لا حساب للبروتينات، فقط انضباطه الصارم في صالات الرياضة بلا أي هوس. بعكسي أنا.. المهووسة بجمالي! وأعترف بذلك! قد أستطيع أن أتقبل منه أي شيء، أي ملامة أي ملاحظة.. إلا أن يُمس مظهري!

فأنوثتي أمامه خط أحمر..

اعتبرني سطحية إن شئت! نعم.. سطحية! غبية ..تافهة! مغرورة حتى لكنني هكذا.. لا أنكر، لدرجة أنني أتحمّل جفاءه..صمته، ولا أتحمل أن يراني أقلّ مما أريد أن أكون في عينيه.

قلت بنبرة محايدة في ظاهرها، متوترة في باطنها:

- حقًا! لم أكتسب الكثير من الوزن منذ زواجنا، ربما خمسة.. أو ستة كيلوغرامات، بالكاد.

لم يعلق، ظلّ مشغولًا بهاتفه، ربما شعر أن كلماته انتقامٌ بارد يشعر بلذته! فقدتُ شهيتي، نهضت أراقب حسن وهو يضع الطعام بفمه:

- أخبرتني أنك التحقتَ مؤخرًا بنادٍ جديد، كيف هو؟ وما اسمه؟

زمّ شفتيه، كأنه لا يريد الخوض في الحديث وأجاب بفتور:

- نادٍ كبقية النوادي.

لم يزد على ذلك. ومضى يرتدي ملابسه الرياضية وكأنني ذكّرته بالرياضة وانصرف.

أما أنا، فنهضتُ باندفاع أبحث عبر الإنترنت عن نادٍ قريب من منطقتنا، وجدتُ منتجعًا بدا رائعًا في الصور المعروضة؛ كانَ مختلطًا لكلا الجنسين، ويضم قسمًا مخصصًا للنساء. أعجبني، فبادرت إلى تغيير ملابس حسن وإيداعه لدى جدته في الطابق السفلي حيث يوسف أيضًا، علي أتمكن من تسجيل عضوية فيه بأسرع وقت.

حين وفدت للمنتجع، انبهرت بفخامته.. مدخله منسق بعناية، تظلله أشجار باسقة، تمتد أفنانها كأنها تحادث السماء، وتتزين أرضها بأزهار مصطفة لتبدو كلوحة بديعة.

دخلتُ القسم الأول المختلط فوجدت الشباب كلٌ يجاهد في إبراز عضلاته ورجولته من جهة، وبجانبهم بعض الفتيات يمارسن التمارين بملابس خليعة تبوح بما سترته..

طالعتهن متعجبة!!

فإذا كان هناك قسمٌ مخصصٌ للنساء فما بال هذه النسوة لا يستمتعن إلا بمجاورة الرجال! هل هو رغبة في ممارسة الرياضة أو تلبية لرغبات وشهوات وبحث عن لفت الأنظار!

وهؤلاء الرجال أيضًا أشفقت على زوجاتهن، يتسابقون لممارسة التمارين

الرياضية هنا، ويعقدون مقارنة ومباراة صامتة بين الأجسا ثم يعودون
منازلهم متقمصين دور القضاة، يقارنون بين ما رأوه في الـ ما يمتلكون
الخفاء!

حتى لو كانت زوجة أحدهم تتفوق جمالاً، يظل للممنوع بريق خاص،
وللمحرم غوايةٌ تأسر النفس، فتتوه الرغبة في متاهات الوهم والزيف!

صحبتني الموظفة الأجنبية لقسم النساء..

كان رحبًا ومليئًا بأفضل الأجهزة وأحدثها، وعلى إحدى الجوانب استكان مسبحٌ كبير مخصص للنساء، تحمستُ لاستغلاله في تعلم السباحة.

أعجبني النادي وقمت بإجراءات التسجيل مباشرة، خلال ذلك ضيفتني العاملة كوبًا شفافًا من القهوة المثلجة، لأكمل تنزهي بالمنتجع باستمتاع.

كنتُ في قمة الحماس أتجول بين المساحات الخضراء الشاسعة الخارجية حين تناهت إلى سمعي ضحكات متداخلة لنساءٍ ورجال تصدر من جهة المسبح الرئيسي المختلط.

توقفتُ خلف إحدى الأشجار الكبيرة، أختبئ بفضولي أتأمل المشهد من بعيد.

كانت هناك مجموعة من الفتيات، تبدو ملامح معظمهن عربية، وإحداهن أجنبية، يرتدين ملابس سباحة كاشفة تمامًا، بعضهن بقطعة واحدة وأخريات بقطعتين! يتقافزن في المسبح ويتبادلن الضحكات مع شابين يجلسان على المقاعد الطويلة، يرتديان قمصان سباحة وسراويل قصيرة.

وحول المسبح، يتناثر أربعة رجال أو يزيدون، بعضهم داخل الماء وآخرون خارجه.

كان المكان هادئًا نسبيًا، لا صخب فيه ولا زحام. وماهي سوى لحظات حتى

ثانية إحداهن تخرج أو تطير من الماء وهي تلوح بيديها صائحة:

- محمد.. محمد..

نظرت للقادم فتهاوى فؤادي إلى قاع الهاوية، كان (محمد) خاصتي!

نعم، لم يكن إلا زوجي وقد خرج من القاعة الرياضية للتو وأقبل بملابس السباحة السوداء الضيقة ليشارك هؤلاء! وقفتُ أحدّق، عاجزة عن التصديق. ولا أدري.. كيف أصف لكَ أن وهجه تحت الشمس ازداد.. إلى حدٍ أزعجني!

رحتُ أراقبه كأنني أراه للمرة الأولى، وكلّ ما فيه بدأ يثير غيظي: خطواته الواثقة، إيماءاته العابرة، وتلك الرجولة الطافحة التي تجعله محطّ الأنظار.. وصيدًا ثمينًا تتربّص به العيون.

لم يُعر الفتاة التي نادته اهتمامًا واضحًا، واكتفى بابتسامة. وضع حقيبته وجلس على أحد المقاعد الطويلة البيضاء قرب المسبح، واندمج في حديثٍ بدا وديًا مع الشابين الجالسين هناك، كانت الألفة بينهم تنبئ أنهما صديقاه.

استمر إلحاح تلك الفتاة وهي تقف بالماء مما فضح تعلّقها به؛ فقد ظلت تنادي بتصنّعٍ وغنج لا تخطئه الأذن: «محمد .. يقول طلال إنك بارع في السباحة بأسلوب الفراشة، علمني.. هيا علمني أرجوك.»

تذمّر مازحًا وهو يعاتب الشاب الجالس إلى يمينه، ثم مدّ يده بخفة وانتزع قبعته مهدّدًا بتهكم: «ألا تكفّ عن إطلاق الشائعات عني؟ تبًا لك.. درّبها أنت.. فلستُ أمهر منك.»

ثم أعاد القبعة إلى رأس صاحبه وسط ضحكاتهما العابثة.

في تلك اللحظة قفز إلى ذهني اسم «طلال».. سمعته من محمد غير مرة،

لكنني أراه الآن للمرة الأولى.

خفض طلال نظاراته الشمسية وواصل حديثه وهو يغمز نحو الفتاة ويبتسم بمكر: «هي لا تريدني .. تريدكَ أنت!»

تصلبت قدماي وشعرتُ أن الأرض تميد بي.. ولكن طلال تدارك عبارته بسرعة حين لمح طيف ارتباك على وجه محمد، فأردف:

- أعني.. تريدكَ أن تشرح لها.

واصل ضحكاته السامجة بمشاركة الرفيق الثالث، ودعا محمد لدعم الفتاة وعدم إحراجها أكثر. فبدأ محمد يشرح بهدوء وبحركات ذراعيه أسلوب السباحة وهو جالس بمقعده، وحريص ألا ينزلق خطوة نحو حافة المسبح لكن الفتاة لم تكتفِ.. ولا يبدو أن كلمة (الخجل) مصنفة في قاموسها!

خرجتْ من الماء بملابسها المبللة التي لا يمكنني إلا اعتبارها داخلية.

تقدمتْ نحو محمد بجرأة..

تحاول الإمساك بيده لتجرّه نحو الماء، وهو يبعد يديه عنها بابتسامة متحفظة، تتراجع يداه لليمين تارة، وصديقاه يضحكان بحماس لا يخلو من التواطؤ.. لأجد نفسي تائهة بين الأصوات المتشابكة، والقهقهات التي تعلو من كل صوب.. دوامة صاخبة تسحبني بعيدًا حتى يخترقني من بينها صوت طلال كطعنةٍ تُصيبني وهو يشجّعه بنبرة لا تخلو من الخبث:

- هيا انهض ورافقها للمسبح.. كفاك ثقلاً أمامنا..

لينتصر إصرارها في النهاية.. أطبقت يديها على إحدى معصميه حتى استطاعت أخيرًا أن تمسكه جيدًا، وراحت تشده وكأنها تنتزعه انتزاعًا، ولكنه

أرأيت هذا المشهد المريع كالمشلولة، أحسبني في كابوسٍ لا نهاية له! شعرت بدمي يتجلط في عروقي، والزمن قد توقف للحظة ودون تفكير أسرعت نحوهم بحنقٍ يغلي، وعباءتي المحتشمة ترفرف خلفي كراية معركة أعيد بها الفتح الإسلامي على هؤلاء.

دفعتُ تلك الوقحة، فهوت في الماء مجددًا.

نهض محمد مذهولًا، ووقف الجميع معه وقد ألجمتهم الدهشة، وبكل ما في داخلي من غضبٍ مكبوت قذفته بكوب القهوة المثلجة على صدره وصرخت، كطلقات نارية:

- ليتها كانت قهوة حارقة..لتحرقك كما حرقتني.

تلفّتَ حوله يرصد في وجوه أصدقائه وقعَ إهانته وتهاوي كبريائه.. ولونه يمتقع، كأنما يتمنى لو تبتلعه الأرض.

حاول أن يفر بإحراجه، فخطف حقيبته الرياضية بسرعة، ولم يجرؤ على رفع عينيه وهو يوزّع اعتذارات مقتضبة لمن شهدوا فيلمًا سيُروى طويلًا.. بين من قد يراه دراميًا ومن سيصنّفه ككوميديا سوداء.. كنتُ قد لمحتُ طلال التافه، يكتم ضحكة وضيعة بعد ثوانٍ من استيعاب ما جرى، وقد خلع نظاراته.. بالطبع ليرى المشهد بصورة أوضح!

شدّني محمد من ذراعي وسط شتائمي الصاخبة: (منافق.. كاذب..) وخجله يتحول إلى كومة سخطٍ تكبر مع كل خطوة نبتعد فيها عن الجميع، حتى بلغنا موقف سيارتي البعيد عن كل العيون. هناك، أمرني بالصعود والعودة إلى البيت وهو يتوعدني غضبًا.

ART_OF_BOOK

كاد أن يستدير ماضيًا عني، ولكنه التفت مجددًا حين لم أنصع له وأنا أصرخ وقد أضعت صوابي:

- هل هذا التزامك!! غيور وغيور.. وفي النهاية تتقافز وترافص مع الفتيان!

قذف حقيبته، واقترب يحاصرني بجسده حتى كاد يلتصق بي، يداه على خاصرته وعيناه تقدحان نيرانًا وبشرته تفجّرت بلون الدم..

كنتُ أستند إلى السيارة كفريسة حُشرت في الزاوية وهو يتلظى أمامي بسخطه حائرًا بأنفاسه المضطرمة ما يصنع بي!

هوت قبضته على سقف السيارة بعنفٍ حتى اهتزّت وزمجر في وجهي:

- هل تتجسسين علي!!

لم يُرعبني رغم أن قلبي كاد يتوقف مع ضربته.. لأن ما هالني حقًا كان منطقه الملتوي، ذاك الذي يحاول به قلبَ الموازين رأسًا على عقب!

كأنما يستميت ليجد ثغرةً ينسلّ منها ليبدو هو الضحية.. وأنا الجانية!

فأجبتُ وأنا أقاوم بصعوبة موجة البكاء: «ألم تقارن جسدي بصديقتك الساقطة؟! الآن فقط .. الآن فهمتُ سبب انتقادك الصادم لي!»

شهقتُ نفسًا موجعًا، وأنا أتابع بحرقة.. أدفع عن نفسي تهمة التجسس التي يراوغ بها: «بحثتُ عن نادٍ ووجدتك صدفة، الله يريد لكَ الفضيحة.»

- لماذا التهويل وكأنكِ باغتني في لحظة خيانة! نحن هنا لممارسة الرياضة فقط.. لا تبالغي!

هززتُ رأسي بتهكم..

ثم نظرتُ إليه بثبات وأنا أخرج بطاقة عضويتي من الحقيبة وألوّح بها أمامه باستفزازٍ متعمّد:

- احجز لي مكانًا غدًا بقرب صديقاتك.. وأصدقائك.. الذين يمارسون «الرياضة».. لأنني سأشارككم، ولا تقلق سأرتدي ملابس محتشمة «للرياضة» والسباحة أيضًا..(كنتُ ألفظ كلمة «الرياضة» بنبرة ساخرة، ردًا على تبريره).

اتسعت عيناه بدهشة وراح يحدّق بي، يخشى أن أكون جادة فيما أقول.

انتزع البطاقة من يدي بغضب:

- ألا تستحين! أنتِ امرأة، كيف تخالطين الرجال؟!

- وأنتَ ألا تخجل يا «ملتزم»؟! كيف تخالط النساء؟ وأي نساء! شبه عاريات! ثم كيف لها أن تمسك بيدك وتسحبك! من الواضح أنك على علاقة بها..

لم يجب، بل فتح باب السيارة ورماني بداخلها وهو يصرخ بوحشيّة لم يسبق لها مثيل في كل شجاراتنا:

- انصرفي!

أغلق الباب بقوة وكأنه يصفقني به، نظرتُ إليه من زجاج النافذة وحنق الدنيا كله يلتمع في مقلتي..

كأن كل غيظي السابق منه لم يكن كافيًا.. لينهي الجدال بهذا العنف!

قدتُ السيارة مبتعدة وسمحت لدموعي أخيرًا بالانفجار، رحت أبكي وأبكي بلا ارتواء كلما تذكرت كيف خرجت تلك (الوقحة) مكشوفة الجسد أمامه وتشده دون حياء! لا مبرر له في عائلتنا المحافظة أبدًا، وهو أكثرنا تدينًا.. وإلا

لِمَ يتحكم فيما ألبس وفيما أضع منذ بداية زواجنا! بل لم يوفر محاضرة دينية لم يسردها على رأسي رغم ميله للصمت! وكأن محاضراته استثناء.. وكثيرٌ منها كان عن أهمية الستر والحجاب! فما فلسفة الحجاب في نظره؟

هل يظنه مجرد حاجز لحماية المرأة من أعين الغرباء؟

ألا يدرك أن الحجاب شُرِّع أيضًا ليحمي الرجل المسلم من التورط في محرمات النظر ودرئه عن الغرائز المحرمة؟ بل ربما هذا المعنى بات أشد أهمية في عصرنا الحالي، حيث أصبحت المرأة قادرة في بعض الأحيان على حماية نفسها، لكن الامتحان الحقيقي هو للرجل المحافظ..

هل يستطيع أن يصون عينيه عن التحديق فيما لا يجوز له؟ فكيف له أن يذهب بقدميه طواعية لأماكن كهذه! حيث يضطر إلى مسح أجساد النساء بنظراته، والاستمتاع بمصاحبتهن؟

أليس الحجاب تكليفًا مشتركًا، وليس مجرد مسؤولية تُلقى على كاهل النساء وحدهن!؟

لم أستوعب هذا الفهم السطحي للحجاب!

فلطالما أدهشني أولئك الذين يتخذونه قيدًا على المرأة، بينما يمنحون أنفسهم حرية النظر والتلذذ المحرم على هواهم..

متناسين أنهم أول من يحتاج إلى ستر بصيرته وبصره.

كل الأفكار تصارعت في رأسي..

تدافعت كالإعصار الهائج، وكان اندهاشي بلا حدود!

إلا محمد! لم أحسب يومًا أن يكون من هذه الفئة، لم يكن منهم أبدًا، هو رجلٌ محافظ، صادق في التزامه، مستقيم! حاشا له أن يكون مثل طلال، صديقه هذا الذي يحرضه بالتأكيد على الانضمام إلى هذه الشبهات.. ويبدو أنه يدفعه لمحرمات أخرى لا علم لي بها!

أو ربما كنتُ مخدوعة فيه؟! فكيف له أن يسمح ليد امرأة لا تحل له أن تمسه! لابد وأنه على علاقة بها! ساورني هذا الشك حتى استفحل في رأسي، وكدت أجنّ من وجعي.. لا أدري من أين راحت تنبع النيران التي تلتهم صدري بلا رحمة..

هل كانت بسبب عشقي المجنون له وغيرتي المفرطة!

أم كرامتي التي شعرت أنها تهدر؟ لكنني كنت أحترق بكل كياني، وأريد إحراقه هو أيضًا، لعلّه يشعر بحدة الألم الذي أشعلته أفعاله داخلي.

تلك المشاهد التي مرت أمام عيني.لم تكن عادية، بل كانت طعنات تخترق أعماقي، تهزّ عالمي وتقلب موازينه. كيف لي أن أعتبرها شيئًا عاديًا وهي تهدم كل إيماني وثقتي به؟

آه.. كم قلتها! وقلبي يعتصر حسرة: ليت ذلك اليوم الأسود انطفأ عند هذا الحد!

لكن، ويا لخيبة الرجاء..

لم يكن هذا سوى بداية

بداية لأحداثٍ أدهى.. وأمرّ.

@ART_OF_BOOK

١٦

محطة نجاح

عندما كنتُ في الصف الثاني، فاجأنا أبي بيومٍ لا يُنسى. احتفاءً بذكرى زواجهما، نسج مفاجأته بصمتٍ وإحكام.

حين توقفت السيارة أمام بوابة الفندق الفاخر، صرخنا أنا وحسن بحماسة طفلين يلامسان حلمًا غير متوقع. لكن أبي لم يكن معنا تمامًا في نشوتنا؛ كان بصره شاخصًا نحو أمي، يرصّد أثر مفاجأته على تقاسيمها، ابتسم وهو يشاهد عينيها تضحكان بسعادة وتقول بدهشة:

- لا أصدّق يا محمد.. أحقًا عدنا إلى جناحنا الذي بدأنا فيه رحلة زواجنا؟ وقضيتُ فيه أيامًا كانت من أجمل الأيام»

هز رأسه نفيًا: «لا يا عروستي.. تضاعف عددنا.. سنقيم في جناحٍ أكبر.

وضعت كفّها على خده بحنوّ، وقالت بصوت يملؤه الهيام:

- ما أجملك يا حبيبي! كلمة «عروستي» منك لها وقع آخر.

لكنه خفف من وهج اللحظة، كعادته حين يضطرب وعيناه على موظف الفندق بالخارج، فأمال وجهه برفق وهو يشير إلينا لننزل، وفتح صندوق السيارة يدعوه لنقل الأمتعة.

ART_OF_BOOK

دخلنا الجناح.. وفتحت لنا الأبواب على حلم لا جناح. اتساعٌ يربك الحواس، فخامة هادئة تتسلل إلى النفس، ومقاعد بيضاء ناصعة تلتف حول حوض سباحة فسيح، تغازله أشعة الشمس.

قفزنا أنا وحسن بفرح غامر كأننا اكتشفنا فردوسًا صغيرًا، رغم أننا لا نجيد السباحة.

أحضر أبي بمساعدة العامل حقائب الملابس والطعام والأمتعة، فلم تُخفِ أمي انبهارها: «أعترفُ يا محمد.. مفاجأتك هذه نسفت كل مفاجآتي. من الآن فصاعدًا، كل الاحتفالات مسؤوليتك.»

ابتسم يخفي فخره لنيل إعجابها: «ماكرة!»

ناولها كيسًا اشتراه للتو من المتجر الصغير في أسفل المنتجع، وهو يقول:

- تفضّلي.. ملابس سباحة للأولاد ولكِ.. خياراتهم جدًا محدودة.. لم أجد لكِ شيئًا ملائمًا فاجتهدت.

اندفعتُ مع حسن نصيح بحماس ونفتّش الكيس، فارتدى كل منا سروال السباحة الخاص به وعلقنا النظارات على أعناقنا، بينما على وجه أمي مرّت غمامة لم تفلح في إخفائها؛ سحابة ضيق خافتة كأنها ستبدأ سلسلة من الرفض في توقيتٍ لا يحتمل الاعتراض، قالت بشيءٍ من الجفاف:

- أنا لن أنزل إلى الماء

تساءل أبي بتعجب: «لماذا؟»

- لا أرغب

طالعتها نظراته المشجعة، وراقبتها وهي تطيل التحديق في محتويات الكيس. ثم على مضض، بدأت تُجهّزنا تضع لنا الأطواق الهوائية، وحسن بالكاد انتظر، إذ قفز في الحوض بطوقه البرتقالي كأنّه جزءٌ منه، يعوم ويضحك والفرح يتناثر من حوله.

اختفت أمي لحظات في الداخل.. ثم لمحتها من وراء الباب الزجاجي، تمرّ عبر الصالة بثوب سباحة أصفر بتنورة قصيرة، لكنها حين اقتربت من الباب المؤدي إلى الحوض اعترضها أبي، واقفًا كحاجز، يديه تمسكان بطرفي الباب وكأنه يمنع مرور النسيم.. أو نظراتنا!

استدار بسرعة ناحيتي ليصرف انتباهي، وأباح لي ما لا يُباح عادة:

— يوسف.. قربك حقيبة الطعام، تناول منها ما شئت.

أنا؟ أتناول ما أشاء؟! لم أصدّق.. بدا لي وكأنّ أبواب الجنة فُتحت دفعة واحدة. جلست أفتّش عن أطايبها بمتعة لا نظير لها، لكن أذني كانت مشدودة إلى الحديث الخافت قرب باب الزجاج: «ابتعتُ لكِ سروالًا قصيرًا.. ارتديه أيضًا قبل النزول»

— لماذا؟ ألم يعجبك هكذا؟

— لسنا وحدنا.. أطفالكِ يلاحظون

— وهل جننت؟ أنت قلتها بنفسك.. أطفال! أم أنكَ ترى أن مثل هذه الملابس لا يجب أن تُرى إلا..

صمتت قبل أن تكمل وهي تزفر وقد عقدت ذراعيها نحو صدرها بتبرم، ثم وكأنها تمسك لسانها قبل أن تجر الأمر إلى شجار حتمي.

تابعت تغير عبارتها بعبارة أخف وطأة: « أتراك معقَّدًا لهذه الدرجة؟!»

هز رأسه موافقًا، بصبرٍ وحلم وكأنه عاهد نفسه على عدم الدخول بجدلٍ يعكر متعة هذا اليوم: «نعم، أنا معقَّد.. ولا أرضى أن يراكِ أحد هكذا، حتى لو كانوا صغارك. أقدسُ حشمتكِ.. يا عروستي.»

قال كلماته الأخيرة بلطف..نظرت إليه نظرة طويلة وكأن كلمته التي أثلجت صدرها قبل قليل فقدت بريقها الآن، بدا أن بداخلها مشاعر تمور وتؤلم، لكنها عادت إلى الداخل بصمت.

لحظات، وخرجت وقد ارتدت سروالًا أسود ضيقًا يصل إلى أعلى الركبة، تحت ثوب السباحة. صفّر والدي بإعجابٍ خافت، وقد بدا عليه الرضا حين امتثلت لما طلبه. تقدّم منها بخطى والهة، يُمسك يدها كأنهما وحدهما في المكان، وقال يمازحها بنبرة رائقة:

- كل عام وأنتِ بخير، يا زوجتي الغالية.. كل عام وأنتِ لا تجيدين السباحة.

ضحك ـ وضحكتُ معه، فأنا معهما على الخط ذاته.

وحده حسن ظلّ في عالمه، يعوم في الماء بطوقه، غير معني بما يدور حوله. أما هي فلم تضحك. جلست على حافة المسبح المقابلة، وسحبت يدها من يده بنزق.

قالت بصوتٍ خافتٍ يطفو عليه الاستعلاء: «ولا أريد أن أجيدها أبدًا.»

كنتُ خلال ذلك في حيرة مما أتناول أولًا. الحقيبة المفتوحة أمامي كانت كنزًا من المتع الصغيرة «رقائق البطاطس الذهبية، بسكويت محشو بالشوكولاتة،

فطائر ساخنة محشوة بالجبن وأخرى لا أعرف محتواها، أكياس من المكسرات والفشار، قطع التورتيلا المقرمشة». وفي يديّ كوبان، أحدهما لعصير الليمون المنعش، والآخر لمياه غازية كانت فرقعاتها تُطرب أذنيّ. كل رشفة، كل قضمة، كانت تأخذني بعيدًا إلى عالم لا يطالبني فيه أحد بأي شيء.

وبين رشفة وأخرى، كنت أرصد ما يجري بدقة.. كمراقبٍ خفي لا يُرى.

لا يزال أبي واقفًا في الماء، يقابل أمي بمحاولاتٍ لا تهدأ ليغريها بالنزول وهي تُعرض عنه، حتى قال بنبرة يتلون فيها المزاح بالتهديد:

- سأدربكِ على السباحة اليوم، وسأكسر خوفكِ من الماء.. كما سأقتلع من ابنك الجبان كلّ خوفه ذات يوم وبيدٍ من حديد.

توقفت مضغتي. فهو بالتأكيد يعنيني! شعرتُ بشيء ينهار بداخلي، ما لي أُقحم في كل نقيصة؟!

وفي لمح البصر كان قد جذبها من خصرها وسحبها نحوه. صرخت وهي تهوي فوقه، اختفيا لحظة تحت سطح الماء، ثم ارتفعا من جديد، وذراعاها معلقتان بعنقه، كطوق نجاتها.

ابتسامته تغلبه، وهي.. كانت تنظر إليه بعينين لا تشبهان الضحك على غير عادتها، نظرة ممتلئة بالأسى. ظننتُ في البداية أن الأمر كله عائد لخوفها من الغرق، كما خوفي.. لكن شيئًا ما في عينيها كان أعمق، أبعد، وأكثر وجعًا.

في تلك اللحظة خرج حسن من الماء، قطراته تنساب من شعره، وجلس بجانبي لاهثًا، نزع طوقه ونظاراته، ومدّ رجليه بتعب. أما أبي، فكان قد انزوى بأمي في الزاوية البعيدة من المسبح، يحاول أن يلين حدّتها، ويُطفئ رغبتها في

الانسحاب وهي تقول بإلحاح:

- أخرجني.. قلتُ لك لا أريد أن أتعلم.. هيا
- ما الذي يزعجكِ؟ قولي فقط.. وأنا أُخرجك فورًا

كانت عيناها تسبحان في الفراغ بضيق، ويداها لا مرسى لهما سوى كتفيه وكأنها في تلك اللحظة جُبرت عليه. يصر عليها بمرح وهي ترفض، إلى أن أفضت بما يثقل صدرها:

- كرهتُ المسابح.. وكل ما يُشبهها، منذ ذلك اليوم

ابتسامته تلاشت وحل صمته .. وكأنها صدمة لا تصدق! طالعها مذهولًا وهي تدير بطرفها عنه حزنًا: «هل أنتِ جادّة؟! حتى لو قلتُ إنكِ تبالغين، سأكون مقصرًا بوصفك بنسبة سالب مليون بالمئة! كيف خطر ذلك الآن!»

أكملت تبرر وكأن نظرات دهشته تقوضها وتخشى أن يجر الموضوع إلى زاوية اعتراف لا ترغب به: «أنتَ تمنعني من ارتداء هذه الملابس أمام صغاري، ولكنك كنتَ وسط عشرات النساء بملابس أكثر خلاعة! ثم وما أدراني أنك لم تقترب من إحداهن كما نحن الآن بحجة أو بأخرى!»

وكأن الخذلان أكبر من أن يُقال، ظلّ يحدّق فيها بصرامة، بينما كانت تفرّ من عينيه. في هذه اللحظة قال حسن ببرود لا يليق بمزاجي المترف:

- توقف عن الأكل.. واسبح قليلًا. لتصبح أنحف.

عكّر صفوي كما عكّرت أمي صفو أبي، فدفعته في لحظةٍ خاطفة إلى وسط الماء أسقط غيظي وشيء من غيرتي..

وفي ثوانٍ صار يحارب أمواج الماء كسمكةٍ تتخبط..

انفجرتُ أضحك بصوتٍ عالٍ وكأن مشاعر الخضب والغيرة بداخلي تضطرم وتتحول لقهقهاتٍ تسد آذان أبويّ عنه، وفي الثانية سريعة من أبي شهد حسن بصارخ الماء، فرفع أمي بسرعة إلى حافة الحوض، ثم اندفع نحوه بقوة مزق الماء بجسده حتى بلغه، وأخرجه.. وأنا ما زلتُ أضحك.. وإن كان ضحكي قد بدأ يرتجف خوفًا من انكشاف أمري.

تهافت كلاهما إليه أمي ضمّته بقوة وكادت تبكي، ثم نظرت إليّ وقد اشتعلت عيناها باللوم: «لماذا لم تطلب المساعدة لأخيك؟»

تلعثمتُ ثم أجبت بنبرة تمزج بين الارتباك والمكر الطفولي:

— ظننتُ أنه يُجيد السباحة.. فهو يعرف كل شيء

تفاجأتُ بكلام والدي وهو يشيد بحسن حتى في هذا الموقف! ربت على ظهره بسعادة وهو يقول: «هذا صحيح يا حسن، أنت تجيد السباحة، ظللت طافيًا على ظهر الماء وأنقذتَ نفسك، وسأكمل اليوم تعليمك.»

شعرتُ بغصة فقلت: «وأنا أريد أن أتعلم.»

رحب أبي بذلك وقضينا طوال اليوم في التدريب، ولم يشِ حسن بي، أحسبه لم يدرك بأنني من دفعته.

تعلم حسن بسرعة كبيرة ولم يتقن السباحة فحسب، بل راح يستعرض بالجري والقفز عاليًا بكل جسارة تثير غيظي، مشاعر المنافسة التي استولت علي مكنتني من التسلح بالشجاعة والاستمرار رغم عصبية والدي في بعض

الأحيان وتشجيعه في أحيانٍ أخرى.

أما أمي فكانت تراقبنا بصمتٍ وقلق. تبتسم حينًا، وتقطّب جبينها حينًا آخر، وحين أسدل الليل ستاره، كنا أنا وأخي، قد اجتزنا رهبة الماء، وتمكنّا من السباحة كل وفق قدراته بالطبع، وهذا يعد نجاحًا باهرًا لي، بل إنني تفوقتُ على أمي أيضًا..

ولا أعلم إن كانت ستُجيدها يومًا لكن ما أعلمه يقينًا.. أنها لم تكن سعيدة! قضت اليوم بصمتٍ ثقيل، جالسة في ظلّها الخاص، كأن في صدرها وجعًا لا يُقال، ألمًا دفينًا ينهشها ببطء، زاد من وطأته صمت أبي وإعراضه عنها حتى بدا يومهما العاطفي، الذي رتّب له بعناية، وقد انهار فجأة وتطاير ككومة من ريش.

دخلنا الغرفة الدافئة وارتمينا على الأسرة المريحة، وما لبثنا أن غفونا من شدة الإنهاك. لكنني ما كدت أغمض عيني حتى رأيت أخي في المنام يغرق في محيطٍ مظلم مرارًا وأنا أسقط خلفه.

فتحتُ عيني بفزع.. فإذا بأمي تطفئ أنوار الغرفة. وقبل أن تنصرف، همستُ أطلب منها أن تترك الباب مفتوحًا.. ولم ترفض.

جسدي كان لا يزال يرتجف من الكابوس. التفتُّ إلى حسن على السرير المجاور، يغفو بطمأنينة، حدّقت فيه بألمٍ يخز صدري.. ألمٌ لم أفهم كنهه!

نظرتُ نحو الصالة، حيث كان أبي ممددًا على الكنبة يشاهد فيلمًا، وكأنه قرّر قضاء ليلته هناك. لم أكن أرى سوى رأسه ونصفه العلوي، لكن حضوره وحده كان يمدّني بشيء من الطمأنينة.. تلك الطمأنينة التي كنت بأمسّ الحاجة إليها

بعد المنام المزعج، وبعد ألمٍ غريب ظل ينهشني كلما تذكرتُ اللحظة التي دفعتُ فيها أخي وهو يتخبط في الماء.

ذاك الألم.. شعرتُ به كوجعٍ سببته بيدي.

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا أحاول النوم من جديد، إلى أن سمعت صوت أمي الخافت.

كانت قد جثت على ركبتيها قرب أبي الممدد على الأريكة، وقالت بصوتٍ متهدّج: «ضميري يعذّبني.. لأني حطّمتُ جهدك، وأفسدت فرحة اليوم»

في تلك اللحظة، أدركت أن ما يقوّضني هو نفسه ما يقوّضها.. الضمير! تعرّفتُ عليه لأول مرة.

لم يجبها، بل استدار بجسده للجهة الأخرى معرضًا. اقتربتْ، وطبعت قبلة على رأسه، ثم همست: «آسفة.. أقولها بكل صدق.. أنا المخطئة اليوم تمامًا ولا عذر لي»

نجحت في استمالته، فالتفت ناحيتها وهي تتابع مداعبة: «ربما لم تسمع مني يومًا اعتذارًا خالصًا كهذا.. لأنني، للمرة الأولى، أكون فعلًا المخطئة.»

رد بحزم: «أسمع كثيرًا عن الزوجة النكدية.. اليوم رأيتها»

- أنتَ تظلمني، لستُ كذلك.

- كيف تعيدين فتح بابٍ أغلقناه معًا! ما فعلتِه لا يخرج عن احتمالين: إما أنكِ نكدية، تنبشين حولي لتخنقيني.. أو أنكِ حاقدة! تحقدين عليّ منذ ذلك اليوم! زلة قديمة، تذكرينها وكأنها أعظم ذنوبي! كيف تذكرينها بعد ثلاث

سنوات! وتدمرين بها يومنا!

فغرت فاها بأسى وقبل أن تدافع عن نفسها، تنهد ثم نظر إليها بمودة وخفض نبرته:

- لكنني أعلم أنكِ لستِ هذا ولا ذاك.. أعرف قلبك الكبير. اقترفتُ أخطاءً أخرى لا تغتفر، ولم تُعيّريني بها يومًا. فلم أفهم إن كان هناك أمرًا آخر وراء هذا!

وضعتْ رأسها على صدره تتمتم: «ربما فقط.. جُننتُ من شدّة عشقي لك!»

ابتسم، وراح يُمرّر أصابعه في شعرها، وردّ يشاكسها: «كيدكن عظيم..»

رفعت رأسها وقالت بدلال: «احملني.. وطف بي في أرجاء المكان أريد أن أتذكر ليلتنا الأولى هنا.»

أبعد غطاءه الخفيف وحملها بهدوء، يمشي بها في أرجاء الصالة الواسعة. أحسبه وقف بها عند الباب الزجاجي المطلّ على المسبح، فصوته استقر في زاوية واحدة: « لو لم نصحب عيالكِ معنا لركضت وقفزت بك عاليًا الآن في المسبح..»

ضحكت، ثم ردّت بحنان: «على العكس يا حبيبي، أسعدتني مفاجأتك لأنك جمعتنا جميعًا.. وما أروع إنجازك.. علمتهما السباحة! بالأخص يوسف.. لم أكن أتصور أنه سيتمكن منها.. فهو لا يجيد أي شيء!»

- تعرفين زوجكِ.. بطلٍ يصنع المستحيل، قدّريه.

- أخبرني كيف ومتى أعددتَ لهذا؟ وكيف تذكرت عيد زواجنا، على غير

ART OF BOOK

عادتك!

- بل عادتك أن تظلميني، أنا لا أنسى شيئًا.

- عينك تفضحك، يا مخادع!

اعترف بنبرة شقية: «بالأمس، فتحتُ أحد الأدراج بالصدفة، ووجدت هديتكِ لي، بتغليفها الأنيق وبطاقة أعلاها. وتعرفين كم أنا شاعري! لا أحتمل أن تُنكدي عليّ إن لم أتذكر المناسبة من تلقاء نفسي!»

- أيها اللئيم.. إذن بالأمس فقط أعددتَ كل هذا.
- لا.. صباح اليوم!

لا أعلم كيف انتقمتْ منه وجعلته يضحك بخفوت، فلم أكن أراهما.. كان الممرّ المؤدي إلى باب المسبح خارج مجال رؤيتي، لكن صوته.. بدأ يقترب، واضحًا، كأنه يحملها نحونا، حتى كاد يلامس ظلهما باب غرفتنا المفتوح، أغلقت عيني متظاهرًا بالنوم وأنا أسمعه يقول بلهجةٍ مرحة تخفي شيئًا من الشكوى: «هل أنتِ متأكدة من أنهما نائمان؟ يوسف يزعجني، كأنه برج مراقبة! ليته ينشغل بشيءٍ ينفعه.. الكسول!»

خفق قلبي بخوفٍ وأنا أسمعه يتحدث عني بسوءٍ مألوف! وصوت أمي يجيبه بضحكة مكتومة وكأنها تقرّه. ساد الصمت لحظة، وحين فتحتُ عيني كان باب غرفتهما يُغلق.

نظرتُ إلى أخي النائم بعمق، فتمتمتُ وأنا أحدّق فيه، مرددًا ما قالته أمي: فربما هذه الجملة تعالج شيئًا من ألم الضمير: « أنا آسف يا أخي.»

١٧

بوح الورق

قبل شهورٍ من الآن، كنتُ هناك في الشقة القديمة، غارقة في دوامة من الفوضى الجميلة، أنقل قطعًا من حياتنا من مكان إلى آخر، أفرز الذكريات بين ما يستحق البقاء وما آن له أن يطوى، مضت أعوام ونحن ننتظر هذه اللحظة، اللحظة التي ستنتشلنا من الشقة الضيقة التي ضاقت علينا وعلى أحلام أطفالنا، إلى المنزل الذي رسمناه في خيالنا مرارًا، وها هو أخيرًا يصبح واقعًا ملموسًا.

الحماسة تتملكني، أُفرغ الأدراج والخزائن بشغف، وكأنني أرتّب فصول حياتي استعدادًا لبداية جديدة، أتردد قليلًا في التخلص من بعض الأشياء، كما هي عادتي؛ فبينها ما يحمل بقايا من روحي، ورافقني منذ انتقالي الأول إلى هذه الشقة.

تمرّ بين يدي أوراق وقطع صغيرة، لا قيمة لها في أعين الآخرين، لكنها في عيني تحمل دفء الذكرى، رغم رغبتي في التمسك بها، أجبرت نفسي على التخلص من معظمها، فثمة متسع لأشياء جديدة، وذكريات قادمة أجمل تنتظر أن تصطف في خزائن البيت الجديد.

ملأتُ الصناديق الكبيرة الورقية التي أحضرها محمد، وأنا أراقبه بحذر.

كم يبدو صعبًا هذه الأيام! عصبيته متأججة، كل شيء من حوله يستفزه، بل

كل كلمة أو حركة قد تشعل فتيل غضبه، حتى صرت أظن أحيانًا أنه يكرهني لفرط جفائه معي.. لاسيما مع ضغط العمل وترقيته إلى مهام إشرافية جديدة، مما زاد من أعبائه، إلى جانب تحديات عمله الخاص، الذي تحوّل مع السنوات إلى خدمات المنازل الذكية وأنظمة المراقبة. تلاه المنزل الجديد الذي أرهقته تشطيباته، وخوضه معارك يومية مع الشركات التي تعامل معها للبناء. فأصبح يثور لأتفه التفاصيل وكأنني أنا المسؤولة عن كل ما يعكر صفوه.

أعرف أنه مرهق، لكن ألم يكن الحب يعني أن نحتمل بعضنا بعضًا؟ أليس من واجبنا أن نغلب الصبر على الغضب في الأوقات الصعبة؟

سحبتُ إحدى العلب المستطيلة من أعلى الخزانة، كانت تتوارى بعناية، أكبر بضعفين من حجم علبة المحارم، زاهية الألوان ومشجرة بالورد، مخفية جيدًا.

جلستُ على الأرض، ونفضت عنها مسحة الغبار وفتحتها بحذر، أفتح بوابة إلى ماضٍ ظننت أن النسيان قد طواه، تفاجأت حين وقعت عيناي على قصاصة أمير الصفراء، تلك التي ضمت أبياتًا شعرية في أول لقاءٍ بيننا.. طالعتني باستفزاز، متربعة على قمة البطاقات بداخل الصندوق.. شهقتُ، مزقتها دون تفكير ورميتها في سلة المهملات.

بدا أنني وضعتها في الصندوق عند زواجي حين كنت غافلة عن لعبة الانتقا والآن فقط، انتبهتُ إلى أنها لا تزال هنا، بين أوراق الماضي المتراكمة.

قلبتُ البطاقات، كانت مزيجًا من ذكريات المدرسة والجامعة، رسائل من صديقاتٍ مضت أعوامٌ منذ آخر لقاء جمعني بهن، وحين وصلتُ إلى القاع، استوقفتني حقيبةٌ صغيرة من الدانتيل الذهبي، تخبئ بين طياتها عددًا كبيرًا

من الرسائل، تأملتها طويلًا ثم ابتسمتُ ..

جميع هذه الرسائل منك أنتَ..

لا أدري كيف احتفظتُ بها طوال هذه السنين، وكيف لم يطالها الحذف!
ترددتُ لحظات، كدتُ ألقي بها جميعًا في القمامة، لكن الفضول كان أقوى،
الفضول لاستعادة لمحةٍ من ماضٍ تزينه كلمات حبٍ قديمة، من شابٍ وإن
كان جزءًا من ذكرى واهنة، لكنها قادرة على بث شعورٍ بالأنس.

فتحتُ إحدى الرسائل، وقرأت:

(ضمّختُ عيني بروعةِ مداكِ، واستطبتُ بعشقكِ أهدابَ الحروفِ..

أتنفسُ قناديل المسافات، فبيني وبينك سماوات، وبُعاد..

فمتى أضم وحيك بين كفوفي!

متى تطلين بشرفات العيون.. لأراكِ .. وينقضي دربَ الكسوفِ،

متى .. أقول متى! تقرينني سلطانًا بقلبكِ العطوفِ! متى تجيبين قلبي
العاشق، لنغرق بوجه السماءِ، وزغاريد الدفوفِ!

مجنونكِ يا ليلى.. قد افتقدكِ.. أسبوعٌ قد انقضى مذ صارحتك، لم أركِ فيه،
أريد أن أطمئن عليك).

ها هي الذكرى تعود محملةً برائحة الورق القديم وكلمات كانت يومًا
تضحكني وتغذي ثقتي بنفسي، هذه الرسالة تحديدًا.. كانت واحدةً من
رسائلك اليومية التي اعتدتُ أن أجدها في صندوقي الجامعي. تتسلل إليه
خلسةً، لكنها في ذلك اليوم بدت أكثر مصيرية بالنسبة لك، إذ تزامنت

مع غيابي أسبوعًا كاملًا، بعد أن أجبرني التعنيف الذي لاقيته من أبي على الانزواء في غرفتي، أداوي جسدي المنهك، فيما روحي كانت تتخبط بين الألم وخطوبتي من محمد.

وقبل أن أغلق باب صندوقي الجامعي في ذلك اليوم بعد عودتي للجامعة.. وجدتكَ تقف بجواري قلقًا، شهقتُ رعبًا وطالعتك بقلق خوفًا من أن يراك أحد، قرأتَ فزعي فطمأنتني برجاء:

- لا تقلقي.. فقط أردت أن أطمئن عليك بعد غيابك عدة أيام.

أغلقتُ الصندوق على عجل، وأشحتُ ببصري عنك:

- أنا بخير.. كنتُ مريضة فقط..

ساد الصمت، صمتٌ مشحونٌ بالتوتر، وكأنك تنتظر مني إجابةً على سؤالك، ذاك الذي ألقيته قبل غيابي، حين أفصحتَ عن حبك.. كنتَ تنتظر اعترافًا، أملًا، أي إشارة، ولكنني تململتُ قبل أن أستطرد بحذر:

- سألاقيك في مركز مصادر التعلم .. بعد انتهاء المحاضرات كالمرة السابقة.

لم يكن في هذا العالم ما يستطيع مواراة فرحتك الطاغية، ولا ما يخفي ذلك التوهج الذي شعّ من ملامحك حينها، كان الأمل يتطاير من نظراتك، كطفلٍ قُدِّمَت له أمنية على طبقٍ من ذهب، دخلنا قاعة محاضرة الإحصاء، لكنك لم تكن هناك بحق، كنتَ معي أو بالأحرى، كنتَ بي.. بعينيك اللتين لم تفارقاني لحظةً، كأنني قِبلتك التي لا تحول عنها طرفًا.

وحدها مريم «صديقتي»، بصلفها المرح كانت تقرأ تفاصيلك كصفحة مفتوحة. وكزتني بخفةٍ وهمست بمكر:

نظري لهذا الطويل الأهبل، ربما لا يعلم أنكِ خُطبتِ.

تطلعتُ إليكَ بطرف عيني متصنعة الجهل بنظراتك التي تفترسني دون توقف. ثم تمتمتُ بمشاكسة أواصل تنمّرنا المشترك:

- دعيه.. لا تحرميه من أحلامه..

ضحكتْ مريم وهزّت رأسها باستنكار، تلعن لؤمي، بينما أنتَ.. كنتَ لا تزال هناك غارقًا في عالمٍ صنعتَه وحدك، لا ترى فيه سواي.

التقينا في مركز مصادر التعلم، بين أعمدة الكتب الخشبية التي شهدت على همساتنا المرة الماضية، كان صبرك قد نفد، عيناك تفتشان عن إجابةٍ طال انتظارها، لكنني بدهاءٍ أنثوي، قطعت عليك الطريق وهمستُ بابتسامة خفيفة:

- لقد فاتتني ثلاثة دروس من مقرر الإحصاء.. هل لديك الوقت لتشرح لي!

وهبتُك الشمس في يدك، تلاشت كل معالم التوتر عنك، وأشرقت عيناك. بحماسٍ واضح سبقتني إلى خارج المركز، تبحث في أرجاء الجامعة عن زاويةٍ بعيدة عن العيون الفضولية، صحبتني إلى قاعة دراسية صغيرة خالية، ففي هذا الوقت تحديدًا يقل عدد الطلاب وتنقضي معظم الدروس.

أغلقتَ الباب وألقيت نظرة خاطفة إلى الخارج بحذر من خلال نافذته المستطيلة

تطمئنني بأننا سنكون بعيدين عن الأعين، أدرتَ المقعد الجلدي المريح بجانب الطاولة الرئيسية للأساتذة، لتتيح لي الجلوس عليه، بينما سحبتَ لك مقعدًا بلاستيكيًا اعتياديًا.

فتحتُ دفترك الكبير وغصتَ في الشرح بدقة، تسرد الأرقام والنظريات مثل من يرسم خريطة كنز، وبينما كنتَ مستغرقًا، لاحظت كيف ترفع نظارتك بين الحين والآخر، كأنها تعيقك عن رؤية ملامحي بصفاء، تسرقني بنظراتٍ خاطفة قبل أن تعود سريعًا إلى دفترك، متظاهرًا بالتركيز، أحيانًا كنتَ تستخدم السبورة، كأستاذٍ مخضرم، تطرح أسئلتك بذكاء، وتطلب مني الإجابة بعد كل جزئية تشرحها.

في الحقيقة لم يكن مظهرك يجذبني أبدًا، ولم يكن يخطر ببالي أن يتجاوز إحساسي تجاهك حدود الزمالة أو الصداقة، رغم أنه لا يوجد في قاموسنا مفهوم (صداقة من الجنس الآخر) فذلك كان ولا يزال ضمن المحظور، لكن شيئًا ما فيك يتسلل إلى انتباهي دون إذن.. ذكاؤك، حضورك، والطاقة التي تبثها فيمن حولك كتيار دافئ.

لم تكن عن قرب ذلك (الطويل الأهبل) كما كنتُ ألقبكِ أنا ومريم، بل شخصٌ يصعب تجاهله حين ينهمك في حديثه الشائق، الوقت معك يمضي بخفة ومتعة، حتى انتبهتُ للساعة تشير إلى موعد قدوم الحافلة. نهضتُ في عجل، لملمتُ دفاتري، وهممتُ بالمغادرة لكنك استوقفتني، رأيتُ أصابعك تعبث بياقة قميصك الباهت، ثم رفعتَ نظارتك مجددًا، تحاول أن ترى الأمور أوضح، أن تزن كلماتك قبل أن تخرج، وأخيرًا بصوت متردد لكنه عميق، جاء سؤالك:

- ألم تتخذي قرارك بما يخصنا؟!

لذتُ بالصمت، وقلتُ بسرعة قبل أن أنصرف عنك بابتسامة:

- ليس بعد.. ولكن لا مانع من الالتقاء كل يوم في هذا الوقت لتصبح معلمي

ضحكت بحبور، كانت السعادة تغمر تقاسيمك وأنت تودعني بعينيك، تسير خلفي بخطوات هادئة، تحافظ على مسافة مناسبة، لا تقترب مني أكثر من اللازم حتى لا تثير الشكوك.

صار لقاؤنا يتجدد كل يومين، يطول أو يقصر تبعًا لمزاجي وظروفي، لكنك كنتَ دائمًا تنتظرني بشوق، أجدك في كل مرة تحمل أكوابًا من القهوة، أو زجاجات من المشروبات المنعشة، وكأنك تحرص على أن يكون اللقاء دافئًا بكل تفاصيله.

بعد أكثر من ثلاثة أسابيع وفي الموعد الذي اعتدنا فيه اللقاء، أخبرتكُ بأننا قد لا نلتقي كالمعتاد، فقد اتفقتُ مع حافلة خاصة لتقلّني من وإلى الجامعة، وفق جدول محاضراتي. لحظتُ كيف غشّت ملامحك سحابةُ حزنٍ صامت، غنّمت فيها عيناك بنظرةٍ لم تنبس بها شفتاك، فابتسمتُ مازحةً، أذيب وطأة الخبر على قلبك العاشق:

- إذن، لن أعود أتكئ عليك كسندي في الحافلة

- ليتني كنتُ سائق تلك الحافلة.. فقط لأبقى قربك

همستَها بنبرةٍ لا تخلو من شجن. فتلعثمتُ، وارتبكتُ كمن يطأ أرضًا مغمورة بالهوى.. ويخشاه. كنتُ أخشى أن تعود مجددًا إلى ذات السؤال..

ذاك السؤال الذي كثيرًا ما دسستَه بين سطور الأحاديث، وغمرتَ به صندوقي.. كنتَ تبحث عن إجابة صريحة، وأنا لا أملكها.

أسرعتُ أغير دفة الحديث، سألتك عن استعدادك للتخرج هذا الفصل، كأنني أنقذ قشة نجاة من غرقٍ وشيك.

ART_OF_BOOK

ومع تعاقب الأيام تضاءلت لقاءاتنا، وتقلّصت حتى باتت مجرّد لحظات متقطعة، كقطرات مطر في صيفٍ خانق.. لا تهطل إلا عندما تستعصي عليّ مسألة. فتأتيني.. دائمًا كنتَ تأتيني. لا تملّ من البحث عني، لا يهدأ لك بال إن لم ترني ولو من بعيد، كأنني في كونك كلّه.. الأهم.

ورغم التباعد لم تتراجع عن إلحاحك في التعبير عن حبك، بل وجدتَ في صمتي قبولًا. أوليس الصمت علامة رضا؟

مشاعرَك كانت علنية.. لم تكتفِ بالورق، بل واجهتني بها مباشرة دون تردد،

كنت أبرر الالتقاء بك من أجل الدروس فقط ..لم أجرؤ على مصارحة نفسي بسعادتي بكلماتك..

نفسي.. التي كانت والهة بمعشوقها (محمد)، تخفي تعطشها لسماع عبارات غزلك، ولكن من شفتيه.. هو ..

كم مرة أخبرتَني بأنك تحبني؟ بأنك تعشقني؟
وهو، زوجي.. لم يصارحني يومًا بكلمة حب.
كنتُ أشعر بأهميتي لديه، نعم.. لكن عبر أفعاله لا عبر أقواله الصريحة، حتى في أول أيامنا معًا.

قلّبتُ رسائلك الأخرى، أقرأها على مهل، فتُمطر الصفحات بالذكريات وتبوح بالدفء، وكأنني غادرت تمامًا لحظتي وعدتُ معك للماضي.. إلى أن أفزعني فجأة صوت محمد وهو يقترب من باب الدار:

- هل أكملتِ نقل الحاجيات؟

رسمتُ ما بيدي بسرعة في العلبة وقفزتُ في ثوانٍ كأنما لسعني شيء، خشية أن يراها، لكنّ قيامي المفاجئ بعد جلوسٍ طويل خانني فالتوى كاحلي الأيمن.. وارتميتُ على السرير أتألم بشدة، فيما دخل هو مسرعًا، القلق مرتسم على محياه. حاولتُ تجاهل ألمي وعيناي تراودان علبة الذكريات التي سقطت أرضًا، مختبئة خلف الصناديق الكبيرة.

بلا هدرٍ للوقت، أسرع إلى المطبخ ليحضر كيسًا من الثلج، فوجدتها فرصتي الوحيدة، قاومتُ الوجع وقفزتُ مرة أخرى، التقطتُ العلبة بسرعة، دفنتها في أحد الصناديق، وعدتُ إلى مكاني أتلظى بألمي من جديد، عاد هو يحمل الثلج، وضعه فوق كاحلي وهو يستحثني على الذهاب للطبيب للتأكد من سلامة قدمي.

والحمد لله كان مجرد التواء وليس كسرًا.

جلس يتأمّلني بصمت بينما كنتُ أمدّد قدمي المضمدة على الأريكة. شجّعني على الغياب عن العمل وأخذ قسطٍ من الراحة كما أوصى الطبيب، لكنني لم أوافق؛ فلا أحب التكاسل، ولديّ التزامات يجب إنجازها.

سألني مستنكرًا: «وكيف ستقودين السيارة؟!»

تأملتُه بشقاوة وأنا أرتشف كوب العصير وأتناول حبة المسكن، ثم ابتسمت:

- أنتَ توصلني.

تجهّم وجهه طالعني بامتعاض وهو يستعظم طلبي بحدة:

- هل جننتِ؟! وكيف لي ذلك مع عملي؟ أأتخلى عن مسؤولياتي من أجل وظيفتك؟! بالكاد أتمكّن من متابعة العمل والإشراف على الموظفين.. ناهيك

عن أعباء نقل الأثاث وترتيب البيت الجديد مع العمال! لقد نسيت طعم النوم بسبب هذا المنزل اللعين! تغيّبي عن العمل وانتهى الأمر.

تسارعت أنفاسي وتكدّست مشاعري في صدري، وحبستُ دموعي. تمالكتُ نفسي بصلابتي المعهودة، ثم صحتُ فيه بحرقة:

- أنت نرجسي بلا قلب.. ولا إحساس!

تفاجأ بردّة فعلي! لم أزد على ذلك. نهضتُ من الأريكة بصمت، أجرّ قدمي المتألمة بصعوبة، واتجهتُ إلى غرفتي وارتميتُ على السرير.

لم أكن فتاةً دمِعة، لكنّ الضغوط التي أثقلت كاهلي تجاوزت قدرتي على التحمّل خاصة مع آلامي الجسدية التي ألمّت بي. كنتُ في لحظة ضعف.. أتوق ليده تمسح عني هذا التعب المتراكم.. أحتاج اهتمامه، وحنانه، وحبّه.. أحتاجه هو.

دفنتُ وجهي في الوسادة وهدرت دموعي بصمت.

وفي لجّة حزني سمعتُ صوت الطفلين بعد عودتهما من الطابق السفلي من عند الجدة، فمسحتُ دموعي على عجل قبل أن يلحظا شيئًا.

هرعا إليّ فور دخول الغرفة، يتسابقان في السؤال عن قدمي، يملؤهما ذلك القلق الطفولي الدافئ.

بعد لحظات دخل محمد يطلب منهما مساعدته في ترتيب الصناديق وإخراج الممتلئ من غرفة النوم لتنظيمها، فهو يحب أن يكون كل شيء مرتبًا ودائمًا.

وبحماس.. بدأ حسن ويوسف في التعاون على تحريك كل صندوق، لكن يوسف بالكاد يحرك أصابعه، فيما حسن يجهد جسده الصغير بكل طاقته،

الصناديق بقوته وحده، راقبتُ المشهد بضيق، ولم أتمالك نفسي عن زجر يوسف بجدية على تكاسله، لكنه تجاهلني..

وعندما لاحظه محمد، انفجر غاضبًا، فأعصابه لم تعد تحتمل المزيد من التهاون، وصاح به بنفاد صبر أن ينصرف لغرفته، فارتسمت على وجه يوسف تلك الملامح المعتادة بعد كل توبيخ من والده، ذلك الاستياء العميق وذلك الشعور بالظلم، ثم انسحب إلى غرفته ولكنه يتخلص من عبء العمل هذه المرة..

التفتَ محمد بهدوء نحو حسن وطلب منه أن يستعد هو الآخر للنوم، وقبل أن يمضي هذا الصغير، أقبل ناحيتي وعانقني بحبٍ نفض عني الكثير من الاستياء والتوتر، فطوقتُه بذراعيّ. وأغدقت عليه قبلاتي بعاطفة وحنانٍ دافق..

كيف لقلبي الظالم أن يهيم بعشق هذا إلى هذه الدرجة، بينما لا يقابل الآخر إلا بالبرود والتصلف!

إنها حقيقة تؤرقني كلما نبتت داخلي لكنني أتجاهلها، إذ أعجز عن تقويمها مهما حاولت.

أما وداعه لأبيه فكان مختلفًا، تبادلا بعض الحركات القتالية بمرح، ضحكاتهما وضجيجهما يملأ الغرفة، ويكاد أحدهما يسقط على السرير كل حين، فرفعت قدمي الملتوية خشية أن تصاب بالخطأ، ثم ودّع كل منهما الآخر بضربات كفٍ متتالية، مما أشعلِ في محمد طاقة كانت قد أوشكت على الانطفاء بعد يومه المرهق. واستأنف ترتيب بقية الصناديق وحده.

اقترب مني وسألني عن قدمي بحيادية. لكنني كنت لا أزال معرضة عنه، لم أرغب في الرد، انتظرَ لحظة، وكعادته بعد كل (لا) يقولها، يراجع نفسه

وضميره. فقال بهدوءٍ ونبرة أقرب للتهديد:

- سأخرج غدًا من عملي مبكرًا من أجلك، ولكن غدًا فقط.

لم أحتج إلى أكثر من ذلك، طالعته مبتسمة وكأن هذه اللحظة البسيطة أعادت لي سكينتي واطمئناني.

****

في صباح اليوم التالي، كنت ممتنة وأحلق سعيدةً لأن محمد هو من أوصلني إلى العمل، اعتقدت بأنني في غنىً عن كلمات الحب، فيكفيني أن يمنحني شيئًا من وقته واهتمامه، فهذا قد يغذي عاطفتي واحتياجي. لم أعلم بأن نفسي قد تجبرني أحيانًا بظمئها وتحرضني ضده.

قبل أن أترجل، أخبرتُ الحارس أن يسْمح له بالدخول وقت الانصراف، ليتمكن من انتظاري في مواقف سيارات الموظفين، نزلت بالقرب من مبنى وحدة الجرافيك، والتفتُّ إليه لأجده يرمقني بابتسامة هادئة، رغم أنه لم يكف عن التثاؤب طوال الطريق، كان مرهقًا يشكو قلّة نومه بسبب انشغاله بأعباء المنزل حتى ساعة متأخرة من الليل، وكأنه أراد أن يشعرني بجهده، لعلّه كان ينتظر كلمة تقدير في لحظتها. لكني لم أطفئ حاجته.. ومضيت ما إن خطوت داخل القسم حتى استقبلني زملائي بترحيبٍ واهتمام، سرعان ما تحول إلى تساؤلاتٍ متعجبة عن قدمي المصابة، إذ لم أكن قادرة على السير جيدًا، أجبتهم باختصار ثم توجهت إلى مكتبي، ذلك الركن الصغير الذي يشبهني حيث يجمع بين الجمال واللمسات الإبداعية ويلهمني لمزيدٍ من التميز في العمل.

كان مكتبي مريحًا محاطًا بأرفف خشبية أنيقة تضم أدواتي ودفاتري الزهرية وبعض المجسمات الفنية التي أهوى اقتنائها، في الخلفية نافذة زجاجية واسعة تخترق أحد الجدران، تطل على مساحة خضراء تمتد بتناغم هندسي بديع، حيث الأشجار اليانعة تتشابك أغصانها برفق، وتزهر بينها ألوان البنفسج والأبيض في تناسقٍ ساحر، فيما قطرات الندى العالقة على الزجاج تعكس ضوء الصباح برقة.

أشعلت فواحة العطر البيضاء، وأعددت لنفسي كوبًا من الشاي، واستندت إلى مقعدي الجلدي الدوّار، أتأرجح عليه بخفة بينما أتأمل التفاصيل خارج النافذة قبل أن أبدأ يومي.

فتحت الحاسوب، واستغرقت في التصميم الذي يتوجب عليّ تسليمه، لكن أفكاري لم تتوغل طويلًا، إذ قطعها صوت مسؤول القسم الجديد، الأستاذ سامي، يطلبني من مكتبه.

نهضت متثاقلة، فأنا أعرف مسبقًا أن هذا الاجتماع لن يكون له أي قيمة تذكر، سامي لم يكن الرجل المناسب لهذا المنصب. ربما لأنه كان من أولئك الذين يجيدون التلاعب بالكلمات والعلاقات، بينما يوجد في الوحدة من هم أكفأ منه، لكنهم لم يمتلكوا ذات الحنكة فهو يدرك جيدًا (من أين تؤكل الكتف).

لم أعتبر يومًا نفسي من بين الأفضلية بالطبع، فأنا حديثة العهد نسبيًا في الوظيفة، لم يمر على عملي سوى خمسة أعوام، أي أصغر الموظفين تقريبًا، ومع ذلك كنت أرى بوضوح أن الخبرة ليست المعيار هنا، بل العلاقات والدبلوماسية والخطابات المتبادلة في الخفاء.

طرقت بابه المفتوح ثم دخلت، وكما توقعت رحّب بي بمبالغةٍ لا تخطئها الأذن، ذلك النوع من الترحاب الذي يصنف في بيئات العمل تحت البنود المحرمة، قال بنبرةٍ متكلفة: «أهلا بأجمل صباح لأجمل عيون.»

توقفتُ عند مدخل المكتب، رمقته بامتعاض ثم نطقت بحزمٍ وقد نفد صبري: «عفوًا أستاذ سامي.. سأطلب نقلي من هذا القسم.»

نهض متظاهرًا بالارتباك، ورفع يديه في محاولةٍ لامتصاص غضبي وهو يقول بلهجةٍ مفعمة بالتبرير:

- لا.. لا تفهمي خطأ! كنت أتحدث إلى زوجتي عبر الهاتف!»

رفعت حاجبي بدهشة، إذ لم يكن يحمل هاتفًا أصلًا، لكنني لم أرد إطالة الجدل، فتصرفاته باتت مألوفة عند معظم الموظفات هنا.

بدلًا من الرد، تنفست بعمق محاوِلة كبح انزعاجي. كان ضئيل الحجم، أقصر وأنحف من معظم الفتيات، وللحظة راودني خيال ساخر، لو وجّهتُ له صفعة لطار وارتطم بالجدار، وظلّ ملتصقًا به كبرصٍ لا حول له.

فلتت مني ضحكة خفيفة لذلك الخيال العابر، بينما هو مستمرٌ في حديثه بحماس يحاول بحذق أن يُحوّل دفة الحوار سريعًا ليعلن عن مفاجأة كبرى بانتظارنا، وأثناء ذلك دلفتْ إلى المكتب الزميلة (نسرين) بخطواتٍ متأنية تعلوها لمسة من التعالي، ثم جلست أمامه بارتياح، وكأنها صاحبة المكان.

جلستُ إلى جوارها، متحفزةً لسماع ما لدى سامي، ورغم أنني لم أكن أضع توقعاتٍ عالية، إلا أن ما أعلن عنه فاجئني حقًا:

«طلبت مني الإدارة قبل مدة ترشيح موظفيْن متميزيْن لبرنامج تدريبي في

الصين، ضمن مبادرة خليجية تهدف إلى تطوير مهارات العاملين في مجال التصميم، وإطلاعهم على أحدث الأدوات والتقنيات العالمية. بعد مراجعة أداء الموظفين، رفعت قائمة الترشيحات، وقد استلمت اليوم الموافقة الرسمية على مشاركتكما في هذه الرحلة، التي سيتم تمويلها بالكامل من الجهة المختصة، إن كان لديكما أي مانع، أخبراني.»

شهقتُ بسعادة، رغم أنني أدرك جيدًا أنني لستُ الأحق بهذه الفرصة مقارنة ببعض الزملاء الأكثر خبرة وكفاءة، لكن هذا هو سامي وطريقته في الإدارة، حيث يبدو أن معاييره لا تستند فقط على الجهد والعمل، بل تأخذ في الاعتبار أمورًا أخرى، كالحضور اللافت والطلة الجذابة.

عدتُ إلى مكتبي وأنا في قمة الحماس؛ فالسفر في رحلة تدريبية إلى دولة متقدمة مثل الصين فرصة لا تُعوّض. وما إن سلّمتُ المشروع الذي كنتُ أعمل عليه حتى انغمست في البحث عن كل ما يتعلق بتلك البلاد..

خلال ذلك، رفعتُ بصري لأحدّق عبر الباب الزجاجي نحو نسرين، كانت غارقة في مكالمة طويلة، تتحدث بلا اكتراث، تمرّر فرشاة المكياج بخبرة على خديها، وكأن المكتب امتداد لغرفة تزيينها.

شعرها الأسود الطويل ينسدل في سلاسة متقنة، يطل من تحت خمار يميل كثيرًا إلى الخلف وكأنه وُضع لتجميل المشهد لا لحجبه، وعباءتها المفتوحة تكشف دومًا عن ملابس أنيقة تحتها. كل شيء فيها يوحي بثقة لا تتزعزع، حتى عندما أعلن سامي الخبر، لم تتغيّر ملامحها سوى بابتسامة صغيرة، بلا دهشة ولا حماس وكأن السفر إلى الصين مجرد تفصيلٍ عابر.

لاحقًا، انتبهتُ لها وهي تقصد دورة المياه، تحمل كيسًا أسود عريضًا، ثم

عادت وقد غيّرت إطلالتها تمامًا. ارتدت فستانًا ذهبيًا ضيقًا، تعلوه عباءة بيضاء تبرق من بعيد، وخمارًا أبيض أظهر مكياجها الصارخ بمزيد من الوضوح التفت الجميع نحوها وكأنهم شهدوا عروسًا استعراضية على عرشها، وما إن رآها سامي حتى تحولت عيناه إلى قلبين من فرط الإعجاب وقال بمكر:

- أحدهم لديه مناسبة على ما يبدو..
- اليوم ذكرى عيد ميلادي.. سأحتفل مع الأسرة بعد العمل..

هنأها الجميع، ثم عادت إلى مكتبها تكمل زينتها التي لا تنتهي..

انهمكتُ في عملي، فمضى الوقت سريعًا، ولم أنتبه إلا وقد حان موعد الانصراف. نهضتُ بثاقل على قدمي المتعبة، ثم التقطتُ هاتفي فتذكرتُ محمد، كان قد أرسل لي رسالة نصية منذ وقت طويل يخبرني بوصوله، جمعتُ حاجياتي واتجهت خارجًا.

توقفتُ للحظة حين رأيت (نسرين) عند نافذة سيارته، بزينتها الصارخة، تطرق على الزجاج بأظافرها المزيفة.

لم يرحني ذلك، أنزل محمد النافذة وهو يعتذر. كان يقف خلف سيارتها ويمنعها من الخروج، فضحكتْ بميوعة أزعجتني، وشعرها المنسدل يتطاير مع نسمات الهواء محمّلًا بعطرٍ نافذ، تكاد خصلاتها المتطايرة تلامس وجهه.

اقتربتُ وسألتُ بابتسامة ضابطة لنبرتي قدر استطاعتي: «ماذا يجري؟»

نظرتْ إليّ بابتسامة مستفزة تكمل ضحكاتها: «لا شيء.. أشفقتُ عليه، كان غارقًا في نومه بالسيارة.. هل ينتظركِ؟!»

هززتُ رأسي بابتسامة مقتضبة وقلت: «نعم.. زوجي».

السيارة، فيما اعتذر هو منها مرة أخرى بعد أن رفع مقعده من وضع الاستلقاء، وانطلق بسرعة..

قلتُ بغضب مكتوم، غير قادرة على إخفاء غيرتي المتقدة:

- ألم تجد مكانًا لتقف فيه إلا خلف سيارتها؟!

كانت آثار النوم والإرهاق تنضح من وجهه، بالكاد يفتح عينيه، وحين سمعني، قال بعصبية: «وما أدراني لمن السيارة! لم أجد مكانًا مناسبًا، وهنا كان الأقرب للمبنى.»

مططتُ شفتي بانزعاج، فراح يحوقل ويزفر بنفاد صبر:

- ما الذي يغضبك الآن؟!

غيرتي جمرة تشتعل كثيرًا في غير محلها، أعلم ذلك، فأكتمها بصعوبة..

تعلمتُ درسي من الماضي الغابر الذي لا أطيق أن أذكره، وأصبحتُ أتقن فن التظاهر بالهدوء، حتى وإن كان البركان يشتعل داخلي، ولأصرف الضيق الذي بخنقني، قلت وكأنني أرغب في أن أسيء إليها أكثر مما أناقش الأمر بجدية:

- لا تعجبني هذه الفتاة.. ما فائدة هذا الحجاب الذي لا يستر شيئًا من رأسها!

تمتم بفتور وعيناه على الطريق: «لا داعي للغيبة.»

طالعته بغيظ: «ألا تستنكر دائمًا من يرتدين مثل حجابها بوسائل التواصل الاجتماعي وتنتقدهم!»

- ربما أنتقد من تحسر حجابًا بعد أن كان ساترًا أو قد تخلعه!

ART_OF_BOOK

- وما الفرق عنها!

راح يشرح لي وجهة نظره، والتي تحترم كل شخص وفق ما نشأ عليه من مبادئ، فالمهم في رأيه ليس الالتزام بمبدأ معين بحد ذاته، بل الثبات عليه وعدم التخلي عنه بسهولة، فمثلًا من نشأت في بيئة لم تلزمها بالحجاب ولم تكن تراه جزءًا من هويتها، قد تكون رغم ذلك امرأة تحفظ لنفسها احترامها وتتمسك بقيمها وأخلاقياتها الخاصة وقد تهتم لاحتشام ملابسها، وربما تمتلك من المبادئ ما يفوق غيرها حتى ممن يرتدين الحجاب، فالأخلاق لا تُقاس بالمظاهر، بل بالثبات على القيم التي يقتنع بها الإنسان.

فالمشكلة - في نظره - ليست فيمن لم تلبس الحجاب أصلًا، بل فيمن تتخلى عنه بعد أن كانت تراه جزءًا من التزامها الديني والأخلاقي، لاسيما وإن الحجاب يشكل هوية أساسية في الدين الإسلامي، فهذه، وفق منطقه، ليست مجرد خطوة تغييرية سطحية، بل تمثل تراجعًا عن قناعة سابقة، وانسلاخًا عن مبدأ كانت تؤمن به، ومن تتخلى عن قناعة أساسية بهذا الشكل قد يسهل عليها لاحقًا التخلي عن مبادئ أخرى كانت تراها ركيزة لحياتها، فالأمر يبدأ بخطوة تعد فارقة كهذه، ثم يصبح التنازل أسهل مع الوقت.

وهنا يكمن الفرق الجوهري بين من لم يكن ملتزمًا بدين أو مبدأ منذ البداية وبين من ارتد عن شيء آمن به يومًا ما، فالمرتد عن الإسلام مثلًا ليس كمن لم يعتنقه قط، الأول كان مقتنعًا به، وعاش في ظل قيمه، ثم قرر أن يهدمه، والدين أساس كل القيم في حياة الإنسان المسلم بالذات، بينما الآخر لم يكن لديه هذا الأساس ليهدمه، وبهذا المعنى، فإن التخلي عن إيمانٍ جوهري يمثل هوية للإنسان قد يكون مؤشرًا على استعداد الشخص لاحقًا للتخلي عن كل القيم التي تصاحب هذا الإيمان، وربما عن أي شيء كان يعدّه ثابتًا في حياته،

واعتبر هذه الفئة هي الأخطر ووضعها في دائرة (التخلي القيمي).

كان كلامه فلسفيًا وعميقًا، لكنه لم يهدئ من غضبي، بل زاد ضيقي..

كنت أريد فقط أن أسيء إليها، لا أن أستمع إلى مرافعة تدافع عن اختياراتها أو تضعها في خانة أصحاب المبادئ والقيم! لا أدري هل يجب أن يعارضني في كل شيء أطرحه! أم أن جمالها قد شفع لها عنده!

استفزني، فلم أتمكن من لجم لساني أكثر وتهورت قائلة: «نعم تدافع عنها، اعترف بأنها أعجبتك! عليك بغض البصر حين تتحدث مع النساء!»

زمّ شفتيه بغضب واضح، وراح يتمتم بعبارات حانقة، يشتم الساعة التي قرر فيها إيصالي اليوم! إلى أن خيم الصمت كحُكمٍ طوال الطريق.

ما إن وصلنا عند باب الشقة، نزل بسرعة وصفق الباب بقوة وكأنه يرغب في الخلاص مني بأسرع وقت. مضى يحث خطاه نحو البيت الجديد يكمل التزاماته الكثيرة فيه. ترجلتُ بصمت، وقلبي مثقل بمزيج من الغضب والحزن، كثيرًا ماشعرت أن غيرتي هذه مرضية..

هل هي قلة ثقة بالرجال عمومًا؟ أو بمحمد تحديدًا؟

أم هي قلة ثقة بالنفس إلى هذه الدرجة؟

ذلك الشعور المرير بأنني لستُ محبوبة كما ينبغي لا يفارقني، لا أدري هل هو شعور كبر وتضخم معي منذ طفولتي التي لم تعرف صدر أم حانٍ، والأدهى من ذلك، لم تجد أبًا محبًا يرمقني يومًا بنظرة ود، ثم زوجًا كمحمد لا أعرف إن كان حقًا يحبني!

أنا لا أظلمه.. هو يؤدي كل واجباته الزوجية بكل إخلاص، ويوفر لي كل ما

ART_OF_BOOK

أحتاجه، لكنني أخشى أن يكون كل ذلك فقط بدافع المسؤولية والتزامه الديني الذي يدفعه نحو المعاشرة بالمعروف، لا من باب الحب الذي أنا متعطشة له كالماء.

جلستُ على السرير أتنقل بين محتويات الأدراج الصغيرة الملتصقة بجانبه ولم يتبق سوى هذا الدرج الخاص بمحمد، كان قد أخبرني ألا أتدخل في حاجاته وأنه سيتولى ترتيبها بنفسه حين تسنح الفرصة، ربما يخشى أن أبعثرها أو أفسد نظامها، لكن الفضول دفعني لأن أعبث في الدرج، قد أكتشف شيئًا مخفيًا، ربما سرًا أو آثار خيانة!

كان الدرج غاية في الترتيب يضم علبة بطاريات بأحجام مختلفة وأسلاك كهربائية مطوية بعناية، إلى جانب كابل شحن متعدد الاستخدامات، ومفك صغير يستخدمه لصيانة أجهزته الإلكترونية، وبين تلك الأدوات دفترٌ أسود قديم يمتلكه قبل زواجنا على ما يبدو، فتحته وقلبتُ صفحاته؛ كان مليئًا بملاحظات دينية وتدريبات طويلة على طريقة التوقيع، مما بدا أنه كان في بدايات عمله الخاص..

تصفحت الدفتر أكثر، فتفاجأت بوجود صورة بين صفحاته، كُتب على ظهرها في جهة اليمين بخط صغيرٍ : (إلهي كما جمعتني بها في هذه الدنيا.. اجعلها رفيقة دربي في جنان الخلد.. فهي أعظم نعمة)

قلبت الصورة بتوتر، واغرورقت عيني بدمعة السعادة والامتنان، فلم تكن سوى صورتي وأنا أضحك بحبور في إحدى سفراتنا بالعام الماضي.

دقائق مرت وأنا أعيد قراءة الدعاء الذي كتبه على ظهر الصورة، وكأن دعاءه هذا أعظم من كل رسائل الحب وأشعار الغرام التي تكتب، بل وكأنني

أدركت للتو أنه يحبني حقًا!

سمعتُ صوت باب الشقة يفتح، فأعدتُ الصورة لموضعها السابق بداخل الدفتر، وأعدتها للدرج، ونهضت بصعوبة. كان محمد يدخل بهدوء ولايزال وجهه مقتضبًا، معرضًا عني ويدير فكه السفلي بامتعاض، فتفاجئ بي أعانقه وأنا أقول له بصوتٍ واله: « لا تعلم كم أحبك!»

كانت ملامحه تعكس تساؤلات كثيرة، ولكنه بادلني العناق وكأن شيئًا من غضبه لم يكن، سحبته بغنج وأجلسته على الكنبة وجلستُ بقربه، بدأتُ أسرد عليه تفاصيل الخبر الذي تلقيناه اليوم (الرحلة إلى الصين)، وأخبرته بكل حماس: «من الجميل أن الرحلة شاملة جميع التكاليف، حتى لمرافق واحد لكل متدرب! كل ما عليك هو دفع ثمن تذكرتكَ فقط..»

ارتسمت علامات الحيرة على محياه وتنهد في خفوت: «لكنني أخشى أن لا أجد الفرصة.. تعلمين ثقل مسؤولياتي في العمل، وكم من الصعب أن أخرج في إجازة ممتدة كهذه! ناهيك عن التزامات المنزل التي لا تقل وطأة.»

همستُ وأنا أعانقه من جديد: «أنت مجبر، تعلم جيدًا أنني لا أستطيع السفر من دونك، ولا يمكنني أيضًا أن أفوت هذه الفرصة الذهبية.»

صمت، وأصابعه تنساب بين خصلات شعري بحنوٍّ مريح، بينما أستند إلى صدره وبلغتُ المرفأ الذي ظللتُ أفتش عنه طويلًا، رفعتُ طرفي إليه وسألته، لأول مرة.. سؤالٌ لطالما ازدَريتُه، لأنني كنتُ أراه اعترافًا بالهشاشة، لا يليق بكبريائي.. ولا أفهم كيف يسهل على بعض النساء ترديده: «تحبني؟»

هزّ رأسه إيجابًا دون أن يتفوه بكلمة، مكتفيًا بطيف ابتسامة. فقلتُ بعتابٍ وادع وأصابعي تعبث بذقنه التي طالت أكثر من المعتاد بفعل انشغالاته

الكثيرة: «لماذا لا تخبرني بذلك؟»

أجابني ببساطة: «لأنكِ تعلمين.. وإلا يمكنكِ سؤالي»

حدّقتُ فيه بدهشة ولم أخفِ ارتباكي:

- أهذا أمر يُسأل؟ وكأنني أستجدي حبك؟!

زفر ببطء وأشاح بنظره يتهيأ لجدالٍ آخر. لكنني فاجأته حين مددتُ يدي ووضعت كفي على موضع قلبه، وهمست بإقرارٍ وسكينة:

- أعلم الآن.. أنني هنا، في قلبك، دائمًا.

ابتسم، واندفع الأطفال إلى الشقة بصخب، فبُرت اللحظة، ابتعد عني قليلًا بلطف، وكأن هذا المشهد بات طقسًا مألوفًا مع دخولهم، ومع أنني أؤمن أن من حق أطفالنا أن يشهدوا لمسات مودتنا، لأنها تمنحهم الأمان، وأن يُحجب عنهم ما يهدد ذلك الأمان من خلافاتنا المتكررة، إلا أننا دائمًا نتصرف بعكس قناعتي.. وفق قناعته هو..

لكن لا شيء يهمني اليوم سوى أنني ملكتُ الدنيا حين تيقنتُ

أن قلبه لي.. لي وحدي..

انتبهتُ له وقد ومضت عيناه بحماس، وكأنه أدرك لتوّه ما لم يخطر بباله قطّ! فرحلاتنا، على الدوام، كانت برفقة الأطفال.. لا سيما خسن، إذ لم يكن لي قلب يُطاوعني على مفارقته..

أما يوسف، فلم يكن من العسير تركه في كنف جدته. طالعني بابتسامة جانبية، ثم همس وهو يسند رأسه إلى ظهر المقعد، يتأمل فكرة الرحلة إلى الصين: «أربعة أسابيع وحدنا.. بلا أطفال!»

١٨

انفجار اللغم

انتقلنا إلى منزلنا الجديد، أو كما يسميه البعض «فيلا»، كان قريبًا جدًا من بيت جدتي.

لا أذكر أنني شعرت بفرحٍ مماثل لذلك الذي غمرني يومها، ربما لأنني كنتُ أستشعر للمرة الأولى طعم الاستقلال، ولو كان استقلالًا صغيرًا بحجم غرفة.. نعم، غرفةٌ لي وحدي.. وحسن له غرفة أخرى.

كانت غرفنا متشابهة إلى حدٍ بعيد، بنفس الأثاث ونفس الألوان.. ولكنني كنت أملك ما يجعل غرفتي أكثر دفئًا بنظري: صندوقٌ كبير، مملوء حتى حافاته بألعابي القديمة.. مختلف أنواع السيارات، وأشكال الحيوانات، وأشياء كثيرة لا أستطيع الاستغناء عنها، أخرجها في أوقات فراغي وألعب بها.

أما حسن فلم يكن يعير الألعاب اهتمامًا يُذكر. حتى إن أُهديت له كان يرميها بلا أدنى اكتراث، وهنا تبدأ فرصتي الذهبية.. أستولي عليها بكل سرور، وأعتبرها غنيمة وأضمها إلى مجموعتي بسعادة.

ولم يكن الأمر يقتصر على الألعاب.. بل كنت أحب أن أحصل على كل شيء يمتلكه حسن حتى أدواته المدرسية أو أي غرضٍ يستغني عنه. كأنني حين أمتلك أشياءه، أرمم داخلي ..أغلق فجوة نابتة في صدري.

أشياء ملموسة، تواسي شيئًا غير ملموس على الإطلاق.

كانت الأيام الأولى في فيلتنا أشبه بحلمٍ جميل يستيقظ في كل زاوية منه، كل شيءٍ جديد ولامع يروي بداية أخرى من حياتنا.

في كل مساءٍ تقريبًا، نعود بحماسٍ من السوق محملين بمستلزمات جديدة، من أدوات المطبخ إلى تفاصيل غرف النوم وحتى تلك الإكسسوارات الصغيرة التي تضيف للمنزل لمسةً من الأناقة والفخامة..

غرقت أمي حد الثمالة في إشباع شغفها بإضفاء طابعها الخاص بالأرجاء، تبذل جهدًا مضنيًا في اقتناء الأشياء وترتيبها بدقة لا نظير لها، تحولت أركان المنزل إلى لوحات فنية، تعج بالفازات الزجاجية التي تزخرفها أزهار مختلفة الأشكال والألوان، وكأن المنزل يحتضن حدائق صغيرة ملونة داخل جدرانه، ومع كل هذا الاهتمام بالتفاصيل، أصبح التوتر يسكن أمي في بعض اللحظات فتصبح كالمارد الغاضب خشية أن نتلف إحدى تلك القطع الهشة، وأحيانًا كان يكفي اقترابنا من إحدى الفازات ليجعلها تطلق تحذيراتها المألوفة:

- لا تلمسوا شيئًا!

لكنها في الوقت ذاته، كانت تتلألأ بسعادةٍ لا تخفى، شيءٌ ما بداخلها قد استراح بعد طول اضطراب، بدت علاقتها بوالدي وكأنها بلغت ذروتها في التناغم العاطفي؛ لا مشادات، لا خلافات، ولا حتى تلك المناوشات الصغيرة التي كانت تسري بينهما كنبضٍ منتظم.

منذ انتقالنا مؤخرًا لم أعد أرى سوى انسجام هادئ بينهما، كأنهما عثرا أخيرًا على الإيقاع الذي طالما أضاعاه، لا أدري: أهو سحر البيت الجديد، أم حقيقة انكشفت لها فبدّلت شيئًا عميقًا في قلبها؟

ما كان جليًا أن حبّها له طغى على كلّ شيء؛ صارت تفيض بامتداحه دون

موارية، تحادثه برقةٍ ونبرةٍ منخفضة يضبطها احترامٌ عميق، كأنها أدركت أن رجولته لا تشبع بالحب وحده بل بالهيبة أيضًا.

كانت تسترسل في الحديث عن حظّها السعيد به، تشكره على كلّ أمرٍ مهما بدا بسيطًا، وتدلّله دون كلل. حتى إنها أحيانًا، فقط لتُظهر اهتمامها تقول دون مناسبة واضحة: «اذهبا إلى غرفكما.. والدكما بحاجة للراحة.»

وكأنها بذلك تُعلن، أمام الجميع، أنه سيّد البيت الذي لا يُعلى عليه، ومحور التقدير الأول في حياتها.

وتمنحه في الوقت ذاته مساحة فارغة يحتاجها، وتخفف من وطأة التمركز حوله. فحتى هي تنسحب بهدوء متشاغلةً بتنسيق الزهور والزراعة في الفازات المختلفة، التي صارت هوايتها الجديدة بعد أن غدت أكثر ثقة واطمئنانًا على ما يبدو..

أما هو، فاستجاب لذلك الفيض كأرضٍ ظامئةٍ بلّلها المطر. غدا أكثر دماثةً ولينًا، تلمع عيناه امتنانًا كلما التقتا بها وشبح ابتسامة لا يفارق محيّاه، كأنّه يتمنى أن تطلب منه شيئًا، أيّ شيء، ليسارع إلى تلبيته. صار ينهض قبلها على المائدة، يسحب لها المقعد، يملأ كأسها ويعتني بتفاصيلها كما لو كانت أميرته المدللة..

وفي أحد الأيام على وجبة الغداء، وبينما كنّا نهمّ بمغادرة الطاولة، مدّ أبي يده فجأة وجذب يدها برفق، وطبع عليها قبلة وهو يشكرها على الطعام. أمّي، هل بلغت الفردوس! قفزت وقبّلت رأسه ثم ضمّته إليها بحبٍ دافق، ولم يُبدِ هو أيّ حرج بل بقي ساكنًا بين ذراعيها على غير ما اعتدنا!

تبادلتُ نظرة دهشة مع حسن، كأن كوكبنا انحرف عن مداره. ثم انطلق

جرس إنذار داخل أخي، وثب من مقعده ليعترض طريق أبي، ويعانق أمي بذراعين مفتوحين، ويبعده بقوة وهو يهتف:

- ابتعد عن أمي.. حضنها لنا وحدنا!

انفجرت أمي ضاحكة، وراح أبي يبادله المزاح، وأصابعه تعبث بوجه حسن ليغيظه: «بل ابتعد.. إنها ملكي!»

كنتُ أراقب المشهد بفرح لكن كمن يطلّ من نافذة على أسرة لا تخصه بالكامل.

ومع ذلك، اقتربتُ بتردّد خائفًا من أن يُقصيني أحدهم.. لكنني تجاسرت، لعلّ لي مكانًا بينهم. لم أجد مساحة، فدسست رأسي وسطهم. وأنا، في قرارة نفسي أجدني أكثرهم حاجة إلى دفء ذلك الحضن. رفع أبي رأسه نحو أمي بنظرة مشاكسة وقطّب حاجبيه يسألها: «متى موعد رحلتنا إلى الصين؟ نريد أن نتخلّص من هذين المتسلطين!»

ضحكت هي بينما اشتعل حسن شغبًا وهو يبعد ذراع أبي عن خصرها مستنكرًا: «تريد أن تسرقها منّا أيضًا؟!»

وباغتنا أبي حين نهض من كرسيه، حملها يختطف كنزنا الثمين، وركض بها خارج القاعة وهي تطوق عنقه تخشى السقوط، بينما نحن نركض خلفه نطارده من دارٍ إلى دار، وسط ضحكاتٍ لا تنتهي..

لم نكن معتادين على هذا القدر من العاطفة بينهما، خاصة من أبي بصورته المتحفّظة التي ألفناها.

رغم أن هذا التحوّل القصير كان حبيس جدران بيتنا؛ أما خارجه، فهي زوجته،

نعم، لكن لا يجوز له أن يُظهر ما بينهما من مودة، فتلك دائمًا في نظره علاقةٌ مقدّسة لا تليق بها الأعين.

بدت حياتهما خلال تلك الأيام القليلة أقرب ما تكون إلى النعيم.. وما كان يوقظهما من تلك الجنة النادرة، سوى حضوري! يكفي أن أتكلّم، أتحرك، أو أتنفس، حتى يخفت وهجهما، ويتحوّل ما بينهما من دفءٍ إلى جبهةٍ موحدة ضدي.

****

المنزل يعمه الحماس والتوتر الجميل، استعدادًا لهذا اليوم (زيارة عائلة أبي إلى منزلنا الجديد على مائدة العشاء)

زيارة أولى كانت تبدو مميزة بكل المقاييس؛ إذ تصادف حضور عمّي أمير، العائد من الولايات المتحدة بعد غيابٍ دام أربع سنوات، ترافقه خطيبته الأمريكية، ومن المزمع أن يُعقد قرانهما بعد أسابيع بين الأهل.

لم تكن تُجيد لغتنا جيدًا ولا تدين بديننا لكنها وضعت خمارًا على رأسها احترامًا للعائلة.

منذ رأيته في هذا اليوم، راح المشهد الأخير الذي رأيته قبل سفره، يتمخض برحم مخيلتي ويود أن يتدحرج من شفتي، لقد عمدت لتجنب رؤيته في الماضي، وها هو اليوم أمامي ويحدثني على مائدة الغداء بإنصاتٍ من الجميع، وأن أكون محط أنظار الجميع يشل حركتي ويزيد من توتري وتلعثمي: «لقد كبرتَ يا يوسف، في أي صفٍ أنتَ الآن؟»

- أنا في الصف الثالث..

ابتسم ومط شفتيه مازحًا: «أممم.. لقد كنتَ صغيرًا حين رحلتُ، وما أخبارك أيضًا؟ أسمع دائمًا بأنك لا تشبه أبويك!»

مال أبي بجسده قليلًا نحو حسن الذي يجلس بجواره وطوقه بذراعه اليسر بفخر: «نعم .. حسن يشبهني.. شخصية قوية بعكس يوسف.. لا أعلم يشبه من!»

ثم ضحك وهو ينظر لوالدتي التي تجلس في الجهة الأخرى من المائدة، وأردف مازحًا: «ستعترض ليلى الآن وتقول بأن حسن يشبهها هي الأخرى..»

أطرقتْ واكتفت بابتسامة واهنة. نعم، دائمًا وأبدًا يفتخران بنسب حسن إليهما، ويجتمعان على التبرؤ مني، كأنني ندبة مشتركة في جبينهما! ولا يكفان عن المقارنة المقيتة بيني وبين أخي، وكأنها طقس يومي مقدّس! آهٍ كم أكره المقارنات! فلا تزيدني إلا تبارًا.

اصطنعتُ ضحكتي المزيفة المعهودة وغصتُ بطبقي أهرب في تفاصيله مما يشغلني، وغمامة الارتباك ما فتأت تظللني .. فقد أحكم المشهد القديم بقبضته على إدراكي وأبي أن يُطلقني.

كانت أصوات الملاعق ترتطم بالصحون، تختلط بضحكات الأطفال وأحاديث النسوة. بعضهن يثني على اللمسات الذوقية لأمي، وبعضهن يندسّ خلف المديح ليوجه نقدًا مبطنًا.

سألت عمتي جليلة والتي تكبر أبي بعامين، لكنها أصغر من عمتيّ حسناء ورقية- الأكبر سنًا بين الإخوة - بعدما لاحظت عاملة النظافة تنتقل من مكان إلى آخر: «وأخيرًا استسلمتِ لنعمة الخادمة! لقد أرهقتِ أخي المسكين

بمساعدتك، الرجل خُلق ليَعيش ملكًا بعد عودته من عمله المضني، لا ليُنفّي الزوايا.»

ضحكت أمي، ثم أرسلتْ إلى أبي نظرة يغلبها الاعتداد، وكأنها تستعرض أمام عمّتي ما تنعم به من اهتمامه ورعايته. لم تكن تلك النظرة تخلو من قصدٍ خفي؛ فالعلاقة بينها وبين عمتي هذه تحديدًا لم تكن يومًا على وفاق. قالت بنبرة واثقة، يكسوها الزهو:

- محمد هبة من السماء.. رجل لا يُكرّر، وزوج جعل من راحتي أولى أولوياته، رغم ازدحام وقته ومشاغله الكثيرة.. يساعدني دون أن أطلب..

قاطعتها عمّتي ياسمين، التي عُرفت بحدّة آرائها، لا تتوانى عن رفع راية الدفاع عن النساء، ولو على حساب أخيها وهي تلوّح بملعقتها :

- بل تعنين أنكِ من تتبرعين من وقتك وجهدك وتساعدينه! الراحة من حقك، لا منّا منه.. فهو مسؤولٌ عن توفير كل ما يلزم لسعادتك..

انسحبت على وجوه بعض العمّات ملامح متوترة وتبرم، فمهما بدا الحديث مزاحًا لم يُستسغ أن يُقال على مسمعٍ من زوجة أخيهن، وكأنها تُعفى من مسؤولياتها.

أردفت أمي برنّة مرحة، كأنها تطمئن ياسمين وتغيظ سواها، وقد شابت لكنتها شيئًا من التحدي المُستفز: «كل خادمة استقدمها محمد لوالدتكنّ كانت تتكفّل بمعظم ما نحتاجه، أما الآن، وبعد أن هيّأ لي خادمة خاصة في المنزل الجديد، قال إنه لا يمانع أن تصبحا اثنتين إن رغبت! أعيش في راحة لا تُضاهى.. وصدقًا؟ أبذل له مهجتي لو أراد..»

كان أبي منشغلًا بالحديث مع زوج إحدى عمّاتي، غافلًا عن المناوشات النسائية التي تدور حوله حين التفت إليّ وقال دون أن يبادلني نظرة:

- يوسف، أحضر كوبًا من عصير التوت لزوج عمتك.

ثم عاد يكمل حديثه، أسرعت ألبي طلبه، أحمل الكوب الزجاجي بتوتر وحذر ما استطعت، لكن قبل أن أبلغه به، تعثرتُ، وسقط الكوب بقوة على قدمي، فيما تدفق العصير مسفوكًا فوق ملابسي، ثم انساح على السجاد الفاتح الجديد.

قفز أبي كعادته، صوته يعلو كالسوط:

- أبله .. متى تؤدي مهمة بلا كوارث .. غبي ..

استمر في توبيخي بينما هرعت أمي تنادي الخادمة بقلب مرتجف، خوفًا على السجاد الباهظ: «ليتك لم تكلفه بأي مهمة .. سينتزع السجاد الآن .. تعبتُ وأنا أنظف خلف مصائبه.»

لويت شفتي حزينًا ثم انفجرت باكيًا بصوتٍ عالٍ، ودفنتُ رأسي بين ساعدي الأيمن، وصار بكائي يعلو كلما رأيت عصبية أبي وهو ينهاني عن البكاء كالأطفال الصغار، فهذا أكثر ما يستفزه، وجدتي تنهره بدورها فهي درع حمايتي، فيما عمي أمير قد اقترب مني بلطف: «لا بأس عليك يا بطل.. هل آلمتك قدمك؟»

نظرتُ إليه من بين دموعي، بعينٍ متورّمة بالعجز، فهو الوحيد الذي انتبه لألمي. سألني بصوتٍ وديع، فهززت رأسي بالإيجاب. اصطحبني إلى المطبخ، وهناك انحنى ينظف ملابسي المتّسخة وغسل وجهي بحذرٍ كأنه يتعامل مع شيءٍ مكسور لا يحتمل مزيدًا من الانكسار.

راح يمازحني، يحاول أن يقتلع البكاء من صدري بغرس ضحكةٍ مكانه.

ابتسامته مشرقة، لا تفارقه وكأنها وُلدت معه، لم يكن أحد ينتقد تلك الابتسامة، بل كانوا يفتتنون بها، يصفونه بخفيف الظل، القريب إلى القلب، فلماذا إذن ينهالون باللوم عليّ حين أبتسم؟! لماذا تُحسب ابتسامتي غباء، أو ضعفًا؟

لزمتُ الصمت لبرهة وأدركتُ أنه الوقت المناسب لأقذف ما بحلقي، فلا يوجد بالمطبخ سوانا، والسكينة تلفّنا كما لو كنا في شرنقة من الأمان، قلت بخجلٍ كبير: «عمي .. هل تسمح أن أسألك شيئًا؟»

- اسأل ما شئت..

قلتُ بصعوبة وأنا أنظر للمياه المتدفقة من الصنبور على يدي، وكأنني أهرب من عينيه الباسمتين، وأسافر خلال المياه الشفافة إلى عالم آخر:

- يقول زملائي .. هم يقولون .. أعني .. بأن .. أي عندما .. تحدث .. قبلة .. كما نشاهد بالأفلام .. يتم الحصول على طفل!

لا أعرف كيف خرجت تلك الكلمات من أبواب خجلي الشديد، كسكاكينٍ تقطع حنجرتي. تفاجأت بضحكة عمي المجلجلة..

ربما لأنه لم يتوقع أن أنطق بهذا.

- ماذا يحدث؟ لمَ كل هذا الضحك؟

قال والدي مبتسمًا وقد انطفأ غيظه على ما يبدو، اقترب نحو المغسلة ليغسل يديه بعد أن أنهى الجميع طعامهم. أجابه عمّي بمكر وهو لا يخفي ضحكته المتقطعة: «اسمع يا محمد .. يقول يوسف أن نتيجة القبلة مولود جديد..»

هز والدي رأسه يستخف بي، حسبته سيغضب لو سمعه مني لكنه أردف متهكمًا: «نعم.. نعم صحيحٌ ما تقول يا ذكي..»

اعتراني الحنقُ منه، ولم أفهم إن كان ما قلته صحيحًا أم لا، مُعيبًا أم لا!!

فقط أدركت بأنه وأخيه يسخران مني، ومتى لم أكن محط سخريتهم وشماتة جاهزة لاستهزائهم! فكم تمنيتُ أن يضحك يومًا معي.. لا عليّ!

اشتعلت النار بصدري، وراح لهبها يحرق سحنتي وعينيّ.

راقبتهما وهما ينخرطان بالضحك ويقصدان الصالات المفتوحة وكأن الموضوع بالنسبة إليهما انتحى جوانب أخرى لم أفهمها. تبعتهما والغيظ أخذ مني مأخذًا عظيمًا، أردتُ فقط أن يكفوا عن السخرية مني، والحصول على إجابة لتساؤلٍ مبهمٍ طال امتداده، وإطفاء فضولٍ نبت منذ سنين في صدري، ورغم جهلي بأمور الكبار، إلا أنني أعلم بأن كلامي سيفجر لغمًا.. فتجاسرتُ على التلفظ بما أشعره معيبًا.

جلس أبي على الكنبة البيضاء مستمتعًا، مستغرقًا في الضحك على غير عادته ربما لفرحته باستضافة أهله، خاصة أخيه الذي لم يره منذ سنين. سكب له الشاي بنفسه، وقرّب إليه صحن الكعك، فجلس عمّي يتناوله وحديثهما الشيق لا يكاد ينتهي. فقاطعتهما أكمل حديثي المستهزَئ به:

- بابا.. إذن ربما عمي أمير هو أبي .. لأنني كما تقول، لا أشبهك!

حدجني.. وقبالته غص عمي بقطعة الكعك وتحول وجهه إلى لون الرماد وراح يضرب صدره بكفه، نظرتُ إليهما ولأمي التي فغرت فاها، وواصلتُ رحمةٍ لأحد:

- لأنني.. رأيتُ عمي يقبّل أمي، قبل سنين..

جثم صمتٌ كنسرٍ مخيفٍ فجأة، وكأن النّفس توقّف في الحناجر، تجمّدتْ ابتسامة أبي ثم راحت تتلاشى وتنحسر وباتساع حدقتيه ينظر لعمي وأمي وقد وجما والصدمة تصرخ من وجهيهما

تلعثم عمي وصوته يتهدج .. يحاول النجاة من قنبلة انفجرت بين يديه:

- أخي .. لا .. إنه طفل .. لا تصدق..

تابعتُ بإصراري المعتاد على مواقفي:

- بلى رأيتكما يا عمي في غرفتك القديمة .. كانَ أحد جدران الغرفة مخضرًا كالحديقة.. رأيتكما وهربتُ مسرعًا..

انفجر قلبي يخفق كطبلٍ مجنون، ومزقني الهلع والندم بعد أن رأيت الفزع قد خنق الجميع، وهوت أمي على الأرض ترتعش من البكاء وعقد لسانها الخوف وكأن صمتها إقرارٌ بما قلته. فلم تعد ترى سوى عيون تتقاذف يمنةً ويسرة كمن يشاهد كرة المضرب..

انقضّ أبي كالوحش الكاسر على عنق عمي وعيناه في أمّ رأسه.. انفجارٌ لا هدر فيه للكلمات؛ صمتٌ صاخب، يكزّ على أسنانه مكتفٍ بإعلان الحكم.. دون محاكمة:

- ستموتْ

لطالما خشيته، ولكن هذه اللحظة كانت الأشد رعبًا؛ بلهيبٍ يتطاير من أحداقه.

اندفع الرجال نحوه في فزع، يتشبثون بذراعيه المشدودتين، يحاولون باستماتة انتزاعه من عنق عمي.. الذي بدا كجرذ مذعور يتخبط في قبضة لم تُرخِ لتضرِب.. بل لتُجهِز!

شحب وجهه، ازرّقت شفتاه، وتدلّى كأنما يلفظ أنفاسه الأخيرة..

وفي اللحظة الحاسمة، تمكّنوا من فكّ القبضة القاتلة عنه.

فتهاوى على الأرض يلهث، يتلمّس أنفاسه بصعوبة، كأن صدره لا يتسع للهواء.

مضت ثوانٍ قبل أن يستعيد شيئًا من وعيه، راح يحرك يديه المرتجفتين، يتحسس عنقه المحتدم، يزحف قليلًا.. يتشبث بالحياة.

جدتي ولولت وقد تلبّستها الفجيعة، وأخيها الخال «عبدالعزيز» أمر عمي أن يغادر في الخال بصحبة خطيبته.

ففرّ هاربًا، يلهث ويلتقط الهواء بنهم.. وخطيبته تلاحق الجميع بعينين مرتجفتين، تردّد أسئلتها بلغتها دون أن تحصد أي جواب.

زمجر أبي من أعماق غيظه وألمه، كالرعد يمطر الشتائم حَجَرًا حجرًا، ألفاظًا غليظة لا أدرك معناها، لكنها تتفجر في الهواء وتصطك بالقلوب فتوجعها. تملّص من بين الأذرع التي لاتزال تطوّقه، وحدّق بأمي بحنقٍ عظيم..

لم تجرؤ على رفع طرفها إليه، ولا إلى أي عين متشفية من حولها، تغرق في غيبوبة بكائها، جاثية على الأرض تحاول عبثًا لملمة شهقاتها وأشلاء أمنها الذي تمزق في لحظة. النساء من حولها، تتداخل همساتهن المتقطعة مع أيدٍ مرتعشة تسعى لتهدئتها..

اندفع أبي خارجًا، ولحقه رجال العائلة يحاولون التخفيف من هيجانه، فيما لحقتهم جدتي تضرب رأسها وتولول بيأس، ترثي شرف العائلة المهدور.

انتبهتُ بعد خروج أبي بصفعاتٍ على رأسي من أمي، رحتُ أبكي كالعادة بصوتٍ عالٍ كالأطفال الأصغر سنًا وأنا أحاول أن أحمي رأسي بكلتي يدي:

- لا تضربي.. توقفي..

سعت النساء لإبعادها عني، وبانهيارٍ وسط دموعها صاحت بي وهي تهوي على المقعد: « كيف تقول هذا يا غبي؟؟ ألا تحبنا؟!! أتريد تحطيم أسرتنا؟؟»

لسانُ حالي المتكئ على تاريخي يستفهم!

كيف لمن لم يعرف الحُب أن يُحِب؟!!

كرهت نفسي وأخطائي وملامحي وحتى ظلي، فكيف سأكترث بكم!! ولكنني صرخت مغضبًا وباكيًا بلغتي التي أتقنها:

- أنا دائمًا غبي وأبله .. أنتم لا تحبونني ..

انتبهتُ إلى حسن وقد عانق والدتي ليواسيها: «لا تحزني ماما.»

غاظني أكثر عناقه لأمي ولم أرني إلا أشد شعره وأضربه وأصيح:

- نعم .. تحبون هذا فقط .. لأنه ابنكم الذكي والوسيم ..

هو الوحيد في هذا العالم الذي تلقى مني بضع لكمات وركلات، ولكنه يهزمني في شتى الأوقات إن أراد ذلك. كانت تلك الحادثة صفعةً مدوّيةً على وجه أسرتي.. هشمت صدغها، ونأت بأبي.. ولم ندرك كيف ستؤول إليه أمورنا.

١٩

فتيل الشيطان

بهجةً طافت الآفاق.. مع انتقالنا لمنزلنا الجديد، أدركت كم كان يسيرًا أن ألمح الود في عيني محمد، كأن هالة خفية تحيط به تومض من حوله، حتى وإن لم ينطق بها علانية ولم يصغها في كلمات.

في ذلك اليوم بعد الغداء، طبع قبلة على كفّي أمام الأطفال، ثم حملني بخفة وهرب بي من بين أيديهم، وهم يطاردوننا بضحكاتهم، كأنه - أخيرًا - بدأ يلين، ويستجيب لرغبتي في أن يخفف شيئًا من تحفظه معي أمامهم.

ارتمينا جميعًا على سريرنا الكبير، نلهث ضحكًا.. قلتُ له وأنا أتنفس عشقه:

- حبيبي، هل سنخرج للتبضّع؟

وقبل أن يجيب، قال يوسف مبتسمًا كمن يخاطب نفسه وعيناه على السقف: «ماما تتبضع كل يوم.»

لم أرد، حدجته بعيني وتوجست أن تثقل كلمته على والده.. لكن محمد، بسحره ودمائته في تلك الأيام، لم يكن ليرفض لي طلبًا، فأجاب وهو ينظر لساعته: «نخرج بعد ساعة.»

خرجنا وحدنا، بعد أن تركنا الصغيرين في المنزل.. فقد بدا أنهما اكتفيا من عناء التسوّق اليومي، وانشغلتُ في السيارة بهاتفي أسجّل ما أحتاج شراءه.

وفجأة، سمعته يتساءل بدهشة: «أمير!!»

تجمّد قلبي، كأن الزمن انكمش فجأة في صدري.

رفعتُ رأسي ببطء، وإذا بأمير ينتصب أمام بيت العائلة منشغلًا بالحديث عبر هاتفه، غافلًا عن وقع زلزاله عليّ.

توقّف محمد دفعة واحدة، وقفز من السيارة يندفع بحنين عارم. هرع نحوه وأغلق أمير الهاتف ما إن رآه، ليهبه كلّ كيانه في عناقٍ يفجّر شوق السنين، عناق اتّقد بوهجٍ أخويّ حارق.

تسمّرتُ في مكاني، أنفاسي تعلو وتنخفض بغير هدى.. وهما يتأملان بعضهما البعض، ثم يتعانقان من جديد. رأيتُ أمير يمسح لمعة عينه بخفّة، بينما محمد يسأله مذهولًا: «لماذا لم أعلم بعودتك؟»

ابتسم أمير، وقال بنبرة مازحة: «لأنك تكبّرت يا أخي منذ أن انتقلت إلى بيتك الجديد.»

- لا تقل هذا.. زرتُ أمي قبل يومين، ولم تذكر شيئًا..
- فاجأتُها بالأمس، وطلبتُ منها أن تُبقي الأمر سرًا.. لأفاجئكم.
- هل أعددتْ لكَ غرفة مريحة؟
- في الواقع.. حجزتُ شقة مفروشة لبضعة أسابيع، حتى أرتّب أموري. تعلّم، اعتدتُ الهدوء والاستقلال.. لا أظنني أرتاح في غرفة مجاورة لأمي الآن.

دعك محمد مؤخرة رأسه بحرج: «ذلك بسببي، كان عليّ أن أفرغ شقتي أسرع. لو علمتُ بقدومك.. نحن بالكاد انتقلنا قبل ثلاثة أسابيع.»

مسّد أمير ذراع أخيه وقال: «خذ وقتك يا أخي.»

ظل محمد يتأمله كأنه التقى قطعة ضائعة من روحه، ثم مدّ يده إليه يدعوه بحماس: «هيا تعال.. أريك منزلنا.»

دعوته كانتِ طعنة بطيئة تنغرس في قلبي بهدوء قاتل. وحين التفت إليّ أمير، شعرت أن القلب يسقط. لم يحدّق بي بل اكتفى بعبارة مقتضبة، لفظها دون اكتراث وهو يشير بيده: «أهلًا، زوجة أخي.. كيف حالكِ؟»

فتحتُ نافذتي ببطء وضغطتُ على نفسي كي أجيب، أخشى أن تفضحني نبرتي، أن يتسرّب رعبي في صوتي: «بخير.»

لم ينبته محمد للجحيم الذي وقعتُ فيه، وواصل حديثه كأن شيئًا لم يكن، يُلحّ على أخيه أن يرافقه، فيما أمير يعتذر بلطف. حتى ختم محمد اللقاء بدعوة قالها بمحبة غامرة:

- إذن، أراكَ غدًا على العشاء.. مع أمي وبقية العائلة. ستكون الدعوة على شرفك.

هزّ أمير رأسه موافقًا ثم تنحنح قليلًا، وقال بنبرة مترددة: «هل أحضر خطيبتي (مونيكا)؟ سنعقد قراننا خلال أيام.»

تفاجأ محمد كما تفاجأتُ أنا، لكنني شعرتُ براحةٍ تسري في صدري لخبر زواجه. سأل محمد بتروٍّ وبصوتٍ مشوب بالحذر:

- مبروك.. وأين تقيم هي الآن؟

كان واضحًا أنه يستوضح الجوانب الشرعية دون أن يقولها صراحة، كأنه خشي أن يكون سبب عدم مبيت أمير في بيت العائلة متعلقًا بهذا الأمر بالذات.

ردّ أمير وهو يشيح بنظره بعيدًا، ونبرته يداخلها شيء من التوتر: «لديها

مجموعة من الصديقات هنا، ستبيت معهن إلى أن نعقد قراننا.»

أومأ محمد مطمئنًا وقد بدا أنه صدّقه. أما أنا.. فلم أصدقه.

رحّب به وبخطيبته. ركب السيارة بجواري، وأنا ما زلتُ مخطوفة اللون والذهن، التفت إليّ وقال بلطف: «تبدين قلقة من الدعوة المفاجئة.. اطمئني، سنتوجه الآن إلى المطعم وننسّق معهم كل التفاصيل. اختاري ما تشائين من الأصناف، ستكون أمسية تليق بك.»

التقط هاتفه واتصل بوالدته، يعلم كم تعني لها الدعوة الشخصية، وحرص خلال المكالمة على أن تطلب حضور أخيها (السيد عبد العزيز) أيضًا، فهو بمثابة وجهُ العائلة وبمقام أبيه.

تنهدت، أحاول أن ألفظ الهم من رئتي، ورحتُ أنشغل بالترتيبات، أُقنع نفسي أن التركيز في التفاصيل سيكفيني شر الانهيار. وكلما توغلتُ في التخطيط، شعرتُ كأنني أسيطر على مخاوفي، أُحكم إغلاق بوابات الذعر التي توشك أن تفتح. همستُ لنفسي برجاء: لا داعي للهلع.. أمير لن يتكلم، فحاله ليس بأهون من حالي، وذلك اليوم الأسود سيظل مدفونًا، كما أردناه. فلمَ الرجفان إذًا؟ ولمَ هذا الفزع الذي لا اسم له؟

وهكذا تسلّلت إليّ راحة خادعة، اطمئنان مؤقّت قبل العاصفة.. تقبّلتُ الزيارة، وتمكنتُ من ضبط أعصابي خلالها، بل وشغلتُ نفسي بالأحاديث مع النسوة، أفرّ من أفكاري كمن يهرب من ظلّه.

ولم أدرِ.. أن تلك اليد الصغيرة المرتجفة، التي لم أملأها يومًا بالثقة.. ستكون ذاتها التي تهدم جدران بيتي فوق رأسي.. فما إن نطق بما رآه، حتى تفجّر المشهد أمامي بشظايا مزّقت الحبال الواهنة التي تشبثتُ بها، فسقطتُ..

عاجزةً عن كبح انهيارٍ.. ثبّتَ أركان فضيحتي في اللحظة الحاسمة.

****

رغم أنني لم أظن يومًا أنني سأجرؤ على البوح بما جرى في ذلك اليوم المشؤوم.. اليوم الأسود.. لكنني الآن سأخبرك بكل شيء.. فلم يعد الأمر سرًا أصلاً.

حدثتُكَ عن الشجار العنيف الذي نشب بيني وبين محمد في ذلك النادي، قبل أربعة أعوام.. حين أمسكتْ به الفتاة عند المسبح، وأخبرتك كيف تركته خلفي بسخطٍ عظيم وبدموعٍ غيبتني عن كل ما حولي.. حتى وصلت إلى البيت، لكنني لم أدخل.. آه ليتني دخلت!! ولكن.. لا ينفع الندم!

تسمّرتُ في السيارة أكمل بكائي في صمتٍ، والدموع تنهمر ساخنةً كما لو أنها لن تنتهي أبدًا. انتبهتُ على صوت طرقات خفيفة على زجاج النافذة. رفعتُ طرفي وإذا به أمير! يظهر جليًا قلقه عليّ. أنزلتُ النافذة بإشارة منه:

- ما بكِ؟ لا تقلقيني عليك..

هززتُ رأسي نفيًا ثم انفجرت باكية مرة أخرى، دعاني للنزول من السيارة وهو يسعى لتهدئتي حتى لا تسمع والدته، فما إن تستشعر خلافي مع محمد عبر حاستها السادسة، حتى تأججه ضدي.

لا أدري كيف حملتني قدماي بتلك الخطوات الملعونة إلى دار أمير في ملحق المنزل، كانت المرة الأولى التي أجتاح فيها هذه الغرفة منذ زواجي، وكأن خطواتي تقتفي إثمًا عظيمًا لترصده بتاريخٍ لا يطاق، أولها اختلائي معه في داره!

لفتني أحد جدرانها، مطلي برسومات مذهلة للطبيعة، ممزوجة باخضرارٍ

منعش وزرقة بحرٍ هادئ. هذا الإبداع بريشة أمير الذي لم يكن مجرد رسام بارع، بل صار شاعرًا محترفًا أيضًا، يحوّل الحروف إلى لوحات من كلماتٍ تنبض بالحياة، كأن المكان يروي حكاياتٍ مكتومة بين ألوانه وأصداء أشعاره المبعثرة على طاولته.

جلستُ على المقعد المكسو بالجلد البني، وأحضر لي كوبًا من الماء من ثلاجته الصغيرة لأهدأ، شربته بأنامل ترتعش من شدة البكاء وهو يردد:

- لا شيء يستحق هذا البكاء! دموعك أغلى من كل شيء.

تجاهلت كلماته وتابعت بصوتٍ يتقطع: «أخوك.. رأيته في مشاهدٍ مخزية.. هل تعرف إن كان متزوجًا بأخرى أو يخونني أو شيء من هذا القبيل؟!»

جلس أمير في المقعد المقابل يفكر بخبث دون أن يرفع طرفه ناحيتي، فهذه فرصته ويجب أن يقتنصها: «في الواقع نعم.. سمعت أنه على علاقة بأخرى.. وربما تزوجها في السر.»

نهضتُ في غضب وكأنه مزق قلبي بوحشية، لعنتُ وشتمتُ وأجهشت بالبكاء مرة أخرى، فقال برجاء: «أرجوكِ لا تبكي.. أخي لا يستحقك، ولم يحبك يومًا.. لا أعلم كيف جعلكِ هذا المتحجر تختارينه دوني..»

وفي ثوانٍ كشفتُ السر الذي خبأه محمد لسنوات عن أخيه، انفجرت في غضبٍ أبيع سره: «أنا لم أختره، هو من خدعني.. لم أدرك أنه ليس أنت إلا بعد الزواج.. حين رأيتك.»

قفز مذهولًا من وقع الصدمة وهو يشتم أخاه: «المخادع!! حرمني منكِ، فصل قطعةً من قلبي.. إذن كنتِ ترغبين بي كما رغبت بكِ!»

كنت أعلم فداحة ووقاحة كلماته في حقي كزوجة أخيه، ولكن غضبي من محمد ورغبتي في الانتقام منه كسرت كل القيود والخطوط الحمراء التي لا أتجاسر على تخطيها. مسحتُ دموعي ولذت بالصمت، ودنا مني وهو يتمتم:

- بسبب عينيك.. غزاني الشعر وسلاني.. هل تعلمين بأن جل قصائدي كانت إليكِ.. بعد أن تركتني!

تعجبتُ لذلك! فلم أخالني السبب في اجتياحه عالم الشعر! اقترب أكثر وبصوت أثقله، فخّمه لونه حتى لم يعد يشبه أخيه فحسب، بل نبرة محمد عينها، صارت تهمس أوتارها في أذني:

((هل يرتعُ الموجُ وقد ماجت جراحُ؟!

مُذ عَمِيتْ عيني وأضنانيْ الصباحُ

يا كعبةَ الحُسْنِ ظــلامٌ في جفاكِ

لو طافَ سبعًا خافقي هل ذا مُباحُ ؟؟!

تعشــقَ النـظمُ بأستـارِ هواكِ

بناتُ شِعري تذوي إن طالَ الرواحُ

لا تلفظي عشقي بآبارِ شُجونِ

فيمسي رمسي بعد عينـيكِ مُتاحُ))

أزهرت روحي لكلماته الغزلية وانتشت أنوثتي التي حطّمها محمد في ذلك اليوم بعبارة واحدة.. وكأن هذا الصوت المستنسخ منه عاد ليرمم ماهدمه.

سكرتُ عن الوجود وأنا أنصت لهمسه: « كيف يمكن لهذا الجمال أن يُخان!!»

كان يعرف جيدًا من أين يُسقطني. يعرف جيدًا كيف يُطيح بي بكلماته! أدنى رأسه وطبع قبلته.

فجأة! سمعنا صوتٌ خارجي كصفعة أيقظتني من غفلتي، انتفضت، وأبعدته عني في هلع، رفعت كفّي إلى شفاهي، كأنني أُسكت ذنبها المشين الذي لا يليق بي، وهمست بذعر وصوت لا يكاد يخرج:

- يا إلهي ماذا فعلنا!! هل رآنا أحد!!

أسرع أمير نحو نافذة الغرفة المطلة على الشارع، كانت الستائر تكشف عن جزءٍ ضيقٍ منها، فتحها وطالع يمينًا وشمالًا ثم طمأنني:

- قد تكون الرياح أو قطة تعبث هناك.

حملت حقيبتي وأسرعت في خطاي لأغادر، فأمسك ذراعي بوقاحة:

- أنا حقًا مازلت أحبك.. تطلقي وأتزوجك.

لم أقوَ على مجاراته ولا مجادلته، نفضتُ يدي المرتعشة وخرجت مسرعة وأنا أتقيأ في الطريق، صعدت السلالم الخارجية لشقتي وأنا أرتعد، تمنيتُ أن أكون في عمق كابوس لأستيقظ وأمحي هذه اللحظة القذرة من الواقع، حتى رحت أردد وأنا أصفع وجهي (استيقظي ..استيقظي) وما زادني ذلك إلا انهيارا!

دخلت للشقة وأغلقت الباب بقوة وكأنني أهرب من الموت، سمعت صوت الماء بدورة المياه، كان (يوسف) يستحم، ندهته فلم يجب، فندهته مرة واثنتان حتى أجابني وفتح الباب: «لماذا تستحم وحدك؟ لماذا لم تنتظرني؟»

لم يرفع طرفه ناحيتي، بل ظل مطرقًا وقال:

- لأن ملابسي اتّسخت عندما سقطتُ في الشارع، ماذا كنتِ تفعلين؟

لم أحر جوابًا فلم أفهم سؤاله جيدًا.. حممته وأنا أصارع انفلاتَ دموع الندم حتى لا أثير فضوله، ولم أكن أعلم أنه هو من أحدث الصوت وشاهد جريمتي! وما سؤاله إلا لتعجبه مما رأى.

وبعد أن نام مع أخيه، ارتميت في حوض الاستحمام طويلًا أجهش بالبكاء.

لم يُخرجني من دوامة بكائي سوى صوت طرقاتٍ خافتة على باب دورة المياه.

كان محمد، صوته وصلني قلقًا:

- ليلى.. هل أنتِ بخير.

نهضتُ بتململ، ارتديت رداء الاستحمام الثقيل على جسدٍ أرهقه الوهن، غلفت شعري بالمنشفة وأنا في إعياءٍ يعجزني عن الدخول بأي جدال. مررتُ به دون أن أرمقه، أمسح بقايا دموعي في صمت، وهو يتابعني باهتمام.. استوقفني، وثبّت عينيه في وجهي، وأصابعه تتحسس بشرتي التي احمرّت واحترقت من نزف البكاء:

- هل كنتِ تبكين طوال هذا الوقت!

تملّكني العجب من ردة فعله!

أهذا هو ذاته الذي صبّ عليّ قبل ساعات جام غضبه بلا رحمة ورماني بعنف داخل السيارة!

كأن شيئًا فيه انكسر حين أبصر آثار دموعي، وكأن قلبه الذي كان جلمودًا، تفتت ولم يحتمل رؤيتها تراق على وجهي بصمتٍ مذبوح.

أمسك يدي برفق ونظر إليّ بعينين غارقتين في حزنهما، ينسدل عليهما ستار الندم، وقال بصوت خفيض:

- كنتُ مخطئًا.. نعم فكرتُ فيما قلتِ، لا يليق بالشاب المؤمن أن يخالط النساء في النوادي الرياضية، أحيانًا يسير المرء كالأعمى، ينساق خلف نصائح الأصدقاء وتشجيعهم.. ألحّوا عليّ بمرافقتهم، ولا أنكِر.. النفس أمّارة بالسوء، واليوم تحديدًا.. وقعت في موضع الشبهة. حين أمسكت تلك الفتاة بيدي و..

قاطعته بفتور وصوت بُح من البكاء وقد تبلدت مشاعري بجريمتي البشعة:

- هل أنتَ على علاقة بها؟

ترك يدي مندهشًا وهو غير مصدق: «ألهذه الدرجة زوجك فاسق! ما معنى علاقة!! ما هذه المصطلحات السامجة! لا أصدق كيف تفكرين!»

- هل تزوجتها مثلا؟ هل هذا المصطلح أفضل لأمثالك المحافظين؟!

- أمثالي؟! أنا لا أتزوج إلا مرة واحدة.. وهذه زوجتي.. مصونة وعفيفة.

احتواني بذراعيه وهو يهمس بعبارته الأخيرة..

عيناه تتشبثان بوجهي تستجديان رضاي، كانت كلماته ونظراته تنغرس سكينًا بصدري، فماذا لو علم بما اقترفته زوجته العفيفة قبل قليل!

لم أتمكن من لجم مشاعري، تضاعفت وطأة الذنب بداخلي واندلعت موجة الدموع مرة أخرى، ارتبك وهو يرى انكساري، وظن أنني أبكي بسبب شكي في علاقته بتلك الفتاة. أجلسني بلطف على السرير، ثم جلس إلى جواري، يمسد ذراعي برفق، محاولًا تهدئة عاصفتي:

- كوني على ثقة وراحة يا ليلى، محالٌ أن أفكر في الزواج بغيرك، الزوجة في الإسلام أمانة سنحاسب عليها أمام الله؟ يكفيني أن أُحسن رعاية أمانة واحدة، وأسأل الله العون على إسعادك وتحقيق رضاك، فالحياة قصيرة.. ولا بد أن نراقب الله في كل أفعالنا، فإن ظلمتك يومًا، سأكون بذلك قد ظلمت نفسي أولًا، أعدك أنني لن أرتاد إلا النوادي الرياضية الخاصة بالرجال، وأنتِ لكِ الحرية في ارتياد القسم النسائي كما تشائين.

ثم أخرج بطاقتي من محفظته وسلمها لي، وألقى ببطاقته في القمامة دون تردد. لم أكن قادرة على تمالك نفسي عن هدر الدموع .. حسبتها ستنبع إلى ما لانهاية. ظلّ يتأملني بحزنٍ عميق، تابع مترددًا:

- ربما أخفتكِ وبالغتُ بعصبيتي.. كنتُ محرجًا أمام الجميع!

تطلّع إليّ يعتذر، ثم أردف بنبرة حذرة، أقرب إلى الرجاء منها إلى اللوم:

- ولكن.. ليتكِ ضبطتِ انفعالك أكثر.. أعني لو لم تصفعيني بالكوب وتشتميني أمامهم، لما فقدتُ عقلي.. ولما استحلتُ وحشًا.

همس بعبارته الأخيرة خجلاً من نفسه، فقلتُ بحدة: «أما زلتَ تلقي عليّ تبعات أخطائك؟ ألستَ للتو تعترف بها!»

- لا .. لا بالطبع.. أنا المخطئ، لكني.. أحاول أن نخرج من هذه الزوبعة بشيء من الحكمة، بشيء نتعلّمه ولا نكرره لاحقًا.

لم أنبس ببنت شفة، اخترقتني كلماته وداخلي يتمزق بندمٍ مرير.. قلتُ أكابر، فلابد لي من وضعه في موقفي: «لو رأيتَ رجلاً يمسك بيدي؟! ماذا ستفعل!»

تعكّرت ملامحه، كأنما يصارع انفجارًا داخليًا من الغضب:

- ألهذه الدرجة ترغبين بقتلي لتطرحي سؤالًا كهذا؟!

خطف المقص من على طاولة المرآة وقدمه لي:

«خذي.. اطعنيني، فلن يكون ذلك أشدّ وقعًا من سؤالك.»

تجمّدتُ، هلعتُ لا أعرف كيف سحبتُ المقص من يده ورميتُه على المقعد المجاور كأنما احترقت أصابعي بحدّ ندمي لسؤالي السخيف، كأنني طعنت جرحي ببشاعة مرات ومرات! كيف لم أفكر؟!

كيف لم أخرس لساني ومكابرتي التافهة وأنا التي ترتجف من فعلتي؟! جف حلقي وتاه بصري في الفراغ أهيم بتأنيبٍ لا يرحم.

كان يراقبني بصمت، يلحظ وجعي المتصاعد، فتنهّد أخيرًا وهو يرمق المنشفة التي ما زالت تلفّ شعري المبلل، وقال بصوت خافت: «قد تمرضين.»

نزعها برفق وبدأ يُجففه، كأنّه يوقظني من غيبوبة السكون المطلق التي استولت عليّ؛ صرتُ جامدة كأنني لن أتحرك يومًا، ولن أخطو خطوةً أخرى في هذه الحياة، قال بابتسامة شاحبة، يحاول التهوين عليّ، يلطف الجو ولو على حساب كرامته:

- لا أتخيّل كيف سيروي طلال للشباب ما حدث.. سيجعلها نكتة الموسم، مادةً دسمة للتندّر والضحك! أحسبني سأعتزل الجميع حتى إشعارٍ آخر!

يحاول الضحك رغم الغصة.. وأتنهد بأسى على كل ما فعلته به. ثم تمتمتُ بامتعاض، وأنا أشتم صاحبه الذي استفزني واعتبرته من أصدقاء السوء منذ رأيته:

- تبًا لصديقك الوغد..

تعجب، ربما من محصولي الوفير من الشتائم هذا اليوم، وهو لم يعتد أن أُطلق لساني بهذا علنًا! ولكن، لا يجادل..

تنتفض فيه نزعة الحماية شيئًا فشيئًا؛ يحضر مجفف الشعر، ويبدأ بتمريره على خصلاتي برفق، يقول وهو يراقبني بعينٍ قلقة:

«ربما أجد لكِ حساءً عند أمي.»

همهمتُ بإعياء: «لا أريد..»

غادر الغرفة، وسحبتُ قميص النوم الذي ظلّ ملقى بجواري منذ مدة، ارتديته وانحشرتُ كقطةٍ مرتعشة تحت الغطاء. عاد بعد دقائق يحمل كوبًا من الحليب الساخن، اقترب ومدّ يده يدعوني لاحتساء بضع رشفات. أدرتُ وجهي بصمت..

اقترب أكثر، طبع قبلةً حانية على جبيني، وهمس باعتذارٍ خافت، كأن حزني يؤنّبه أكثر من أيّ لوم. ولما شعرتُ بثقل ألمه، تظاهرتُ بالنوم.. فقط لأُريحه.

خرج بهدوء، توضأ، ثم مضى إلى غرفة المعيشة ليصلي بضع ركعات في هدأة الليل. كنتُ أُنصت إلى مناجاته، صوته يتهدج بندمٍ صادق، يتلو إحدى الأدعية المأثورة: (إلهِي أَلْبَسَتْنِي الْخَطايا ثَوْبَ مَذَلَّتِي، وَجَلَّلَنِي التَّباعُدُ مِنْكَ لِباسَ مَسْكَنَتِي، وَأَماتَ قَلْبِي عَظِيمُ جِنايَتِي، فَأَحْيِه بِتَوْبَة مِنْكَ يا أَمَلِي وَبُغْيَتِي، وَيا سُؤْلِي وَمُنْيَتِي، فَوَ عِزَّتِكَ ما أَجِدُ لِذُنُوبِي سِواكَ غافِراً..)

كل حرفٍ كان يصلني منه يُلهب داخلي، فألهج في سري وأتلوى بكاءً بفراشي، أستشعر الكلمات كلمةً كلمة.. وأستعظم ذنبي.

عاد وقد سكنت روحه، بينما كنتُ لا أزال أقاوم اضطرابي خلف جفوني

المغمضة. اندسّ جواري، غطّاني جيدًا وضمني من الخلف هامسًا: «ممتن لأنكِ تعينيني على نفسي.. أُخزى في الدنيا، خيرٌ من خزي الآخرة.»

قوض قلبي بعبارته.. ثم غرق في نومٍ عميق كطفلٍ صغير..

أما أنا، فظل يطاردني سهاد مجنون، تخترقني لحظة جرمي كسهمٍ ناري، فأرتعد خوفًا في السرير ويتجاسر تأنيب الضمير كذئبٍ مفترس ينهش أعماقي بلا هوادة، أعيد شريط ما حدث مرات ومرات، أراجع نفسي وأتأمل عبارته تلك: (ليتكِ ضبطتِ انفعالكِ أكثر)

أردد من دون صوت: ليتني فعلت..
ليتني كتمت اندفاعي وما هشّمتُ كبرياءه على مرأى الغرباء.

ربما لو واجهته على انفراد، كان سيعتذر بلين، وسيدرك خطأه بلا مقاومة ولا مكابرة.. آه.. ليتني انتصرتُ للحِلم، ليتني احتويت لحظتي قبل أن تنفلت مني.

وأتقلب ذات الشمال، ويتجه فكري دربًا آخر.. تتشعب الطرق دون انحسار.
نعم، كنتُ السبب في إهانته، فاستحال كما قال.. وحشًا جريحًا.. لكن حتى بعد انفجاره في وجهي حين انفردنا، كانت لي فرصة ثانية.. فرصة لأطفئ النار لا أن أزيدها اشتعالًا، لو فقط غيّرت الوسيلة.
كنتُ على حق في كل ما قلتُه له، ولكن.. ليتني عبّرت عما يضطرم في صدري بأسلوبٍ آخر.. وسيلة غير التحدي والثبات.
فقط لو لم أُجهض رغبتي الملحّة في البكاء.
ماذا لو لم أتظاهر بتماسكٍ زائف؟

لو تركت لدموعي العنان؟

لماذا أتكابر عليها، وهو الذي سمع أنيني في أول مكالمة بيننا!

هل تغيّرتُ إلى هذا الحد؟ هل بتُّ أراها ضعفًا، وأحسب شراستي قوّة؟
أولم أدرك أنني كلما شددتُ ملامحي وتصلّبت، وهاجمته ببأس، اشتدّ هو واستأسد بدوره؟
كأن صلابتي كانت تستفزّه.. ليكسرها.. يكسرها كما كسرته أمام الجميع!

لو كنت أذكى.. لو تركت مجرى الدموع ينهمر، لأطفأتُ غيظه، وذاب ندمًا في حضني كما حدث الآن.. وانتهى كل شيءٍ بسلام.
آه.. ليتني أدركت أن دموعي كانت سلاحي.. هي فطرتي، لماذا أُخفيها؟
نعم، يجب أن أمنعها أمام الناس.. لكن لا أمامه.

وحده كان مسؤولًا عن مسحها، عن حمايتها من السقوط.

وفي معترك ذاتي العاصف..

أدركتُ متأخرًا أن المرأة لا تُهزم حين تذرف دمعتها أمام زوجها..

بل تُربكه، وتُخضعه لها.. إن كان رجلاً حقيقيًا!

ومحمد كان كذلك..

ظل الصراع والندم يعصفان بي حتى تمكنت مني الحمى ..

بعد يومين كنت متغيبة عن العمل بسبب المرض، طاقتي مبددة، ورأسي أرفعه بتثاقل، جهز محمد الأطفال بنفسه وانطلق للعمل والصغار لرياض الأطفال، وارتميت في صالة شقتي أنظر للسقف بحزنٍ عظيم، غفوت قليلًا جراء الحمى وإذا بي أفيق على رنين الجرس..

خفق قلبي، فليس من المعتاد أن يزورني أحد من جهة الباب الخارجي المؤدي للشارع من دون علم مسبق، فلو كانت (أم زوجي) أو إحدى أخواته لكانت الطرقات على الباب الداخلي المؤدي مباشرة إلى داخل بيت العائلة بالطابق السفلي، ارتديت خماري وسترة طويلة وتوجهت للباب: «من هناك؟»

وأتاني الصوت الذي كنت أخشاه: «أنا أمير .. افتحي الباب.»

جاء متخفيًا من هذا الجانب على ما يبدو، اندفعت بغضب وفتحت الباب زاجرة: «هل جننت؟! ماذا تريد؟! اذهب قبل أن يراك أحد من الجيران.»

- أدخليني بسرعة إذن.. أريد الاطمئنان عليك فقط.

تلفّتَ كالسارق من أعلى الشارع يمنةً ويسرة، يتسلل بنظراتٍ مضطربة والريبة تلبس عينيه، وأنا أقبع خلف الباب أتنفس الغصة، أراقب الخوف يتكاثر في صدري. وفد إلى الصالة متأنقًا أكثر من عادته، يرتدي الثوب والغترة.. ربما حسب أنه يقصد حفلًا وليس عش أخيه! يتقدمه أريجٌ نافذٌ من العطر، يخترق الهواء بلا هوادة.

استدار ناحيتي، سألني عن حالي بصوتٍ تلوّن بالقلق، وأخبرني بأنه سمع من والدته بمرضي وتغيبي وآثر أن يعاند التوقيت ويؤخر عمله، فقط ليطمئن عليّ:

- سأكون بخير إن كففت عن إزعاجي! دعني وشأني، أريد أن أنسى كل شيء، أرجوك..

لمتُ ذلك وأنا أرتمي على الكنبة بإنهاك وأسى مكبوت، جلس قبالتي يحاول متمالتي، وكأن شيئًا لم يكن: «إن كنتِ تخافين إخبار محمد برغبتك في

نهرته بغضب: «ألا تخجل مما تقول؟ إنه أخوك! ما تفعله جريمة أخلاقية بشعة ومقززة!»

- أخي الذي خدعني وتزوج بمن أحب؟!
- لستُ مَن تحب.. أنت تحب مئات الفتيات!

قاطعنا رنين هاتفه للمرة الثالثة، كان يريد أن يستطرد ولكنني طلبت منه أن يجيب هاتفه، انصرف للمطبخ ليتحدث بخصوصية أكثر، كنت أفكر كيف للأخوين أن يكونا بهذا الاختلاف! أمير لا يكف لسانه عن الغزل لأي امرأة تخطر أمامه، غالبًا ما يسمى في العائلة بـ (تاجر الحب) لذا أصبح شاعرًا على ما يبدو، على عكس أخيه الذي لم يعرف كيف يعبر بالكلام يومًا.

بعد لحظات، وقفتُ قرب باب المطبخ أتنصت لهرائه مع حبيبته — التي قد تكون الحبيبة المليون، والتي ربما لا يتذكر حتى اسمها — ينسج الأكاذيب بخفة ساحرٍ ماهر ساعيًا لإرضائها.

يا لحماقتي! كيف ألقيتُ بنفسي طواعية في هذه البئر القذرة معه؟!

بنسًا للغضب الذي يدفع المرء إلى ارتكاب الحماقات، ويسلمه للشيطان في لحظاتٍ معدودة، ثم يتركه يلعق آثار خطيئته عمرًا بأكمله! كان جلّ ما أجج غضبي تلك الغيرة المتفجرة على محمد فقط!

كنت على درايةٍ تامة بمغامراته العابثة التي لا تنتهي.. سمعتها من أخواته وتذمرهن المستمر، وأحيانًا يروين بعض القصص في إطارٍ فكاهي، نعم يتلاعبون بقلوب الفتيات كقصص للتسلية، كنت أضحك للقصص التي تروى عنه، ويا لفجيعتي!

كان جل ما خشيته أن تروى قصتنا ذات يوم، وعوضًا عن التصفيق له..
كمسرحياته السابقة .. تقوم القيامة.

استدار فوجدني واقفة أنظر إليه بجمودٍ وصمت مشحون، فأسقط الهاتف من أذنه وأنهاه بعجلة وهو يتمتم: «زملائي من العمل... يسألون فقط..»

قاطعته بنبرةٍ حادة: «لا يهمني من يتصل بك... غادر الآن.»

أقبل ومشاعر الحب راح يسعى: «لن أتركك، لاسيما بعدما علمتُ أنه تزوجك خداعًا.»

صرختُ فيه، والعصبية تفجر كلماتي: «أنت المخادع.. كذبت عليّ.. صدقت أن محمد خانني! أنت مقزز.. لا أريد أن أراك.. أقسم سأتقيأ مرة أخرى»

وضعتُ يدي على فمي، أُمسك بمعدتي المرتجفة، أقاوم شعور الغثيان الذي اجتاحني.

في عينيه اتساعٌ مدهوش، كأنما صُعق بأن اشمئزازي منه بلغ هذا الحد!
تلاحقت أنفاسي أحاول لملمة بقاياي، التقطتُ جرعات من الهواء بصعوبة، ثم همست بألمٍ ممضّ:

- لا أحب إلا زوجي.. وإذا تركني أخشى أن أموت .. أموت كمدًا أو أنتحر.. اتركني وشأني ..

وقعت على المقعد واندلعتُ في نوبة بكاءٍ مرير، نظر إليّ بيأسٍ وأدرك مدى عشقي لمحمد، وبأنه لو حاول المراوغة ورفع سيفه «المزيف» ليحارب من أجلي، قد أخسر أنا حياتي أولًا قبل كل شيء، لأنني سأفضح أمام محمد.

غادر بائسًا، وأغلق الباب خلفه معتذرًا عن إزعاجي..

لمحت دمعةً تنسلّ على خده قبل انصرافه.. ربما يرغب مني أن أراها، كأنها خرجت لتختتم المشهد بكامل براعته.

دموع التماسيح.. يهطلها بسهولة كما يبدو، وتُمهّد له الطريق دائمًا بين ضحاياه.

لا أعرف ما هذا الذي اقترفته!!

طوال الأعوام المنصرمة لم أكن أنفرد معه بحديث، ولم أنفرد معه بمكان، كنت لا أزيد عليه رد التحية، وهو لم يكن يبادر لمحادثتي لاعتقاده بأنني فضلت محمد عليه، ومن سوء فعلي إخباره بالحقيقة، فلم يتوانَ عن التعرض لشرف أخيه!

سحقًا له ولي!

انتبهت لكتاب الله على رف مكتبة التلفاز الخشبية..

توضأت وفرشت سجادتي وارتديت ثوب الصلاة الزهري وصليت ركعتين وقرأت بعض الآيات قراءة خاشعة مقتديةً بمحمد، ودعوت الله أن يغفر لي ويخرجني مما أنا فيه، وألححت في دعائي لله كثيرًا لكي لا يفتضح أمري.. أطلت السجود بدموعٍ تغسل وجهي وشعرت باطمئنانٍ يسري بجسدي وأوكلت أمري لله..

بعد أيام وهبت اشتراكي في النادي لأختي سعاد، لأنني لم أتمكن من مزاولة الرياضة فيه، خشيت أن يوقظ فيّ الذكرى التي أريد أن أنساها، أخاف أن يضعني كل يوم أمام مرآة الذنب القبيح.. الذي أكلني طويلاً بصمت.

انطفأت رغبتي في تعلّم السباحة. رفضتها تمامًا، لا لأنها لا تعنيني، بل لأنها

باتت تذكرني بذلك اليوم.

ومنذ ذلك الحين، صار كل ما يمتّ إلى تلك اللحظة الموحلة بصلة، يُلقي بي في دوّامة من الضيق والكآبة والتوتر.

مرات عديدة أوشكتُ أن أفضح نفسي بغباء.. أستاء فجأة!

ويعجز لساني عن التزام الصمت. وإذا استفهم محمد عن سبب انفعالي الغريب، أذكّره بزلته هو في ذلك اليوم.. أستتر بها عن سوءتي الأعظم. فينشب الشجار بيننا من جديد..

وبعد أسابيع قليلة من انصرام اليوم الأسود، سمعتُ (أم محمد) تتحدث عن رغبة (أمير) في الرحيل للولايات المتحدة الأمريكية، يبدو أنه يرغب في بدء حياةٍ جديدة بعيدًا عن عائلته التي لم يصن شرفها.

كان هذا أسعد خبرٍ أتلقاه في تلك الفترة، أسرعت نحو شقتي وهويت لله ساجدة لأنه سيخلصني من أمير وذكراه المشينة، وإعلانًا لتوبتي طلبت من محمد أن نزور بيت الله في عمرة تنعش أرواحنا من جديد، فسارع بكل حماس بتلبية رغبتي.

(هل أسرّكَ بأمر؟

كل ما آمنتُ به تلك الليلة عن دموعي، عن حاجتي لأتخفف من صلابتي أمام محمد، لأكون ضعيفة حينًا بقلبٍ مكشوف.. تلاشى مع الأيام.

عدتُ سريعًا إلى سابق عهدي؛ أرفع رأسي عنادًا، أتحدّاه كندٌّ لا يقبل الانكسار فنتصادم ونبتعد أيامًا، وكلانا يكابر لأسباب لا تستحق.

أدركتُ متأخرة أن كل تحدياتي السابقة لم تكن إلا صيحات مكبوتة:

«أخبرني أنني أكفيك.. أملأ عينيك.. أخبرني أنك تحبني»

لم أتغير حقًا إلا حين لمحتُ صورتي في درج مكتبه ذلك المساء.. رأيتُ فيها الحب كما لم أره من قبل، دعاءً ينير تلك السطور..

وتعلقًا يتجاوز كل الدنيا بما فيها!

هناك فقط.. تبدّلت

لم أعد أراه خصمًا أسعى لإثبات قوتي أمامه

كي يعترف بأني أستحقه،

بل شريكًا يحتويني، ووطنًا يسكنني، يجاور قلبي ويمنحه الطمأنينة.

لكن، يا للأسف..

حين أرخيتُ سلاحي، وأدركنا لغة بعضنا..

حين احتضنتني جنّته، وغمرني كأمانٍ دافئ لا يُشبه شيئًا قبله، حين خمدت الحروب داخلي وصار قلبه مرساي..

سُلبت تلك الجنة من يدي فجأة، وغرقتُ في التيه بين حطام الحلم وأنقاضه في صمت موجِع:

كيف أستعيد كل ذلك النور؟

كيف أستعيدني.. معه؟)

@w_fdr23

٢٠

تمزق النسيج

مرّت بضعة أيامٍ ثقيلة، تخللتها محاولات مضنية للإصلاح، قادتها عمتي «ياسمين»، والخال (عبدالعزيز) والذي شهد الحادثة بعينه في ذلك اليوم العصيب، فلم تقف أمي مكتوفة اليدين، بل أطلقت نداء الاستغاثة إلى كل قلبٍ ما زال يحمل ذرة تعاطفٍ معها، تستنجد، تتوسل، تحاول جبر الكسر قبل أن يتحوّل إلى قطيعة لا تُرمم.

واقق والدي، مكرهًا، يُساق إلى قدرٍ لا يُطيقه، لا رغبة فيه ولا أمل، بل فقط استجابة ثقيلة لمطالب المقرّبين، وامتثال بارد لا يُشبه التسامح في شيء، يرافق ذلك معارضة جدتي، نصّبت نفسها خصمًا لا يهدأ، وسيفًا لا يُغمد، تتوق لأن تُجهز على ما تبقّى من هذا الزواج، تُصعّد نبرتها وتُؤجّج الصراع وتدفعه دفعًا نحو الطلاق.

جلس في صالون منزلنا بعد أن عزف عن التواجد معنا لأكثر من أسبوع، ينتظر بوجهٍ مكفهرّ، صلب القسمات، وعيناه لا تُفصحان إلا عن حنقه.

انتبه إثر إقبال أمي واقترابها منه بكامل زينتها، وكأنّها عروسٌ في ليلة زفاف. صفّفت شعرها بعناية، وانتقت من ألوان الزينة ما يُضفي على وجهها إشراقًا متعمّدًا، تلمع عيناها برجاءٍ خفي، تأمل على أن يكون جمالها المفتاح الأخير لاجتياح قلبٍ أغلق عنها أبوابه. ما إن رآها اشتعلت عيناه، وقال بامتعاض:

- صرتُ أبغضِ زينتك .. أيتها الـ.

قاطعته وهي تُخفي دموعها بين كفيها: «لماذا لا تصدقني؟؟! أنا لم أخنك..»

سكنت لحظة، تنفست كأنها تحاول انتشال صوتها من بين حطام روحها، ومسحت دموعها بكفّين مرتجفين مستدركة:

- ثم متى أحببت زينتي أو تبرجي؟؟! متى أبديت إعجابك بي!!

- وتجرئين على اتهامي بعد ما اقترفتِ!؟؟

خرج صوتها بكل ألم:

«أنا مخطئة بالطبع، ولكنني طوال سنين كنت عطشى لرشفات عاطفية، كلمات حبٍ منك.. هل تعلم إنني لا أتذكر بأنني سمعت منك يومًا كلمة «أحبكِ»! وكنتُ في تلك الأيام تحديدًا، أحسبك حقًا لا تحبني.. ظمئي لعاطفتك جعلني ضعيفة، هشة أمام كلمات الآخرين، وإعجابهم .. الإعجاب الذي تبخل به عليّ وأنا بحاجته، أخوك أمير.. كان في الماضي أحد هؤلاء .. تقرب مني بخداعي وبكلماته المرهفة..»

قاطعها وهو يعصف بها وينهض بلا صبر: «هل جئتُ لأنصت لمبرراتك الواهية! لكي تحمّلي الضحية ذنب الجلاد!»

ترددتْ، وتلك الكلمات العالقة في حلقها بدت وكأنها جمرٌ تحاول ابتلاعه فتتلظى بنارها: «أرجوك يا محمد، دعني أكمل، أنا لا أتهمك، بل أقرّ بخطيئتي، لكنني كنت أفتقد الأمان، حسبتك خنتني في ذلك اليوم.. وأنا أحبك بجنون، حدّ أن غضبي منك أعمى قلبي.»

تقدّمت نحوه برجاءٍ لا تجرؤ على لمسه، تخشى أن يكون قربها شرارة تفجّره،

كانت تسير على أطراف زجاجه الحاد تعرض جراحها دون ضماد على مقصلة الغضب، وهو يعرض عن النظر إليها كلما جالت أمامه، يضغط على قبضته بشدة أنفاسه تتردد في صدره .. يعاني من كتم إعصارٍ جامح.

- أقسم لكَ لم يحدث ذلك سوى تلك المرة، وأراد الله لهذا الذنب أن يفتضح بعد كل هذه السنين .. مضت سنوات يا محمد وأنا أختنق بذنبي..

أخفضتْ رأسها، وعيناها تهربان من عينيه، ثم تابعت بصوت متهدّج خائف: «أقر بخطيئتي حين تجرأت ودخلتُ غرفته.. كان شعور الانتقام يحرّكني.. كنتُ أعلم أن مجرد حديثي معه سيؤلمك، وكان هذا هدفي الوحيد، أن أؤلمك كما آلمتني.. أخبرني أنك تخونني وجننت.. ولم أكن أنوي للحظة أن .. أن يصل الأمر لما حدث.. ولم أرغب في أن يحدث.. بل تقززت ومرضت.. ورغم أنني أعد ضحية إلا أنني لمت نفسي وتعذبت طويلاً ..أرجوك سامحني..»

- ضحية! تذهبين لداره بقدميكِ وتشكيني إليه وأنتِ تعرفين من يكون! وتتصتين للسانه القذر ثم تعدين نفسك ضحية؟!

حطم والدي كل ما في متناول يده، ليعبّر عن البركان الذي كان يتفجر بداخله وكأنه يرغب في تبديد كل شيء حوله.

كنتُ مختبئًا أعلى السلالم، متسللًا بين الظلال، أراقب المشهد المرعب بنظرات متسارعة، لم أستطع أن أغمض عيني عن ذلك الزلزال الذي كانت تقشعر له الأبدان، وأتمسك بشدة بقضبان السلالم الخشبية اللامعة مع تحطم كل قطعة من قطع الكريستال الثمينة التي كانت أمي قد حذرتنا من لمسها، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

الصوت يملأ الأرجاء يصرخ في الأفق بصوته المرعب، وأمي لم تجرؤ على النطق

بكلمة لتوقفه بل كانت تغرق في بحر من الدموع، جل اهتمامها كان أن يهدأ ويغفر لها ولكنها لم تنل ذلك..

قطعَ السلامُ ونظر إليّ وأنا متكومٌ أستمع إليهما وأنا في قمة خوفي.

سألني: «أين حسن؟»

- في غرفته.

جمعني أنا وحسنٍ في تلك اللحظة المليئة بالألم، كان حسن قبلها غارقًا في عالمه الخاص، يتنقل بين ألعاب الجهاز اللوحي وموسيقى السماعات الصاخبة التي ارتداها، لا يدري بما يدور حوله، ضمنا أبي إليه وقبل رأسينا في حنان قلما نجده أو (أجده) حتى إن ابتسامتي كانت تريد أن تشرق، ولكنني أحاول بصعوبة لجمها، فالوقت لم يكن ملائمًا للابتسام. نظر إلينا بعينين تفيضان حزنًا:

- لا ذنب لكما في خلافي مع أمكما، سأحمل أمتعتي لشقتنا السابقة في منزل جدتكما.. وقد لا أعود لهذا المنزل مرة أخرى.

تفاجأ حسن وتوسل: «بابا أرجوك.. كنا ننتظر عودتك.. لا تتركنا».

كررتُ كلمات حسن بلا شعورٍ صادق وكأنني في مشهدٍ تمثيلي، لم أكن أعي تمامًا ما يحدث.

ضمنا أبي إليه مرة أخرى وهو يوصينا بالاهتمام ببعضنا حين رأى حزننا، وعبّر عن رغبته في رؤيتنا كل مساء في بيت الجدة.

تركنا وقصد غرفته مندفعًا إلى الخزانة بغضب، وتبعته أمي بلا يأس.

أخرج حقيبة سفر سوداء صغيرة، راح يسحب أقمصته ويرميها بعصبية داخل الحقيبة، كأن كل قطعة يطويها تزيد من مسافة الفصل بينه وبين والدتي، كل حركة كانت تعكس الانفجار الداخلي الذي لا يرحمه، وكأن الكلمات لم تعد قادرة على احتواء مشاعره المدمرة.

وهي تحاول ثنيه وعبثًا تزيل الملابس التي يضعها:

- أرجوك.. لا تغادر المنزل. إن أردتَ هجري، فَنَم في غرفةٍ أخرى، أو أنا أرحل إلى غرفةٍ ثانية.. نعم، سأنام حتى بالصالون أو الممر إن شئت. فقط لا تخرج.. أنت لا ترضى بنشر خصوصيتنا وغسيلنا أمام الملأ..

ضحك بتهكم ودهشة ونفض الملابس من يديه بحنق وهو ينظر إليها:

- خصوصية!! وهل أبقيتِ شيئًا منها لم تنشريه!!.جردتِنا أمام الجميع!

تلعثمتْ، لم تجد ما تجيب به، قبل أن تحاول مجددًا بصوتٍ مرتعش، يمتزج فيه الرجاء بالذهول: «هل ستترك المنزل الرحيب الفاره الذي طالما حلمنا به.. وانتظرنا أيامنا الجميلة فيه! وتعود لتلك الشقة الصغيرة القديمة!!»

- أعيش في جحرٍ على أن أبقى معكِ في أحسن القصور.

كانت كلماته قاسية، أشدّ وقعًا من أي ضربة. نزلت دموعها بغزارة من جديد، لكنها لم تيأس، بل واصلت محاولاتها المستميتة.

وعندما رأينا إصرارها وبكاءها، حاولنا نحن أيضًا أن نثنيه، لكن دون جدوى.

سمعتها تناشده بالكلام عن «رحلة الصين».. فقد كانا يترقّبان تحديد موعدها منذ أكثر من شهر، وكان الحماس يغمرهما معًا.

- وصلتنا تذاكر السفر أخيرًا.. أرسلتها لك عبر هاتفك. أعلم أنك لن تتركني وحدي، وسترافقني.

بدت الرحلة شغل أمي الشاغل؛ فهي لم تسافر يومًا بدونه.

جاءت هذه الطامة في وقتٍ حرج، وبدأت تخشى أن تُبدِّد كل الترتيبات. توسلت بما تبقى لها من أمل، لكنه، في غمرة غضبه لم يُعر توسلاتها أي اهتمام.

****

رافقتُه إلى بيت جدتي، وهو يحمل حقيبته بقبضته المتصلبة، فيما تلتهم خطواته الطريق بسخط. دخلنا، ومن سوء حظه، كانت جميع عماتي هناك، يتحلقن حول جدتي التي غشيها الكدر لأجله، وما إن وقعتْ أعينهن عليه، حتى خيّم الصمت.. لكنه لم يكن صمتًا عاديًا، بل كان متوترًا، مشحونًا بالفضول وانتظار التطورات الأخيرة.

بدا وكأنه اكتفى من نظرات الشفقة والتدخلات غير المرغوبة ويرغب في إنهائها..

فاتجه نحو السلم، وضع حقيبته على أول عتبة بغير اكتراث بعد أن ألقى التحية ببرود، ثم عاد أدراجه محاولًا أن يظهر بمظهر اللامبالي.

جلس مكابرًا، مدّ يده إلى جهاز التحكم الملقى على الطاولة وراح يبدّل بين القنوات بعشوائية، يبحث عن أي شيء- أي شيء- يصرفه عن الأعين المتفرسة التي تحاصره ولم يدم الصمت طويلًا، إذ مزقته عمتي جليلة بصوتٍ مثقل

- لماذا تحمل حقيبتك وتخرج من بيتك! بيتك الذي أفنيتَ فيه جهدك وسنين

عمرك حتى شيّدته! كان عليك أن تشدّ شعرها، وترميها في الشارع، وتبقى أنتَ مع أولادك فيه..

انقبض قلبي..

وراح الخوف يتغلغل في أوصالي، تملكني القلق من كلماتها وتحريضها لأبي ضد أمي، ولم تنتظر برهة حتى أيّدتها عمّتاي الأكبر سنًا، فهنّ شهدن عن كثب معاناته وهو يرزح تحت وطأة الأعباء المالية الثقيلة، بينما أمي كانت تتفاخر أمامهن بأنه لم يسمح لها بدفع قرشٍ واحد..

ومع ذلك لم يحرّ جوابًا، بدا وكأنه يخشى أن يفتح فمه فينفجر كل ما يعتمل في صدره، فظلّ شاخصًا إلى شاشة التلفاز، بينما الحرب بين أخواته كانت قد اشتغلت حوله، فتدخلت عمتي ياسمين غير مبالية وكأنها في برنامج الاتجاه المعاكس:

- وإن بناه؟! هذا واجبه، والبيت شرعًا بيت المرأة، إن غضب هو من يخرج، ولا يجوز له إخراجها، حتى وإن لا قدّر الله وقع الطلاق، تظل في منزلها إلى انقضاء عدّتها.

كانت الأجواء مشحونة، وما زادها اضطرامًا استمرار عمتي جليلة في جدالٍ محتدم مع شقيقتها الصغرى، صوتها يرتفع بحدة حتى قالت:

- المرأة خانته أي حقوق وأي هراء تتفوهين به، أفكار النسوية لا تبارحكِ! يجب أن يطلقها وفورًا

فجأة، بُتر الجدال بصوتٍ جارفٍ من أبي: «كفى!! لم أسأل أحدًا عن رأيه في حياتي الشخصية! لا ينفع معكم الصمت ولا الاحترام.»

نهض وأردف مهددًا يشير بسبابته وأنظاره لا تستثني أحدًا:

- ومن يتحدث بالسوء عنها، سيجدني أمامه.

ساد الصمت، لا أحد يجرؤ على الرد بينما الغضب كان يفور في عروقه، واتجا للسلم منتزعًا حقيبته وصعد إلى شقته، تاركًا الجميع في فوضى من المشاعر.

انهارت جدتي بالبكاء، تضرب فخذيها بندبٍ مؤلم، غارقةً في قلقها عليه، أما عمتي جليلة، فكان الإحراج يعصف بسحنتها، تشعر بأن كلماته أصابتها مباشرة، وكأنها كانت الهدف الحقيقي لانفجاره.

أما أمي..

في بيتها الذي شُيّد بأحلامٍ مؤجلة وتضحيات غليظة، وقد صار موضعًا للّغط، مضغةً في أفواه بعض عمّاتي اللائي وجدن فيه ثغرة ينفثن من خلالها سمومًا محمومة، مع كل همسةٍ تُقال، وكل نظرةٍ تُلقى.

بدا المنزل وكأنه انقلب من نعمةٍ إلى لعنةٍ جاثمة على صدرها، انكمشت بين جدرانه على نفسها كزهرةٍ ذابلة، بكتْ كثيرًا بعد ذلك اليوم، وارتدت ثوبًا من الكآبة، ثقيلًا، رماديًا، التصق بها حتى بات جزءً منها.

وازدادت تصلّبًا في معاملتي، وكأنها نفضت عن قلبها آخر بقايا الحنوّ، وأغلقت النوافذ بيننا، لم تكن حنونةً عليّ سلفًا، لكن ما حدث عمّق الفجوة بيننا حتى صارت أبعد من أن تُردم، قذفتني إلى قفص الاتهام، جعلتني المتسبّب في انهيار كل شيء، في انكشاف المستور، في ذهاب الرجل الذي تعشق، فعشتُ في دوامة من الذنب أكبر من قلبي،

أثقل من سنواتي، أستعيد المشهد مرارًا: كلمتي، عيناها، انهيارها!

تمنيتُ لو أنني ابتلعت لساني، لو أنني لم أفتح فمي، لو أنني دفنت السرّ، وتركته يتعفّن بداخلي.

ورغم بؤسها لم تكفّ عن محاولاتها العاجزة لإعادة أبي..

كانت تعاند الانهيار وكأنها ترفض الاعتراف بالخسارة..

تنتظره كل صباح في السيارة، ترقبه برجاء لكنه يتجاهلها بوضوحٍ قاسٍ، فتنطفئ فرصتها قبل أن تولد.

ولأنها لم تكن تجرؤ على رؤيته في بيت العائلة، خشية مواجهة جدتي، آثرت البقاء بعيدًا.. واكتفت بإغراقه برسائل يومية لا يُفتح منها شيء.

ومع كل فشل، كان شيء آخر ينطفئ فيها..

وكنت أرى ذلك بعيني، وأحترق بصمت..

ART_OF_BOOK

٢١

النداء الأخير

- ليلى.. أخبريني ما الذي حدث بينكما؟
- لا شيء.. مشكلات عابرة كالعادة.. ولكنه غضب أكثر من اللازم.

قلتُ أغالبُ حزني، استطردت شقيقتي سعاد وهي تقود السيارة مُطَمْئِنة ونحن في طريقنا الطويل للمطار: «لا تقلقي، أنا متأكدة بأنه سيفاجئك.»

تمنيت أن يكون كلامها صحيحًا، كنتُ أمعن النظر من خلال نافذة السيارة - للطرقات التي توشحت بنور الشمس الساطعة، وأهيم في أحلامي وتخيلاتي ماذا لو جاء بحقيبته وفاجأني!

بل لابد أن يرافقني وإلا ستكون نهايتنا قد حانت فعلًا.

ودّعتني أختي عند مبنى المطار، عانقتها وكأنني أتشبّث بآخر خيطٍ من يقيني، أُقنع نفسي بتطميناتها، رغم أن شيئًا في داخلي كان يلتهمه الشك.

قبل أسابيع فقط، كان الحماس يلتهمنا ونحن نخطط معًا للرحلة، أعلم بأن كل شيء تغير.. لكنه يعرفني جيدًا.

يعرف أنني من النساء اللاتي لا يسافرن إلا في ظل أزواجهن، فلم يسبق لي أن غادرت دونه يومًا.. ولا رغبت بذلك.. أنا تائهة.. غائبة عن الحياة إن لم يكن هو إلى جواري.

هو بوصلتي، وإن غاب، استحال كل طريق غربة.. وكل مدينة منفى..

ساعدني أحد العمال في دفع حقائبي على العربة المعدنية، ورحتُ أتلفت كل حينٍ خلفي أستجدي ظهوره، انتهيتُ من تسجيل حقائبي لوحدي لأول مرة، وأنا أشعر بحزنٍ ثقيل، جلستُ على أحد المقاعد بانتظار فتح البوابة المعنية، وطأطأت رأسي أتأمل وجعي، كم بذلتُ في سبيل استرجاعه!

كادت دموعي تنضب من فرط نزفها..

تلك الدموع التي كانت تذيبه في لحظة، لم تعد تعني له شيئًا!

لم يعد لها مكان في قلبه..

بل صارت تلك الدموع تذكره بخيانتي البشعة

ولم أهدر دموعي فقط بل رميتُ كرامتي أيضًا هذا الصباح!

حين قصدت شقّتنا القديمة في بيت العائلة.

تسللتُ إلى الداخل بخطى خافتة، وأقفلتُ الباب خلفي بحذر.. وكأنني أقتحم حياةً لم أعد أنتمي إليها. خلعتُ عباءتي وخماري عند الممر الصغير في مدخل الشقة، وحررتُ شعري الذي صبغته مؤخرًا بلونٍ أشقر ثلجي، رتّبته بعناية وضمخت وجهي بألوانٍ قانية تليق بثوبي القصير.

تقدّمتُ نحو الصالة، بدت خالية من الحياة، مهجورة كأنها نسيت من سكنها يومًا. لا أثاث، لا حياة، لا روح.. فقط فراغٌ يوبخني بصمته.

بدا واضحًا أن محمد نقل بعض الأثاث القديم إلى غرفة المكتب. حيث كان صوت التلفاز يتسرب من هناك.

تقدمت نحوها ببطء تأملتها، وغصّة حادة ارتفعت في صدري، شعرت كأنّه شيّدِ لنفسه خلال الأيام المنصرمة عشًا هادئًا.. يرغب من خلاله أن يرتب أوراق حياته من جديد.. بعيدًا عني..

وجدته جالسًا، ظهره لي ويتابع الأخبار بجمود.

اقتربتُ منه، ووضعتُ كفّي على منكبيه من الخلف، ضغطتُ برفقٍ أستجدي التفاتته. رفع رأسه متفاجئًا، تلونت ملامحه للحظة، ثم أعاد رأسه بصرامة، وتصلب كتفيه بين يدي. قال بحزم دون أن ينظر إليّ:

- غادري.

انحنيتُ وهمستُ بصوتٍ مبحوح في أذنه: «اشتقتُ لك.»

ظل معرضًا، ناورته.. فطالت مقاومته.. إلى أن استسلم مجبرًا، وارتمى على الفراش يغرق في نومه للحظات، ويخفي عينيه بذراعه اليسرى، وكأنه يحاول الاختباء من كل شيء.

بهدوء سحبتُ ذراعه الأخرى، واحتويتُ نفسي بها، أستجدي بها الدفء الذي اشتقتُ إليه حدّ الوجع.

نظرتُ إليه، في تأملٍ لا ينتهي.. شعرت بأنني وجدت وطني بعد تيهٍ وغربة، وامتلأتُ بيقين أنه لن يتركني أسافر وحدي بعد هذه اللحظة. كان ذلك الإيمان وحده كفيلًا بأن يجعل قلبي يحلق.

داعبتُ شعر ذقنه المهذّب بأطراف أصابعي (عادتي التي لا أملّ منها)، وهمستُ بصوتٍ مخنوق من فرط السعادة:

- ممتنة لأنك سامحتني، لا تعلم كم أحبك!

فتح عينيه دون أن ينبس ببنت شفة، رمق ساعته وقفز مسرعًا ليستحم قبل أذان صلاة الجمعة.

رحت أضحك وحدي بغبطة لا توصف، تتخللها دمعات الفرح.

مددتُ يدي نحو الدرج القديم الذي يجاور السرير، فهو لم يحرك منه ساكنًا حتى بعد انتقالنا إلى المنزل الجديد.

استخرجتُ الدفتر الأسود، وأخرجت الصورة التي لا أنساها، وقلبتها لأقرأ الدعاء المدون على ظهرها، وأتأمل بكل شغف حروفه، سحبتُ هاتفي ونسخت منه على ظهر الصورة بعض العبارات من نثرياتٍ بالأنترنت تصف لحظتنا وهيامي به، بخطٍ أحمر صغير في الجهة اليسرى المقابلة للدعاء، كتبتُ:

(شذرات شوقكَ الأخاذ، يا حبيبي..

تناجيني: «بدفئكِ أذيبيني.. وثلوج همي، أيضًا أذيبي»

وعلى عزف هواكَ، أتخايلُ بعرسِ الشمس وعبير نداكَ.

فيا بدورِ العشقِ عن سمائنا.. لا تغيبي)

خرج بعد استحمامه وقد لف خصره المنحوت بمنشفة رمادية، فيما لا تزال قطرات الماء اللامعة تنساب على منكبيه.

وضعتُ الصورة بعناية على الأدراج قرب السرير، عله يراها على حين غفلة..

تحدثتُ بحماس عن الوقت، خشية أن يضيق علينا وبأنني سأرتب حقيبته ونكون في المطار بحلول الثانية ظهرًا.

كان منشغلًا بأزرار قميصه الأبيض، ذاك الذي احتضن جسده الرياضي برُقيٍّ معتاد، فيما عيناه الزجاجيتان مسمّرتان على انعكاسه في المرآة، كأنه لا يراني:

- لن أذهب.

- وهل يطاوعك قلبك أن أذهب وحدي؟ كل الزملاء سيكونون مع أزواجهم.

فاجأني رده باقتضابٍ ولا مبالاة: «لا تذهبي، لستِ مجبرة».

وقع قلبي بغصة سوداء: «هل تسخر مني؟! أم ماذا تعني طريقتك الجافة هذه في الحديث؟ ألم تسامحني حتى الآن؟»

- ولن أسامحكِ.

قالها وهو يلتفت إليّ بنظرةٍ غاضبة شعرتُ بها تخترقني كرمح. لكن ما آلمني حقًا لم يكن حدّة عينيه فقط! بل إدراكي المفاجئ أنه، ومنذ أن التقينا اليوم، لم ينظر في وجهي مباشرة إلا في هذه اللحظة.

كتمتُ غيظي، أطبقتُ شفتيّ بقوة كي لا تنفلت مني كلمةٌ قد تزيد الوضع سوءًا، لكنّ وجنتيّ كانتا تفضحان اضطرامي، تمسّكتُ بخيط الأمل الأخير، وسألته باستنكار:

- وهذا الذي جرى بيننا!

أعرضَ بتعالٍ وبرودٍ يضاهي برودة شعره الرطب وهو يسرّحه، وعيناه تعانقان المرآة من جديد. أجاب بتهكم:

- ما جرى، يجري بين أي رجل وامرأةٍ ..استفردت به، لا يعني عودة مشاعري» كزوجٍ لكِ.

لأول مرة في حياتي أشعر أمامه أنني غريبة، بل رخيصة!

سحبتُ لحاف السرير الذهبي بيد ترتعش من الإهانة وسترت ما كُشف مني، لجمت بركان انفعالي واختصرته بجملة حازمة لتصرفه الوقح معي، علّي أستعيد نزرًا من كبريائي:

- ستكون حقيبتكَ جاهزة خلال دقائق، وإذا لم ترافقني فاعلم أنكَ خسرتني للأبد.

خرج دون أن يلتفت ناحيتي وعلى شفتيه شبح ابتسامة يرنو إليّ باستخفاف.. يمعن أكثر في إذلالي، حتى شعرت بأنني.. نكرة.. لا أعني له شيئًا!

انفجرتُ باكية بغضب وشتمته في سري بكل أنواع الشتائم

كم يجيد إصابتي بأبسط إيماءاته!

سحبتُ الصورة التي بحت لها بما يشبه مشاعري وكدت أمزقها، ولكنني لم أفعل، أعدتها على الطاولة ساخطة.

هضتُ سريعًا أستحم، فهدأتُ واشتعل ثانيةً حماس السفر، كان شيئًا في قرارة نفسي يطمئنني بأنه لن يتركني.. رغم ما فعله.. فهو يرى إصراري ورغبتي في مرافقته لي..أولستُ أمانته التي يسعى لرعايتها! فما أزال على ذمته!

****

قطع حبل ذكرياتي الصباحية صوتٌ أبغضه: «ليلى .. كيف حالك؟».

رفعت رأسي بابتسامة صفراء: «أهلا (أستاذ سامي)»

تلفتّ حولي يسأل عن زوجي، حارت عيناي وأنا أبحث عن حجةٍ لأتعذر بها،

قلتُ وأنا أنشغل بالعبث في هاتفي: «لم يتمكن من الحصول على موافقة من العمل بسبب ظروف مفاجئة، وأين زوجتك؟»

ضحك بفجاجة وفرح: «لم أرغب في اصطحابها، هادمة اللذات.»

طالعته باشمئزاز وهو يجلس بجواري بسعادة غامرة، كنت أعلم أن نسرين لن تكون معنا في هذه الرحلة، فقد حجزت مسبقًا لقضاء بضعة أيام في إحدى الدول الخليجية المجاورة قبل أن تنتقل منها مباشرة إلى الصين، لكن ما لم يخطر ببالي هو أن أجد نفسي وحدي مع سامي خلال ساعات الطيران.. من دون حتى زوجته!

التفتُّ نحوه بفتور، فوجدته في قمة الاستمتاع ينظر لي من طرف خفي، نهضتُ مبتعدة متظاهرة بالانشغال بمكالمة هاتفية، بينما كنت أكبح دموعًا تتأهب للانهيار، متشبثةً بأمل أخير.. أن يظهر محمد.

لا يمكن أن يتركني وحدي، أسافر مع رجلٍ كـ(سامي)، بعيونه المتسللة، ونظراته التي لا تعرف الحياء.

كتمتُ كثيرًا من تصرفاته، ولم أبح لمحمد بشيء منها، خوفًا من العواقب التي لا تُحمد، لكنّ الصمت الآن بات خيانةً لنفسي.

ربما هذه آخر ورقة يمكنها أن تؤثر فيه!

ترددتُ لحظة.. ثم أمسكتُ هاتفي بعزم، وقررت أن أخبره بكل شيء.

بحثتُ عن زاويةٍ لا يستطيع سامي رؤيتي منها.

دهست على ذاتي وكرامتي قبل أن أضغط زر الاتصال، وأنا أختنق بشعورٍ ثقيل من الذل..

خاصةً بعد ما جرى صباحًا.

رنّ الهاتف مرارًا، لكنه لم يُجب، شعرتُ وكأن الأرض تنسحب من تحت قدمي وهطلت دموعي بغزارة، حاولتُ أن أُواريها بمنديل من حقيبتي، فسمعتُ صوتًا من خلفي: «هل أنتِ بخير؟»

استدرتُ، فوجدتُه واقفًا هنا بقربي، يرمقني بنظرةٍ لا أستطيع احتمالها، كانت مشاعري تغلي، حزني وغيظي اجتمعا في لحظةٍ واحدة، ولم أتمكن من كبح اندفاعي، فصرختُ في وجهه غير عابئةٍ بكونه مسؤولي في العمل:

- اتركني وشأني.. لا أريد أن أراكَ بقربي طوال الرحلة! حسنًا!

بوغتَ سامي بلهجتي الوحشية هذه ووجم وكأن على رأسه الطير، لكنني لم أكترث به! الغضب كان ينهشني من الداخل، ويُغرقني في دوامة من الأسى، وما أنهى هذه اللحظة المقيتة إلا نداء فتح بوابة الصعود، فانطلقتْ أسراب المسافرين تتسابق نحو الطائرة، بينما بقيتُ متسمّرة في مكاني..

أتلفت حولي.. أبحث عن معجزة.. عن أي أثر لمحمد، عن دليلٍ واحد يطمئن قلبي بأنه لن يتركني وحدي، لكن لا شيء حتى الآن.. لا اتصال.. لا رسالة..

لا خطوة تقترب نحوي..

غير مصدقة!

وقفتُ هناك والخذلان يثقل صدري، نظراتي على مدار الأفق تتساءل..

أحقًا باعني محمد بهذه البساطة؟!

تصاريف القدر

لم يكن أبي يحارب على جبهة واحدة؛ فمن جهة أمي ومن جهة أخرى كان عمي أمير. حاول هذا الأخير جاهدًا في تقديم اعتذاره مرارًا، فلم يخرج إلا بلكماتٍ متفرقة على وجهه، وأرسل شفعاءً شتى ليجسروا الهوة، لكن دون جدوى.

وذات يوم، تفاجأ أبي بدعوةٍ من أحد رجال الدين إلى مجلسه الخاص، وحين ذهب، تلقّى محاضرة طويلة عن الصفح والعفو وأجر المسامحة.. لم تزده إلا غيظًا، جاهد في كتمه.

عاد من ذلك اللقاء كبركان مشتعل، لا أحد يستقبله سوى جدتي.

يلوّح بيده صارخًا: «ماذا أفعل بابنكِ المعتوه هذا؟! سيفضحني على رؤوس الأشهاد أيضًا!»

- اهدأ يا بني، هو يخبرهم فقط أنه أجرم في حقك..

كادت دموعها تهطل وهي تتابع برجاء: «يلوذ بنفسه، لا ينام ولا يأكل.. يريد رضاك، كان يافعًا في غمرة الجهل.. لكنه تغيّر، تغيّر الآن.. ويستعظم خطيئته حالته النفسية تتدهور يومًا بعد يوم.»

واصلت بصوتٍ يضج بالحنان والشفقة تهدئه: «ثم أن الفضيحة ليست فضيحتك يا حبيبي، فضيحته هو.. وصدقني يتألم أكثر منك، هو من يشعر بالخزي وبالانهيار، وجهه مغطى بالسواد لا يجرؤ على رفعه.. رغم أنك مزقت شفته قبل أيام، وكسرت أحد أسنانه. لم يلمك بل ومايزال يتلوى لتصفح عنه»

- لهذا أبعديه عني، لا أمان ليدي إن ظل يتقيأ اعتذاراته التافهة أمامي، أتمالك نفسي بصعوبة كلما رأيته.

صعد لشقته بخطى غاضبة، وكل العبارات التي قيلت ظلت تتناثر خلفه بلا أثر.

كنا نحسب أنه لا يحمل في قلبه أي ذرة للمغفرة لأي منهما..

إلى أن جاء ذلك اليوم، الذي كنت خارجًا فيه من المسجد معه بعد صلاة الجمعة، بدا متعجلًا وهو يقود السيارة: «هل ودعتَ والدتك؟»

هززتُ رأسي وأنا أقول بابتسامتي المعهودة: «سأفتقدها.»

صمتُ قليلا ثم أردفتُ بتردد: «أخبرتني ماما أن حقيبتك أيضًا جاهزة، هل ستسافر معها حقًا؟»

ابتسم وهو يقود بيده اليسرى، ثم طوّقني بيمينه على غير عادته، حتى خُيّل إليّ أنني سأموت من شدة الغبطة. لكنني أدركت أنه يضمني مودّعًا: «نعم.. سأفعل، غيرت رأيي للتو، سأشتاق لكما، كونا مهذبين ولا تزعجا جدتكما.»

صحتُ غير مصدق وأنا أصفق: «رائع! أمي غادرت قبل قليل مع خالتي إلى المطار.. هل.. هل تعلم بأنك سترافقها؟»

- لم أخبرها، ربما أفاجئها.

كادت سعادتي أن تفجرني، ضحكتُ حتى تغيرت ألواني، وقلتُ بلهفة:

- أخيرًا تصالحتما.

ابتسم وهو يدير المقود ببطء، بدا غائبًا في شروده، ثم همس بصوتٍ خفيض لا يكلمني به، بل كأنه يخاطب نفسه: (لن تحتاج إلى أحدٍ هناك بوجودي. نعم، وسأدعمها، لكنني.. لن أصفح، وإعراضي سيستمر)

لم أفهم مغزاه جيدًا وحمدتُ الله في سري أن الأمور بين والديّ ستعود إلى نصابها وسيحل هذا الخلاف المقيت الذي كنتُ سببًا في نشوبه.

كنا نقف في إشارة المرور، وانتبهتُ على سيارة عمي أمير البيضاء الصغيرة في مسار (أقصى اليسار)، وأشرت لأبي فرحًا:

- هذا عمي ..هناك.

زم أبي شفته ممتعضًا ولم يحر جوابًا واكتفى بإدارة هواء المكيف، لم تمضِ سوى لحظات حتى انطلقتْ من بعيد سيارة سوداء رباعية الدفع، سرعتها كأنها سهم أفلت من قوس مشدود، اندفعت كالعاصفة، وصدمت سيارة عمي بعنفٍ مزلزل!

طارت سيارة عمي في الهواء، وكأنها لعبة بين أيدي القدر، تتقلب ثلاث مرات قبل أن تهوي بقسوة على رصيف الشارع!

كنت مفزوعًا، وضعتُ كفي على صدغي وأنا أشهق وأرتجف مع تقلبات السيارة وكأنها تمر أمامي بحركةٍ بطيئة.

كان المشهد أمامنا أشبه بفيلم سينمائي، لكنه حقيقي حدّ الرعب، كل السيارات تجمدت بمواقعها وترجل الراكبون في قلق.

نظرتُ لأبي أستشف ردة فعله، وجم في مكانه للحظات، ثم فجأة انفجر شيءٌ بداخله.. ترجل هو الآخر وطلب مني على وجه السرعة أن أبقى في السيارة. راح يجري بكل سرعته وأبعد البعض بهلع الدنيا يحمله بصدره، وأنا أراقبه من بعيد كيف يضرب باب سيارة عمي بركلاته العنيفة ويفتحه بصعوبة بمساعدة بعض الرجال، سحب أخاه من السيارة التي شوه الحادث هيكلها، وانبعجت من كل جهة.

عروق عنقه تتفجر مع صرخته التي هزتني حدّ الارتعاش: «إسعاف!»

كان عمي مضرجًا بدمه وقميصه قد تهتك على صدره، نظر أبي إلى أخيه المغيب وهو يهتف به (أمير .. أمير كلمني) والرجال يعاونونه، تقدم أحدهم مسرعًا وفسح الجميع له الطريق وهم ينادون:

- الطبيب علي.. افسحوا له المجال ليعاينه.

كان وجه عمي مكسوًا بدم رأسه، هامدًا بلا حراك، كأن الحياة قد انسحبت من ملامحه في لحظةٍ خاطفة، ظل أبي يتصفح وجه الطبيب بقلقٍ متصاعد، يُبعد عنه الآخرين، وكأن أي حركة زائدة قد تزيد الأمر سوءًا، ونظراته تتشبث بأي بارقة أمل، إلى أن سمعه يقول:

- لازال ينبض.. لا تحركوه.. اتصلتم بالإسعاف!

وصلت سيارة الإسعاف من المركز الصحي القريب، لتكسر الصمت المطبق بأضوائها اللامعة وصوتها القاطع للأنفاس، حملوا عمي بحذر شديد وهو غائب عن الوعي، وكأنهم يتعاملون مع زجاجٍ على وشك التحطم، يخشون أن تخفي دماؤه كسورًا أشدُ وأعظم، عين أبي لا تغادر وجهه المدمّى، يخطو خلفهم بوجلٍ ظاهر، كأنّ روحه موضوعة على نقالة الإسعاف.

حين أدخلوه السيارة، نادى .. يلقي بألمه في حضن السماء: «احفظه يا الله»
سارت سيارة الإسعاف وجاء أبي بقرب سيارتنا بيدين وملابس ملونة بالدم،
لم يدخل.. خلع قميصه الأبيض ونظف به يديه ثم كرمشه وغطى وجهه به
للحظات، أحسبه يواري ألمه، دون أن يعلم أنني أرصد كل حركاته. ندهني:

- يوسُف، ناولني عبوة الماء.

ناولته إياها وأنا في قمة هلعي، أحاول الابتعاد عنه خوفًا من دماء أخيه
التي لطخته. غسل يديه ووجهه، ووفد للسيارة سريعًا بعد أن بدأت الحشود
تتفرق وأبواق السيارات تتعالى، قاد السيارة على عجالة وهاتفَ أكبر عماتي
وأخبرها بالحادث.

نزلنا عند جدتي وأصر على أن ألتزم الصمت ولا أبوح لها عما جرى، فيما تسلل
هو لشقته واستحم سريعًا وتوجه للمشفى.

كان عمّي في حالٍ حرجة، تحت خطر نزيفٍ دماغيٍّ أبقاه في المراقبة المشددة
لساعاتٍ طويلة، وجسده مثقلٌ بالرضوض.

لم يفارقه أبي طوال تلك الليلة، حتى زال الخطر عنه في اليوم التالي.

****

كان مستلقيًا على السرير، وحوله تجمعت عمّاتي، يتهامسن بصوتٍ منخفض،
وبعضهن يهمسن له بكلماتٍ لا أفهمها تمامًا. كان يغمض عينيه ثم يفتحهما
كل مرة، كأن النوم لا يرضى أن يبقى فيه طويلًا. ثم فجأة، ارتجف جسده،
سمعناه يغمغم بوهن:

- سامحني.. سامحنـ.

هرعت الأخوات إليه، الكل يريد أن يلبّي حاجته، بينما والدي ظل واقفًا ساكنًا، في طرف الغرفة، يداه بجيبيه، ووجهه جامد كالصخر.

تمتم عمي من جديد، وكأن الكلمات تنزف من صدره: «محـــمـــد.. سامحني..»

تعلّقت العيون بالواقف بعيدًا، وجدتي غلبتها الدموع، فجلست على المقعد بجواره تمسح جبينه: «تفديك أمك يا صغيري.. لا تجهد نفسك..»

فتح عينيه ببطء، دار بهما في الوجوه المتحلقة حوله، واستقرتا على أبي رغم بعده.. ثم انفجرت دموعه مشحونة. علت الأصوات ترجوه أن يصفح، لكنه لم يقل شيئًا، أدار وجهه وخرج من الغرفة، وصوت عمي ينعى نفسه:

- سأموت قبل أن يسامحني..

خرجت عمتي ياسمين هي الأخرى، دامعة، فلحقتُ بها. رأيتها تتجه نحو والدي، حيث يقف في الممر، على بُعد خطواتٍ من الغرفة ويواجه النافذة التي التهمت معظم الجدار، يحدّق في الشارع بصمتٍ ثقيل.

خاطبته بحرقة: «لا تكن قاسيًا.. تذكّر كيف حملته بالأمس ملطخًا بدمه، أتتحمل أن يُصاب بمضاعفات أخرى الآن، بسببك!»

لم يجب، فقط أعرض بامتعاض. شدّت على ذراعه بعصبية: «يجب عليك أن تعفو عنه.. أنتَ أيضًا لم تكن بريئًا، إذا كنتَ.. قد نسيت!»

احمرّت عيناه، رمق يدها التي تقبض ذراعه، فأفلتته بارتباك..

ومضى بعيدًا دون أن يجود بكلمة.

في المساء، عدنا ثانية إلى المستشفى. كان عمي يقظًا، لكنه يجلس بصمت ، كأزجثة، وعمتي ياسمين بجواره. ارتخت ملامحه قليلاً حين رآني وجدتي. وحين دخل أبي خلفنا اعتدل يطالعه برجاء.

فاقترب أبي منه، صوته خافت، لا يرفع نظره إليه:

- لا شيء أهم من صحتك
- هل صفحتَ عني؟

أومأ أبي برأسه إيجابًا. فاغرورقت عينا الآخر، وتبادل نظرات الفرح مع عمتي وجدتي.

نهضتْ جدتي تعانق أبي وتثني عليه، لكنه ظل جامد القسمات، صمته يقول أكثر مما ينطق به اللسان..

ومنذ تلك الحادثة، لم يعد أبي مخاصمًا لأخيه، لكن العلاقة بينهما لم ترتقِ إلى ألفة، فلم أشهد بينهما حوارًا صريحًا، ولا لحظة مواجهةٍ تُطوى بها صفحة الماضي، فغدت العلاقة بينهما كجدارٍ رماديٍّ قائم؛ لا ينهار، ولا يسمو، بل يبقى شاهدًا صامتًا على ذلك الجرح.

ورغم ذلك، لم ييأس عمي أمير من التسلل عبر هذا الجدار، محاولًا أن يُعمّق ذلك التسامح، ويعيد تشكيل ما تهشّم.

هذا التسامح وإن كان قشريًا، مهّد في امتداد علاقتنا نحن الأبناء مع عمي، وبالخصوص أنا.

كنت أحب مصاحبة عمي، بعكس أخي، هو لا يحب الاحتكاك بالآخرين كثيرًا، بل يأنس بالألعاب الالكترونية، لاسيما مع سفر أمي وشعوره بافتقادها،

والأدهى إن حبل التواصل بيننا وبينها كان ضعيفًا جدًا لانشغالها وظروفها الغامضة هناك.

أنا كنت سعيدًا جدًا في بيت جدتي..

صرت أشعر بأنني محبوب وهناك من يستحسن مجالستي بعد تعرفي أكثر على عمي، فكم هو شخصية غريبة!

يحبني كثيرًا رغم كل ما تفوهت به، ويعاملني كالصديق.

كنت أحمد الله الذي أخرجه سالمًا من الحادث المميت الذي تعرض له، والذي يُتوقع أنه كان مقصودًا ومتعمدًا، فالسيارة الآثمة لم تكن تحمل أرقامًا، وكل نوافذ السيارة كانت معتمة، ولم يتمكن أي شخص من اللحاق بالمجرم. وتحليلات كبار العائلة كما رصدتُ من بعض أطراف حديثهم، تشير إلى أن أصابع الاتهام قد تعود لماضيه الأسود حتى قبل رحيله، فتاريخه ملطخٌ والأسهم تشير إلى مئات العلاقات المشبوهة..

وهذا ما أحرج العائلة أمام تحقيقات الشرطة، فهو لا يستطيع البوح بكل ما يعرفه أو يتوقعه، بسبب سمعته وسمعة العائلة التي سيطيح بها إن عدَّدَ أسماء المشتبه بهن من النساء.

خلّف الحادث تغيرات جذرية في حياة عمي، فقد تركته خطيبته الشقراء، هل خوفًا من مستقبله المجهول والمحفوف بالمخاطر!

أم أن الحادث كشف لها هشاشة رابطة لم تكن قوية بما يكفي،

أو لأنه تغير تمامًا؟ لا أعلم!

ولكن الذي أعرفه إنه لم يعد أمير السابق، انزوى على نفسه بعد أن واجه

الموت.

وصدق (توفيق الحكيم) حين قال (الموت أفضل نصيحة)، فهذا القرب من الفناء أحدث انقلابًا جوهريًا في سلوك عمي الظاهري والباطني، بعد أن أدرك قصر الحياة، وبأن يديه محاسبة، وأن الدنيا بإغوائها لا تستحق أن يستغرق فيها كل هذا الاستغراق والهيام، فما هي إلا جيفة تلهث خلفها الكلاب كما يقولون.

ولا أحسب الانطواء وحالة الحزن التي اكتسى بها إلا سببًا أساسيًا في استئناسه بصحبتي، فكما يصف ضحكتي أحيانًا بأنها تبعث فيه اطمئنانًا من الجنة، وكأنه بعطفه وحنانه علي يُغيب ويُصمت سياط ضميره الذي طالما عذبه بسبب ماضيه المبعثر.

وإشهارًا لراية التوبة، قطع على نفسه عهدًا بأنه لن يستمر في عبثه مع النساء، وسيكون جادًا ويأتي البيوت من أبوابها إذا ما صادف فتاة تفي بطموحه.

٢٣

عنق الزجاجة

مرت ساعات رحلة الطيران الطويلة التي تزيد عن سبع ساعات وأنا شبه غائبة عن الوعي لفرط حزني، لا أتذكر جيدًا كيف وصلنا إلى الفندق! ولكن أتذكر أن سامي ورغم فظاظتي معه قد تعامل معي ببعض الإنسانية وساعدني بإجراءات المطار المعقدة لاسيما مع صعوبة التعامل مع الموظفين في مطار بكين لعدم اتقان بعضهم اللغة الإنجليزية وساعدني في نقل أمتعتي، فيبقى الرجل الخليجي شهمًا في ظروف الاغتراب، وإن كان سيئًا.

وصلنا الفندق، كانت قاعة استقبال الفندق ضخمة ويسودها الصمت، أكمل سامي إجراءات دخولي فشكرته، ولكن لم أعتذر منه عما بدر مني، وما إن ولجت غرفتي ارتميت بدوامة الوحشة والغربة.

جلست على السرير وأخرجت هاتفي لأضبط إعدادات الانترنت وأشهد على جفاء زوجي، وما زادني ذلك إلا قهرًا وكمدًا، ورحت أتساءل كيف لم يرسل حتى رسالة واحدة ليطمئن على وصولي لهذه البلد البعيدة.

بكيت كثيرًا ورميت بالهاتف على الجدار وتحطم..

نهضت وغرقت في حمامٍ دافئ امتزج طويلًا بدموعي، ارتديت بجامتي ورحت أرتعد من البرد وبذل الدموع واستترت بمعطفٍ دافئ ثم غرقتُ في سباتٍ طويل..

ستيقظت مفزوعة جراء الظلام الدامس الذي احتل الغرفة، وطرقات خفيفة على الباب: سيدة ليلى.

نهضت وسحبت خماري وألقيت به على رأسي كيفما اتفق وفتحت الباب بحذر، كانت إحدى عضوات الفريق المنظم ترغب في الاطمئنان علي، لاسيما وأنني لم أتواصل معهم أبدًا منذ وصولي، قالت بعدما تمعنت وجهي جيدًا

- هل أنت بخير؟ تبدين مريضة، أنفك كحبة كرز حمراء على كعكة فانيلا.

قالت جملتها مداعبة، فابتسمتُ بوهن

- واقعًا أشعر بأنني مازلت متعبة، البرنامج التدريبي يبدأ غدًا صباحًا.. أخشى..

قاطعتني باهتمام: «لا.. لا، اهتمي بصحتك.. غدًا خذي قسطًا من الراحة، ومتى ما شعرت بأنك بخير انضمي معنا..»

شكرتها بصوتي المبحوح بعد أن ألحت على مساعدتي إن كنت بحاجة إلى أي خدمة، ودعتها وانتصبت أمام المرآة الساكنة على أبواب الخزانة أتفحص وجهي المرهق وأنفي الداكن من شدة البكاء، فتحت ستائر النافذة لأشاهد المساء قد انسدل على الإطلالة الخلابة التي لم تشدني أبدًا، انتبهت لهاتفي المحطم وشعرت بأيدي الوحدة تمزقني مرة أخرى فهويت على الأرض أرويها بدموعي ونمت حيثما هويت.

ومع خيوط الصباح التي تراقصت على وجهي، نهضتُ بثاقل، ودوارٌ عاصف يجتاحني من رأسي حتى أخمصي، تلمّستُ الجدار بيدٍ مرتجفة، وسرتُ ببطء نحو الباب، أجرّ خطواتي كأنني أمشي في ضباب.

فتحتُ الباب، وغيومٌ سوداء خفية تجوب أمام ناظري، تتراقص عند الحواف.

كأشباحٍ صامتة، ولحسن حظي، كان أحدهم قد خرج تَوًّا من الغرفة المجاورة: شاب فارع الطول، يرتدي قميصًا قطنيًا فاتحًا وبنطال جينز، استوقفته بصوتٍ واهنٍ، أحاول مقاومة السقوط:

- Please, help me

استدار.. كانت صدمة!

حسبتُ أنني أهذي..أتخيل.. تداخل الوهم بالحقيقة حتى لم أعد أرى بوضوح.

إنه أنتَ!

أسرعتَ ناحيتي كالملاك، التقطتني قبل أن أهوِي فاقدة الوعي، وفي لحظةٍ خاطفة، بين غيبوبةٍ وصحو، فتحتُ عيني لأرى وجهك.. وجهك القريب وعطرك الزاكي يلفّني، فتمتمتُ بضعف:

- هل.. هل متُّ الآن؟ هل هذه الجنة؟

لم تكن تعي كلماتي، فقد كنتَ منشغلًا بمساعدتي، ممسكًا بي بحذر وحرص، أفقتُ بعد لحظات، فوجدتني مستلقية على أريكة خضراء وثيرة في الممر المؤدي لغرفنا. رفعتُ رأسي بتثاقل، أحدق من حولي بعينين مرهقتين، هامسة: أين أنا؟

جئتني مسرعًا تحمل قنينة ماء: اشربي، هل أنتِ بخير؟

تناولتُ القنينة من يدك بيدٍ مرتعشة، وأنا أترنّح على حافة الوعي..

رشفتُ القليل، وما هي إلا لحظات حتى أقبل عامل خدمة الغرف، ترافقه

زميلته، وكلاهما ينظر إليّ بوجلٍ ظاهر:

- هل تناولتِ إفطارك؟ ربما قد انخفض ضغطك.

قلتَ بقلقٍ ظاهر، فرفعتُ إليكَ نظري بصمتٍ مطبق، تمامًا هذا ما يحدث عندما أمتنع عن تناول الطعام، تذكّرتُ حينها أنني لم أتناول شيئًا منذ يومين، عدا الماء.. فجوع قلبي كان أشد، أشبعَ جوع معدتي بالكمد، حتى ما عدتُ أشتهي سوى الدموع. لحظتَ شرودي، فبادرتَ بنبرةٍ حانية، يملؤها الإلحاح:

- هيا ستساعدك الموظفة في السير لقاعة المطعم، وأنا .. سأكون معك.

دخلنا قاعة المطعم بخطواتٍ بطيئة، وكأننا نعبر بوابة لعالم آخر..

استقبلتنا موظفة الاستقبال بابتسامة دافئة، وقدمت لنا شاي الياسمين الساخن، تفوح منه رائحة زكية تهدئ الأعصاب..

قاعة المطعم كانت تحفة بطراز صيني كلاسيكي؛ الجدران الخشبية المزخرفة بنقوش التنين تتناغم مع الفوانيس الحمراء المعلقة، تنشر ضوءًا دافئًا يضفي أجواءً ملكية، بينما النوافذ الكبيرة تطل على حديقة تتوسطها بركة ماء كبيرة، وجسر خشبي أحمر يمتد فوقها، محاطًا بأشجار الصفصاف التي تتراقص أغصانها مع نسيم الصباح.

ساعدتني الموظفة على الجلوس، مبالغةً في إظهار اهتمامها، وتأكدت بلطف أنني بخير قبل أن تنصرف، بعد أن اطمأنت إلى أنكَ بجانبي تقدم لي الرعاية اللازمة..

في تلك اللحظات السريعة، شعرتُ أنك تنقلتَ بخفةٍ بين أركان البوفيه، وعدتَ محملًا بكل ما يمكن أن يُرضي ذائقتي التي تجهل ما يعجبها..

الأومليت الذهبي الساخن، الكرواسون الفرنسي الهش، البانكيك المزين بالعسل والتوت، الخبز المحمص مع الزبدة والمربى، وأصناف الأجبان التي لا تُعد ولا تُحصى. وضعتَ الأطباق أمامي بترتيبٍ مدروس، مع كوبٍ من عصير البرتقال الطازج.

أخذتُ لقيماتٍ صغيرة، أتناولها بآليةٍ باردة، كأنني أُطعم جسدًا غريبًا عني، كان وعيي مشتتًا، يتأرجح بين إرهاقٍ ثقيل..همومٍ معلقة في صدري، ونورك الذي يُحيطني بهدوءٍ.

بعد رشفةٍ من العصير، انتبهتُ إلى أنك لا تزال واقفًا أمام الطاولة متحيرًا أو متحرجًا، لا أعلم، ولم أجرؤ واقعًا على دعوتك للجلوس حتى بادرتَ بصوتك الرقيق:

- كيف أصبحتِ الآن؟

شكرتُك بصوتٍ خافت، ثم قلتُ متظاهرةً بخيانة ذاكرتي، أحاول انتشالنا من وقع الصدفة إلى مجاملةٍ معتادة:

- اسمكَ .. آه.. فؤاد؟ وكنتَ معي بالجامعة! أليس كذلك!

ضحكتَ، وحاولت مراوغتي، تردُّ المجاملة بمثلها، وكأنك تخشى الاعتراف بما في يمور بالقلب: «بلى، صحيح الآن تذكرت أنني أيضًا أعرفك.. اسمك.. لأتذكر قليلًا.. إذا لم يخب ظني.. ليلى؟؟»

هززتُ رأسي، خجلًا، وأشحتُ بعيني سريعًا.

ثم تداركتُ موقفي بعد أنِ طال وقوفك: « تفضل .. اجلس.»

أسرعتَ بإحضار طبقك بعد أن زودته بطعامٍ قليل، ورغم الحالة النفسية

والجسدية المُمزقة التي كنتُ عليها إلا إن الفضول يمزقني لأعرف سبب وجودك هنا!

كنتُ أتفحصكَ كلما نهضت أو انشغلت بطعامك، وأخفض بصري كلما التقت عيوننا أثناء الحديث، وقبل أن أبادر أنا بسؤالي قلتَ متعجبًا من ترتيب القدر الذي جمعنا:

- لابد وإنكِ هنا ضمن البرنامج التدريبي!

هززتُ رأسي إيجابًا وحسبتك أيضًا ضمن الملتحقين بالبرنامج، فأردفتُ:

- وأنت الآن في أي هيئة تعمل؟

وبابتسامة واثقة قلتَ: «كنتُ اختصاصي تربية خاصة في وزارة التربية والتعليم، لكن كثرة انشغالي بمشروعي الخاص، لا سيما بعد حصولي على الدكتوراه، لم تترك لي متسعًا من الوقت. اضطررتُ لتقديم استقالتي لأتفرغ لمؤسستي «ارتقاء»، وهي مركز علاجي وتعليمي يُعنى بذوي الاحتياجات الخاصة، ويقدّم لهم خدمات متعددة.»

- ما شاء الله .. أبهرتني، مؤسسة ارتقاء غنية عن التعريف، وأنتَ بهذا العمر!

ضحكتَ متعجبًا وعلّقتَ بنبرة ودودة: يبدو أن لكِ اهتمامًا بالتربية الخاصة!

شعرتُ بالإحراج فأنا أرغب في سؤالك بشغف عن ابني يوسف، ولكن لا أتجاسر على ذلك، فهو أمرٌ يفضح هشاشتي، وشعورٌ بالنقص يلازمني.

رحتَ تسألني بين فينة وأخرى إن كنتُ بحاجة لأي شيء، فجأة وصلتك رسالة على الهاتف وتغيرت تعابيرك وقلت: «يبدو أن زملاءك قد عادوا مبكرًا!»

نهضتَ بسرعة معتذرًا، والأهم مبتعدًا عن طاولتي وخرجتَ من القاعة.

بعد لحظات جاء عددٌ من فريق المتدربين من بينهم سامي وزميلتي في العمل نسرين بأناقتها المعهودة، كانت ترتدي خمارًا أسودًا يكشف شعرها أكثر مما يستره ومعطفًا راقيًا يمتزج بالأبيض والأسود، فنحن هنا لا نرتدي العباءات المعهودة، وضمختْ وجهها بالمكياج الصارخ.

توجه معظم الوفد لركن الشاي والقهوة، وانتبه لي سامي من بعيد وأقبل مع نسرين نحوي، عانقتني بترحيب زائف وتساءلتْ بعد أن تقصتِ عن صحتي وأخباري:

- أراكِ وحدكِ؟! أين زوجكِ الذي يحب النوم؟ هل ما يزال نائمًا؟!

ضحكتْ باستفزاز، فجاملتها بضحكة فارغة، اللئيمة لمْ تنسَ ذلك اليوم عندما رأته نائمًا بالسيارة، ثم هززتُ رأسي بتحرج بذريعتي المألوفة:

- للأسف، لم يتمكن من مرافقتي بسبب ظروف عمله، آه... انتهى برنامج اليوم بسرعة؟
- نعم، كان مجرد تعارف اليوم، وسنخرج بعد قليل في رحلة استكشافية.. تبدين متعبة.

كانت المشاعر الجافة بيننا متبادلة، شملتْ ملابسي بنظرة سريعة متعجبة، فأنا أرتدي بجاما زهرية بأكمام طويلة أسفل المعطف الأسود الطويل، نظرات الازدراء التي شعتْ من عينيها الكحيلتين أجبرتني على الانتباه لملابسي وكيف لي أن أخرج بها من الغرفة!

حمدت الله لأنني كنت أشعر بالبرد الليلة الماضية فارتديت المعطف أثناء

النوم على الأرض، وإلا كنتُ ارتميت خارج الغرفة ببيجاما النوم فقط.

قال سامي مشجعًا وهو يشيح بطرفه لجهة أخرى:

- يمكنك مرافقتنا، سننصرف بعد نصف ساعة، سنزور بعض المعالم الثقافية في مقاطعة (تشاويانغ) لنتعرف على الثقافة الصينية.

شعرتُ بتثاقلٍ ووهن، ولكنني خشيت من الاستمرار في عزلتي بالغرفة، فأسرعت أغتسل بماء دافئ لم يخل من نزف دموعي كلما تذكرت (محمد) وتشاغلت عن أفكاري المؤذية بتزييني، ارتديتُ طقمًا رياضيًا زيتيًا، ورتبتُ خماري بأناقة وأنا أنظر للهاتف مرميًا على الأرض وقد تهشمت شاشته وتعطل، أشحتُ بوجهي وعاهدت نفسي على هجر الهاتف لأنه سيجرني لقوقعة الاكتئاب مرة أخرى..

نزلتُ لقاعة الاستقبال في الفندق، كان معظم أفراد الفريق متواجدين، بعضهم يجلس في المقاعد قرب النوافذ الضخمة المطلة على الشارع، والبعض يحتسي كوبًا من القهوة، وآخرون يقفون في مجموعة يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون بصوتٍ عالٍ.

بادر رئيس الفريق المنظم للدورة الدكتور (ياسر الأمجد) باستقبالي وتعريف الآخرين بي:

- أهلا وسهلًا سيدة ليلى، كيف حالك الآن؟

هززت رأسي إيجابًا وشكرته على لطفه، عرفني على أعضاء الفريق فردًا فردًا، كان عددنا ما يقارب العشرين شخصًا يرافق بعض النساء منهن زوج أو أخ، وآخر أفراد الفريق انضمامًا إلينا كانا سامي ونسرين، خرجا توًا من قاعة

المطعم، فعلّق الدكتور حازم مبتسمًا:

- وأعتقد بأنك تعرفين سامي ونسرين.

ضحكنا معًا، ورحت ألتفتُ باحثة عنك لأعرف سبب وجودك هنا، وماهي سوى لحظات حتى خرجتَ من المصعد بعد أن غيرت ملابسك وارتديت قميصًا رسميًا كحليّ اللون بأكمام طويلة قد طويتها لربع ساعدك فشعت الساعة الأنيقة بنورها على معصمك، وبنطالًا أسود، كانت طلتك كنجمٍ سينمائي تخمد الأنفاس، حضورك يجبر الجميع على الالتفات إليك.

رحب بك الدكتور ياسر معرفًا بك:

- أهلا دكتور فؤاد، بالطبع كان شرفًا لنا التعرف إليك..

هززتَ رأسك بتواضع، وابتسامتك الساحرة لا تنطفئ من شفتيك، وأقبلتْ نسرين بكل دلال والتصقت بك، فاستطرد الدكتور ياسر:

- طبعًا الدكتور فؤاد زوج السيدة نسرين وأسعدنا جدًا انضمامه معنا، وتخصصه تعليم ورعاية ذوي الاحتياجات الخاصة.

هوى قلبي من هولِ الصدمة! وجمتُ غير مصدقة!

نسرين زميلتي في العمل منذ خمس سنوات هي زوجتك! كيف حدث ذلك!

وكيف لم أعلم مسبقًا ونحن في بيئة عملٍ واحدة!

لن أبالغ وأقول أننا صديقات، فلسنا كذلك، فهي بطبيعتها غامضة، ولا يوجد أي انسجام بيننا، فكلما اجتمعنا اشتبكنا لأسباب تافهة، حتى أصبحنا نتحاشى بعضنا.. ولكن تبقى هذه الصدفة غير متوقعة!

خرجنا كسربٍ منظم وصعدنا الحافلة التي ستقلنا إلى مقاطعة (تشاويانغ) وتحديدًا إلى معبد (لاما) العريق، حيث تملأ الأجواء رائحة البخور، ويتردد صدى التراتيل في زواياه المزخرفة.

كانت ذراع نسرين تلتف حول ذراعكَ طوال فترة التجوال في ممشى السوق التقليدي القريب، حيث تنتشر الأكشاك المضيئة بالفوانيس الحمراء، وتعج الأجواء بأصوات الباعة وروائح الشاي والياسمين، تشعرُ بالبرد فتدفئها بعناقك دون اهتمام بآراء الآخرين ونظراتهم، تسر لها بأحاديث فتضحك هي بغنج، وكأنكما حديثا الزواج، محاطان بهالة من الحميمية التي تثير انتباه الجميع.

غبطتها وربما حسدتها لفوزها بك..

وهي أيضًا لم تكن فتاة عادية، بل كانت جميلة ممشوقة القد، ولكنها تبالغ في التبرج، مظهرها ينبئ بمدى انفتاحك وعدم تشددك من الناحية الدينية، وكأنك فارس الأحلام الذي رسمته بمخيلتي قبل زواجي..

عمّقت المقارنة بينك وبين محمد والتزامه وقيوده المجتمعية، فحتى مجرد الإمساك بيدي أمام الناس، في عُرفه، خروجٌ عن اللائق.

جلسنا جميعًا بعد أن انتهينا من جولاتنا في الأسواق القريبة من المعبد، وتناولنا وجبة الغداء في مطعم آسيوي بإطلالة خارجية تكشف عن الطقس الغائم وما يجود به علينا من قطرات شبه محسوسة من المطر.

كنت مغرمة بهذا الطقس، رغم ذلك.. لم أستشعر حلاوته، أنظر في وجوه الجميع وأرى انغماسهم بألوان السعادة، وأنا منكفئة في ظلامي، أفكر بزوجي فأغالب انفلات دمعتي، وأعاصير الروح.

أتذكر أن قلبي قد مال إليك بعد تلك اللحظة، عندما كنتَ تضحك مع أحد أفراد المجموعة ضحكة صافية.. همستْ في أذني المرشدة السياحية التي تجلس بقربي باللغة الانجليزية، كانت من أصل صيني بثقافة أمريكية، متقدمة في السن ولكنها ذات طابعٍ فكاهي:

- ما أوسم هذا الشاب وأجمل ضحكته، تُبدد هموم الدنيا.

عبارتها أجبرتني على الالتفات إليك، وإمعان النظر فيك، وربما لأول مرة في حياتي أطيل النظر لرجلٍ غير محمد!

شعرتُ أنني كلما نظرت إليك هربتُ من مشاعري المؤلمة..

عاد بي شريط الذكريات لأيامنا الجامعية، وكيف كانت لقاءاتنا بعد موضوع الرسالة الأولى وحادثة زواجي المفاجئ، واجتماعاتنا السرية بعد المحاضرات، ولا أعرف بعدها كيف اختفيتَ من صفحاتي اليومية فجأة، وكأنك تسللت منها بهدوءٍ تام كما دخلت فيها بهدوء.. ولم أعد أراك.

عذرًا لو أخبرتك أنني لم ألحظ غيابك في تلك الفترة، ولكنك تركت في نفسي فضولًا في طريقة انسحابك المبهمة، فأنا لم أخبرك أبدا بارتباطي.. وجعلتُ سفينتنا تسير كما سيرها الزمن..

وفي إحدى المرات ربما كنتُ في سنتي الجامعية الثالثة، أجلس مع صديقتي (مريم) عند مكتب أحد الأساتذة بممر الكلية الضيق، ورائحة القهوة لا تغيب عن معانقة عبق الكتب ورائحة الورق، فجأة فُتح باب المكتب وخرج الأستاذ برفقته شاب يخطف الأنظار، والأستاذ يشيد به ويبارك له انتظامه ببرنامج الماجستير، فلم تتمالك مريم نفسها فهمهمت:

- من هذا؟ وسيم كالطلقة!

وبينما كان الشاب يودّع الأستاذ ويبدأ بالابتعاد عنه، تفاجأتُ بخطة مجنونة منها، ربما استلهمتها من أحد المسلسلات التي لا تنفك تشاهدها، أخرجتْ مجموعةً من الأوراق من ملفِّها، ورمتْ بها على الأرض بتلقائية مُتقَنة، لتظهر وكأنها سقطتْ منها سهوًا، ثم انحنتْ بسرعة لتلتقطَها في سباقٍ مع الزمن، لم يتردد الشاب لحظة، واستجاب لمصيدتها، انحنى بنبلٍ على ركبته بجانبها يلملم معها الأوراق في صمت، وهي تُطلق سيلًا من الاعتذارات المُفعمة بالدلال، وكأنها تُدير مشهدًا من فيلمٍ رومانسيّ..

وفجأةً، التفتَ الشاب نحوي أنا!

نظرَ بعينين تفيضان بالثقة والهدوء، ثم مدَّ الأوراق إليّ بابتسامةٍ خفيفة وقال:

- تفضلي..

وسط دهشتي التي أخرستني، لم أفهمْ لمَ اختارَ أنْ يُسلمني أنا- الجالسة على المقعد خارج زاوية المشهد الرومانسي الذي صممته مريم - بدلًا من تسليم الأوراق إليها وهي تجمعُها بجوارهِ على الأرض!

كأنما أرادَ أن يُربك كل التوقعات، نظرتُ إليه طويلًا محاولةً فكّ شيفرة هذا التصرف وهذا الوجه المألوف جدًا، فأدركتُ بعد لحظات بأنه.. أنت، ولكن بنسختك الجديدة!

وبالتغير الجذري في مظهرك، أين اختفت النظارات! والشعر الطويل العاثر بالزيوت الدبقة قد حُلق وهُذب في حرية تقييد! والذقن الحليقة قد نبتت بكثافة متلائمة مع ملامح وجهك فأبرزت جاذبيتها الرجولية، وبنيتك امتلأت

وبدا جسدك متناسقًا بعد أن كان نحيلًا، فانسجم مع الطول الفارع بتناغم، أما الملابس فقمة في الأناقة والحداثة، وكأنك مزقتَ ذاك الجسد وخرجتَ منه بشخصٍ آخر لا صلة بينهما.

طال صمتي، وتوقف الزمن في تلك اللحظة، ولم أعد قادرة على تحريك ساكن، كانت الأوراق لا تزال معلقة بين أصابعك، كجسرٍ يربط بين ماضينا الهش ومستقبلنا الغامض..

لم أفق إلا عندما مدت مريم يدها بسرعةٍ غاضبة، منتزعةً الأوراق من قبضتك، وكأنها تحاول استعادة شيءٍ ينست من تكرار فقدانه، وأنتَ كنتَ لغزًا محيرًا، هل حقًا لم تلحظ وجودها!

أو إنك تعمدتَ الإسراف في تجاهلها! فلم تلتفت إليها، ولم تمنحها حتى نظرةً عابرةً..

نهضتَ بسلاسة، دون أن تتفوه بكلمة اعتذارٍ تجاهها، كانت خطواتك واثقة، وكأنك تمشي على إيقاعٍ لا تسمعه إلا أنت، ومضيتَ باختيال، كأنما الأرض نفسها تنحني تحت قدميك..

تركتنا خلفك في حيرةٍ لم تنجلِ على خير.

مريم صديقتي التي عرفتها منذ أول يومٍ لنا بالجامعة، لم أعهدها إلا ضاحكة مرحة، لأول مرة أراها كبركانٍ امتلأ حتى انفجر في وجهي، لم أستطع فهمها، كيف حوّلتْ غضبَها من تجاهلكَ لها إلى حممٍ تدفعها تجاهي، لملمتْ حاجياتها من الأرض والمقعد بسرعة، ومضت وكأنها تحملُ عالماً من الحزن على كتفيها..

لم أستطع حتى أن أستجمع أفكاري لأخبرها بأنك (فؤاد) زميلنا الذي عرفناه قبل سنواتٍ وكنا نتسلى بالسخرية منه، هي على الأرجحِ لم تتذكرَكَ كما أتذكرَكَ أنا، فأنا التي كنتَ تهيم بعشقها.

تبعتها بخطواتٍ سريعةٍ، كانت دموعُها حبيسة برموشها، سألتها متعجبة من تصرفها وانصرافها قبل دخول المحاضرة الأخيرة، فصاحت بي:

- اتركيني وشأني .. ضقت ذرعًا بك .. تتعمدين إثارة إعجاب كل من يعجبني..

- أنا؟؟ هل جننتِ؟! أنا متزوجة! ما هذا الكلام البشع!!

وبحنقٍ طال كتمه: «نعم .. متزوجة ولا ترتدين خاتم الزواج لماذا؟؟ حتى توقعي بجميع الشباب!!»

رغبت في صفعها وشد خمارها، ولكن رغبتي في أن تتقيأ ما بداخلها من غلٍ أجبرني على الصمت، أردفتْ وهي تبكي بيأس عندما شهدت صمتي وهدوئي:

- كلما أعجبني شاب سلبته مني.. ينظرون إليكِ ثم لا يبعدون ناظريهم عنك لقد تعبت من مرافقتك.

كلماتُها كانت كالصاعقة التي فجرتْ كلّ ما كنتُ أظنُّه عن صداقتنا!

كيف تنظرُ إليّ صديقتي بهذه الطريقة؟!

حاولتُ تهدئة الموقف، وأخبرتها أن ذلك الشاب ليس سوى فؤاد، زميلنا القديم، بُهتت وامتقع لونها من هول الصدمة، وصمتتْ لوهلة، ثم انفجرتْ في بكاءٍ غريب، وكأنها تُطلقُ كلّ ما عشعش في داخلها، وبدأت تُبرر بأنها لا تقصد فؤادًا فقط، بل شبابًا آخرين أيضًا:

- هل تعلمين كم شابًا أعجبني وقصدني ليسألني عنكِ أنتِ!! يسأل إن كنتِ مرتبطة!! وكأنني مساعدتك أو مديرة أعمالك!!

أشعرتني أنني السد الذي يمنع عنها ماء الحياة، وشيئًا فشيئًا بدأت علاقتي بها تبرد، حتى صارتْ طرقُنا متفرقة تمامًا مع عامنا الأخير، وكأن صداقتنا كانت مجرد فصل من فصولِ الجامعة.

نعم كنتُ محط انتباه مختلف الأصناف من الشباب، ولكنني لم أكن أبادلهم الاهتمام أو النظرات البتة، وإن كان شعور الزهو والفخر بداخلي يروي عطشي وجوعي للحب، وكأن تلك النظرات المعجبة تذكي ذاك الشعور لدي بأنني محبوبة..

لم يكن ما قذفته مريم في وجهي من كلمات مجرد اتهام عابر في لحظة غضب، بل سكينًا مزقت حجابًا اختبأتُ خلفه!

حقيقة أخجل من الاعتراف بها حتى لنفسي!

فأنا حقًا لم أتقيد بارتداء خاتم الزواج حتى لا ينفض المعجبين من حولي، وإن أشعل ذلك غيظ مريم وغيرتها الحاقدة..

ولا أخفيك أنني شعرتُ في بُعدها عني مصلحتي، فهي لا تتورع عن التلصص على الرجال، فأتجاسر على فعل ذلك معها، تمامًا كهذه المرشدة الصينية بثقافتها الأمريكية والتي أرشدتني أيضًا لتأمل وسامتك، كلاهما اعتادتا على عدم غض البصر، وقياس مدى وسامة كل من يثير انتباههما، تمامًا كالرجال عندما يشجع كلٌ منهما صاحبه على منكرات مشابهة..

ولكنني لم أعتد ذلك..

كنتُ قبل هذه الرحلة نقية.. برئة البصيرة..

وقلبٌ امتلأ بحب محمد ومحمد فقط، ولو كان في صفحاتي الماضية ذنب لا يغتفر.

بينما أنا ساهمة بذكرياتي وعيناي لا تغادران سحنتك..

وجدتك تنظر لزوجتك وهي قابعة أمامك ومنشغلة في الحديث عنك، فجأة اقتنصتَ تلك اللحظة!

رفعتَ طرفك ناحيتي واصطدتَ نظراتي بطلقة سريعة من عينيك

ارتبكتْ وارتد بصري خاسئًا قتيلًا على الأرض.. خجِلًا من تمعني الطويل بك نهضتُ بارتباك وأنا أوبخ نفسي على عدم لجم نظراتي.

****

قصدتُ الجهة الأخرى من الساحات الخضراء القريبة من المطعم، وغبت بين أحضانها المتدثرة بأشجار الكاميليا الحمراء وأزهار اللوتس العريقة التي بدت كحُلُم تورد في قلب الأرض، تتراقص بتلاتها مع نسمات الهواء، كأسرارٍ هامسة تبوح بها الريح، أغصان الصفصاف تنحني برقة فوق البحيرة الصغيرة، كأيادٍ تتعانق في ودٍ أبدي، تظللني بسقفٍ حي من أوراقها المتراقصة التي تلامس السماء بانسيابية، وتحت تلك الأشجار تراكمت أوراق متساقطة، كأن الأرض قد استترت بها كسجادٍ لا يضاهى بجودته، وزادتها قطرات المطر بريقًا، حتى بدت الحديقة أشبه بمرآة للجمال الخالص، جمال يتحدث بلغة لا تُفهم إلا بالقلوب المضطرمة بالحب أو الألم

ندت مني بعض الدموع، فاستنشقتُ كمية من الهواء البارد اللطيف لأحاول

حزني، ورفعتُ وجهي ليستقي من روح المطر..

شعرتُ بالشوق الكبير لطفليّ، كم كنتُ بحاجتهما في تلك اللحظة، غمرني إحساس بالضياع، وإحراج منك، كلما فكرتُ بالموقف السخيف الذي مر منذ دقائق، ألوم محمد وأشعر بغضبي ناحيته يتأجج ككرة الثلج، يكبر ويكبر..

سمعت وقع أقدامٍ خلفي، استدرتُ مندهشة من لحاقك بي، ومسحتْ بسرعة قطرات الدموع التي امتزجت بماء المطر، فاستطردتَ:

- تبدين مشغولة البال.. هل تحتاجين لمساعدة؟

هوّن سؤالك من اضطرابي وقلتُ بإحراج: «نعم، هاتفي سقط وتهشمت شاشته، أود أن أطمئن أهلي.»

سلمتني هاتفك بلطف. فتحته لأجد صورتك تعانق ابنك الصغير في الشاشة الرئيسة، وبسرعة كتبتُ رسالة لأختي أطمئنها بوصولي سالمة وبأن هاتفي مغلق حتى لا تشعر بالقلق علي.

عدنا لغرفنا وأنا في لجة حزني، وقبل أن أخلع خماري سمعت طرقات على الباب، فتحته، كان وجهك المريح مرة أخرى، قلتَ بصوتٍ منخفض: أين هاتفك؟ وجدت محلًا قريبًا من هنا لتصليح الهواتف.

شعرتُ بالخجل وسلمتك هاتفي وأنا ألهج بشكرك.

بعد يومين..

حين كدت أختنق بوحدتي في غرفتي، خرجتُ من الفندق مساءً أسير في الشوارع القريبة من الفندق في مدينة تضج بصخب الحياة وكخرابةٍ بقلبي

المعتل.. يداهمني طيف محمد ولا يعتقني، يهاجمني بشراسة، يمزق صدري، يقتلع قلبي ويدهسه بفتور..

صرت أراه في منامي كوابيسًا وفي يقظتي خيالاً لا يبارحني، وكأن بين ذراعيه عروسًا جديدة يخبئها في الظل، يغمرها بدفئه الذي لم يعد لي.. فأتميّز قهرًا وبؤسًا..

باعني وعاملني كرخيصة لا تستحق مشاعره..

نعم مشاعره التي لم يبح بها يومًا، كم لبثتُ أترقب اعترافًا يتيمًا يزهر من شفتيه، أستجديه بصمتٍ متماسك لا يُذلّ ما تبقى من فتات كبريائي.

وحين أقنعتُ نفسي بأنني الأهم في دنياه.. محاني بطرف قلمه.

كرهت نفسي وهشاشتي بسببه.. ها هي الغيرة تنهشني من خيالاتٍ وكوابيس.. فكيف سأحتمل إن رأيتها واقعًا يواجهني!

لا، لا بدّ أن أنقذ هذا القلب المفتت، أن أحرّره من العشق السامّ، أن أقتلعه من جذوره، وألفظه بعيدًا كما تُنبذ الأشواك من الجسد.

فما عاد يشغلني سواه، وسوى أوجاع حبه المهينة التي أحكمت قبضتها على أنفاسي.

استنزف دموعي، وقضم قواي، ولا متسع بروحي للمزيد..

شعرت بأنه آن لي أن انهض..أن اتجلد، وأستردّ ما تبقّى مني. أن أكون قويّة.. أن أستغني عنه كما استغنى هو عني، لأتنفّس الحياة من جديد، بارتياح لا يثقله وجعه.

عبرتُ الشارع وعقلي مسحول بأغلاله.. دون أن أنتبه لإشارة المرور الحمراء للمشاة، كان سيكون سببًا في منيتي..

لولا .. باغتني يدك تسحبني بسرعة وأنقذتني من السيارة العابرة وأصوات أبواقها أيقظتني بعد حين..

- أعتذر، أمسكتُ بك مجبرًا..

طالعتكَ بتوتر وحياء: «بل وجب الشكر علي، كنتُ شاردة.. و..»

تعجبتُ لمرآك مرة أخرى، فقاطعتني بلطف وأنت تشير للهاتف: «هاتفكِ سليم معافى أحضرته توًا، وجدتكِ تخرجين من الفندق فلحقتكِ لأسلمك إياه.»

كنتُ خجلة جدًا من مواقفك السخية معي، وممتنة بوجودك قربي، كنتَ تملأ طاقتي كلما رأيتك، ترغمني على الانتباه إليك أكثر..

ومشاعري المؤلمة تجاه محمد تجبرني على الهروب إليك لأدحرها، وتقودني للإعجاب بك في كل مرة، فأنتَ هنا لم تصلح ما كُسر بهاتفي فقط! بل ما كُسر بقلبي أيضًا.. وتداري حبي المهشم.

أتذكر بأنني قلت لمحمد يومًا بأن (هاتفي) يعبر عن حبي..

فقبل أن تتزوج أهداني الهاتف القاني فانبعث له عشقي لشعوري بمدى اهتمامه بي، ثم في كل احتفاءٍ بذكرى زواجنا تقريبًا يهديني هاتفًا جديدًا، وكأنه يجدد معه محبتي له في كل مرة، ولكن الآن حطمتُ هذا الهاتف، وأقبلتَ أنت لترممه وترمم قلبي معه.

نعم، لم أكترث لنسرين ومشاعرها، رحت أرتقي درب الأنس بصحبتك في سريةٍ تامة، رغم علمي بمدى تعلقها وهيامها بك.

ذات مرة وقبل رحلتنا هذه كنا نجلس زميلات العمل في أجواءٍ احتفالية بـ
المرأة ومليئة بذكريات وعبق ماضينا، وحكايا الزواج، فسألتها عن زوجها م
هو؟!

فلم تحر جوابًا، فقلتُ وقد استفزني صمتها بعدما ذكرتْ أنه ارتاد جامعتي
ذاتها: «أخبريني من يكون .. أنا متأكدة أنه قد خطبني قبلك أو ربما كان
معجبًا بي وأنا رفضته.»

اتسعتْ حدقتاها وامتقع لونها: «هل تعين ما تقولين؟! مغرورة!»

وباستعلاء رحتُ أصف كيف اصطف معظم شباب الحيّ لخطبتي، وكيف ما
يبقَ في الكلية شابٌ إلا وحلم بالاقتران بي!

كنتُ أُلقي كلماتي أوزّع من خلالها صفعات ناعمة!

مطّتْ شفتها وطالعتني بازدراء

ونهضتْ تحمل كوبها وقد احمرت أوداجها ..والآن فقط عذرتها لأنها تغار
عليك كما يليق أن يُغار عليك.

٢٤

(ترنيمة الشعراء)

بعد حادثة عمي، باءت خطة أبي في مرافقة أمي بالفشل..

عصفت الرياح بسفينته قبيل الإبحار، لكنه لم يستسلم، بل حمل عزمه وقرر بعد أيام من استقرار حالة عمي وخروجه من المستشفى أن يلحق بها، اعترضت جدتي بشراسة، فهي بالكاد تذوقت طعم الراحة بعد مصالحة ولديها، ورأت في تقارب أبي وأمي مرة أخرى تهديدًا دائمًا لتلك الهدنة الهشة بين الأخوين، رغم أن أبي كان واضحًا معها حين قال بنبرة قاطعة:

- لا أنوي مسامحتها، ولا العودة لحياتنا السابقة.. ذلك مستحيل!

ثم أردف وهو يرمقها بثبات: «لكنها ما زالت أمانة.. أمانة بعهدتي، وسألحق بها لأن هذا واجبي، لا أكثر.»

كلماته لم تقنعها، نظرت إليه نظرةً نافذة وقالت باستنكار وريبة:

- أي خصام هذا الذي يصمد عندما يغلق عليكما باب غرفة واحدة؟

كانت عبارتها كفيلة بإشعال غضبه:

- حياتي الخاصة صارت مستباحة في هذا البيت، وكأننا..

توقف، ولم يُكمل. لزم الصمت ومضى، رافضًا الانجرار إلى جدالٍ محتها.

حمراء وبيضاء وصفراء، كلوحةٍ جميلة.. راقبته وهو يحيّي البعض، ثم بدأ حديثًا مع رجل مسنّ يبدو أنه أحد الشعراء الكبار.

انتبهنا جميعًا لصوت عريف الأمسية، ثم بدأت قصيدة طويلة لعمي، بصراحة، لم أفهم منها شيئًا، لكنني كنت واثقًا أنها رائعة، فالجمهور راح يصفّق بحرارة بعد كل بيت، وكأن كلماته تلامس قلوبهم بطريقة لا أدركها.

بعد أن انتهى، عاد ليجلس بجواري، وأنصتَ بكل تركيز لكل القصائد التي أُلقيت بعده، كقاضٍ في مسابقة شعرية لا يفوّت أي تفصيل، كنت أراقبه بفضول، أحاول أن أفهم ما الذي يجعله يهز رأسه إعجابًا أحيانًا، ويزم شفتيه أحيانًا أخرى.

لكن عند القصيدة الأخيرة، لاحظت شيئًا مختلفًا تمامًا..

ما إن صعدت فتاةٌ شابة إلى المسرح وبدأت تلقي قصيدتها، رأيت عمي يعقد ذراعيه، ويبتسم بطريقة لم أرها من قبل، وكأنه قد ذاب في صوتها الذي يغازل سمعه، ويردد بينه وبين نفسه: عيناكِ تلتهمان كل الوجود..

كان مأخوذًا بها تمامًا، أسرته وكبّلته بعنفوان جمالها، رغم أن قصيدتها كانت بسيطة كما قال لي لاحقًا، إلا أنه كان مفتونًا بروعة أدائها، وكأنه يسمع شعرًا بلمسة أنثوية لأول مرة.

حاول أن يشرح لي بعد ذلك عن قوة بعض القصائد وضعف غيرها، وكأنني أشاطره الفهم، لكنني لم أكن مهتمًا كثيرًا بما يقوله.. بل برصد تعابيره المختلفة..

فهي الشيء الوحيد الذي أستطيع استيعابه!

عندما ختمت الفتاة القصيدة معرفة باسمها، تفاجأ عمي لأنه صادف أن قرأ بعض المقالات لهذا الاسم! ولم يطرأ بباله أن تكون صاحبتها بهذه العقلية المتفتحة بمجال الأدب وبهذا الجمال الأخاذ!

أغلقت تلك الأمسية الشعرية أبوابها .. فنهضنا في عجلٍ وقصد عمي الفتاة، وهو يقول: «معذرة.. آنستي أو سيدتي .. «

التفتت نحوه بابتسامتها المشرقة، بدت كالشمس في كبد السماء:

- •الشاعر المتميز الأستاذ أمير .. أهلا وسهلا .. آنستك ..

ضحكنا لدماثتها وغزت عمي السعادة لأنها آنسة..

أشبع ناظريه من تملي محياها الذي بدا كزهرة متفتحة، تسقي النفس الرخاء والابتهاج، وحدثها مطوّلًا عن الشعر وعما تحب من مدارسه وشعرائه..

وأنا أنصت وأضحك إذا ضحكا وأندمج إذا استغرقا في عمق الموضوع.

أخبرته أنها أنهت دراستها الجامعية في العام الماضي، ولديها عمود أسبوعي في أحد الصحف المحلية، ولديها إصدارات قصصية، كل ذلك جذب عمي لها، فدعاها لحضور إحدى ورش العمل التي يقدمها دوريًا وستقام إحداها في الغد، للشعراء في بداية مشوارهم الأدبي ووعدها بأنه سيقدم لها كل الدعم الأدبي الذي تحتاجه.

- •أشكرَك .. ذلك من لطفك.. وسأعمل جاهدةً على ألا أفوّت هذه الفرصة.. لا تعلم كم أنا بحاجة إلى هذا الإرشاد!

لنصرفت وهي لا تزال تسيطر على تفكيره..

وكأنه ظل غارقًا فيها، حتى بعد أن اختفت عن ناظره، وبدأ يتنبأ لها بمستقبلٍ وردي، يلفّها غدًا، ويلف أيضًا من سيكون سعيد الحظ ويحظى بها، وللحظة، تمنى أن يكون هو ذلك السعيد! نظرتُ إليه عندما عبر بذلك، وغمغمت ضاحكًا:

- يبدو أن دعوة جدتي استجيبت فورًا!

ضحك وضرب على كتفي مازحًا وهو يقول: لستَ سهلًا يا يوسف.. ماكر.. ادعو لي أنت أيضًا.

كم يثير تعجّبي عمي أمير!

لا يفوّت أي فرصة، وقلبه يشبه فندقًا مفتوحًا لا يرد فتاة..

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا..

قد قطع على نفسه عهدًا بأن يعتزل العبث، وينتهج الطريق القويم، فساورني الفضول الذي ساور جدتي عندما أخبرتها بما جرى لاحقًا

(هل ستنجح هذه الدانة الثمينة في أن تكون محطته الأخيرة؟)

٢٥

بهجة المطر

بدأتْ أيام الرحلة التدريبية سوداء وأحلتها أنتَ وردية، طلبتَ مني تدوين رقم هاتفك، للتأكيد على وقوفك بجانبي عند أي حاجة، كنا خلال ذلك نلتقي بصورة رسمية وسريعة ودائمًا بعيدة عن الأعين، عدا في الأيام القليلة الأخيرة توطدت علاقتنا أكثر، حين استيقظتُ ذلك اليوم مع بزوغ الفجر وقد نلتُ قسطًا كافيًا من النوم.

فتحتُ الستائر أتملى الإطلالة الخلابة للمساحات الخضراء الممتدة خلف النافذة، وإذا بي أرى مجموعة من الصينيين كبار السن يتحركون بانسيابية متناغمة في الهواء الطلق، يمارسون تمارين غريبة أثارت فضولي، استغرق الأمر لحظات ليست قصيرة لأحفظ اسمها.. نعم! (تاي تشي)! لا أصدق أنني ما زلت أتذكره!

وأتذكر كم بدا عليهم الاندماج التام، وكأنهم ينسابون مع الهواء نفسه، تناولني الحماس وارتديتُ طقمًا رياضيًا واسعًا فاتح اللون، ونزلتُ أشاركهم. رحبوا بي بإيماءاتهم الهادئة، كانت أمامهم سماعة تبث موسيقى تقليدية مصحوبة بتعليمات صوتية، يتبعونها بحركات انسيابية تُشبه رقصًا روحيًا.

رحتُ أحذو حذوهم في تمارينهم الغريبة، ثم جلسوا متربعين، وأطلقوا أصواتًا متناغمة، كترانيم لا أفهمها، يغلقون أعينهم ويصدرون تلك الأصوات باندماج

أنيق، أقرب إلى وضعيات الاسترخاء في اليوغا، استغرقتُ في الشهيق والزفير والتأملات الداخلية طويلًا، كمن ينفث همومه من صدره، وما إن فتحتُ عيني بعد الانتهاء، حتى وجدتك بطقمك الرياضي تجلس في الصف الأمامي استدرتَ ناحيتي وتلاقت عيوننا.. فضحكنا.

قلتَ لي: «أراكِ معنا في التمارين اليوم!»

- هل تشاركهم كل صباح؟

هززتَ رأسكَ إيجابًا: «منذ بداية الرحلة، صرت أشاركهم كل صباح قبل المشي، هكذا نتعلم من مختلف الشعوب والحضارات ما هو جديد.»

نهضنا وأكملنا تريضنا بالمشي، بينما انطلقتَ بحماسةٍ تتحدث عن الشعب الصيني، عن رصانتهم وعمقهم الثقافي، عن احترامهم الشديد للتقاليد، وعن روحهم الجماعية التي تتجلى في تعاونهم المذهل وانضباطهم في كل شيء، حتى في أبسط تفاصيل الحياة اليومية.

كنتُ أصغي بشغف، أشارك برأيي بين الحين والآخر، منتقدةً ميلهم أحيانًا للمبالغة في الانضباط والالتزام الصارم، وتأثير ذلك على راحة الفرد واستقلاليته، تارةً توافقني، وتارةً تخالفني بنقاشٍ هادئ يحمل طابع الاستمتاع.

انغمسنا في الحديث باندفاع، حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا شوطًا طويلًا من المشي وابتعدنا عن الفندق أكثر مما يجب، فجأة، انهمر المطر بغزارة كأنه يستدركنا من غفلتنا، عالقًا بين السحاب والأرض بصخب قطراته المتراقصة. لم نحمل معنا المظلات المعتادة، فقد كان الطقس سريع التقلب على الدوام،

رفعتُ كفيّ أعلى وجهي لأحميه من المطر، ونظرتُ إليك بحيرة، قائلة:

- كيف سنعود الآن؟

كنتُ قلقة من عنف المطر أن تبتل ملابسي الواسعة أكثر، وتصف ما سترته، تفاجأت بك تخلع سترتك الرياضية السوداء وتسلمني إياها لأضعها فوق رأسي لأتقي الزخات الغزيرة.. أشرتَ ناحية مقهى صغير يختبئ على يسارك بين ظلال الأشجار، وقلتَ بعينين تقاومان انهمار السماء: «ما رأيك أن نحتسي شاي الياسمين حتى يهدأ المطر؟»

هززت رأسي موافقة، وشعرت براحةٍ تغمرني حين أضفت بحماس:

- سيعجبك المكان، جربته قبل أيام.

دخلنا المقهى، وأسرعنا نجفف ملابسنا قرب المدفئة المشتعلة بنارٍ كنيران مشاعرنا المضطرمة، كانت أجواء المكان دافئة ومريحة، تفوح منها روائح الشاي الصيني العتيق ممزوجة بعبق القهوة المحمصة، الجدران الخشبية البسيطة تنبض بلمسات من الطراز الصيني التقليدي، حيث الفوانيس تتدلى برفق، والرسوم الفنية المزخرفة تحكي قصصًا من الماضي.

جلسنا بجوار نافذة مطلة على الغابة، صوت المطر العذب مع البخار المتصاعد من الكوب، امتزاجٌ حمل في طياته السكينة واستدر الذكريات الحالمة.. رحتُ أرتشف شاي الياسمين وأنا أرمق الخضار المنعش من النافذة تارة، وبكوبي تارةً، وبملامحك المتقدة تحت لمسات المطر تارة أخرى. في تلك اللحظات تبدد كل شيء..

تناسيت زوجي وزوجتك، وكنتُ كمن انفصل عن العالم، يحملني هذا المقهى

في ضفةٍ أخرى بعيدًا عن الآلام والهموم والآخرين.

قلتُ بقلق: «سيحين وقت البرنامج التدريبي وأنا عالقة هنا.»

هممتَ بالنهوض: «سأبحث قليلًا في الخارج علّي أجد حلًا»

هززتُ رأسي نفيًا: «لا..لا تتركني وحدي هنا.»

كنتُ حقًا مرتبكة، فطالعتني مطمئنًا، تابعتُ مستدركة:

- سأرسل لهم رسالة اعتذار وبأنني سأتأخر في الذهاب.

ضحكتَ وأنتَ تستحضر حديثي السابق عن صرامة المدير الصيني المكلف بإدارة البرنامج، فشاركتك الضحك، وأرسلتُ اعتذارًا لإحدى المسؤولات بفريق التدريب، في الوقت الذي أرسلتَ أنت رسالة لزوجتك تعلمها بأنك مشغول كي لا تقلق بشأنك.

رحنا نغرد في أحاديثنا كالعصافير، سألتك لأطفئ فيضان فضولي عن سبب تغير مظهرك، وكيف لم تعد فؤاد زميل الدراسة الذي عرفته.. وأين يكمن سبب هذا التغير؟

ابتسمتَ وكأن هذا السؤال وردك من كُثر:

- لا شيء يذكر واقعًا، تخرجتُ من الجامعة، ولكن الخير عندما يجيء، ينهمر بسخاء كزخات المطر هذه، فكان باب الخير الأول عندما بدأتُ بالعمل وكسب مصدر رزقي، أجريت عملية تصحيح نظر، اهتممت بطعامي أكثر.

تساءلتُ في تردد وحذر: «وما كان السر في إختيارك للملابس الواسعة؟»

ضحكتَ بمرحٍ لاستمراري بتنمري عليك فارتحتُ في إطلاق ضحكتي بأريحية.

ثم شُبِّع ردك بالجدية..

أخبرتَني أنك لم تنعم بحياة مادية مريحة منذ صغرك..

إذ كان والدك رجلًا له ثلاث زوجات، لا يدرك حتى عدد أبنائه، وربما لا يعلم أسماء بعضكم، لم يوفر لكم الحياة الكريمة التي يستحقها الأبناء، لم يكن فقيرًا بل كنزَ مالًا وخيرًا وفيرًا، حرمكم من الاستمتاع بالحياة والحب في صغركم.

رويتَ لي كيف كانتْ زوجاته، وفق النمط القديم، يعشن في كنف الطاعة المطلقة، لا يجرؤن على رفع أعينهن أمامه ناهيك عن الطلب منه، فتلك الملابس التي كنتْ أتنمر عليك بسببها كانت مما يزهد فيه بعض أقربائك، فلم ينفتح الكيس إلا بعد أن توفاه الله، تاركًا وراءه إرثًا جزيلًا غيّر مجرى حياتكم، فهطل الخير دفعةً أخرى وكان ذلك متزامنًا مع عملك في بداية مشوارك، تمكنت خلالها من مواصلة دراستك العليا والارتقاء بوضعك المادي، والتبضع من أغلى المحلات التجارية..

وبدأتَ باستثمار إرثك مع عددٍ من إخوتك في تأسيس وقيادة مشروعك الطموح «مؤسسة ارتقاء» التي أصبحتْ علامةً فارقة في مسيرتك المهنية، ولم تنسَ خلال حديثنا أن تذكر فضل نسرين في دعمك بعد زواجكما..

شعرتُ بغصةٍ أخفيتها حين ذكرتَ اسم زوجتك (نسرين)، ذكرها ألقى بظلٍ ثقيل على حديثنا، وبفضولٍ لم أتمكن من كبته، سألتك:

- كيف تعرفتما وكيف بدأ مشواركما معًا؟

ضحكتَ بحرجٍ واضح، ثم قلتَ بتهذيبٍ يشوبه الاعتذار:

- لا أستطيع الإفصاح عن ذلك، الأمر يزعج نسرين.

إجابتك تسللت إلى ذهني كوضوح الشمس، وأدركتُ بأنها هي من خطت الخطوة الأولى، كانت المبادِرة، المعجبة، وهي من رمت الصنارة لتصطادك.

- ها قد توقف المطر، هل تريدين تناول شيء قبل أن ننهض.
- رغم أنني أتضور جوعًا إلا إن الفطور الصيني لا يناسبني.

ضحكتَ مؤيدًا، نهضنا وعدنا أدراجنا نكمل خواطرنا وأحاديثنا الدافئة في طريقنا نحو الفندق.. افترقنا في غرفنا المتقابلة، ثم التقينا على فطور الفندق ثانية بهدوء وتناغم بعد أن مضى الجميع نحو مركز البحوث بجامعة بكين. كان الوقت لذيذًا، خفيفًا، تسري فيه ضحكاتنا الخافتة وسط سكون ساحر.

ولم تتركني وحدي، بل أصررتَ على مرافقتي بسيارة التاكسي حتى باب الجامعة، متأكدًا من وصولي بأمان، وكأنك تمنحني طمأنينة لم أطلبها، لكنها كانت كل ما أحتاجه.

وما أصعبها لحظات الفراق الأخيرة في المطار ثقيلةٌ على قلبي، ودعتك أنتَ ونسرين بكل شغف واهتمام، واستدرتُ لأرى نظرات سامي الماكرة تلاحقني بعدما رصدت كل تحركاتي وإيماءاتي طوال أيام الرحلة.

رفعت كفي أودع سامي مجاملة، فقد كفاني الله إزعاجه وظل بعيدًا يراقبنا على بعد أميال بعد أن ألقمته غضبي في بداية دربنا..

صعدتُ سيارة أختي مستأنسة، كانت تقرأ في وجهي علامات الارتياح والغبطة، وراحت تشكر الله الذي أذهب عن قلبي الحَزن.

حدثتها عن البرنامج وروعة الصين وتطورها وشعبها المنظم الكادِح كخلية النحل وكل ما فيها بحماسٍ عارم ..

قاطعتني خلال اندماجي بحذر: «ليالي ياحبيبتي..ألن تخبريني ما سبب الخلاف بينك وبين زوجك؟ يعقل أن يقاطعكِ كل هذه المدة لأمر بسيط؟»

لاتعلم بأنها وخزتني بأبرة، تعكّر مزاجي.. تهتُ لحظة في داخلي.. أي شجار أستحضر ليُقنعها؟ ما الذي يستحق حقًا غضبه وجفاءه؟ تذكرت خلافًا لم يكن بعيدًا جدًا، ولا يظهرني مخطئة أيضًا.. فتمسكت به: « شكوت قسوته على يوسف لوالدته، فنشب شجارًا بيننا.. ولكنني اعتذرت له مرات عديدة ولم يلين»

فتحت عينيها بدهشة: « هل أنتِ جادة! كل هذا الجفاء الطويل وتخليه عنك في رحلتك! حقًا تهشمت صورته بعيني!»

أخذتُ نفسًا ثم أشارت بسبابتها وهي تنظر للطريق وتؤلبني عليه وكأنني بحاجة لمزيد من تأجيج الضغينة ناحيته: « إياكِ أن تذلي نفسكِ له مرة أخرى.. دعيه يتجرّع صمتكِ هذه المرّة، حتى يعرف قدركِ ويأتي هو حاملاً اعتذاره على كتفيه»

- وهذا تمامًا ما سأفعله..

وضعتْ يديها على ساقي تربت بحنو: « لا تقللي من قدركِ»

شعرت بشيءٍ من الارتياح لأن هناك من يشجعني على حفظ كرامتي، وإن كنتُ بعيدة تمامًا عن الصدق معها.

وصلنا للمنزل والشوق يلتهمني لمفاجأة صغاري بعودتي، فحديثي معهم ظل مقتضبًا حتى بعد إصلاح الهاتف، إذ كان التواصل يتم فقط عبر هاتف خالتهم.. والتي عانقتني مودعة وهي تؤكد على وقوفها بجانبي

٢٦

اللقاء اللذيذ

في يوم عودة أمي من رحلتها التي بدت لنا دهرًا بأكمله..

لاح بريق غريب في عيني أبي، رغم إصراره على التظاهر بالبرود والإعراض، كأن الفرح خان قسماته، وتسلل إليها على حين غفلة منه.

رافقناه إلى السوق، واشترى لنا ثلاث قمصان قطنية رياضية، متماثلة بلونٍ أخضر داكن، من طراز التيشيرتات، فخدونا كجنود في فرقة واحدة. ثم عدنا فسرّحنا شعرنا وغلفناها بالجل اللامع، وجلسنا نحن الذكور وحدنا نخطط، كيف نفاجئ أمي؟؟ بعد أن طلب حسنٍ ذلك..

اقترحت أنا صنع كعكة بالشوكولاتة، ذلك لأن الكعك يسعدني وقد يسعدها أيضًا، ونكتب أعلاها أننا نحبها، راقت لأبي الفكرة..

حثّنا أن نُسابق الوقت، حتى يتسنى لنا مفاجأتها في المطار.

نهضنا كفرقة إنقاذ مصغّرة بملابسنا الموحدة، ننفذ المهمة الأولى وهي إعدادِ الكعكة، خلطنا المكونات كما توصي العلبة، وأدخلنا الكعكة إلى الفرنِ، بينما تولّى هو مراقبتها بنفسه عوضًا عن الخادمة، متذرّعًا بدّقته، وكأنه يرغب في بذل جهده للتشاغل عن الشوق الذي ألم به بعد غيابها الذي يُعد طويلاً..

وفي لحظة، انفتح باب المنزل، دخلت أمي كالشمس إذا بزغت بعد شتاءٍ طويل..

هرعنا إليها نحتضنها بشراهة، حتى كدت لا أعتقها من بين ذراعي، سعادتي لحظتها كانت لا تعرف حدود الوصف؛ لم أعتد أن أعانقها هكذا، رغم أنني كنت بأمسّ الحاجة لذلك.

عبرنا لها عن شوقنا، فابتسمت بسكون، بينما جاءنا صوت أبي من المدلبخ ينادي:

- الكعكة أصبحت جاهزة.

فازداد حماسنا ورحنا نقفز بفرح، وحماسنا للقائهما معًا كان أكبر، ولكن ذلك لم يدم، فقبل أن يخرج هو من المطبخ، أسرعتْ هي إلى غرفتها وأغلقت بابها بقوة كمن يهرب من ظله

خرج من المطبخ متعجبًا وهو ينظر ساعة يده: «يبدو أن وقت الطائرة تغير.» راقبها وهي تدخل بسرعة دارها بالطابق العلوي الذي تنكشف غرفه على الصالة بالطابق الرضي.

جلس، متصلّب الجسد، كأن شيئًا أثقل منه يشده إلى الأريكة، شدّه أخي بلؤم طفولي وقال بنبرة مشاغبة:

- هيا بابا، لنصعد كفريق الجند الأخضر! ماما ستضحك حين ترانا جميعًا بالقميص نفسه!

ابتسم، ولكن شيئًا خفيًا ظل يقيّده، علامات الاشتياق ليست غائبة، فضوله مشتعِل، وعيناه تراودان باب غرفتها.. لكن قدميه بقيتا ثقيلتين، يعيقهما كبرياءه كحارسٍ يمنعه. قلتُ بعفوية وعيناي على الكعكة:

- عمتي ياسمين تقول (الشكولاتة تزيد السعادة).

انطلقت ضحكته صافية، ثم مدّ يده نحو الكعكة وقطع لي منها، التهمتُها بمتعة وأنا أثني على نجاحه في صنع الكعكة، أما حسن فامتنع عن التذوق، منشغلٌ بمهمته الأسمى.. جرُّ أبي إلى الطابق العلوي، إلى قلب المعركة.

رضخ أبي أخيرًا ونهض.. صفقنا نحن الاثنان بحماس صاخب، لكن صوتها حطم أملنا حين جاءنا من الطابق العلوي، حادًا قاطعًا من غرفتها دون أن تطل علينا:

- أنا مرهقة جدًا يا صغار، هدوء من فضلكما.. سأنام.

ثم أُغلقَ البَاب بالمفتاح، لا على غرفةٍ فحسب، بل على لحظةٍ سعينا أن تكون بداية أملنا وفرحتنا، وقف أبي صامتًا، يحرك فكه ببطء، مستغرقًا بأفكاره، وكأنه بدا كغريبٍ بعد أن اعتاد على أن لا يتواجد في المنزل مع وجودها.

ثم، وكأنه تذكّر واجبًا لا يُؤجل، التقط مفاتيحه، وهشم حماسنا المتأجج عندما غادر، عائدًا إلى أعماله التي لا تنتهي.

****

في المساء..كنتُ متأهبًا لمرافقة عمي أمير إلى الورشة التي سيقدمها، ارتديتُ معطفًا قاتمًا مع بنطال جينز، واعتبرتُ نفسي في قمة الأناقة، خاصة بعد أن أثنى عمي على مظهري، طوال الطريق كان يردد بصوتٍ عذبٍ كالعندليب أبياتًا تصف تلك الفتاة التي رآها بالأمس، متحدثًا عن التحدي الذي يتسلح به بريق عينيها الأخاذتين، وعن جمال صوتها الذي يخترق أصداف القلوب، لتستكين كأميرةٍ داخلها، لا يضاهيها في ذلك سواها! أفاضتْ عليه قريحته عقدًا من الشعر يتألفُ من سبعين بيتًا كالجواهر.. يصف فيها فجر الآسرة، وعزم أن يلبسهُ مسامعها حين ينفردُ بها في هذه الأمسية، أبان الاستراحة

أو بعد ورشة العمل عندما يكون بقرب أهدابها التي بدت كقضبان سجنٍ أودعتْ عقله فيه، وأنا حائرٌ أمامه، فجدتي تلزمني أن أخبرها كل ما يجنيه ابنها، خشيةً من أن ينزلق مجددًا نحو الطريق المنحدرة.

وأخيرًا، أقبلت الفتاة بعد أن بدأ الورشة، كان يخطفها ببصره كل حين، ويهبها من الوقت ما لا يهبه غيرها، استغل الفرصة في وقت الاستراحة وجلس معها، يدردش معها حول كتاباته وحياته الأدبية الزاخرة، ولكنه لم يجرؤ على البوح بقصيدته، إلى أن ودعها على أمل لقائها في اليوم التالي.

****

مع أول إشراقة لصباح عودتها، باغتتنا أمي بفيضٍ من الهدايا التي جلبتها من الصين، ربما كانت تحاول أن تملأ صمت البعد بأشياء تُمسك، وبفيضٍ من الحنان يمر عبر العناق والكلمات.

خرجنا معها في نزهة دافئة، لكن كلما تسرّب اسم أبي إلى حواف الحديث، تقطعه كمن يخشى أن تزل قدمه في هوّة لم تُرد أن تنقذ نفسها منها مجددًا، وهي التي كانت، حتى وقت قريب، تستميت لمصالحته!

قلتُ لها، في لحظة طفولية غامضة بين الوساطة والفضول:

- ماما، أبي خبز لك كعكة بالأمس.

زمّت شفتيها بضيقٍ لا تخطئه العين، ثم تمتمت بسخرية خافتة:

- لا أريد منه شيئًا بعد الآن.

كان في نبرتها قفلٌ داخلي، شيءٌ أشبه بالخذلان حين يبرد.

في الأيام الأولى من عودتها، كنا نلاحظ كيف تحرص أن تتوارى في كل مرة يعلو فيها صوته في أرجاء المنزل
زارنا أكثر من مرة، لكن لم يحدث أن تواجها.

كانت تتفاداه بحرص، تريد أن تؤكد _ له ولنا _ أنها لم تعد ترغب حتى في مشاركته الهواء ذاته.. لكن المواجهة جاءت.. أخيرًا، دون ترتيب في ذلك اليوم

كنتُ على وشك مرافقتها إلى موعد مهمّ كانت قد أرجأته خصيصًا لأجلي، وما إن هممنا بالخروج، حتى دلف هو إلى البيت، وألقى التحية بنبرةٍ حيادية، فأجبته أنا بتحية خجولة، بينما بالغت أمي في إظهار تبرمها، تغرس بصفحتها خصامًا أقوى. ثم قالت بحدة وهي تتجه نحو الباب:

- يوسف .. أنتظرك بالسيارة.

خرجتُ وأنا ألتفت ناحيته، وعيناه عالقتان بي، لكنه لم يكن ينظر إليّ حقًا، وكأنه أدرك أن الغضب لم يعد حكرًا عليه وحده، بل اضطرم في قلبها أيضًا

كان استياؤه من تصرّفها جليًا، ولم يرَ فيها حقًا، ربما توهّم على العكس، أنها ستبادر بالصلح أو تعتذر ما إن تراه.
رفع حاجبه بتعالٍ، وفي عينيه لمعت شرارة تحدٍ جديدة، كأنه يعلن جولة أخرى من الهجر والقطيعة.. وكأن تجاهلها يستحق أن تدفع ثمنه بصمتٍ أطول.

ومنذ ذلك اليوم، نأى بنفسه عن منزلنا، لا يطأه إلا نادرًا، واكتفى بالبقاء في بيت جدّتي، حيث نراه كل يوم أنا وأخي.

****

عمي، وحكاياته التي تنافس ألف ليلة وليلة برومنسيتها، قد اختتم أخيرًا ورشة التدريب على الشعر، التي امتدت لمدة أسبوع بأكمله.

في اليوم الأخير، وبعد انتهاء عرضه، بدأ البعض يتسلل للخارج، بينما انخرط آخرون في محادثات جانبية، أما أنا، فجلستُ في زاوية غير بعيدة، أرتشف مشروبي البارد وأتناول قطعًا من الحلوى، أراقب عمي بصمت، أشاركهما الحديث دون أن أنطق بحرف، وبينما هو مستغرق في نقاشه معها، نظرت إليه الفتاة بفضول وسألته: «كم ديوانًا أصدرت؟»

ضحك عمي متفاجئًا: «بصراحة، لدي نحو ثلاثة دواوين تنتظرني في أدراجي، تنبض بالحماس ولم تبصر النور بعد. فكرة النشر تراودني منذ سنين، لكنني لم أمتلك الجرأة حتى الآن.»

- كل هذه الشهرة .. ولم تنشر أي كتاب؟؟!

- لا أرغب في إصدار ديوان عابر؛ حين أقرر نشر باكورة أعمالي، أريده أن يكون مميزًا، متفردًا، ويحمل قيمة حقيقية.. على الأقل بالنسبة لي ..

ابتسمتْ بهدوء، وطلب منها أن تسمح له بمهاتفتها، ولأنها ترددت وغمرت خديها حمرة، خشي أن ترفض قبادر راجيًا ومباغتًا كمن يسابق الزمن:

- •أريد أن أكون بطل قصتك.

أطرقت بحياء، وقد فهمت أنه ينوي الزواج منها، قالت مبتسمة ومُنبهة:

- •ولكنني طالما حذرت نفسي .. إياي والزواج من شاعر، وإن أعجبني! سيبحثُ كل يومٍ عن امرأةٍ تجدد جذوة شعره ..

ضحك لدماثتها كالعادة، ووعدها بأن تكون هي وحدها وقود شعره.

٢٧

ارتقاء

بعد عودتي من المطار، دخلتُ إلى قاعة المنزل بخطوات ترتعش من فرط السعادة والحماس والشوق لأبنائي، حتى انقضَّ عليَّ الصغيران يعانقاني بلهفة، طفرت دموع الفرح من عينيَّ لمرآهما، فقد باغتني استقبالهما الحار، إذ لم أخبرهما بموعد وصولي الذي تغير مؤخرًا، كنت أرغب في مفاجأتهما، ولكنني كنتُ أنا من تفاجأت، كانا في انتظاري بقمة الأناقة، يرتديان أقمصة رياضية متشابهة، وجمال اللحظة فاق كل توقعاتي.

لم أرَ محمد، لكنني سمعتُ صوته يتسلل من المطبخ :

- الكعكة جاهزة يا أبطال!

تعجبتُ من عبارته (فما له وإعداد الكعك!)، وحقًا كانت رائحة الكعك الزكية تتسلل في أرجاء المنزل بدهاء، كأنها تحاول استمالتي، لكنني لم أرغب في رؤيته، إذ إن غضبي منه أعظم من كل شيء.

صعدتُ إلى غرفتي بخطى متعجلة، كأنني أفرّ من شيء يطاردني.. أغلقت الباب خلفي بإحكام، وأوصيتُ الأطفال بالهدوء، ثم انسحبت من العالم.

تحمّمت بسرعة، أنزع ثقل السفر عن جسدي، ثم ألقيتُ بنفسي على السرير، لكن محمّد.. عاد يتسلّل إلى أفكاري بعد أن نجحت في طرده في الأيام الأخيرة، عاد بقوة وكأنه نُقِش في جدران رأسي.

لكنه لم يعد بشوق أو حنين، بل بثقل الغضب الذي تراكم من ذلك الخذلان، تنهدتُ وأنا أستشعر امتنانًا غريبًا لمشاعر السخط التي تملأني تجاهه، كدرعٍ يحول بيني وبين الانكسار إليه، لأواجه إعراضه بصلابة وقوة.

لن يرى بعد اليوم «ليلى» التي عرفها تستميت طلبًا لعفوه كما قالت أختي.. فأنا الآن أكثر ثقةً بذاتي، وكرامتي فوق كل اعتبار..

بل وقادرة على صنع سعادتي.. من دونه.

غرقت بأفكاري وسلّمت نفسي للنوم العميق هاربة من كل شيء.

قضيتُ الأيام التي تلت عودتي من الصين بالقرب من أبنائي، أراقبهما بعينين لا تشبعان من رؤيتهما، وكأنني أتعرف عليهما من جديد، كنتُ أعانقهما بين لحظةٍ وأخرى، أحاول تعويضهما عن غيابٍ كان طويلًا..

وبينما كنتُ أجلس بينهما خلال تلك اللحظات، توسلني حسن بصوت نقي يخفي نضجًا أكبر من عمره:

- ماما.. لا تتركينا مدة طويلة كهذه.. كنا كالأيتام بدونك..

أصابتني عبارته بمقتل، هزتني حتى الأعماق، عبارةٌ كهذه لا يفترض أن تصدر عن طفلٍ صغير، لكنها لم تكن غريبة على من نشأ تحت جناح أمٍ عرفت قسوة اليتم منذ صغرها، وجرت على لسانها مفردات اليتم مراتٍ عديدة، ضممتُه إلى صدري بقوة، ونهيته بلطف:

- لا تقل ذلك مرة أخرى.

استدرتُ إلى الجهة الأخرى، حيث كان يوسف يجلس بصمت، عيناه تائهتان في وجهي، تأملته، وسالت دموعي بصمت، ربما كنتُ أمًا جيدة لحسن، لكن

يوسف؟ عاش حقًا كاليتيم بين أبوين ضائعين، لم يعرفا كيف يؤديان دورهما تجاهه، كنتُ أراه أمامي الآن، صغيرًا لكنه ينئ تحت ثقلٍ لا يجب أن يحمله طفل.

مددتُ يدي، مسحتُ على شعره بحنان، وهمستُ لهما معًا بوعدٍ لا رجعة فيه بأنني سأكون أمًا مختلفة.. أمًا حقيقية.

وكانت أولى خطواتي في مشواري الجديد حجز موعد في مؤسسة (ارتقاء)، وبعد بضعة أيام من عودتي، والذي صادف اليوم الدراسي الأخير لأطفالي بالمدرسة.. كنت بكل حماس أستعد لمرافقة يوسف للموعد في المؤسسة. ولكنني تفاجأت بإقبال محمد الذي لم أكن مستعدة له أبدًا.. فأسرعت منصرفة ومبالغة في تجاهله.

غيظي منه في تلك اللحظة تأجج لذروته. لم تهدأ نفسي إلا حين وجدتُ نفسي قبالتكَ في تلك المؤسسة الراقية، أراقب دهشتك الطفيفة لرؤيتي برفقة ابني..

استقبلتنا بحفاوة دافئة وترحيبٍ نابضٍ بالحياة، فبدا اللقاء كامتدادٍ لحديثٍ لم ينتهِ بعد، لا أنكر أنني شعرت بسعادةٍ غامرة لرؤيتك مجددًا، بل أدركتُ حينها كم افتقدتك منذ عودتنا من الصين، وكأن المسافات لم تكن بيننا إلا استراحة مؤقتة من حديثٍ طويل.

انحنيتَ قليلًا نحو يوسف، وعبثت أناملك في شعره مداعبًا ومرحبًا، في محاولةٍ منك لكسر حاجز التوتر في صدره الصغير، ثم جاء أحد الاختصاصيين وحادثه بكل دماثة قبل أن يقوم باصطحابه لتطبيق الاختبارات التشخيصية النهائية والأكاديمية.

بقيتُ أنا برفقتك واقتنصتَ أنت الوقت لتقوم بمهمة المقابلة معي كولية أمر

للحالة الخاصة.

دخلنا إلى مكتبك الواسع، حيث تتوسطه طاولةٌ فخمةٌ عريضة، منحوتة من الخشب الفاخر، تعكس اهتمامًا بالتفاصيل، في الجهة الأمامية، طقمٌ من ثلاثة مقاعد بلونٍ أصفرٍ فاتح يسر الناظرين، ويُضفي على المكان إشراقةً مريحة، كما لو كان يبعث الطمأنينة في زوّاره دون أن يشعروا، تطل هذه الزاوية على نافذةٍ زجاجيةٍ كبيرة، تكشف الشوارع الموازية، حيث تمتدّ حركة الحياة خارج هذا المكان الهادئ، في تناقضٍ مألوف.

ما إن أخذنا مواقعنا على المقاعد الوثيرة، حتى رفعتَ سماعة الهاتف، وطلبت لنا الشاي والقهوة، مصحوبةً بحلوى فاخرة، بدت كطقس أساسي في لقاءاتك.. لم يكد المساعد يغلق الخط حتى أضفتَ طلبًا آخر(استمارات لمقابلة ولي الأمر)، للحظة، بدا ارتباكه الطفيف في صوته وتعجبه من الطلب غير المعتاد، لكنه لم يعلّق، واكتفى بإحضار الأوراق سريعًا، ووضعها أمامك بحركة سلسة، قبل أن يرمقني بابتسامة وترحيبٍ لم يخلُ من الفضول.

حاولتُ كسر الجدية التي خيمت على الأجواء، فابتسمتُ وسألتك بنبرةٍ حملت شيئًا من الدعابة، ومزيجًا من الحرج:

- هل أنت من يقابل جميع أولياء الأمور؟

ضحكتَ ثم قلت مازحًا وصادقًا: «في الواقع لم يحدث منذ زمن.»

استشعرتُ في كلماتك اهتمامًا خاصًا، لم يكن مجرد إجراء روتيني، بل شيءٌ أعمق، تريدُ أن تمنحني مساحةً لا يحصل عليها أحد. بادرتني وعيناك تحملان اهتمامًا جادًا: «هل تم تشخيصه قبلا؟ أم إنها المرة الأولى؟»

أجبتُ بتردد: «رفضتُ انضمامه لبرنامج التربية الخاصة في المدرسة.»

لم تقل شيئًا فورًا، لكنني رأيتُ في نظراتك ألف سؤالٍ لم يُطرح، فاستطردتُ بإحراج:

- لم أرغب في أن يوصم بالتخلف أو الجنون! فرفضنا أنا وأبوه ذلك.

تعجبتَ من إجابتي، ولكنك أثنيت على هذا التغير في التفكير، فأنا بدأت الخطوة الأولى في الدرب الصحيح بالبحث عن العلاج ومجيئي للمؤسسة، فالنجاح يبدأ بالتقبل أولًا وعدم الإنكار بوجود الاضطراب.

حركتَ دفة الحوار إلى اتجاهٍ آخر: «أين والد يوسف؟ لم يرافقكما؟»

سألتَ وأنت تتابع الاستمارة أمامك، تهرب بعينيك عني، فأنا لم أتحدث عن محمد طوالَ الرحلة في الصين، والفضول تجاهه بدا وكأنه يلتهمك، فأجبتُ بامتعاض وبالغت في الرد السلبي الكاذب: «هو لا يعلم أي شيء .. كل المسؤوليات على عاتقي وحدي..»

طالعتني بنظرة تأنيب وكأنك تقول (هذا من فرطتِ بي لأجله!) ولكنكَ قلتَ

- أوه .. إذن يجب أن ترغميه على الحضور في المرة المقبلة، لنوكل إليه بعض المهام ويساعدك .. دوره مهم جدًا كدورك ..

قلتُ بحزن مصطنع: «لن يقبل .. ولكن سأحاول ..»

(وسأكون صادقةً معك الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.. هو لم يكن يعلم عن حضوري، وإلا كان رافقنا بالتأكيد). تابعتَ مستفهمًا:

- أخبريني أيضًا عن تاريخ يوسف أكثر.. متى التحق برياض الأطفال..

هل كان يعاني من اضطرابات في النطق واللغة مثلاً؟

أصابني سؤالك في موضعٍ هش، شعرتُ بوخزةٍ عميقة في صدري، لكنني استجمعتُ أنفاسي وأجبتك:

- لم يتمكن من الحديث بطلاقة إلا في سن الخامسة، رغم أنه التحق برياض الأطفال في سن الثالثة. كلماته كانت شحيحة.. قليلة جدًا.. حتى إنه لم يكن يعبر عن شعوره بالألم مباشرة.

توقفتُ للحظة، أسترجع صورةً بعيدة من الذاكرة، ثم تابعتُ بصوتٍ مثقل بالندم:

- في أحد الأيام، عاد من الروضة بضحكة بريئة على شفتيه، وكأن حدثًا مهمًا قد جرى، أخبرني بسعادة طفولية أنه بكى هناك.. للمرة الأولى! قالها بفخر وبمخارج غير صحيحة، كمن يروي إنجازًا خارقًا: (بكيتُ: لا أستطيع! لا أستطيع! ولم يتمكن أحد من إسكاتي!) فتقدمتُ نحوه بحماس، فرِحة لأنه أخيرًا يحكي لي شيئًا عن يومه، ولكن ما صدمني كان سبب بكائه.. لقد بكى لأن معلمته - التي سأكبح نفسي عن وصفها - ضغطت بعنفٍ على يده الصغيرة حتى آلمته! لتجبره على الكتابة.

حتى أنتَ استنكرت الأمر!! فقلتَ باستغراب: «تجبره!! طفل في الثالثة!»

- نعم.. لم يكن قادرًا على الإمساك بالقلم، فراحت تدفعه بالقوة!! تخيل! كم ألوم نفسي على صمتي يومها. كنتُ أمًا صغيرة، لا أعرف كيف أتصرف، لا كيف أواجه، ولا كيف أحمي.. تركته هناك، يكمل أيامه في مكان لم يكن روضة، بل سجنًا مموّهًا بالألوان.. والآن، كلما رأيته يواجه صعوبة في الدراسة، أحملها في قلبي ذنبًا لا يسقط ..

أيدتني في رأيي، وعقبتَ مستنكرًا:

- ما أصعب أن يفصح الطفل عن نفسه لأول مرة بعبارة «لا أستطيع!»

توجعتُ لملاحظتك هذه، وبينتَ لي كم أن تصرفها غير مقبول في الأوساط التربوية الحالية، وأن جزاءه وخيم..

وشرعتَ في بيان وجهة نظرك حول أمر شائع تفشى في مجتمعاتنا، وهو الهوس بتعليم الأطفال الكتابة في سن مبكرة جدًا، وكأن هذه المهارة ستقرّ من بين أيديهم إن لم يتقنوها سريعًا، وأشرتَ إلى أن الدول الرائدة في مجال التعليم، كفنلندا، تتبع نهجًا مختلفًا تمامًا، إذ يُمنع منعًا باتًا تحويل مرحلة رياض الأطفال إلى بيئة للتعليم الأكاديمي الصارم، بل تُعد هذه المرحلة مساحة للعب والاكتشاف وتنمية المهارات الحياتية.

ففي فنلندا، لا يُسمح للأطفال بإمساك القلم للكتابة قبل سن السادسة أو السابعة، لأن عضلاتهم الدقيقة في هذه المرحلة قد تكون لم تنضج بعد بالشكل الكافي، وهو أمر طبيعي تمامًا، وبدلًا من إرهاقهم بمحاولات الكتابة المبكرة، يُشجَّعون على اللعب بالطين، والرمل، والتلوين بالفرشاة لا بالأقلام لأنها أكبر حجمًا، ويركزون جدًا على الاستكشاف الميداني..

مما يحفّز مهاراتهم الحركية الدقيقة ويعزز إبداعهم دون أن يمروا بتجارب فشل مبكرة تجعلهم ينفرون من التعلم.

ثم اختتمتَ حديثك الثري قائلًا: «حين نُجبر الأطفال على ما لا يتناسب مع تطورهم الطبيعي، نخاطر بأن نجعل التعليم عبئًا بدلًا من أن يكون متعة. لهذا السبب، رغم أن الأطفال الفنلنديين يبدؤون تعليمهم الأكاديمي الرسمي متأخرًا مقارنةً بغيرهم، إلا أنهم سرعان ما يتفوقون لاحقًا، لأنهم دخلوا عالم

التعلم بنفسٍ متحفزة، لا بروحٍ مثقلة بالخيبات.»

كنتُ أنصت لك بتركيز، وتساءلت بفضول: «هل زرت فنلندا!»

ابتسمتَ وقدمت لي الحلوى مرة أخرى، وارتشفتَ قليلًا من القهوة .. ونحيت ملف الأوراق جانبًا تلتقط استراحة، وأردفتَ بحماس: «نعم.. زرتها، وكم أنا معجب بالتعليم لديهم! حقًا يطبقون نهج التعليم الإيجابي.. بشتى صوره وأشكاله..»

ازداد إعجابي بك كيف رحت تسرد لي المزيد من الخبرات القيمة التي اكتسبتها من تلك التجربة الفريدة، قاطعك صوت طرقاتٍ خفيفة على الباب.. دخل مساعدك، قدّم لك بعض الملفات، فشكرته قبل أن يمضي. سألتك بفضول:

- هل أفهم أنك ضد أن يرتبط الطفل بالقراءة أيضًا بسن مبكر؟

- سؤال رائع.. على العكس تمامًا، ابني جاسم يبلغ من العمر ست سنوات، لا ينام إلا بعد أن يقرأ كل ليلة.. بالطبع، لم أجبره على تعلم القراءة في سن مبكرة، لكنني كنت أقرأ له منذ أن كان جنينًا في بطن أمه.. وعندما كان يبلغ من العمر أسابيع.

ضحكتَ ضحكة خفيفة عندما شاهدتَ ردّ فعلي واستغرابي الشديد، ثم شرحتَ لي أهمية أن نقرأ للطفل منذ الصغر، وكيف أن لها دورًا بالغ الأثر في تنمية الوصلات العصبية المسؤولة عن الذكاء، خاصة عندما يكون عمر الطفل أقل من السابعة. ثم أضفتَ بابتسامة:

- القراءة المبكرة لا أعني بها أبدًا الإجبار على تعلم الحروف والكلمات، فذلك

سيأتي تباعًا عندما يتعلق الطفل بالكتاب ويتفاعل معه، المهم هو عندما أقرأ لطفلي وأقلب معه صفحات الكتاب نتذكر بأننا نلعب لا نتعلم، وأمرر أصابعي تحت الكلمات المقروءة بصوتٍ معبر جذاب.. هذا ينمي خيال الطفل، وتتوسع مداركه، وتزيد من قدرته على التركيز والفهم، وكلما بدأنا في عمرٍ مبكر، كانت الفوائد أعمق وأطول تأثيرًا على تطوره العقلي والنفسي.

لا تدرك كم حسدتُ نسرين في تلك اللحظة، كم كان مريحًا أن يتولى الزوج مهمة تعليم الطفل! المهمة التي غالبًا ما تكون من أثقل الأعباء على كاهل الأمهات..

عدتَ تتصفح الأوراقِ أمامك، ثم سحبت الملف الخاص بيوسف مرة أخرى، واستعدتَ جديتك، قبل أن ترفع عينيك إليّ قائلًا:

- حسنًا.. السؤال التالي: «هل ليوسف أخوة؟»

أجبتُ بحماس والحب تجاه هذا الصغير يتلألأ في عيني:

- نعم، حسن .. بالصف الأول، إنه مختلف تمامًا عن أخيه، متفوق .. مبدع.. موهوب .. ذكي، كل الصفات الحسنة اجتمعت في حسن.. وكأنه اسم على مسمى..

هززتَ رأسك مؤيدًا، لكنني شعرتُ أنك تستشف من كلماتي شيئًا أعمق، تلمح تلك التفرقة التي تنضح من بين سطوري دون أن أدركها، كأنك تزن وقع كلماتي بميزانٍ خفي.. تجاه الأخوين، تابعتُ مستفهمة: «لماذا كل طفل يختلف عن الآخر؟ لم حسن لديه ذكاء عالٍ ويوسف غبي؟!»

- لالا.. ليس غبيًا.. هذه كلمة غير مقبولة في قاموسنا..

قلتَ مبتسمًا، ووعدتني بأن الأمور ستتضح بعد تطبيق الاختبارات التشخيصية ودراسة الحالة. ثم توالت أسئلتك التفصيلية بدقة منهجية، كمهمة رسمية، بينما كنتَ تستمع إلى أجوبتي بإصغاءٍ تام وتركيزٍ لافت، ولم تفوّت مداخلاتي الشخصية التي تسللت إلى الحوار بين الحين والآخر عن ابنك الوحيد جاسم، والذي لمحته على شاشة هاتفك سابقًا.

مضت المقابلة والتشخيص بسلاسة، وناولتني بعض الاستمارات السلوكية تخص ملاحظات معلمات يوسف داخل الفصل، فحمدتُ الله أنني جئتُ إليك قبل انتهاء العام الدراسي، فإجازة الهيئة الإدارية والتعليمية على الأبواب، ولم يكن هناك وقت لأضيعه.

****

في الموعد التالي، أخبرتني أنه، بناءً على نتائج الاختبارات التشخيصية النمائية والأكاديمية، تبيّن أن يوسف يعاني من صعوبات تعلم. أن أسمع هذا الكلام من مختص أمر غاية في الوجع، لم أقاوم، تحادرت دموعي أمامك وأنا أردد بجهل:

- إذن هو فعلًا مريض، ومتخلف!

لم تتغير ملامحك، ولم يَظهر فيك ما يُشعرني بالخجل مما نطقت به، بل ابتسمتَ برفق، كأنك تنتشلني من هوّةٍ سحيقة، وقلت:

«لا.. صعوبات التعلم تعني مجموعة من الاضطرابات التي تؤدي إلى التباين بين القدرات العقلية والأداء الأكاديمي للفرد، مما يظهر جليًا في بعض المجالات مثل القراءة والكتابة والحساب..أي بلغة أخرى ومفهومة، يوسف ليس متخلفًا ولا غبيًا، على العكس تمامًا، فنسبة ذكاؤه تقدر بـ (١١٩) وهي أعلى

من المتوسط بنسبة بسيطة.»

طالعتني بعينين مطمئنتين، وصوتك ينساب كالنهر:

- هذا ليس مرضًا، لأن المرض يشير إلى خلل عضوي يحتاج إلى علاج طبي. أما صعوبات التعلّم فهي اضطراب.. وهذا الاضطراب لا يعني عجزًا، بل اختلافًا في طريقة معالجة الدماغ للمعلومات. هذا الاختلاف يرتبط بالوظائف النمائية الأساسية كالإدراك والانتباه والذاكرة، وهو ما يفسّر التحديات التي يواجهها يوسف في بيئة التعلم.

ثم أضفتَ بلطف وأنت تنظر لتقريره الورقي أمامك: تظهر صعوباته بوضوح في العمليات الحسابية وفهم الأرقام، مما أدى إلى تشخيصه باضطراب (الديسكلكوليا)، إلى جانب (الديسجرافيا) الذي يمسّ قدرته على الكتابة اليدوية.

طالعتك بتعجب فالمصطلحات التي ذكرتها غريبة، فعلقتُ حائرة:

- هل تقصد عسر قراءة؟ سمعت عنه مسبقًا.

- كلا، تعنين (الديسلكسيا) العسر القرائي، يوسف لا يعاني من عسر قرائي، لديه صعوبات في القراءة نعم، ولكنها ليست شديدة، مع الدعم الذي سيقدم له هنا سيتمكن من القراءة بسرعة إن شاء الله، ولكن التحدي الأكبر لديه في عسر الحساب، وعسر كتابي كما هو واضح، فنتاجه في الكتابة اليدوية غير مقروء تقريبًا، وخطه غير منظم، الحروف تتداخل في كتابته حتى أثناء النسخ وهذا ما يطلق عليه (الديسجرافيا) طبعا المصطلحات غريبة نوعًا ما لأنها مشتقة من اللغة اليونانية، أنا أرددها أمامك فقط لتزداد ثقافتك في هذا المجال. فاطلاعكِ وإلمامك أيضًا يساهم في سرعة تطوره.

نهضتَ وجئتَ تجلس قبالتي على المقعد الجلدي، ثم تابعت بنبرة حريصة عليّ:

- كوني واثقة أنّ يوسف طفل «طبيعي» تمامًا، كل ما يحتاجه هو تفريد التعليم في البداية، واستخدام أساليب تعليمية تناسب احتياجاته وأنماط تعلمه المفضلة. فالقاعدة لدينا: «لا يوجد طفل عاجز عن التعلّم، بل توجد وسيلة تعليمية غير مناسبة لتحقيق التعلّم.»

هدأتُ وأنا أنصت إليك، وشعرت براحة كبيرة لهذه المعلومات الجديدة..

أخبرتني أن بداية يوسف المدرسية في مدرسة خاصة تنتهج اللغة الأجنبية لم تكن في مصلحته، إذ أن ازدواجية اللغة في بعض المدارس الخاصة قد تزيد من تعقيد مشكلته اللغوية بدلًا من حلها

فقد كان مضطرًا للتعامل مع الإنجليزية داخل المدرسة، بينما لغته أخرى في محيطه الاجتماعي، مما خلق لديه نوعًا من التشويش، لذا، كان نقله إلى مدرسة اعتيادية هو القرار الأكثر صوابًا لضمان تكيفه بشكل أفضل مع بيئته التعليمية والاجتماعية.

توسعت مداركي وشعرت بأملٍ كبير ليتخطى ابني هذه المرحلة بيسر..

بينتَ لي بأن الأسباب في ذلك قد تكون وراثية أو بسبب عوامل عارضة أثناء الحمل أو الولادة.

وأدركتُ أن حالة يوسف قد تعود لالتفاف الحبل السري على عنقه أبان الولادة، مما أدى إلى نقص الأوكسجين لديه وتأثيره المباشر على العمليات الكيميائية في الدماغ، كما وصفت لي.

غمرني شعور بالشفقة الممزوجة بندم مرير حين تأملت مواقفي السابقة مع يوسف، كنتُ بلا وعيٍ أدفعه نحو قمم لا تناسب تضاريسه، كمن يحاول أن يجبر النهر على تسلق الجبال الشاهقة، كنت أعيش تحت وطأة الحلم المثالي الذي تنشده كل أم، أن ترى ابنها في أعلى المراتب، محاطًا بإعجاب الآخرين.

نعم ذوي الاحتياجات الخاصة عالمٌ واسع.. كما عبرت لي

تندرج تحته العديد من الفئات، فئة ذوي الهمم على سبيل المثال، كالطفل التوحدي أو الذي يعاني من تحديات ذهنية فإنه في الغالب لن يواجَه بمعاملة والدية ضاغطة متجبرة بل سيغلب التعاطف والرأفة في تعامل المحيطين بهم، إدراكًا لحدود قدراته واحترامًا لها.

أما يوسف، بصفته واحدًا من فئة أخرى من ذوي الاحتياجات الخاصة وبالخصوص من ذوي صعوبات التعلم..

بدا وكأنه محصور في منطقة رمادية..

لا ينتمي إلى عالم ذوي الهمم الذين يحظون بالرحمة والتقدير..

ولا يُعامل كطفل عادي مستغنيًا عن الدعم الإضافي..

فئة صعوبات التعلم التي تبدو طبيعية في ظاهرها تواجه معركة غير مرئية حيث تُثقل كواهلهم التوقعات الكبيرة التي تتجاوز إمكانياتهم من المجتمع بما في ذلك الأهل، يطالبهم بما لا يُطالب به غيرهم، اعتمادًا على أنهم (أسويا غير مدركين أن هذا الضغط يخلق جدرانًا عالية من الإحباط، ويزرع بذور الفشل في نفوسهم إذا لم يتم تقديم الرعاية اللازمة لهم بشتى أشكالها.

في لحظة مواجهة صريحة مع ذاتي..

أدركتُ أن قسوتي على يوسف لم تكن سوى انعكاس لضغط داخلي من شخصية كمالية، وهم اجتماعي يتشبث بفكرة التفوق الأكاديمي كمعيار وحيد للنجاح.

آن الأوان أن أعترف بأن الرحمة والحب ليست امتيازًا يُمنح لفئة دون أخرى..

بل هي حق أصيل لكل إنسان ليجد مكانه المختلف في هذه الدنيا..

بما يملك من قدرات، وبما يحمل من أحلامٍ بسيطة قد لا تعني لنا شيئًا..

لكنها كل شيء بالنسبة له.

٢٨

القوة الكامنة

كنتُ على بُعدٍ يسيرٍ من معجزتي، نعم فلم أحسب بأن هذا المركز الجديد سيكون وطنًا صغيرًا، كحلمٍ يحملني إلى عالمٍ من الحب والأمان، فيه أنا البطل وأنا المرئيُ والمسموع.

كل ما في هذا المركز كان استثنائيًا وبالخصوص (الدكتور فؤاد)، بطلٌ آثره على ذاتي، بلطفه الذي يسبق خطواته وكلماته التي تنساب كالنهر الرقيق الهادئ يجعلني أؤمن أنني قادرٌ على ارتقاء قمم الجبال..

حين يبتسم لي بحب أشعر أن العالم بأسره يبتسم معي، وحين يطلب مني القراءة، الحروف التي كانت لا تهدأ وتتراقص أمامي، أصبحت هادئة ساكنة بل كنجومٍ تتلألأ في سماء عقلي، كان بطلًا في مخيلتي يصوغ أحلامي، ينسجها بخيوطٍ من أملٍ وحنان واهتمام بالغ، في حضوره لا أخشى معه الخطأ، فهو دائمًا يردد أمام الجميع:

- العثرات حجرٌ نرتقيه لنصل إلى القمة.

لم أكن أشعر بأنني أقضي وقتًا مملًا في التعليم، بل كان كل شيء مثيرًا وممتعًا وكأنني أستعد للانطلاق في مغامرة جديدة كل مرة.

أدخل الغرفة العلاجية الملونة بمختلف الألوان الزاهية والمحفزة، حيث تنتظرني أوراقٌ ملونة، وأقلامٌ سميكة بألوان زاهية..

وألعابٌ لم أكن أتصور يومًا أنها جزءٌ من الدرس..

يرافقني أحيانًا بعض الأطفال من ذوي صعوبات التعلم أو فئات أخرى.

نلعب باستمتاع..

نغمس أصابعنا في أوعية من الرمل الناعم ونرسم به الحروف والكلمات، كنا نضحك كلما تشكّلت الحروف تحت أناملنا ثم يمسح كل منا ما كتبه الآخر بمرح، والوقت الأجمل كان حين يأتي الاختصاصي (الأستاذ كريم) بالرغوة، ونتنافس في رسم الأشكال والكلمات كما لو كنا ننقشها على الغيوم، كانت الجلسات تختلف فأحيانًا فردية، وأشارك الأطفال الآخرين في أحيانٍ أخرى.

ولم تكن الكتابة تقتصر على الورق.

بل جرّبتها على السبورة الذكية، على المعجون الطري، وحتى على لوحٍ زجاجي شفاف، حيث كنت أراقب الحروف وهي تنساب كأنها سحرٌ بين يدي..

أمسك الملقط وألتقط به الخرز الصغير تارة،

وتارة أستخدم العجين لأشكل به أشكالًا دقيقة.

كانت ألعاب البزل أيضًا ضمن جدول الألعاب، أما الكرة المطاطية فترافق يدي أوقاتًا طويلة، دون أن أدرك أن كل هذا كان يساعدني في تقوية أصابعي وتحسين مهارة الخط لدي، وعندما أتعب، نغير النشاط مباشرة إلى القراءة، أو اللعب بالكرة، كإمساكها، أو ركلها، أو رميها باليد، أو الرأس، وألعابًا أخرى.

كل جلسة كانت تحمل مفاجأةً جديدة، كلعبةٍ ممتعة..

وفي كل مرة كنتُ أخرج من المؤسسة أشعر أنني أتحسن دون أن أدري كيف،

فقط كنتُ أعلم أنني بدأت أتمكن من الإمساك بالقلم بثبات أكبر، وكلماتي التي كانت مسمارية أصبحت أكثر وضوحًا نوعًا ما، ولم تعد الكتابة تثير خوفًا في داخلي كما كانت في السابق.

رغم انزعاجي في بداية التحاقي بها، ففي أحد أيام التشخيص الأولى جلست في زاويةٍ وأمامي مختلف الألعاب التعليمية، منشغلٌ بها وبعادتي أو ربما موهبتي في الإنصات العميق إلى كل شيء، بما في ذلك الحوار الذي يدور بصوتٍ خافت بين اختصاصي التربية الخاصة الأستاذ كريم وأمي..

كان في هذه اللحظة يسأل عن مواهبي وهواياتي ليتخذها سبيلًا لتعزيز ثقتي بنفسي، واستغلال نقاط القوة لدي في أي جانب لتتم انطلاقتي منها.

قالت بمرارة، وكنت أتألم من الداخل لحديثها:

- حاولنا يا أستاذ .. نقّبنا مِرارًا.. لا يجيد شيئًا .. أرضٌ قاحلة لا بذور لأي موهبة قد تثمر ..لا شيء في الرياضة، ولا الرسم ولا الكتابة، أنت تقول لديه ضعف تآزر عام مما يصعب حركته، وعضلاته الدقيقة لا تزال واهنة، بل لديه صعوبات في القراءة وعسر كتابي .. فيمَ سيبرع! وفوق ذلك كله، صوتهُ مزعج

...

استمرتْ في انتقادي..

كنتُ أنصتُ ومشاعرٌ من الإحباط والحزن تخيّمُ على صدري، رغم سماعي المتكرر لهذه السيمفونية التي يجب أن أكون اعتدتها، ماج الألم بصدري كأمواج بحرٍ ثائر، ولكن وصفها لصوتي (بالمزعج) ذكرني بكلمات عمي أمير عندما كان يطلب مني ترديد بعض السور القرآنية في فترة استشفائه (صوتك كديم المطر .. زدني).

بتر الاختصاصي حديث والدتي بلطف: «هل لنا بقليلٍ من الأمل .. وكثيرٌ من الحب والإيجابية .. و..»

- عمي أمير يحب صوتي ويطلب مني تلاوة بعض السّور باستمرار.

تعكر وجه أمي من عبارتي، وكأنها خشيتْ من اندلاع موضوع عمي بصورةٍ أو بأخرى، وقبل أن تنهاني عن مواصلة حديثي، انفرجت أسارير الاختصاصي وطلب مني ترديد السور التي أحفظها.

وكم كان وجهي مضرَجًا ومحرجًا!

ولكنني رحت أتلو ما أحفظه بسيطرة على مخارج الحروف وأقلد كبار القراء الذين استمعت لهم..

انبهر الاثنان بصوتي وأدائي، وأثنى الاختصاصي على صوتي كثيرًا كذلك والدتي ولكنها خشيت صعوبات القراءة التي أعاني منها، فكيف سأطور مهاراتي في القرآن الكريم!

ربت الأستاذ على كتفي وسألني:

- هل تريد يا يوسف أن تعتلي المنصات أمام الآخرين.. وتثير إعجابهم وإبهارهم!!

قلت وقد وقعت نظراتي على الأرض وعلى أمي حياءً وضحكتي المرتبكة المعهودة تعانق ثغري:

- أنا.. أريد .. ولكن .. لا أستطيع ..

تغيرت نبرة صوته فجأة، واكتسبت حزمًا:

- منذ اليوم، لا أريد أن أسمع منك «لا أستطيع».. هذه العبارة لا تليق بك يا يوسف. كلّ من بذل جهده، استطاع. وكلّ من آمن بنفسه، أدهش الدنيا. أنت تستطيع، فقط قل دائمًا: سأحاول. سأجرب. وسأنجح.

ثم أضاف وهو يضع يده على صدري برفق:

- هنا في داخلك كنزٌ لا يراه الناس بعد.. لكنك سترينني إياه، وستصبح قارئًا مميزًا للقرآن الكريم، وستفخر بنفسك يومًا ما، كما سنفخر جميعنا بك.. فقط عدني أنك لن تتوقف عن المحاولة.. خاصة وأن صوتك رائع.

هززتُ رأسي بشدة موافقًا، والسعادة آثرت التفشي على نواجذي، ولم أعلم بماذا أجيبه، فقلّما يدرك الإطراء طريقه إليّ.

****

بعد توصيات الأستاذ كريم ولقاءاته مع أبي أيضًا، تم إلحاقي بأحد المراكز لتحفيظ وتجويد القرآن الكريم، ولن أصف مقدار توتري عندما دخلت للمركز برفقة أبي للمرة الأولى، والأسوأ كان حضور أخي حسن معنا، ورغبة أبي بإدراجه أيضًا في مركز القرآن!

كنت متأكدًا بأن المعلم سيمعن في المقارنات باستمرار وسيُظلم وجهي وسأخفق مرة أخرى.

دخلنا إلى غرفة تسجيل البيانات لكي نقرأ جهرًا بعض السور القصار، ولن أصف حجم فرحتي عندما استبعد المعلم أخي من الانضمام للمركز بسبب سنه الصغير، فلا يستقبل المركز إلا من كان عمره يتجاوز الثامنة، رغم إلحاح أبي والثناء العظيم الذي نسبه لأخي، ورغم إعجاب الأستاذ بقراءته، إلا أنه

اعتذر عن ضمه ونصح أبي بمركزٍ آخر للأطفال الأصغر سنًا.

غمرتني الغبطة وحلقت في سماء العالمين، وأخيرا سأشدو في كونٍ فسيحٍ لوحدي لا ينافسني فيه حسن.

وكانت الفرحة أشدّ وأعظم حين أثنى الأستاذ على صوتي وقال مبتسمًا «خامته مميزة»، أو ربما قال ذلك ليشجعني، ولكنني صدقته..

صرتُ أتلقى الدروس القرآنية كل مساء، بينما أنضم لمركز التربية الخاصة كل صباح في الإجازة الصيفية، ويقوم الاختصاصي المسؤول عن تعليمي بداية كل حصةٍ للتدريس العلاجي للاستماع للسور الجديدة التي حفظتها، للمساهمة في تطور مهاراتي ومواهبي الشخصية.

أحببت القرآن كثيرًا رغم جزالة ألفاظه وصعوبتها، حتى بدأتُ لأول مرة في حياتي أقتني دفاتر ملونة جميلة برغبتي، وأمسك بالقلم في محاولاتٍ مستعصية لتكون مسكتي صحيحة كما علمني الاختصاصي، فقط لأكتب ما سأحفظه من سور..

أحيانًا أضع الحلقة المطاطية التي أهداني إياها الدكتور فؤاد على القلم لتصبح عملية مسك القلم أسهل، ورغم كل محاولاتي يظل خطي سيئًا مقارنة بالآخرين، لكنني أحيط بدافق عنايتي ما كتبت وأعانق دفاتري وأقبلها قبل أن أدعها تستريح قرب وسادتي كل ليلة.

كنتُ كلما زرتُ بيت جدتي، أبادر بقراءة بعض السور القرآنية بصوتٍ جهوري، رغم أنني أبادر بصعوبة، فالتوتر والخجل وثقتي المتهالكة بقدراتي تحاربني، وأسعى جاهدًا لسحقها، وكم كان ذلك يثلج صدر جدتي وتشع أساريرها فرحًا! فهي لا تكترث بمستوى التحصيل الدراسي، بقدر التحصيل الديني، كنت

أعوم بشواطئ الغبطة كلما أثنى الجميع على صوتي وقراءتي وأجاهد في كتم ابتسامة السعادة التي تكاد لا تغيب عن شفتي.

وخالتي فجر.. زوجة عمي أمير، كم تعلقتُ بها!

كانت تغمرني بحنانٍ مطلق، وتنصت لقراءتي بكل حب، وكأنها تحتضنني بكلماتها الدافئة.

زواجهما تم بسرعة كما كان يتمنى عمي، فبعد بضعة أسابيع على لقائهما، تمت الخطبة، لكن بلا عقد قران، فالتقاليد في عائلتها تختلف عن أعرافنا، إذ تكون الخطبة منفصلة عن الزواج، الذي يتم سريعًا، وهكذا لم يطل الوقت حتى اجتمعا تحت سقف واحد.

في يوم الزفاف، ارتدينا ملابسنا التقليدية (الثوب والغترة)، وزينتنا أيادي البخور والعطور.

وبينما كانت أمي تتهكم وهي تساعدنا في ارتداء ملابسنا، سمعتها تتحدث مع خالتي سعاد عبر الهاتف، بصوت لا يخلو من الغضب والخذلان:

- ألا يخجلون من عدم دعوتي؟! بالطبع لن أذهب، لكن أين الاحترام على الأقل؟! أولستُ جزءًا من هذه العائلة! تبًا لهم.. هذه سياسة أم محمد وأخته جليلة، تلك التي تبغضني بلا سبب.

كنت أصغي إلى حديثها بينما تحاول خالتي تهدئتها، غير أن كلمات خالتي عكست جهلها بالحقيقة، فلم تكن تعلم السبب العميق لهذا الصدع الذي كاد أن يمحو أمي تمامًا من لوحة العائلة.

لم نبكر في الذهاب للعرس، فأبي كان يطغى عليه الفتور، رغم إلحاح جدتي

عليه ليتعجل في دعم أخيه الوحيد.

دخلنا القاعة الواسعة التي ضمّت عرس الرجال، وأسرعتُ مع أخي لنبارك لعمي، نشق قاطرة المباركين بحماسٍ عظيم.

استقبلنا بسعادة واحتواء، وعيناه تبحثان خلفنا عن أبي.. وهذ الأخير كان على النقيض تمامًا، وكأنه أُجبر على الحضور.

اندسستُ وأخي بجوار عمي نصافح الضيوف ونرافقه كظله، لا نريد الابتعاد عنه قيد أنملة، فيما انتظم أبي بين المباركين كضيف يؤدي واجبه.

باغته خالنا الكبير (عبدالعزيز) حين جذبه من الصف ليقف إلى جوارنا لايفصله عن عمي سواي، فاستجاب بمشاعر متقشفة، وعينا عمي تلاحقانه، كأنه كان يتمنى منه عناقًا خاصًا دافئًا يذيب ما تراكم بينهما من صقيع..

لكنه لم ينله.. حتى في يومٍ كهذا.

****

حياة العريسين الجديدين بدت في سرعتها كأنها في سباق محموم مع الزمن..

حزنت على خالتي فجر، إذ لم تدم فرحتها طويلًا..

تلك السعادة التي أزهرت سريعًا في قلبها ذبلت قبل أوانها، فبعد أسابيع قليلة فقط من الزواج، تبدلت ملامحها، وخفت بريق عينيها البريئتين تحت ظلال الهم..

نعم، رفلا في البداية بأطياف النعيم، وتنعما بمذاق السعادة ونكهة الجِنان، كان عمي يهيم بجمال عينيها، يقتطف من سحرها قصائدَ ندية، ويرتشف من كؤوس الفرح حتى ظن أنه ارتوى، لكنه سرعان ما امتلأ حتى التخمة.

نشوة الحب العاصفة تلك راحت تذوي، وفقدت شذاها قبل الأوان..

لم يكن عمي شخصًا سويًا على ما يبدو، كان مزاجيًا يتغير في تعامله مع زوجته كل حين، وكأنها تستفز وجعًا داخليًا فيه لا يؤججه سواها!

في ذلك الوقت، كنت شاهدًا على كل صغيرة وكبيرة تحدث في شقتهما، أتردد عليهما كثيرًا وأمضي الليالي هناك، خاصة خلال إجازتنا الطويلة، في الغرفة التي خصصها لي عمي كعالمٍ صغير دافئ.

كنت أحظى بحنانهما وحبهما ودلالهما الدافق لي كابنهما الذي لم ينجباه، وكأن عمي لم يرغب أبدًا بإنجاب الأطفال، هل كان ذلك انعدام رغبة أم انعدام قدرة!

لا أحد يعلم، فقد كان هذا الموضوع محظورًا، حتى لو طُرح عرضًا أو مزاحًا بينهما، تشب نارًا تنتهي بأن يغلق عمي الأبواب على ذاته منزويًا، فتطلب مني خالتي فجر أن أتلو بعض الآيات القرآنية، علّ السكينة تعود، وتزول الغمامة السلبية التي كانت تخيم على المنزل.

تبرعم وصلنا

كلما امتدت المسافات بيني وبين محمد، شعرت بأن المسافة التي تفصلني عنك تكاد تتلاشى كأنها لم تكن، كنتَ حاضرًا في أفق ذاكرتي كالشمس التي لا تعرف غيابًا..

تضيء تفاصيل يومي وتسكب على لحظاتي دفء حضورك الفاره، حتى في عملي، في طريقي.. خلال تسوقي.

أجدني أرحل بخيالي إلى عوالم تعابيرك وكلماتك، أستنشق عطرها وأعيد تشكيل معانيها، أعود إلى إرشاداتك كطوق نجاة، أراجعها بلهفة الباحث عن العلاج الناجع والمتواري في سطور خفية، أنت لم تكن مجرد موجّه، بل فتحت أمامي أبواب الأمل، وأريتنا كيف نرى النور وسط العتمة.

علمتني كيف أحتضن ابني يوسف، كيف أتقبل اختلافه وصعوباته، كيف أرى في ابتسامته السرمدية التي كانت تستفزني نافذة نحو عالمه الجميل.

علمتني أن حب الأبناء ليس مجرد كلمات عابرة نكررها بآلية، بل هو احتواء حقيقي يُلغي الحواجز.. كنت تقول لي بهدوء:

- نعم، إن التعبير عن الحب وتكراره بصوره المختلفة ضرورة قصوى، وكذلك السؤال عنهم باهتمام، والإنصات العميق لما يقولون. فالدعم الحقيقي لا يكون بفرض القرارات أو التحكم بهم، بل بمنحهم القدرة، وإتاحة الفرص

لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم، وبناء استقلاليتهم، لأنها السبيل إلى غرس الثقة وتقدير الذات لديهم.

ثم استرسلتَ بتلخيص تلك التعليمات الخمس وسلمتني ملصق يحتويها وأنتَ تردد: «تقبّليه كما هو، أظهري له اهتمامك، عبّري عن حبك دائمًا، لا تتحكّمي به وأتيحي له مجال الاختيار، وقدّريه باستمرار».

لقد كنتَ كالفنان الذي يرسم لوحة الأمل، كل ضربة فرشاة منك كانت درسًا يعلمني كيف أنظر للأمومة بعين مختلفة، كيف أرى في كل تحدٍ فرصة جديدة، وكيف أستمد القوة من الحنان الفطري الذي يجب أن ينبع من داخلي بقوة، لقد غيرتني تمامًا، حتى أصبحت لغتي الحب، وسعادتي بعطائي لأبنائي.

تلاحقتْ جلسات يوسف العلاجية بالمركز، كنتَ في كل موعدٍ تُطل عليّ كقمرٍ لإلقاء التحية أجذبكَ لتناول أطراف الحديث.. حين يكون يوسف بالجلسة العلاجية.

وكم كان يسعدني تعاملك اللطيف مع يوسف، حتى توطدت علاقتكما معًا..

مرت بضعة أسابيع وأنا أتحاشى لقاء محمد..

وأنسحب ما إن يخطو عتبة منزلنا لسببٍ ما.. هجرته هجرًا مليًا، وانجذبتُ نحوك..

وعندما أدركت أن نسرين لا تعلم حتى بانخراط ابني في مؤسستك، شعرتُ بشيء من الغبطة. فإما أن علاقتكما متصدعة، لا يسعك أن تصارحها بكل شيء، أو أنك ترى في لقائنا المتكرر ما يثير غيرتها، وما يستحق أن يُخفى.

حملت الجلسات العلاجية ليوسف في كل مرةٍ طيات من مشاعري المتصاعدة، وتعلقي بكَ يزداد يومًا بعد يوم.

جلستُ ذات نهار في ملعب كرة القدم الصغير التابع للمؤسسة، أحتسي الشاي بينما يوسف يتدرب على لعب الكرة مع المدرب الرياضي ليعزز من قوة التآزر الحركي لديه، يرافقه بعض الأطفال من ذوي صعوبات التعلم، كان يوسف يحاول ضرب الكرة بقدمه ولكنه يفشل ويحاول مجددًا..

أقبلتَ أنت راكضًا بملابسك الرسمية ونظاراتك الشمسية ورحت تناورهم لأخذ الكرة وتناور المدرب فاشتد حماس الجميع، كنتَ ماهرًا وتصيح بالأطفال مداعبًا:

- هيا خذوها مني إن استطعتم... هيا ...

سددتَ الكرة نحو المرمى، فاهتزت الشباك وصفّق الأطفال إعجابًا، وكان يوسف أكثرهم فرحًا، يُطالعك بعينين متعلقتين بك، كبطله الذي لا يُخطئ. دعوتَ الأطفال لمواصلة اللعب، ثم أتيتَ وجلستَ قبالتي، رفعتَ نظارتك فوق شعرك، وغرقتَ في تأمل الصغار بينما تلتهم أنفاسك بعمقٍ ساكن.

شعرتُ أن ثقلًا يسكن صدري، فبادرتُ بالكلام، وكأنك الطبيب الذي يعالج كل مشاكلي مع يوسف:

- لا أدري لِمَ أشعر أحيانًا أن يوسف يستفزني.. أحاول أن أكون أمًا جيدة له، حقًا أحاول.. لكنه يجبرني على الغضب، يتجاهل أوامري بلا مبالاة.

طالعتني بنظرتك الوادعة وبأسلوبك المهذب رحت توجهني:

- ربما يريد اهتمامًا أكثر منكِ.. الأطفال أذكى مما نظن، يشعرون بمن يحبّهم

بحق، ويغضبون من الجفاء وعدم شعورهم بالأولوية في حياة الأبوين..

تمتمتُ بنبرة أقرب إلى الحيرة: «لكنه لا يفعل ذلك مع أبيه.. يرضخ له بسرعة، ينفذ أوامره قبل أن يكملها حتى.»

أرخيت جسدك إلى الوراء، وكتفاك يستندان إلى المقعد الحديدي، فيما شردت عيناك.. هاربتين، تلاحقان يوسف وهو يركض. فجأة التفتَّ إليّ، وقلت بتردد، وكأنك تسعى أن تخفف من وقع شيء ثقيل:

- رأيته .. قبل أيام في المؤسسة.

قطبتُ جبيني مستفهمة، لم أفهم مَن تعني، فواصلتَ ترصد أدقّ تفاعلاتي، كأنك تزن وقع اسمه على ملامحي، ونبرتك توهم بالحياد:

- أعني.. زوجكِ. كان برفقة يوسف.. استدعاه الأستاذ كريم..

هوى اسمه على قلبي كصخرة ثقيلة، لكنها لم تحرك من سكوني. تابعتك بصمت، وأنا ألحظ التغيّر الطفيف في قسماتك، حتى قلتَ، كأنك تحدث نفسك بابتسامة مرة:

- زوجٌ يلائم معاييرك تمامًا.. لا بد أن يقع عليه اختيارك كما قيل..»

لم أفهم مغزاك، لكنني بادرتُ، مستدركة، وقد ارتسمت أمارات دفاع على وجهي:

- اختياري! حكاية زواجي كلها لغزٌ لا يُصدق..

طالعتني بفضول وريبة، ولم أدرِ إن كنتَ صدّقتني حقًا أم لا، ولكنني لم أرغب في فتح دفاتري القديمة في هذه اللحظة بالذات..

حتى لا أثير شفقتك، وتعتبرني قمة في السذاجة والضعف، فأردفتُ:

- أعدك..سأحكي لك كل شيء، بالتفصيل، في اللحظة المناسبة..

هززتَ رأسك ببطء موافقًا.. ثم عدتَ تتأملني بنظرةٍ امتزج فيها القلق بالحذر:

- وهل يعاملكما بسوء.. أعني .. زوجك؟ هل يعنفك جسديًا؟ أو يسيء ليوسف! استشعرتُ من حديثكِ .. وكأنه يستجيب له بامتثالٍ لا يشبه الطاعة الطبيعية.. بل كأنها مشروطة بالخوف، لا بالثقة.

- لا، في الواقع، لم تمتد يده يومًا على طفل أو امرأة..

أجبتُ من دون تفكير، ثم راودتني رغبة حارقة أن أنهش صورته أمامك، أن أفرغ ما راكمه الغضب في داخلي نحوه يومًا بعد يوم. أبحث في ذلك عن عزاءٍ مؤقت..

مشاعر مختلطة، مشوشة كانت تجتاحني، رحت أتهمه دون أن يوبخني ضمير، أو يردعني عدل، أجور وأبالغ وكأنني في لحظة واحدة أصبحتُ ملاك الأسرة، وهو شيطانها المختوم على جبينه بالذنب:

- لكنه عصبي بصورة مرعبة.. كنتُ أخشاه في مطلع زواجنا، ثم، شيئًا فشيئًا، اعتدتُ الخوف.. قاسٍ جدًا في تعامله مع يوسف والجميع، نرجسي، مغرور، أناني، بلا رحمة.. نحن الآن شبه منفصلين، فقط الورق بيننا.. لم يُقطع بعد.

لمعتْ عيناكَ بأملٍ شفيف لم تُخفه لعبارتي الأخيرة، ثم قلتَ تطمئنني، بنبرة ثابتة: «لا تقلقي.. الأخصائيون هنا سيساعدونه على تحسين أسلوبه مع يوسف.. بل سيعيدونه إلى نفسه أولًا، إلى المسافة التي نسي كيف يقطعها

ليكون إنسانًا.»

جاءنا النادل يضع أمامنا أكواب العصير الطازج التي طلبتَها، فأعادني المشهد إلى أيام الجامعة، حين كنتَ تحرص على أن تكون لقاءاتنا منعشة بالمرطبات، خفيفةً كحديثك آنذاك.

أفلتّني من شرودي حين قلتَ: «نعم.. كنتِ أخبرتِني عن خوف يوسف المبالغ فيه من الألعاب والأصوات العالية.»

هززتُ رأسي بإصغاء، أتلقّف كلماتك: «ذلك بسبب فرط حساسية حسية وانفعالية، وإن بدت خفيفة في ظاهرها. بعض الأطفال يستقبلون الأصوات العالية كصفارات إنذار، والحركات المفاجئة كارتجاج في الأرض.. وتجاهل الأهل لتلك الحساسية لا يُخمدها، بل يُشعلها.. الإجبار والعصبية من أبيه مثلاً، لم تُشجّعه.. بل أضعفت ثقته حتى كاد ينطفئ».

تمزق قلبي وأنا أسمع تشخيصك هذا.. كم كنا قساة! طالبناه بالجسارة، قبل أن نمنحه الأمان. وأنا؟ لم أكن أقل سوءًا من أبيه. صرختُ، وزجرت. بلا هوادة..وهو لم يكن سوى طفل يتوسل الفهم.. ولم يجد من يفهمه.

- كل شيء سيكون بخير وسنبني تقديره بذاته معًا.. ابتسمي الآن فقط.

قلتَها وابتسامتك تسبقك، وعيونك تضحك وكأن فيها وعدًا بالنجاة، عيون تجبرني على الابتسام، رغمًا عن الحزن. فأي سحرٍ يسكنهما!

ابتسمتُ، ورحتَ تسرد لي مواقفك الطريفة في المؤسسة، بنبرة تمزج بين الدعابة والدهشة، بأسلوبك الذي لا يخلو من الذكاء اللعوب.
ضحكتُ بعمق، كما كنتُ دومًا أفعل معك..

ومع كل ضحكة، كانت غمامة الحزن تنزاح، وعيون يوسف من بعيد تلمحني، تضحك مع ضحكي، وهو بين الأطفال يعدو.

ساد صمتٌ خفيف كنسمة بعد انقشاع الغيم.. عبرتْ عيناي إليك تتأمل وسامتك وابتسامتك التي بدأت تسرق نبضي. ذقنك الفاحم وقد تسلّلت إليه بعض الشعيرات البيضاء أضفت عليك جاذبية. أما تلك النظارات السوداء فقد استقرّت بين أمواج شعرك الكثيف وغاصت في استرخاء. خانني لساني حين فكّرتُ بصوتٍ شبه مسموع: «شَعرك مميز!»

قلتَ مستفهمًا: شِعري!!

ارتبكتُ لسماعك فلتات لساني، فأنا أكثر سطحيةً من التفكير في الشِعر!! ولستُ من الوقاحة والجرأة لأتغزل بك هكذا، تابعتُ بدوري واستدركتُ:

- نعم شِعرك..

عقدتَ حاجبيك متعجبًا وقلتَ بهدوء: «ولكنني لا أكتب الشِعر.»

ابتسمتُ، وقد رأيتُ في تعليقك بابًا انفتح على الذاكرة، فقلتُ وأنا أطرقه بخجل، أعود عبره إلى مقاعد الجامعة: «بل كنتَ تدون لي أشعارًا وخواطر..»

ضحكتَ متفاجئًا، وامتزجت ضحكتك بصوت الأطفال وهم يركضون ويصرخون في ساحة اللعب، الكرة تتدحرج هنا وهناك، وأحدهم يسقط فيضحك البقية، صفارات، مناداة، تصفيق، كأن المشهد كله يدور في عالمٍ بعيد عنا.. لكنه في ذات الوقت يُشكّل خلفية تعجّ بالحياة لحديث ينبض من ماضٍ خامد.

تابعتُ أستدرجك للذاكرة: «هل تذكر أيامنا تلك!»

أطرقتَ فجأة، باغتتك الذكرى، فانطفأت ضحكتك ببطء، وبرقت عيناك بوميضٍ قد يكون منبعه الحنين.. أو ما لم تُفصح عنه بعد. ثم قلتَ بصوت خافت، بالكاد يتجاوز ضجيج الصغار:

- كنتِ.. كالحُلم.. فاتنة جدًا..

ثم رفعتَ عينيك نحوي وأضفتَ بنبرة نافذة: «ولا زلتِ.. بل ازددتِ جمالاً..» ملأني زهوًا عظيمًا ثناؤك الذي أتعطش لسماعه.. فتابعتُ بشغفٍ وجسارة على إعادة ماء الحياة لماضينا:

- كنتَ تتبعني كل صباح، نصعد معًا حافلة الجامعة، تلاحقني كظلي، أنا في عامي الجامعي الأول، وأنت الأخير.. كنتَ معلمًا بالفطرة؛ هل تعلم أنّه كلما شرحتَ لي الآن شيئًا عن يوسف، يعود إليّ صوتك بذات النبرة، وذات الأسلوب الممتع!

تورد وجهك، وضحكتَ تخفي حرجًا لسرد الماضي، فأردفتُ بنبرةٍ لا تخلو من الأسى:

- لقد ندمتُ .. ندمت لأنني لم أرتبط بك..

تفاجأتَ بصراحتي، ولكنك أقفلتَ النقاش بامتعاضٍ مهذب يتوارى خلف ابتسامة مصطنعة:

- كتابٌ أُغلِق.. ونحن أبناء اليوم، فلننتظر ما يخبئه الغد.

في الأيام التالية، وبينما توطدت علاقتنا شيئًا فشيئًا، بدأتُ بإدراج صوري الشخصية في برامج التواصل وبتبرجٍ أخّاذ لأسلب عقلك وفكرك بطرق غير مباشرة، وعندما نتجاذب أطراف الحديث، أكون في قمم الإيجابية والسعادة،

فتلد حواسي غدرانًا من إيماءات الدلال والضحكات والأحاسيس المشتعلة .. التي ترغمك على الامتلاء بطاقتي وعنفواني..

وما كان يريحني هو إنني حظرت محمد من كل حسابات التواصل الاجتماعي منذ وقتٍ طويل، فلم يكن يستطيع رؤية صوري المدرجة.

وفي لحظة نزقة، أرسلتُ إليك صورًا من رسائلك القديمة الغرامية عبر الهاتف، صمتٌ طويلٌ..

راودني الندم، فهاتفتك قلقة: «آسفة إن كنتُ تعديتُ حدودي معك.»

- لا، على العكس.. لا تعلمين كم تسعدينني! لكنني لا أرغب في اجترار الماضي، أريدكِ في حاضري.

كنت تكرر هذه العبارة كلما تداولتُ الماضي في حديثي، فسألتك:

- ماذا تعني؟

لم أتوقع أن تنفلت من شفتيك تلك العبارة بجرأة وثبات، كشرارةٍ قدحت في هشيمي:

- أنا هائمٌ بعشقكِ.

غرقتُ في محيطات الأحلام وموجات الهوى الساحرة والأخاذة بعد تلك الليلة، كنا كمن يعيد كتابة رواية عمرها صفحات طويلة، لكن بحروف جديدة مليئة بالشوق والبهجة وأحاديث الحب المسروقة وضحكاتنا الخافتة التي كانت كهمسات الليل، ورغم تلك البداية، كان فك شفرة مشاعرك أقرب إلى حل لغز غامض!

في لحظة، أراك عاشقًا متيّمًا، تملأ جوعي بكلمات الغزل التي تحملني إلى عوالم من الدفء والعشق وسعادة غناء..

وفي لحظة أخرى، تتحول إلى كائن متصلب، جاف، كأنما رُبطت مشاعرك بقيود من البرود، بل تصل إلى حد تجاهل رسائلي تمامًا.

كنتُ أبحث عن تفسير لهذا التناقض الخفي، وفي داخلي كنتُ أعزوه إلى خوفك الدفين من زوجتك..

تلك التي جعلتني أتنفّس شعور الضرة بكل تفاصيله، من دون أن تدري؛ لم أكن أحبها في السابق، لكنني الآن أكرهها بعمقٍ صامت، يتغذى من حضوري الطارئ في عالمها.

رحت أراقبها بريبةٍ لا تليق بزمالة، كأنني أقتفي آثار خيانةٍ تختمر في عينيها هي أيضًا، وستطفو - لا محالة -على السطح ذات يوم.

٣٠

حبل النجاة

لا أعلم لِمَ رضختْ والدتي لقبول الجلسات الإرشادية الأسرية ضمن برنامج متكاملٍ لعلاجي! ففي السابق لم تكن تستجيب ولا تنصت لأستاذتي نادية، لأنها لم تكن مقتنعة بالتغيير، ولكن اليوم هل هو تأثير الدكتور فؤاد؟

أو رغبتها من صميم قلبها في أن تتغير.. لأتغير! وتقدم شتى التنازلات والتضحيات من أجلي! بما في ذلك وقتها وجهدها الذي لم تكن ترغب في صرفه هباءً..

كذلك طال التغيير معاملة والدي.. بعد تلك الجلسات التي قدمها لهما الاستشاري التربوي، وإن كانت الجلسات تقدم لهما بصورة منفصلة لعدم قدرتهما على الاجتماع في وقت واحد..

الاثنان صارا يغرقانني بكلمات الحب بصورة يومية، ويطبعان قبلة على جبيني كل مساء، والأجمل عناقهما لي في مختلف الأوقات..

العناق الذي كنتُ أحلم به لأغرق ببحار الأمان في أحضانهما، فحتى العناق كان ثمنهُ باهظًا عليّ، كنت عندما أرغب في معانقة أحدهما، يجد الوقت غير ملائم، أو يكون عناقًا باردًا لا يدفئ قلبي المرتعش.

أما الآن فأصبح كل الوقت متاحًا للعناق والدردشة معي والإنصات لعيوني قبل أحاديثي التافهة كما كانوا يعتبرونها في السابق..

أصحتُ مؤخرًا حتى لم أكن قبلًا عندما أريد حتى نظرة منهم أثناء محاسبته وأحسست فترة بي شعرت بأنه قيمة، يتغذى على الحب وتعطشه بي تجعله قوي وأنا وحتى أجمل.

أصحتُ لن أكرر عبارة مح أمي وأبي - نعم - الآن أستطيع أن أطلق عليهما أبي وأبي قويًا ومضمونًا .. وليس فقط والديّ..

وحتى أخي، لم أعد أضير عدوانًا تجاهه، بل على العكس، صرنا نقضي معًا أوقاتًا ممتعة في اللعب والأحاديث، بعد أن حُرّمت المقارنة بيننا. هكذا قالت أمي، ستقرنني فقط بما كنتُ عليه في الماضي وما أصبحت عليه الآن، لن تقارنني بالآخرين أبدًا..

- فالمقارنة كالسكين التي تطعن بها البن، وقد يطعن هو بدوره الآخرين..

سمعت الدكتور فؤاد يقول هذه العبارة لأمي في إحدى المرات قبل انصرافنا من عنده.

صارت أمي تخصص وقتًا يوميًا لتزاول معي مجموعة من الأنشطة التي أستمتعُ بها، دون أن أشعر بالخوف من الفشل، فقد أخبرتني بأنه لا يوجد في قواميسنا معنى للفشل، فالطفل الصغير لا يستطيع أن يمشي إلا إذا وقع كثيرًا الوقوع لا يعني الفشل ..

بل يعني الاستفادة والتعلم، بل هو الخطوات الأولى نحو الاتقان، كذلك أنا، سأتعلم وأتدرب وأزاول الواجبات المطلوبة من المؤسسة وإن استصعب عليّ بعضها، فليس مهمًا أن أكون متفوقًا أو خارقًا، المهم أن أنجز ما أنا قادرٌ بالفعل على إنجازه بمتعة وسعادة..

من بين الأنشطة التي لامست وجداني بعمق، وتركت أثرًا جليًا في تحسّن قدراتي ومهارات القراءة، نشاط بدا في ظاهره أشبه بلعبة، لكنه في حقيقته كان علاجًا تربويًا بامتياز، وهو «صندوق المرور»، كما أطلقَ عليه الدكتور فؤاد.

كان ذلك في أيامي الأولى بالمركز، أهداني الصندوق الشفاف - مقسّمًا إلى ثلاثة أقسام لونية واضحة في سقفه - وهو يربّت على كتفي بحماس، قائلًا بصوته المليء بالحيوية، وعيناه تشجعاني بحب:

«هذه لعبتك الجديدة يا يوسف، مغامرتك الخاصة! القسم الأحمر للكلمات الجديدة، الأصفر للتدريب، والأخضر هو للظفر والانتصار، أي للكلمات التي أتقنتها تمامًا، قراءةً وكتابةً. كلما تمرّنتِ على كلمة حتى تجيدها، تنقلها تدريجيًا من الأحمر، إلى الأصفر، ثم إلى الأخضر.. هذا هو طريقك نحو الإتقان.»

كان الصندوق يحتوي عشرات البطاقات البيضاء، كُتبت عليها الكلمات بخطٍ واضحٍ وباللون الأحمر تحديدًا، وهو ما أشار إليه الدكتور فؤاد لاحقًا حين أسرّ لأمي ضمن تعليماته:

«لون الخط ليس عشوائيًا؛ فاللون الأحمر يرتبط بمحفزات بصرية قوية، وله تأثير في التحسين الإدراكي، مما يساهم في بقاء المعلومات في الذاكرة لفترة أطول.. لذا نبدأ به.»

ثم التفتَ إلى أمي يوجّهها بنبرة الخبير التربويّ، يشرح تفاصيل البرنامج وكأنه يعرف احتياجاتي بأدق تفاصيلها..

لطالما استوقفتني كثرة أحاديثه معها هي بالذات خلال وجودي بالمؤسسة..

لم تكن تشبه لقاءاته العارضة مع أولياء الأمور الآخرين، بل بدت استثناءً، إذ لم أرَه يومًا يلتقي بأحدهم على انفراد كما يفعل معها، ولا يكلّف نفسه بشرح أي شيءٍ لهم، فتلك مهمات يوكلها للمختصين الآخرين كما أرى دائمًا، لكن مع أمي، الأمر بدا مختلف.

كنتُ لا أخرج من أي جلسة إلا وأراها عنده، وتساءلت في داخلي: لماذا تحظى أمي هذا القدر من وقته دون سواها؟ ولماذا تتحدث إليه وكأنه ليس كسائر الرجال؟ بلا تحفظ.. بلا الحواجز المعتادة؟

لم أكن أعلم ما صلة قرابته بنا، لأنني سمعته ذات مرة يهمس للأستاذ كريم وهو يوصيه بي: «إنه ابن قريبتي كما تعلم.. اعتنِ به جيدًا.»

حين سألتُ أمي لاحقًا عن تلك القرابة، أجابتني باقتضاب غريب:

- قرابة بعيدة..

انتبهتُ له يكمل حديثه بجدية معها:

« ركّزي في كل مرة أثناء القراءة على (الصوت الفونيمي)، لا على اسم الحرف، فقراءة الطفل لا تبدأ من معرفة أسماء الحروف كما يتوهم البعض، بل من إدراكه لأصواتها الدقيقة ضمن الكلمة، كثير من الأطفال يتعثرون لأنهم يحفظون أسماء الحروف («ميم» بدلًا من / مَ/ مثلًا)، فيصعب عليهم تفكيك الكلمات بصوتها الحقيقي، أما القراءة الحقيقية، تبدأ من الوعي الصوتي، أي التمكن من تحليل الكلمة إلى وحداتها الصوتية، ومن ثم إعادة تركيبها.»

ثم أضاف وقد ربط حديثه ببرنامج الكلمات، يشير للصندوق بيدي بينما كنت أعبث به وأتفحصه، وعينا أمي لا تفارقان محياه باهتمام:

- ويمكن الاستفادة من هذا البرنامج في توظيف هذه المهارة المعرفية الحساسة، التي تُعد الأساس في بناء القراءة، لا سيما لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم. فالصندوق، ببساطته، يدرب الطفل على التعرف البصري للكلمات، مما يعزز لديه القدرة على تمييز أشكال الكلمات وحفظها كصورة ذهنية، تمامًا كما نُميز وجوه من نحب دون الحاجة لتفاصيل أو شرح..

قال عبارته تلك وهو يبتسم ويرمق أمي بنظرة عميقة، حتى أسدلت أهدابها خجلاً، ثم تابع بجدية أكبر:

« وهذا يتماشى مع ما تشير إليه الدراسات التربوية الحديثة التي ترى أن القراءة ليست تفكيكًا صوتيًا فقط، بل هي أيضًا مهارة بصرية إدراكية، قوامها حفظ الكلمة كوحدة واحدة، مما يجعل من هذا التمرين أداة فعالة لتجاوز عقبة البطء أو العسر في القراءة، فيصبح الطفل أكثر قدرة على الطلاقة والاحتفاظ بالمفردات.»

ثم انحنى نحوي، وهمس بصوتٍ خافتٍ مشبعٍ بالتشويق:

« وعندما تنجح في تحويل كل البطاقات إلى القسم الأخضر، حينها.. سأفاجئك بهدية لن تنساها! لكنني لن أفسد المفاجأة الآن..»

كان ذلك الوعد كفيلًا بإشعال فتيل المغامرة في داخلي لأسافر عبر الكلمات، ألعب بها وأربحها واحدة تلو الأخرى، صرت ألوّن رحلتي بإنجازاتي، ومع كل بطاقة تنتقل إلى الأخضر، كان قلبي يرقص فرحًا.

في بعض الأيام، كان أخي ينضمّ إليّ في هذه المغامرة، نتسابق ونتبارى تحت إشراف أمي، التي كانت تبتسم لنا بحنوّ وهي تُحوّل التعلم إلى لحظات غنية باللعب، والمكافآت الصغيرة، والمستمرة.

****

أبي أيضًا صار يجالسني كل مساء، بعد عودتنا من مركز تحفيظ وتجويد القرآن الكريم، ينصت لقراءتي ويشجعني باستمرار ..

كانت كلماته تلك تنبت في داخلي ثمارها، وتدفعني لأن أقرأ أكثر وبسعادة.

أصبحت تلاوتي محط إعجاب الجميع، كلما اشتدَّ عودي ومضت الأيام، أصبحتُ أكثر احترافًا، وأكثر ثقةً بنفسي، وقد اهتم بي أستاذي في مركز تحفيظ القران أكثر من غيري، بناءً على توصيات خاصة من أبي بعد معرفته بوضعي التعليمي الخاص.

وفي خطوة أخرى لتطوير مهاراتي وتعزيز ثقتي، قام والدي بتنسيبنا، أنا وأخي، إلى نادي صيفي للسباحة.

كانت السباحة، كما نصح الأستاذ كريم أبي.. بأنها أكثر الرياضات ملائمة لي في هذا الوقت، فهي لا تقتصر على تقوية العضلات فحسب، بل تعزز شعور الإنسان بقدراته، وتمنحه إحساسًا بالإنجاز والتحرر، والأهم من ذلك، أنني كنت أتقنها أكثر من أي رياضة أخرى، مما جعلني أشعر بتفوق خاص..

دائمًا ما يبدأ سلم التطور بما نحن قادرون على فعله، ثم نسعى جاهدين للارتقاء إلى ما هو أصعب، خطوة تلو الأخرى.

****

في ذلك اليوم، بأروقة مؤسسة ارتقاء.. تشبع الهواء بالحماس، والأعين الصغيرة تتراقص بين الترقب والتحدي..

وقفنا في القاعة المضيئة، ننتظر بشغف ما أعده لنا أحد الاختصاصين،

مسابقة خاصة أشبه برحلة في عالم الكلمات، المسابقة كانت بسيطة في فكرتها، عميقة في أثرها، علينا أن نقرأ بصوت عالٍ، أن ننسج الحروف إلى كلمات، ونمنحها الحياة بنبراتنا، أن نملأ المكان بصوتٍ لا يرتجف، بثقةٍ لا تهتز، كان الدور يأتي تباعًا، وكل منا يعتلي المنصة نخطو نحو اختبار اعتبرناه مسرحًا، تراقصت الأحرف على لساني في البداية، لكن سرعان ما التحمت في نغمة متناغمة، انساب صوتي، وبدأت أقرأ كأنني وُلدتُ من جديد، كما لو أن القراءة كانت جناحيّ الخفيين.

وفي لحظة إعلان النتائج، بلغ الحماس ذروته..

تسارعت دقات قلوبنا الصغيرة انتظارًا للحكم الأخير، وعندما نُطق باسمي، كان يحمل معه لقبًا لم أتخيله إلا في الأحلام: «ملك القراءة»، رغم أن كل طفلٍ من المنافسين فاز بلقب يليق به، فذاك «صاحب الصوت العذب»، وآخر «القارئ الجري»، وغيرهما ممن نالوا أوسمة تليق بتميزهم، إلا أن لقبي كان الأرفع، لأنه إحرازًا للقراءة الصحيحة وكأنه يتوج رحلتي في ربط الحروف.

تفجرت فرحتي بلا حدود، لم أكن مجرد طفل يتعلم القراءة، بل كنت فارسًا امتطى صهوة الحروف وانتصر، ركضت خارج القاعة، متوجًا بتاجي الذهبي، أبحث عن وجه كم حلمت أن يشيع هذا النصر.

هناك، في الحديقة بجوار المقهى، كانت أمي تجلس مع الدكتور فؤاد، يتبادلان حديثًا هادئًا كعادتهما تحت ظل شجرة وارفة، اندفعت نحوها.. ألقيت بنفسي بين ذراعيها، وشعرت بأن دفء احتضانها أثمن من أي جائزة، نظرتْ إليّ بعينيها اللامعتين، تحتضنني وتحتضن معي انتصارها الشخصي أيضًا..

أما الدكتور فؤاد، فقد بارك لي بمشاعر لم تخفها عيناه الضاحكتان، وكأن في

فرحتي وانتصاري نجاحًا له وامتدادًا لحلمه.. بأن يمنحنا، نحن الأطفال الذين واجهوا تلك التحديات.. فرصةً لنحلق عاليًا في سماء الإنجاز.

****

عندما غشينا المساء في ذلك اليوم كنت أنا وأخي في بيت جدتي، أنتظر والدي على أحر من الجمر لأخبره بإنجازي الرائد، الحماس يلتهمني وأخبرت جدتي مائة مرة بما حدث.. وأخي أغلق على نفسه في إحدى الغرف مستغرقًا بألعاب الجهاز اللوحي، ولم يرغب بأن يسمع قصة فوزي مرة إضافية أخرى.

عندما تأخر أبي جلستُ بغرفة جدتي واستخرجت أحد صناديق ألعابي التي أدخرها هنا، وأخرجتُ منه دمى الحيوانات لألعب في توارٍ عن الجميع، أحافظ على كل دميةٍ وأقدسها ولا أسمح للصغار من أبناء عماتي بلمسها، مخافة أن يتلفوها، كل من حولي كانوا يسخرون مني لأنني مازلت ألعب بالدمى، يعتقدون بأن سني أكبر من أن ألعب بها، ولكن هي متنفسي، هي خيالي، أجسد شخصيتي دائمًا بأنني أسد الغابة، وبأنني شجاع قادرٌ على إدارة أمور كل الحيوانات، ربما كنت في الماضي أحسبه خيالًا يستحيل أن أحققه يومًا لصعوبته وبُعده..

لكنني اليوم برهنت لنفسي بأنني أمتلك من القدرات ما أنافس به الآخرين.

سمعت صوته قد أقبل من عمله أخيرًا..

نهضتُ مسرعًا وعانقته، كان يبدو متعبًا، مثقلًا، وكأنه يحمل هموم الدنيا على رأسه، ولكنه بادلني العناق بحب، وخرج حسن هو الآخر يعانقه..

بادرتُه بحماس، وأخبرته عن فوزي العظيم، فكان الخبر كجائزة أضاءت

ملامحه، وملأه طاقة وسعادة.

وضع الكيس الذي كان يحمله على الطاولة، ثم اندفع نحوي مهاجمًا، ورفعني عاليًا في حركة مداعبة تشبه ألعاب المصارعة، رغم وزني، بينما كنت أضحك بصوتٍ عالٍ يداخله القلق، وأردد بين الضحكات:

- بابا أرجوك سأسقط..

جلستُ بجواره والضحكة لا تزال ترقص على شفتي، وبدأتُ أسرد له تفاصيل الفوز بحماسةٍ طفولية، أروي الأحداث بانفعال، وأتلعثم أحيانًا بينما أُمعن في وصف أدق التفاصيل، كأنني أعيش اللحظة من جديد.. وهو ينظر لعيني باهتمامٍ لافت وتفاعلٍ مثير..

أخبرته كيف نشرتُ الخبر بين الجميع، وكيف كانت ردود أفعالهم المختلفة، ولم أنسَ أن أصف له فرحة الدكتور فؤاد وإعجابه، ناقلًا إليه كل كلمة أثنى بها عليّ.

لكنني، رغم اندفاعي في الكلام، لم أخبره كيف تلقت أمي الخبر، ولا أنها كانت تجلس مع الدكتور فؤاد، فهي تنبهني كل يوم إلى عدم ذكر أي شيء يتعلق بها أمام أبي أو عائلته.

قبّل رأسي وقال بحب وهو ينظر لعيني: «أنا فخورٌ بك..»

وأهداني الكيس الكبير الذي كان يحمله، ذلك الكيس الذي أثار فضولي منذ لحظة دخوله، كانت بداخله علبة تحتوي على لعبة السمك الدوارة بحجمٍ كبير، صحتُ بحماسٍ طاغٍ، وجلستُ بسرعة أمزّق غلافها، لكنني اكتشفت أنها بحاجة إلى بطاريات.

طلب مني أن أذهب إلى غرفته وأحضر بعض البطاريات من درج قرب سريره..

أسرعتُ أفتح الأدراج حتى عثرت عليها، لكن إحدى البطاريات سقطت من يدي وتدحرجت أسفل السرير، انحنيت لالتقاطها، ولفتت انتباهي صورة أمي هناك، ربما سقطت من مكانٍ ما، مددتُ يدي وسحبتها، وتمكنت من قراءة معظم الكلمات المكتوبة عليها بصعوبة، لم أفهم مضمونها تمامًا، لكنني أدركت أنها تحمل حديثًا عن الحب، أسعدني ذلك.

حملت البطاريات ودسست الصورة في جيب بنطالي، ثم عدت إلى أبي وطلبت مساعدته بتردد في وضع البطاريات، فأنا ما زلتُ أخطئ في ذلك وأخشى أن يغضب مني، لكنه كان هادئًا جدًا، وشرح لي للمرة الألف ربما، بصبرٍ لا ينفد، وطلب مني وضعها بعد شرحه المستفيض، ونجحت في ذلك.

نظرت إليه بامتنان: «بابا.. أوشكت إجازتنا الصيفية على الانتهاء.. لدي طلب.»

قلتُ برجاء، ربت على ظهري بلطف واستطرد: «وماذا يريد ملك القراءة؟»

- أريد أن نذهب لاستراحة تضم بركة سباحة جميلة لنسبح معًا.

نظر إليّ مستغربًا، وقال بنبرة تحمل شيئًا من التعجب:

- لكنك بالفعل مشترك في نادٍ للسباحة!

أجبتُ بتردد: «لا ..أعني أريد أن نذهب جميعنا كما فعلنا في العام الماضي.. وندرب ماما على السباحة.»

خيمت على ملامحه غمامة ثقيلة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة

تعلوها مرارة، شاركني أخي الرجاء ورمى بالجهاز اللوحي ما إن سمع الفكرة.. وقبل أن يتمكن أبي من الرد، تدخلتْ جدتي وقد بدا واضحًا أنها تتابع إلحاحنا باهتمام، وعلامات الانزعاج طفقت جلية على وجهها وهي تقول بحزم:

- هيا يا صغيريّ .. خذا اللعبة واذهبا لتلعبا بها.

لكننا لم ننصرف، ولم نكفّ عن تكرار طلبنا، حتى هزّ رأسه أخيرًا وقال بصوت خافت: «سنحاول بإذن الله..»

صفّقتُ بفرحٍ غامر، وأخرجت الصورة من جيبي فقد تذكرتها توًا، وأعطيته الصورة وأنا أقول له: «رأيتها تحت السرير.. هل أعطيها لأمي؟!»

التقطها باهتمام وهز رأسه نفيًا، وأسرعتُ مع أخي نحو الغرفة، ننهمك في اصطياد السمك بحماس.. كنت مستمتعًا بهذه اللعبة البسيطة التي تساهم في تقوية عضلاتي الدقيقة والتآزر البصري الحركي، لكن عيني ظلّتا متعلقتين بأبي، أراقب ردّ فعله لرؤية الصورة وكيف سرح بعمق وهو يقلبها بين يديه، يقرأ ما كُتب على ظهرها وكأنه يطالعه للمرة الأولى، ما يؤكد أنها سقطت دون علمه.

في تلك الأثناء، كانت جدتي تتذمر من إصرارنا على فكرة اصطحاب أمي إلى الاستراحة، ولم تستطع مقاومة فضولها، تحاول استراق النظر إلى الصورة التي بدت وكأنها خمدت أنفاسه، لكنها صمتت حين رأته يضع الصورة بجيب قميصه ويستلقي بقربها على الكنبة البنية العريضة، واضعًا رأسه في حجرها، كأنه عاد طفلًا صغيرًا بحاجةٍ إلى حضن أمه.

راحت تمسد على شعره بحنانٍ مشوب بالحزن، وكادت تبكي وهي تراه يغرق مجددًا في همه، كما لو أن الغيمة الظلماء التي حاول تبديدها قد أمطرت

داخله من جديد:«ما الذي يزعجك يا حبيبي يعز عليّ رؤيتك هكذا.. كله بسبب المشؤومة، متى تطلقها وترتاح! مضت عدة شهور على حالك هذا»

أجابها بهدوء مشوب بالرجاء: «أمي لا تقولي هذا عنها.. أشعر بأنني ظلمتها، هي زوجتي وأم أطفالي.»

استمرت تطعن فيها، لا سيّما وقد رأت فيه استعدادًا غير مألوفٍ للمسامحة.

مررت كفّها في شعره مجددًا، فأغمض عينيه براحةٍ خفيفة ولانت نبرتها، كأنها تتسلّل عبر موطن ضعفه:«سأزوجك والعروس جاهزة، وأنعِم بها من عروس!»

وأردفت بصوتٍ أشبه للهمس بسر: «جنان ابنة خالك.»

فتح عينيه بدهشة لا تستر ضيقه: «أمي.. لا تقحميني بدوامة أخرى»

لم تكترث، بل راحت تثني عليها وتعدد مناقبها وقالت بعبارة حاسمة:

- إما أن تطلق أو تتزوج بأخرى.

لاذ بالصمت لم يقوَ على مجادلتها ربما لأنه يعلم أنها لن تتراجع عن رأيها، ربما لأن شوقه لأمي أثقل كاهله.

وحين دخلت عمتي «جليلة» على حين غرة، يسبقها بعض عيالها، استقام أبي جالسًا بسرعة يجمع شتات كبريائه، يخفي انكساره تحت قناع الصلابة، فقد اعتادوا رؤيته شامخًا صامدًا كجبلٍ لا تهزه الرياح حتى حين تعصف به من الداخل.

عمتي جليلة بالتحديد لم يهدأ غليلها مذ رفع صوته في وجهها قبل مدة، فظلت تردّد استنكارها لتصرفه السيئ في غيابه، وعدم احترامه لأحد في سبيل

(امرأته التي لا تستحق)، فسألته بمكر:

- تبدو مثقلًا بالهموم، هل بسبب ليلى وصورها المشينة!

لم يفهم مرمى كلامها، فتابعتْ بعد أن حفزها اندهاشه: «ألم تشاهد صورها؟»

خطف الهاتف بيدٍ متوترة، وانعكس على وجهه الذهول والغضب وهو يتنقل بين الصور التي نشرتها أمي، وكأنها تتعمد استفزازه، صورةٌ لعيونها غارقةٌ في عوالم من الكحل المعتم، ينسدل جزءٌ من غرتها الشقراء فوق جبينها بدت كنظرةٍ مخملية مقصودة، وأخرى لأناملها الرقيقة الموشاة بالخواتم، تلامس شفتيها المطلية بلونٍ صارخ، وصورٌ أخرى بدا فيها كل تفصيلٍ مدروسًا بعناية، لم يكن الأمر مجرد صورٍ عابرة، بل كإعلان تمرد وقلة عفة، لا يمكن أن يمرّ مرورَ الكرام في عائلتنا المحافظة. فيما عمتي تتابع دون رحمة:

- إحدى معارفي أرسلت لي الصور، تسأل إن كانت هذه المفضوحة هي زوجة أخي! كم أشعرتني بالإحراج! فأنكرت ذلك فورًا، إنها تعلم جيدًا ما تفعل، فقد حظرتنا جميعًا حتى لا نرى سواد وجهها.

كانت جدتي تنظر إليه نظرة من وجد في المصيبة فرصة. وكأن الخبر جاء ليخلصها من أمي، ويدفعه أخيرًا للطلاق. لكن أمارات القلق سرعان ما طفت على وجهها، حين عايدت تنفسه الذي بدأ يضطرب. ضربت على قدميها تنعاه وهي تصر بأن أمي ليست سوى مشعوذة قد سحرته وأفقدته صوابه..

ألقت التعاويذ وتمتمت بالأدعية لتدفع عنه السحر..

ونظرات عمتي تلتهمه بتشفٍ، حتى نهض ومضى دون أن ينبس بكلمة

٣١

الوجه الآخر

اختلاف الحب كاختلاف الأزهار، بعضها قد يكون كزهرة الأقحوان، تزهر باستمرار رغم قلة العناية بها، تصمد في وجه التيارات المناخية المختلفة، وبعض أنواع الحب كأزهار الأوركيدا، شديدة الحساسية بحاجة لعناية مستمرة لتنمو وتستمر، وعلى اختلاف الأزهار وأنواعها فلابد من حاجتها لقطرات الندى وضوء الشمس، ولو اختلفت الظروف الزمنية، كذلك يحتاج الحب إلى غذاء لا يقل عنهما ضرورة وإن كبر حجمه، فهو ليس وعدًا أبديًا يُكتب على صفحة الزمن، بل هو حكاية تُنسَج كل يوم بخيوط الكلمات الحانية والنظرة الدافئة.

ما الحب إلا جسرٌ هش، يبنيه العاشقان كلمةً كلمة..

ويدعمه وصلهما، وحتى تبادل نظراتهما تلك التي تبدو أحيانًا بلا معنى، لكنها في الحقيقة هي التي تجعل المعنى ذاته ممكنًا، الحب ليس شعلةً متوهجة بصورة سرمدية بمجرد إشعالها، بل نارٌ دافئة تحتاج إلى الوقود الدائم لتستمر، وما الهجر والصمت إلا كطوبةٍ بعد طوبة تبني جدارًا قد لا يتصدع لتتبرعم به زهور الحب مرة أخرى.

وهكذا أصبحتُ أنا، نسيت أمر محمد تمامًا..

لم أعد أراه إلا نادرًا، وإن رأيته أهرب بعيوني حتى لا أصطدم به فيشيخ

داخلي ويتمزق.. ولكنه ظهر أمامي بإصرارٍ في ذلك الصباح عندما كنت سأصعد سيارتي، كنت سعيدة قبل أن أراه ومبكرة في ذهابي للعمل، فرسائله الصباحية تضفي عليّ نشاطًا وحيوية كل يوم، تجاهلته كالعادة، ولكنه كسر حاجز الصمت هذه المرة، اقترب بحزم: «أريد أن نتحدث»

تحاشيت تواصلنا البصري وقلت برسمية: «ماذا تريد؟ اختصر لو سمحت حتى لا أتأخر عن العمل.»

استنشق جرعة هواء يحاول أن يلجم غضبه المتصاعد، ثم أشهرَ هاتفه بوجهي، يريني إحدى صوري الشخصية وقد تزيّنتُ فيها بتبرّجٍ لافت، وغرّة منسدلة على جبهتي، فقال بنبرةٍ مكدودة مشوبة بالدهشة:

- •ما الذي يحدث؟! منذ متى تنشرين صورك بهذه الطريقة؟

تلعثمتُ، حاولتُ تجاهله والمضي في طريقي، لكن يده قبضت على ذراعي، شدّني بقوة وأوصد باب السيارة خلفي.

أمرته أن يتركني، لكنه لم يستجب. دفعني نحو المنزل، لم يعبأ بمقاومتي، جرّني حتى رماني على الكنبة البيضاء العريضة في الصالون، نهضتُ فورًا، متأججة بالغيظ، ومضيتُ مبتعدة أصرخ:

- •لا شأن لك بي..

لحق بي واعترض طريقي، ينظر إليّ بحدة، صوته المتحشرج من صميم ألمه اخترق مسامعي: «لا تزالين زوجتي!»

- •الآن وبعد عدة شهور! تذكرتَ أن لك زوجة!

أجلسني وجلس بقربي، ثم مد يده ليلتقط كرة يوسف المطاطية التي كانت

على المقعد بدأ يضغطها بقوة بين أصابعه، ويقلبها ذات اليمين وذات الشمال، محاولًا أن يخفف من توتره الذي بدا واضحًا، ثبّت عليّ نظراته القلقة:

- هل حقًا تخرجين أمام الملأ بنصف حجاب.. كما بالصور التي نشرتها؟

كتفتُ ذراعي، رفعتُ قدمًا على الأخرى ورحت أهزّها بعصبية، عاقدة العزم على إظهار تماسكٍ لا أشعر به. التفتُّ عنه، صوّبتُ نظري بعيدًا وقلتُ مكابرة، رغم أن خوفي كان يتنامى داخلي من ردة فعله:

- ليس من شأنك .. ثم .. من أين لك هذه الصور؟ هل إحدى أخواتك العزيزات وشت بي؟ وأنت جئتَ كفرعونٍ تحاسبني.

أطرق ولاذ بالصمت، مما برهن صحة كلامي، كم أغاظني تصرفه!!

مر ما يقارب ثلاثة شهور عن عودتي من الصين، لم يصر على التواصل معي فيها، وعندما أراد أن يقطع الهجر والخصام.. جاء ليزجرني، يزجرني بسبب تحريضٍ من أخواته، وهذا أكثر ما لا أطيقه!

فجأة، رمى الكرة بخفة على المقعد ونهض، يخطف هاتفي من أعلى حقيبتي على الطاولة، فانخلع قلبي من مكانه، شهقت وصرخت به:

- ماذا تفعل؟

جل ما خشيته أن يلحظ محادثاتي ورسائل غزلي الطويلة معك، وضع الهاتف أمام وجهي المرعوب فانفتح قفل الشاشة. ناوشته بهلع، مددتُ يدي في محاولةٍ يائسة لاستعادته، لكنه بحركاتٍ سريعة أزال الحظر عن رقمه. تجمّدتُ، ثم شتمته وأنا أتناول هاتفي مرتعدة، تراجعتُ خطوتين للخلف،

أنوي الهروب للعمل، لكنّه، أمسك يدي مرة أخرى.. لكن هذه المرة، برجاءٍ لا غضب فيه، وقال:

- لم أعرف كيف ألجم غضبي! لم أقصد توبيخك، تعرفين أنني رجل غيور.. هل تفعلين هذا لاستفزازي؟!

نفضت يدي وقلتُ بتهكم متعمدة حقًا استفزازه في هذه المرة:

- لستَ محور عالمي كما تظن.. بل اختفيتَ من مداري حتى نسيتُ أنكَ كنت فيه يومًا.

كان كلامي صفعةً لم يتوقّعها، طعنةً مباشرة أصابت كبرياءه في مقتل، لمحته يدير فكه السفلي، تلك العادة التي تفضحه كلما استاء مني، يشيح بنظره بعيدًا للحظات، وكأنه يحاول ابتلاع مرارة الردّ، وبدلًا من أن يشعل النار أكثر، سعى لإخماد أوراها، قال بصوتٍ هادئ، لكنه مشحونٌ بالكثير:

- منذ مدة وأنا أرغب في التواصل معكِ، ولكن لا أستطيع.. انظري للوقت الضيق الذي اصطدتك فيه الآن! حظرتني من كل مكان، هذا لا يصح بين الزوجين وإن كانا على خلاف! أنتِ من شجعتني على الابتعاد.. صددتني.. كلما أقبلتُ للمنزل فررتِ مني، إما أقفلتِ دارك أو هربتِ خارجًا، ولم أعرف كيف أبدأ بعد هذا الجفاء الطويل، كنت أنتظر مبادرتك.. أنتظر اعتذاركِ.

شعرتُ بغصة تشتعل في حلقي، وكأنها ترفض الانطفاء، انفجرتُ بضحكة هستيرية، مريرة، تحمل في طياتها غضبًا موجعًا: «كم مرةً سأطلب السماح منك! ألم تبعني! ألم تسترخصني! ألم تهينني!! ألم تتركني وأنا في أمس الحاجة إليك!! ولكن شكرًا لك.. علمتني بأنني قادرة على إنجاز كل شيء بمفردي.. وأنا في غنىً عنك.»

- كنت أنوي مرافقتكِ في رحلتك اللعينة التي صدّعتِ رأسي من أجلها..
ولكن قدّر الله أن يكون حادث أمير في يوم سفرك، وإلا محال أن أرفض طلبًا ألححتِ من أجله.

أدهشني الخبر! لم أكن أعلم أن حادث أخيه قد وقع يوم سفري، ولم يخطر ببالي للحظة أن يتزامن الأمران.

أترى هذه المصادفات العجيبة؟! أمير .. للمرة المليون يصبح السبب في اتساع الهوة بيني وبين أخيه! وكأن قدرنا مرهونٌ تحت ظله!

وجمتُ في دوامة أفكاري، بينما محمد يرمقني بعينين نافذتين، يحاول اختراق أعماقي، يسائلني بصمته عمّا أخفيه، عن حقيقةٍ أتجنب مواجهتها حتى مع نفسي..

أراه يتفحص خماري، وكأن نظراته تهمس بتساؤل يخشاه أكثر من أي شيءٍ آخر، يخشى أن أكون ممن يتجردون شيئًا فشيئًا عن مبادئهم وقيمهم فتشملهم دائرة (التخلي القيمي)، عيناه تسألان بلا صوت (هل تزيحينه! أو ربما تنزعينه حين تختفين عن ناظريّ؟ أم كانت مجرد لحظاتٍ عابثة، مدفوعة بجنون الرغبة في إثارة غيرتي!)

غرقتُ في متاهتي..

وأنا أشعر وكأنني شخصيتان متنافرتان تتصارعان داخلي، تلك التي أخرج بها من الحي، محتشمة، خوفًا من العيون المتربصة، والألسن التي تمضغ سيرتي- دون رحمة وخوفًا من محمد.

وفي المقابل، هناك تلك الأخرى..

التي تولد فقط حين أكون في بيئة العمل بحرّيتي، أو عندما أكون معكَ أنتَ..

فهي لم تكن إلا من أجلكَ! وبسببك!

كأنك كنتَ الشرارة التي أطلقتها من مكمنها، فاستجابت بلا تردد، لتتنازل عن كل شيء، عن كل القيود والخطوط، فلا ترضى إلا أن تتجلى أمامك بكامل فتنتها، بكامل زينتها، امرأةً لا تُجاريها أخرى في سلب عقلك وقلبك، كأنها وُجدت لتُغرقك، لتسحبك نحوها بكل ما تملك من غواية، وتتركك تائهًا في مداراتها، بينما هي وحدها تبقى على اليابسة، تتفرّس هيامك بها، تتلذذ به..

آثر محمد غلق أبواب الشجار بيننا دون إصدار مزيد من الضجيج، فاقترب مني بخطوات وئيدة، وعطره المفضل عندي يطوف بحواسي..

لا أدري لِمَ تبلدت مشاعري ناحيته!

وعندما اقترب أكثر، حرك يديه في رغبة غير معلنة للانزلاق حول خصري، لم تنضح رغبتي ولم يعد الأثر المشتعل كما كان لها في الماضي، تراجعتُ خطوة للخلف، رافضة الاقتراب وسحبت حقيبتي بسرعة، وأنا أقول ببرودٍ لم أجتهد في إخفائه:

- تأخرتُ عن العمل.

ما إن قدت سيارتي اجتاحتني عواصف من البكاء والرهبة والخوف..

ألم يكن هذا محمد الذي شحذت كل هممي من أجل رضاه، جاءني وكأنه يريد للمياه أن تعود لمجاريها، ولكنني لم أرغب في هذه العودة، جليدٌ تجاسر بيننا، سببه بلا شك (أنت) فشغفي بكَ كان أكبر وأعظم.

ذهبتُ إلى العمل متأخرة، ولم أعد بمزاجٍ جيد، كل من يراني يسألني بقلق:

(ما بكِ؟ مريضة؟) لم أكن مريضة، لكنني كنتُ مرهقة، مستنزفة من داخلي، مثقلة برؤية محمد، لقاءٌ كان مُرًا.. بعد شهور من الصمت والجفاء، مختلفًا عن كل لقاءاتنا.. طوال حياتنا الزوجية.

بعد انتهاء العمل، عدتُ إلى المنزل وهمّي يسبقني، لكن مع اقتراب المساء (موعد انتهاء عمل محمد المعتاد) شعرتُ بالتوجّس ينهشني، فخرجتُ من جديد.

لم أطق فكرة بقائه على مقربة، ولا احتمال أن يأتي فجأة كما فعل صباحًا..

هربتُ دون وجهة.

هاتفتك.. فلا مفرّ من هذا الضيق سواك..

****

التقينا في مكتبك عند التاسعة مساءً، حيث كانت المؤسسة شبه خاوية، إلا من عمال النظافة الذين أنهوا عملهم استعدادًا للرحيل، جلستُ على الأريكة، في مواجهة النافذة العملاقة، أراقب أضواء المدينة من بعيد، وغارقة في بحرٍ من الحزن لا شاطئ له، لم أخبرَك شيئًا مما يضطرم بداخلي، فقد بدا الصمت أبلغ من أي كلمات، كنتَ تقرأ مشاعري وحبي لكَ وكأنها كتاب مفتوح، عيناك تتفحصان وجهي بإمعان، تبحث عن إجابة خفية.

طلبتَ لي شاي التوت الذي أفضّله عله يسليني ويريح أعصابي، وعندما أحضر العامل المشروبات، طلبتَ منه إحضار زجاجة زيت اللوز الحلو وأمرته بالانصراف إلى بيته بعد أن يُغلق المرافق، وطمأنتَه بأنك ستتكفل بإغلاق مكتبكَ بنفسك، انصرف العامل بابتسامةٍ عريضة بعد أن أحضر طلبك، وانحنى لك احترامًا قبل أن يخرج.

أحكمتَ إغلاق الباب، ثم جلستَ في المقعد الفردي على يساري، شربنا الشاي بين لحظاتٍ مر فيها الصمت على غير العادة، حاولتَ أن تسلّيني بكلماتك، تثني على جمالي، رغم أنني جاهدتُ في تبرجي إلا إن شحوبًا أغضبني يأبى النزوح عن ملامحي، فهززتُ رأسي بضيقٍ وأنا أقول:

- حقًا! الجميع يقول أبدو اليوم شاحبة.. يحسبونني مريضة.

نهضتَ من مقعدك واقتربت، جلستَ جواري، ثم همست بصوتٍ دافئ ينساب في أذني كنسيمٍ هادئ: «حتى لو بدوتِ متعبة.. كأنك قمرٌ حزين.. فاتنة بكل حالاتك.»

استطعتَ أن تنتزع مني ابتسامة، فتابعتَ بدهاء:

- ولكن هذه الابتسامة الأخاذة تصيبني في مقتل.. أحبكِ..

ضحكتُ بغنج وأنا أتمتم: «حبيبي أنتَ.. فؤادي.»

رفعتُ يدي على ثغري أخفي ابتسامتي، وعيناك ترصد حركة أناملي..

كيف نزلت من شفتي ببطء وراحت بتوتر تعبث بخاتمٍ ألماسي، هدية من محمد في أحد الأعوام السابقة بمناسبة ذكرى ميلادي، نظرتَ إليه، ثم حولت عينيك إليّ سريعًا، كأنك قرأتَ صراعي الصامت، أشرتَ لزجاجة زيت اللوز الصغيرة التي كنتَ قد طلبتها من العامل، وقلتَ بنبرة مرحة لتخلو من الجدية: «لأنك متوترة.. ستجربين الآن مساج اليد العلاجي.»

ثم أضفتَ مبتسمًا، بنبرة يكسوها الحرص والاهتمام:

- يُقدّم هنا خصيصًا للأطفال من ذوي فرط النشاط، والذهن المشتت .. تمامًا مثلكِ الآن!

لم أحرّ جوابًا، فقط.. طالعتك بدهشةٍ لم أحسن إخفاءها.. لم تنتظر كلماتي، لأنك تعرف أن الصمت في لحظات كهذه أكثر بلاغة..

مددتَ يدك ببطء، واحتويت كفّي بحذر، كانت تلك أول مرة تتجرأ فيها على لمسي، رغم أننا قطعنا سويًا شوطًا طويلًا من الحب اللفظي، المطر بغزل الكلمات، لا الأفعال.

صوتك ظل هادئًا، مهنيًا، كأنك تخفف من وطأة اللحظة وتحفزني على الاستسلام لك:

- هذا المساج العلاجي يساعد على تهدئة الجهاز العصبي، ويقلل من التوتر، ويزيد من الوعي الجسدي..

أحسستُ لمستك كجمرةٍ مستترة، تحرقني ببطءٍ .. تأملتُ يدينا المتشابكتين وسألت نفسي سؤالًا موجعاً (ألم تقم قيامتنا بسبب مسكة اليد! ألم أسقط في حماقتي وجحيمي بعد أن رأيت يد تلك الفتاة تمسك معصم محمد!)

أزحتَ خاتمي الألماسي من إصبعي ووضعته على الطاولة الزجاجية بكل رفق، وكأنك تنزع محمد عن ذهني بإصرار ناعم.

قلتَ وأنت تطالعني برجاء ويدك تضغط كفي بجنان: «أغار عليكِ ..»

فهمتُ أنكَ تعنيه.. محمد بالذات، رغم أنني لم أذكره أمامك إلا بالسوء:

- لاشيء يستحق غيرتك.. أنا لم أخنك مذ أحببتك.. ولن أفعل..

انتشت عيناك بسعادة، استرسلتُ، ناظرة في عُمقك: «وأنتَ؟»

- أضعتُ كل خرائط الحب، ما من حبٍ سواكِ..ولا درب إلا عند رمشكِ..

كلما عزفتَ لحن هواك، ازددتُ جمالاً.. وتلاشي ذلك الشحوب الذي راودني.

ثم بدأت بما كنت تنويه.. قطرات من زيت اللوز تساقطت بين أصابعك، وراحت كفاك تدلك راحتي يدي بحركاتٍ دائرية واثقة، تهمس بصوتٍ منخفضٍ أقرب إلى التنويم: «تنفسي بعمق، أرخِ عضلاتك..»

صوتكَ كان أقرب لموجٍ يهمس للشاطئ في ليالٍ ساكنة، بدا كل إصبع مني وكأنه يعترف لك وحدك بسرٍ خفي، تمرره بإبهامك من القاعدة حتى الطرف، تعود لتضغط مركز راحتي، وتقول إنه الموضع المخصص للتهدئة، بحسب علم الانعكاسات (الريفلوكسولوجي). وكلما ضغطتَ، شعرتُ أنك تلامس توتري الحقيقي، لا مجرد بشرةٍ ونبض، استسلمت.. دون أن أعني ذلك، أو أرفضه، كل قراراتي ذابت في تلك اللحظات، كذوبان الشمع..

سألتني بنبرة دافئةوأنت تداعب أصابعي وقد سكرتُ في خدرٍ مريح:

- لا تزالين معرضة عن ارتداء خاتم الزواج؟

ثم أردفتَ وعيناك تغوصان في وجهي بافتراسٍ وادع:

- لو كنتِ خاصتي، لما سمحتُ لكِ بخلعه قط.

تعجبْتُ من ملاحظتك الدقيقة التي لم أتوقعها!

حيالي اشتعل، واشتعل أكثر وأنا أراقب أناملي ترتفع بقبضتك نحو ثغرك، قبّلتها بحذرٍ جري»، لم أعرف كيف أعترض، رغم أن داخلي يغلي ككتلة من لهب الضمير يرغب في التمرد لكنه لم يعرف مخرجًا.. فقط صمتٌ يراقب، ونبض يشق اضلعي، فيعيدني غزلك.. يحملني لعوالمٍ أخرى:«لا تعلمين كم أعشقكِ! أنتِ أجمل ما عرفته عيناي»

مرزتَ شفتيك على راحة يدي.. ثم معصمي، حتى امتدتْ يدك بتريث تتسلل بأصابعها نحو خماري المزاح للخلف تراوده وكأنها تهمّ بإزاحته تمامًا..

فجأة شقّ رنين هاتفي سكون اللحظة، وأيقظنا من سكرتنا، أجبتُ بصوت خافت. كان يوسف يسألني عن سبب تأخري، كنتَ حينها سارحٌ تنظر للبعيد، كمن غرقَ في بحر من التفكير، أغلقتُ الهاتف وكفك ماتزال تحتضن كفي..

ابتسمتَ وأسدلتَ بحنان كُمّ قميصي مرة أخرى على ساعدي، وأعدتَ الخاتم بإصبعي، وقلتَ وكأن شيئًا ما انطفئ داخلك: « هل نخرج قليلًا ..»

هززتُ رأسي موافقة بارتياح، فانطلقنا بسيارتك نحو الشاطئ، حيث بقينا جالسين داخلها، نراقب الأمواج الهائجة بصمت، وذراعك تحاوط ذراعي، تخشى أن أفلتَ منك، والكلمات باتتْ زائدة عن الحاجة، فخواطرنا تعرف طريقها دون حديث.

عدتُ إلى المنزل غارقة فيك، متأملة تصرفاتك وقراراتك..

لا شك أنك شعرت مثلما شعرتُ، بأننا بدأنا ننحرف نحو الهوى بإغوائه المحرم، وأنك تريده حبًا حلالًا طاهرًا، لهذا اخترتَ الرحيل بدلًا من البقاء في المكتب، اخترتَ النقاء بدلًا من التمادي.

****

في مساء اليوم التالي، وصلتني رسالة نصية عبر الهاتف من محمد يرغب في أن يصحبني للعشاء لمناقشة ما آل إليه وضعنا المتأزم، كانت رسالته تنضح برجاءٍ خفي، كخيط رفيع يحاول وصل ما انقطع بيننا، فرددت عليه برسالة نصية كالرصاص الذي أقطع به ذلك الوصل: (طلّقني)

وأغلقتُ الهاتف تمامًا.

كانت المرة الأولى في حياتي أختار فيها هذه الكلمة المسمومة..

عدتُ أدراج ذاكرتي إلى بداية زواجنا عندما عبر عن رغبته في الطلاق برسالة، تعجبتُ من نفسي كيف أرتكب أخطاء محمد التي لمته عليها بقسوة!

ولكن أخطائي أصبحت أشد وأعظم قبحًا، فهو لم يرغب في الطلاق من أجل فتاة أخرى، ولم يسمح للفتاة التي أمسكت بيده أن تدنيها من ثغرها!

أما أنا!

فأثقلت كاهلي بذنب لا يغتفر، حملتُ بين ضلوعي نار عشق محرّم، تضطرم بلا هوادة، ذنبي يتجسد في كل نبضة شوق، في كل خيال وذكرى، وكأن قلبي قد جنّد نفسه ليكون جنديًا لهذا الهوى..

وما أريد له إلا أن يزهو ويثمر بالحلال ودون أن أتلوى تحت سياط الضمير.

خرجتُ من المنزل كالهاربة حتى لا يواجهني محمد، فالمنزل لا يبعد سوى خطوات عنه.

جلستُ على أحد المنحدرات الشاطئية أتأمل البحر وأفكر بكِليكما لأنهي هذا الصراع الداخلي..

وجدتُ أنكَ قدري، أنت أول من عشقني، وأنتَ من أنقذني في أحلك أيامي العصيبة وضياعي.. أنتَ من أنقذ ابني يوسف في عالمه المليء بالتحديات، شعرت بقوة جارفةٍ تدفعني نحوك.

جئتني بعد أن طلبتك، بأناقة خليجية تامة لم أعتد عليها، تبرق في بياض الزي

التقليدي «الثوب والغترة»، خرجتَ من وليمة أحد أقاربك للقائي، وبدوت متوترًا لعدم اعتيادك على هذا اللباس حيث ازداد عبثك «بالغترة» على رأسك، سألتني بوجل: «ماذا هناك؟ أقلقني صوتك.»

قلتُ وأنا أقيس صدى كلمتي في عينيك: «طلبتُ الطلاق.»

قطّبتَ حاجبيك وابتسمتَ قائلًا بنبرة متهاونة:

- كأن هذا الطلب تأخر طويلاً.. حسبتكِ لن تطلبيه أبدًا؟!

ثم أدرتَ وجهك شطر البحر، كأنما تتهرب من المعنى، غير آبه بما نطقتَ به، فأثار فتورك استنكاري: لاتبدو مهتمًا؟! ألا تريد أنْ نتزوج؟

قلتَ مؤكدًا: «لا»

شعرتُ كلمتك رمحًا يخترق صدري وصحتُ بدهشة: «ألم تقل إنك تحبني؟!»

رددتَ بامتعاض وجفاء لم أعهده منك: «نعم كنت أحبك .. ومازلت، ولكنني أحب أسرتي، لا أريد أن تتبعثر .. لا أفكر أبدًا بالزواج، إطلاقًا!».

اتسعت حدقتاي وصحتُ: « لماذا جعلتني أتعلق بك هكذا! لماذا بادلتني المشاعر والحب!»

- ليلى، كنا نتسلى فقط! أستمتع برفقتك وبحبك!

- وهل أنا دمية لتتسلى بها! أنا عشقتك بكل كياني..

ابتسمتَ كالمنتصر وبتشفٍ قلتَ لي:

«كنتُ تسليتكِ في الماضي.. وأصبحتِ تسليتي..»

جفلتُ لا أفهم ماتقول! فرددتَ سريعًا، وكأن الكلمات كانت فقط تنتظر الإذن لتندفع كالحجارة النارية من فوهة بركانك على قلبي: «بالطبع لا تعلمين .. لا تعلمين كم أشعر بالمهانة كلما ذكرت ماضينا معًا! حطمتني، عاملتني بكل احتقار وبلا إنسانية! جعلتني ذليلًا، لماذا؟! لأنني كنت فقيرًا! أو قبيحًا في نظرك! كم أنتِ سطحية!»

هالني حديثك، ومقدار الأسى الذي تحمله تجاه علاقتنا: «أنا جعلتكَ ذليلا؟!»

استطردتَ بتهكم: «طبعًا .. وكيف ستتذكرين! تجاهلتني تمامًا وتركتِ حبي للعنان، لم تكلّفي نفسكِ حتى عناء الرد عليّ!! خشيتُ أن يكون قربي منك يحرجك، أغرقتكِ وصندوقكِ الجامعي بالحب كمن يستجديه، دون أن تتعطفي برسالة.. أو تردي ولو مرةً واحدة. وضعتُ كل مشاعري وكرامتي أمامكِ، لأعلم فقط إن كنتِ تقبلين بي! هل أتراجع أم أصمد في وجه تيار العشق الهائج!»

مدّدت بصرك الموجوع نحو البحر، وأصابعك تبعد طرف الغترة عن وجهك، حيث الهواء يعبث بها:

« وعندما حاولت أن أحدثكِ وجهًا لوجه بعد طول صمتك، صرتُ أضحوكة بأفواه زميلاتك التافهات .. حين جاءت إحداهن ونعتتني بالفقير الدبق! وطلبتْ أن أعتقك! فقد تزوجتِ منذ زمن، بل وكنتِ حبلى! وأنا في غياهب الجهل!! ولا أنسى أنها قالت ساخرة (على الأقل، حظيت بزوجٍ وسيم ويمتلك سيارة فارهة .. يا عمود الحافلة)! هل تعلمين مقدار الصفعة التي وجهتها نحوي صديقتك بكلامها هذا!!»

استدرتَ نحوي، واحتدت نبرتك.

لوهلة، خُيّل إليّ أنني أشهد تجردك من هدوئك لأول مرة، منذ التقينا قبل أكثر من أربعة أشهر: «أصبت بانهيارٍ عصبي واكتئاب حاد دخلت إثره للمشفى، تحطمت ثقتي بنفسي، حتى أصبحتُ عاجزًا عن المبادرة أو حتى التفكير في البحث عن شريكة لحياتي، خشيتُ أن تكون كل النساء على شاكلتك وشاكلة صديقاتك اللواتي لم أجد فيهن سوى التفاهة والسطحية والمادية، هل أدركتِ الآن لِمَ كانت (نسرين) هي التي بادرت وأعربت عن إعجابها وحبها لي؟ لأنني ببساطة لم أعد أمتلك الشجاعة أو الثقة للسعي خلف تلك الفرصة، لقد كنتِ السبب في إطفاء ذلك البريق داخلي، في جعلي أسيرًا لخيبة لم أستطع تجاوزها لسنين.»

تألمتُ كثيرًا وأنا أنصتُ لكل ما تقول، نعم أعلم بأنني سطحية وأكثر مما تتخيل ومهووسة بالمظاهر، وربما سخرتُ كثيرًا منك في داخلي وتنمرتُ عليكَ مع صديقاتي وأنا أحسبك تعني مريم بالذات، ولكن ظروف زواجي العسرة وهشاشتي التي تسعد بالمعجبين من حولها، رغمًا عني.. لم أرغب في آن أغلق الباب أمام حبك لي، وإن كنتُ لا أبادلك الحب في ذلك الوقت.

أردتَ أن تنصرف، تُنهي كل شيء ببساطة! فتشبثتُ بك باكية، فتابعتَ بتعالٍ:

«أنا لست كأي شابٍ ترفضينه وتطئينه بقدمك! رغم أنني كنت فقير المال إلا أنني غنيُ العزة، والآن .. شعورٌ بالاعتزاز يراودني وأنت تطالبيني بالحب..»

هجستُ كلماتك تهوي على وجهي كصفعاتٍ متتابعة، تنكسر لها إرادتي، أردتُ أن أقاتلك بك، لأجلك، استعنتُ بالتهديد ألقي آخر سهمٍ في معركة خاسرة: «ستعرف زوجتك عنا. »

ابتسمتَ وقلتَ بيقين: «أنا رجل، علاقتي بك وبغيرك لا تُعد جرمًا عظيمًا في

عرفنا، هكذا خُلقنا، وهكذا يعذروننا! أما أنتِ؟ أنتِ المرأة! العار..

هل تظنين أن أحدًا سيتفهّمك؟ أنتِ لا عذر لك؟ كيف ستقفين بين زملائك؟ كيف سترفعين عينيك في وجوههم؟ تأكدي بأنك من سيفضح لأنك أسوأ مني بكثير في نظر الجميع»

أغضبني حديثك وأعجزني، صحتُ وصرخت وأنا أرى كرامتي تتفتتُ وتُذرى أمامي، بل رحتُ أردد بصوتٍ هستيري وكأنني صماءٌ لا أنصت ما تقول، أكذبك بلهفة الغارق:

- لن تتركني.. تكذب .. أنا أعشقك.. وأعلم بأنكَ تحبني.. تحبني..

تنهدتَ وقد لانت حدتك.. ثم اقتربتَ مني على الصخور البحرية عندما لحظت طوفاني وهيجاني، ترغب في إخماد بركاني الثائر. كنتُ أجلس قرب قمة المنحدر، على حافةٍ تنوءُ بي، والأرض ذاتها لم تعد تحتمل وجعي، أثقلني الانهيار، واحتشدتْ في داخلي جيوشٌ من الجنون، فلم أعد أعي ما أفعل.

امتدت يدي تعبث بفتات الصخر المتناثر، شظايا خشنة كانت يومًا جزءًا من جلمودٍ صامد، فقبضتُ على حفنة منها كأنها انبثقت من قاع قلبي المفجوع، ورحت أذرّيها في الهواء بعنفٍ هائج، كمن ينثر غضبه لا غباره.

انحنيتَ ناحيتي، تمد يدك، وتقول بصوتٍ أجفلته الريح:

- ليلى.. اهدئي.. لن أتركِكِ.. لا بأس من استمرار علاقتنا إذا ..

لم تستطع إكمال جملتك، وأنا لم أدرك ما تقول إلا بعد فوات الأوان..

صوتك خفت، تلعثم في زحمة الهواء والشظايا، ثم انطفأ تمامًا، رأيتُك تتراجع فجأة، تتلوّى، تفرك عينيك .. أعمتك لحظة خاطئة، الرمال المتناثرة وفتات

الصخور قد اخترقت عينيك، تسلّلت كإبرٍ ناعمة نحو البؤبؤين المصدومين.

تعثرتَ، وخطاك السريعة على الصخور الزلقة خذلتك، ونعلُك التقليدي خانك في لحظةٍ حاسمة، فانزلقتَ!

رأيتك تهوي أمامي!! مشهد ينزف في ذاكرة الكوابيس! خفق قلبي بجنون بين ندمٍ وصدمةٍ لا أملك ردها، كنتَ تتدحرج حتى سقطتَ إلى أسفل المنحدر. وكاد البحر يبتلعك ويخطفك مني..

لولا لطف الله .. لاحقتك ببصري وبصرخاتٍ لجمتها بيدي، شلّ منظرك المرعب حركتي، ثم غلا الأدرنالين بأطرافي وانطلقتُ أبحث عن المساعدة وأنا أجاهد في كتم بكائي، لم أصدق أنني عثرت على مجموعة من الشبان يتسامرون غير بعيدين عنا وهم من أنقذوك.

عندما احتشدوا لإسعافك والتأكد من أنك لا تزال على قيد الحياة، أغرقتُ التراب من دموع حمدي و شكري لله على سلامتك. لم يدرك أحد بأنني كنت سببًا في سقوطك.. حتى أنتَ ..

فقدتَ كل ذكرياتك معي..

بل أغلب ذكرياتك، فقد تسبب الارتجاج الذي طال رأسك إلى فقدان مؤقتٍ للذاكرة، ولكن الطبيب طمأن زوجتك بأنه يتوقع أن تستعيد ذكرياتك خلال الأيام القادمة، فالسبب نفسي.

٣٢

على قارعة الوصال

في ذلك المساء، جلستُ أتلو على أبي وجدتي بعض السور القرآنية الجديدة التي حفظتها، كانت جدتي تصغي إليّ باهتمام، بينما كان أبي يسمع دون إنصات، شارد الذهن، وكلماتي لا تصل إليه، لم يكن بخير، فتوتره الأخير مع أمي أثقل كاهله. وكأنه يود أن يكسر هذا الخلاف الذي طال أكثر من اللازم، يرغب في لمّ شتات أسرتنا من جديد وبأسرع فرصة، وكعادتها، كانت عينا جدتي تتابعانه بشفقة وقلق، خوفًا من هذا الكم الهائل من الحزن الذي يعتمر صدره.

حين أقبل عمي أمير مرحِّبًا، ردّ عليه أبي السلام بفتور، ثم نهض وخرج دون أن يضيف كلمة، تعبيراً عن عدم رغبته في أن يجتمع به في مجلسٍ واحدٍ منذ الحادثة، تبرّم عمي وهو يجلس إلى جوار والدته، تمتم بضيق:

- إلى متى سيستمر هذا الجفاء! نحن أخوة

رمقته جدتي بنظرة صارمة: «الأخوة ليست مجرد كلمة تُقال»

ثم أردفت بحزم تعني بها أيضًا حياته الزوجية:

- أفعالك ستجرف عنكَ كل أخٍ ورفيق.

أسند ذراعه على المقعد، وزفر بملل قبل أن يتمتم وقد فهم مغزاها:

- صدقيني أماه، الحياة الزوجية مملة.

نهرته بحدة، كما لو كانت تصفعه: «كفى! لا تجرّنا إلى رعونةٍ أخرى»

تأفف بخفوت: «لا يمكن للمرء أن يبوح بما يشعر به معكم»

- احمد الله على ما أنت فيه! انظر إلى حال أخيك.. لم يذق سوى القهر منذ شهور. تقطعت روحه على زوجةٍ أجبر على فراقها، وعلى بيتٍ تهاوى.. كل ذلك بسببك!

ورغم أنها كثيرًا ما رددت أن أمّي لا تستحق سوى الطلاق، إلا أنها في هذه اللحظة راحت تندب حظها العاثر وهي تكمل:

- ابني المستقيم تخذله زوجته، ولا يرغب في تركها، وأنت أيها العابث، تملّ من زوجة مصونة كالدرة، لا يعوزها شيء.. وتدمّر حياتك بيدك.

كانت عينا جدتي لا تسلم من الدموع كلما تحدثت عن أبي، فازدردت غصتها بصمت، فيما كان عمي ينهض مستعدًا للمغادرة، لكنها استوقفته بنبرة تحقيق:

- وإلى أين ستذهب؟

كأنها تحاول أن تمسك الزمن بيديها، تخشى أن ينجرف مرة أخرى في تيار ماضيه الأسود. ضحك، داعبها ليبدد مخاوفها، ويطمئنها:

- أقسم لكِ.. تغيّرت. لم أعد ذلك الشاب الطائش.

لكنها لم تكن لتقتنع بسهولةوشجعته على اصطحابي معه، وكان ذلك طلبًا يحمل في طياته أكثر مما يبدو عليه، كانت تريد عينًا خفية تنقل لها أفعاله.

ووجودي، لا محالة، سيمنعه من اللعب بذيله هنا وهناك، وسيحفظ له استقراره.

نهضتُ بحماس، وكأنني التقطت إشارتها الخفية، وأعلنت بمرح لعمي:

- سأبات معكم الليلة للمرة الأخيرة.. الأسبوع القادم تبدأ المدرسة!

لوى عمي رأسه في تحدٍّ صغير، ثم أشعرني بقبضةٍ دافئة عندما طوق عنقي بذراعه، ليخرجنا إلى حيث الهواء الطازج يلتقي بالضحك.

مع وصولنا إلى الساحل، تبددت تلك الابتسامة عن وجهه كتبدد السحب من سماء صافية، ليحل محلها صمتٌ ثقيل، بدأ يتحدث بصوتٍ شاحب كمن يتحدث إلى نفسه، كأنه يود أن يسكب ما في قلبه دون أن يرغب في أن يسمعه أحد، كانت كلماته تتساقط ثقيلة عليّ، وهو يعي تمامًا أنني لا أفهم كثيرًا مما يقول، فحديثه مليء بالمصطلحات المعقدة والعبارات المنمقة التي تخوق قدرتي المعجمية على تفسيرها.

عبر عن مله ..

عن الملل الذي يدب بأوصاله من حياته الزوجية الرتيبة.. وأنا أقرأ في وجهه الاستياء، اقتربنا من البحر، وبينما كانت الأمواج تتلاطم بصوتها الأليف، ظل ينظر إليه، هامسًا في نفسه، كأنه يطلب من البحر أن يفهمه:

- ماذا أفعل الآن، وقد نذرتُ قلبي أن لا تبصر عيناي سواها! وشغفي في هذا الحياة هو نزف القصيد.. بل كيف يستكين من اعتاد الترحال بين الزهرات، لواحدةٍ فقط؟ كيف يروض قلبه الذي ألف اللهو بين حدائق الهوى؟!! أريد أن أبحر بعيدًا.. أن أذوب في لجّة العشق، بسفينةٍ تفر بي من كل أوجاعي

وآلامي الدفينة بتجاويف القلب!

عندما عدنا إلى السيارة، وجد فيها قلمَ شفاه أحمر، يبدو أن خالتي فجر أسقطته سهوًا. راح يخربش أعلى قميصه بأحمر شفاه، وأنا أضحك لفعله الغريب، ولم أدرك ما يصنع! حتى وصلنا لشقته..

سقطت خالتي فجر بالمصيدة، شبت النيران بينهما، وبدأ الصراع الذي يترقبه..

وأسرعت أنا نحو الغرفة المخصصة لي ورحت أتلصص على هذا الشجار العنيف وكيف خرجت الجنية الغاضبة من داخل خالتي فجر أخيرًا وصاحت به: «تخوننني! طلقني .. ليتني لم أتزوج بك.»

- •بل أنت الخائنة تريدين الزواج من ابن عمك!

طالعته هي باستغراب! فكيف قام بقلب دفة الشجار!

وهو يعلم يقينًا أن حكاية ابن عمها قديمة جدًا وفارغة، ولكنه يريد أن يخلق زوبعة من دخان، وثارت ثائرته أكثر..

صرخ بها وسلبها هاتفها وأحكم إغلاق الشقة لكي لا تخرج أو ليؤجج غيظها.

خرج للشرفة يتنشق جرعات الهواء العليل وهو ينفث سيجارته بنهم يلوثه بها، قابل هاتفه وراح يدون ما استكان في خاطره، تدفقت أفكاره ثم اندفعت كطوفان دون توقف عن الحبيبة الخائنة ..

فهو عنوانٌ لم يكتب عنه منذ سنين، شعر بالراحة بعد أن أبدعت قريحته ..

أسرع لرؤية زوجته بعد أن تطهر داخله من غله، كانت متكومة على بعضها بالكنبة الوثيرة بالصالون، وأنا على المقعد المجاور أتلو بعض آيات القرآن بناء على طلبها، ما إن أقبل حتى لذتُ بالصمت وقفزت هي:

- • أين هاتفي، سأحدث أمي..

لم يجبها، صرخت .. فقدت صوابها وراحت تضربه بقبضتها على صدره، أمسك يديها بحزن .. ثم راح يقبل أناملها الرقيقة، تعجبت هي من سلوكه الذي تغير وهدأ من دون مقدمات.. جرت دمعة من عينه ومسحها بكفها وظلت كفها هناك على خده، كنت أراقبهما وكأنهما في مسرحيةٍ درامية.. أخرجها عمي عن قصد وإصرار:

- •أنا آسف .. سامحيني .. تعرفين كم أحبك!

وغرق في بحر عينيها القلقتين وراح يرتِل أشعاره مُرتجلًا:

((هيا انزعي القلبَ المسجّى في هواكِ

فلثمةُ الرحمةِ خمرٌ في رحاكِ

لو مالَ عنكِ مأربي نثرًا ونظمًا

إنّ الجنونَ تائهٌ، لا عن سواكِ

عذرًا فهل لو قلتها مليون حِينٍ

في عشقكِ يا حبُّ هل لي برضاكِ؟))

حدجته خالتي فجر بنظرةٍ تفيض بالارتياب، ثم سحبت كفها من قبضته، محاولةً الفرار كحمامةٍ أفزعتها يدٌ امتدت نحوها، لكنه كان أسرع، لحق بها وحمل جسدها الصغير بين ذراعيه، بينما راحت ترفس الهواء في مقاومة يائسة، تحاول الإفلات من قدرٍ محتوم.

في تلك اللحظة..

تسللتُ بعيدًا مرة أخرى، عدت لحجرتي، خوفًا من أن أكون ضحية عابرة في

معركتهما الصغيرة، رغم أنني أعلم يقينًا أنهما لن يقدما يومًا على إيذائي. فكانا يغمرانني دائمًا برعايةٍ لا يشوبها إلا حبًا يفيض كالنهر، ودمائةٍ كنت أراها حصنًا يحميني من أي شعورٍ بالغربة في مسكنهما.

أغلق عمي باب الدار بإحكام، كما يُغلق القائد أبواب قلعته قبيل معركة لا يعرف مداها، لم يكن هناك مجال للهروب، ولا فرصة لمكيدة عابثة تحت ستار الليل، لكن الحيرة اعترته!

كيف له أن ينام بجوارها وهي في قمة غضبها؟

تراوده الأفكار الجنونية التي لا تفارقه.. ماذا لو استيقظ ليجد يديها تطوقان عنقه؟

أو سكينًا تقبض عليه بأنامل غاضبة! أو تحاول انتزاع مفتاح الغرفة؟

بالطبع، كان تفكيره دائمًا ميلودراميًا، مشبعًا بالهواجس والخيال الجامح! كما صرّحت العائلة لاحقًا وهي تسخر من تصرفاته الطائشة.

مدّ يده إلى أحد الأدراج، أخرج ربطة عنق وعقد بها يديها بإحكام، بينما هي تحدّق فيه بعينين اتسعتا رعبًا، تركله بقدميها محاولةً تحرير نفسها، تصيح بذعر: ماذا تفعل!

- •ستبقين بقربي حتى لا تهربي.. أو ربما حتى لا تؤذيني

هدأت وهي لا تلوي على شيء، كانت تنظر إليه بريبة وخوف، وكأنه كائن فضائي أو سيكوباتي خطير!

كان عمي بتصرفه هذا قد ارتكب جريمته، وتاه أكثر ولم يعرف بعد أن فرقع زوبعة الأحداث هذه كيف يحل الأزمة..

لم يخنها، ويعلم بأنها كانت تعشقه حتى إنها تحبني وغذتني بحنانها وعطفها لأنني قريبه، ولم يفكر بإخبارها حقيقة المسرحية التي قدمها مع أحمر الشفاه، وكأن هناك محفزاً خفيًا بداخله يشعره بالاستمتاع في إثارة الفوضى والتوتر، فعقد النية على الاستمرار في غيه.

وفي الصباح خرجتُ برفقته ولم يغمض لي جفن من شدة حزني على خالتي العزيزة فجر، أخذني لمنزلي وذهب للعمل، بعد أن غلّق عليها الأبواب وأخفى هاتفها وتأكد أنها لا تستطيع التواصل مع أي كائنٍ آخر، فلا سبيل لهروبها، كل النوافذ مسيجة بأعمدة معدنية.

لم أستطع أن أمحي صورتها وهي دامعة خلفه تريد الخروج، وهو معرضٌ عنها، كأنما لم يكن بينهما يومًا عهدٌ ولا مودة.

عندما أوقف السيارة التفت نحوي بلطف بابتسامته المشرقة، وقال بصوتٍ يخلو من أي إحساسٍ بالذنب:

- •لا تفشِ أسراري لأحد... كنتُ أمازحها فقط، نلعب معًا، لا شيء أكثر.

هززت رأسي إيجابًا..

لكن قدميّ لم تحملاني إلى الداخل، بل أسرعتُ إلى بيت جدتي، ملاذي الدائم، كهف الأسرار الذي لا أخفي عنه شيئًا، وما إن وقعت عيناها عليّ حتى أدركت أن شيئًا يعتركُ في صدري، أمرًا لا يسرّ، فألحت علي بأسئلتها حتى لم أجد مفرًا من البوح.

شهقتْ وهي تضرب صدرها في هلع..

أمسكت الهاتف بيدٍ مرتعشة، وهاتفت عمي على الفور، جاء محرجًا، محنيّ الرأس أمام عاصفة تأنيبها، ونُخته بحدة

فما كان منه إلا أن عاد إلى شقته مسرعًا ليحرر زوجته من قيوده..

وقف أمام خالتي فجر يتوسلها..

يرغب في فرصة أخرى، لكنها لم تعد المرأة ذاتها

حدّقَت به طويلًا بعينين لا تبكيان هذه المرة، ثم هشّمت ما تبقى من وصلهما بكلماتٍ باردةٍ كالنصل:

- لم تعد بطل قصتي

وهكذا خسر جوهرةً لا تقدر بثمن..

لكن طبيعته التي لا تعرف انكسار القلب على ما يبدو، دفعته إلى تحويل حزنه الباهت إلى دافع، فشحذ نيته لإصدار ديوانه الأول، وقرر أن يُطلق عليه (وفجرٌ إذا احتواني).

دوّامة يوم الاثنين

لم أتخلَّ عنك!

زرتك للمرة الأولى بعد الحادث المروّع، صباح يوم الاثنين، قبل يومين فقط. جلستُ قربكَ أتأمل ملامحك الساكنة، أستشفّ منها بقايا ذلك الأمان الذي تبعثر.

سردتُ عليك تفاصيل لقاءاتنا، استعرضتُها على مسامعك كفيلم إذاعي، بل أوفيتُ بوعدي الذي قطعته لك ذات يوم، فرويتُ لك حكاية زواجي الغامضة، وكيف كنتُ مجبرةً على زواجٍ لم أختره. لا أعلم كيف أسهبتُ في ترتيل تفاصيل حياتي لك! ربما لأنني اشتقتُ لحديثي معك..

كم كنتُ أحب تلك الأحاديث.. ضحكاتنا، همسنا، صراحتنا التي لم تكتمل يومًا! أعجبتُ بك، وخشيتُ أن يرى قلبك ارتباكي، فزيّنتُ حروفي كي لا تقصيني عيناك.

نعم، زرتك وسأظل أزورك حتى تستفيق، وتبادلني تلك الهمسات..

بل أنتَ من سيقطع حبل حيرتي التي خنقتني منذ يومين! بسبب محمد..

أنت من سينقذني من تيهي العميق هذا..

كنت أقارنه بك.. كلّ ما افتقدته معه.. وجدته فيك.

لاسيما شاعريتك مع زوجتك، وعاطفتك العلنية تجاهها، شدّتني من أول مشوارنا.

أحببتُ أنك تؤنسها، وتضحكها، وتضحك معها.. تلتهمها بعينيك حين تحدّثك، وتُغرقها بنظراتٍ تُشعرها أنها آسرةُ قلبك، من دون أن تكترث بعيون العالم حولك.

أنا أيضًا أردتُ أن أكون كذلك.. المحبوبة، المعشوقة، سالبة لُبّ زوجها.

كأنها عقدة نقصٍ تتوسّل الامتلاء.

وأنتَ، وحدك، من صارحني بالحب الحقيقي ومدني بكل ما أحتاجه في الشهور الماضية، فازداد تعلّقي بك..

لكن الآن.. حيرتي تمزقني.. ليتك تصحو.. ليتك تنقذني وتردّ إليّ صوابي الذي سأفقده..

خرجتُ من عندك في الزيارة السابقة متخفيةً كما دخلت، أعدُّ الدقائق لانقضاء الساعات، في انتظار هذه اللحظة، لحظة الالتقاء بك مجددًا، علّك تفيق، علّي أجد في عينيك ما أبحث عنه، وأتمكن أخيرًا من البوح بكل ما يعتمل في صدري والتخلص من حيرتي التي التهمتني بشراسة.

فبعد انصرافي من عندك في ذلك اليوم، قصدت (مؤسسة ارتقاء) من أجل حصص يوسف العلاجية.

لا تتخيل كم كانت الأرجاء موحشة مقفرة من دونك!

كنتَ النسيم العليل والنكهة اللذيذة التي تؤنسني كلما ذهبنا للمؤسسة، اللحظات معك كانت تمر سريعًا وكأنها برق خاطف..

على النقيض الآن، الوقت يمر بطيئًا جدًا لا يكاد ينصرم، متثاقلة بحزني وقلبي خائر، وأصبح أشد انقباضًا في المساء.

فبعد أن عدتُ إلى المنزل برفقة يوسف، وأعددت له ولأخيه طعام العشاء وأنا أجاهد أن أضحك معهما وأسلي نفسي وأسليهما بأسئلة متفرقة عن المدرسة وتطوراتها، ولعبتُ معهما بعض الألعاب الورقية في محاولة جادة مني لتشتيت ذهني عن صورتك الممددة أمامي..

إلى أن أودعتهما للنوم بقبلاتٍ على الجبين وعناقٍ دافئ.

اتكأتُ على الكنبة البيضاء الوثيرة، أغمضتُ عيني للحظة، علّني أجد سبيلًا للهرب من أفكاري المتشابكة، وسياط ضميري التي تؤنبني.. فحتى وإن كنتُ لم أقصد، إلا أنني كنتُ السبب فيما أنتَ عليه..

التقطتُ جهاز التحكم وأدرت التلفاز، ورحتُ أقلب بين القنوات بلا اكتراث، حتى استقر بي المطاف على مسلسل خليجي، ورحتُ خلال ذلك أعيد قراءة بعض المحادثات التي جمعتنا سابقًا، كم كنا غارقين بالسعادة!

بينما عينيّ تتابعان التلفاز بلا تركيز، شدّني أحد المشاهد: زوجة تواجه زوجها بعد خيانته، لكنه لم ينكر، اعتذر ببساطة، ثم اكتفى بقولٍ بارد (كل الرجال يخونون).

صُدمتُ لردة فعل الزوجة! لم تصرخ، لم تنفجع!

فقط انكفأت على نفسها بحزنٍ وراحت تبحث عن طريقةٍ لاستعادته، كأمرٍ طبيعي، وكأن اللوم يقع عليها لأنها لم تُجِد الاحتفاظ به!

هززتُ رأسي مستنكرة في البداية!

كيف يُروّجون للخيانة وكأنها قدرٌ مكتوب على كل النساء!

وما عليهن سوى تقبّله؟!

أطرقتُ قليلًا أفكر فيك، أنتَ أيضًا أخبرتني أن خيانة الرجل أمر عابر! أولستَ النموذج الأمثل للزوج في نظري! فاقتنعتُ بالفكرة.. فحتى أنتَ خنتَ زوجتك معي!

وإن كانت خيانة قلبية ولفظية فقط!

غرقتُ في أفكاري وعدت لهاتفي أراجع محادثات الهيام معك، ولم انتبه إلا ومحمد أمامي!

شهقتُ بخفوتٍ مرعوبة.. تلعثمتْ أصابعي وهي تحاول على عجل غلق شاشة الهاتف، لكن بلا جدوى..

بهدوءٍ أربكني، مدّ يده وسحب الهاتف من يدي وكأن الأمر حقٌ مكتسبٌ له كعادته، هَوى قلبي في قاع بلا نهاية..

كم تغيظني هيمنته حتى على هاتفي!

في كل مرة يستله مني بلا سابق إنذار، نهرته مراتٍ عديدة دون جدوى، وكأنني لا أملك حق الاحتفاظ بأسراري، فهذا الهاتف أصبح قنبلة موقوتة، أخشى أن تنفجر في يد أحدهم بأي لحظة! لم يلتفت إلى نظراتي الغاضبة، وضع الهاتف على الطاولة، ثم جلس على الكنبة بجواري مطرقًا، قبل أن يقول: «قضيتُ الأيام الماضية وأنا أفكر برسالتك..»

كان يعني رسالة (الطلاق) الأخيرة، ولكن عيني كانتا مشغولتين عنه، تتهبل الهاتف بترقب، قلبي يتسابق مع أنفاسي المضطربة.

اعتدلتُ في جلستي، ما إن انطفأت شاشته أخيرًا، وساورني الاطمئنان لعدم انتباهه لي شيء.

غرق للحظات في صمتٍ ثقيل، يبحث بين أفكاره عن الكلمات المناسبة. كانت إنارة المساء الصفراء الخافتة تلقي بظلالها على المكان، وكأنها تستنطقنا، تحثنا على التخلي عن الحواجز وكشف شتى أوراقنا ..

أخيرًا، تنفّس ببطء، وكلماته تتثاقل بين شفتيه: «لا أريد أن أنبش في الماضي مرة أخرى، ولا أن أتحدث عن خطيئتك، فذاك جرحٌ لا تسعه قدرتي على التحمل، ولكنني أمد يدي لنزهر معًا، فقلبي متعلق بكِ.. وسأنسى الدفاتر القديمة.»

لا أخفي تعجبي من موقفه، وكأنه خلع رداء كبريائه وحمل في كفه راية التسامح، هالني صبره وإقباله عليّ رغم إعراضي عنه في الأيام السابقة ورسالتي، وأنا التي كنتُ أعلم جيدًا كيف تحاربه عزته بلا رحمة في هذه اللحظة.

خطفني ببصره، يحسب أني سأرتمي بأحضانه، وأبكي فرحًا بين يديه، فلم يعرفني يومًا أطيل الجدال، كنتُ إما أن أكون المبادرة للصلح أو سريعة الاستجابة للرضا دون تمطيط، وكأنني في الآونة الأخيرة أخرى لم يعرفها. وتفاجأ أكثر حين قلتُ بحدة محطمة كل توقعاته:

- أنتَ أساس كل خطيئة!! أنتَ من بنيت عش زواجنا على حيل انتقامك!

امتقع لونه، وتجمدت قسماته، كأنني فجّرت أمامه صندوقَ ألمٍ قديم، مغلقًا بإحكام، لم نجرؤ على فتحه طيلة سنين، وفي لحظة لم يتوقعها.

تدفقت الذكريات في عينيه كجرحٍ نزف من جديد.

نهض، ينوي الانصراف كعادته عند الغضب. لكنّه توقّف، وكأنّ ثقلًا يقيد خطاه، وكلمة عالقة في حلقه تأبى أن تُحبس. استدار إليّ.. مرر يديه على شعره بتوتر، وكأنه يحاول كبح طوفان الذكريات. بدأ يذرع المكان بخطًى مضطربة، وهو يقول بحدة:

- أخبرتكِ عدة مرات بأن ما بيننا لم يكن بداعي الانتقام، أنا كنت سأنتقم منه بسحق عمله على أي حال!

صمتَ لحظة، وكأن شيئًا ما يتململ في داخله يحاول الفرار.. تقدم نحو المنضدة البيضاء المحاذية للجدار، وأسند ذراعيه إليها، يُرغم نفسه على البوح:

- حين رأيتكِ يومها عند منزلك، بدوتِ لي خائفة، بريئة على نحوٍ آلمني، ورؤيتي لقصاصة بريدك، حفزت لدي الرغبة لحمايتكِ منه، لا أنكر أنه استولى عليّ الشيطان وخدعتكِ أنا الآخر، لكن حتى كذبي بدايةً كان بدافع الشفقة.

استدار، ولكنه ظل يتحاشى نظراتي ويكمل بنبرة لا تخلو من الحرج:

«عندما وافقتُ بدايةً على زيارة الخطبة، كنتُ مرتبكًا ومشتتًا... وحين أنهينا المحادثة، تهتُ أكثر. كيف أظهر أمامكِ وأنتِ تحسبيني شخصًا آخر! فضعفت عن المواجهة وقررت عدم الوفاء! ولكن ما إن استلقيتُ، راودني وجهكِ القَلِق ولم يعتقني. بل لم يغمض لي جفنٌ ولم يهدأ لي بال حتى وجدتني أجذب أمي معي للخطبة.. أردتُ أن أعترف لكِ بحقيقتي، وأعتذر عن نزوتي في إطالة الحديث معكِ و عن كل ما جررته عليكِ من أذىً.. وبدأت تلك الشفقة تتضاعف حتى مزقتني حين سمعت صوتكِ لأول مرة..شفقة ومشاعر مبهمة تجاه فتاة عرفتها للتو، أشعرتني بالضعف. بالخجل. بل بدت كعار مع

اتهامات أمي اللاذعة، والتي كانت تقرأني ككتابٍ مكشوف. غضبت.. وخشيت أن تذيع هشاشتي بين الجميع. فتركتُ سُخف الانتقام معلقًا، لم أنفه، لأنني في عمري الغر ذاك رأيتُ فيه مخرجًا»

طالعته متعجبة، فما رأيتُ تلك الهشاشة التي كانت بالنسبة إليه أقرب إلى الرعب، إلا جمالًا تتوق إليه كل أنثى في قلب من تُحب. أردف، وكأنه يستدرك شيئًا فاته:

• ولتكون الحقائق أمامك كاملة.. أنتِ لم تكوني الوحيدة في (قائمة اللقاء) لذلك الأرعن، رأيته يتنقل بين شوارع قريبة من قريتك، يصطحب فتاةً تلو أخرى إلى سيارته، يعانقهن، يسر لكل واحدة كما لو كانت هي الوحيدة في قلبه.. ثم يودّعهن جميعًا بكلمات تعبر عن شوقه وسفره. وكأن من ودّعهن في ذلك اليوم هنّ فقط فتيات هذه القرية.. ذاك ما سمح له به وقته»

قال عبارته الأخيرة باستخفاف وهو يضع يديه في جيبه ويستند إلى المنضدة، بينما كنتُ أنا أزداد ازدراءً لنفسي مع كل كلمة ينطقها. رغم أن حديثه عن أخيه لم يكن مفاجئًا.

كنت أعلم دون حاجةٍ لتبرير منه بأن علاقتي به وإن كانت بداياتها ممهورة بخديعة، خديعة حقيقية.. غير أن عليها نهضت سعادتي، خديعة ضرته أكثر مما ضرتني! وكأن القدر أراد أن ينقذني على حسابه.. فماذا لو لم يتدخل هو ليقطع قدري الملتف حول أمير المستهتر؟ فأي أذى سيتربص بي!

كنتُ سأكون إما لعبة بين يدي أمير، ينتهي أمرها بخبر مقتلي على يد والدي الغاضب، أو في أحسن الأحوال زوجة تعود إلى بيت أبيها مطلقة مشردة بسرعة، بحال أسوأ مما كانت عليه.

رغم ذلك، نظرتُ إليه بغصّة مكابرة: «ولماذا لم تخبرني بلقائه مع الفتيات.. في اليوم نفسه الذي اعتذرتَ لي فيه؟»

اعتدل في وقفته مستقيمًا، ثم صوبني بنظرةً حازمة لا تخلو من التعالي:

- لأنني أردتُ أن أتيقن بأن تمسكك نابعٌ من رغبتكِ الخالصة بي، لا لأن سلوك أمير كان مخيبًا.. لا أريد أن أكون البديل، من انتُشل من قائمة الانتظار بعد سقوط الأول..

أدرت وجهي أواري إحراجي: «ولماذا تخبرني بهذا الآن إذن!»

- حتى لا تفتحي هذا الموضوع في المستقبل مرة أخرى.

- وهل لنا مستقبل أصلاً؟!

اقترب وجلس، صوته هذه المرة أكثر هدوءً: «وإن كان ما جرى أقسى وأثقل من الصخر.. فما أنا هنا إلا من أجل مشوارنا معًا.. عفوت.. وسامحت لأنني أعلم أنكِ أدركتِ فداحة ما ارتكبتِ، وندمتِ..»

عندما لاحظ صمتي وحيرتي، اقترب مني أكثر وكأنّه يفسّر إعراضي دلالًا، أو محاولة لاستمالة اعتذاره. تمتم وكأن ندمًا يتعاظم بصدره: «ربما أسرفتُ في غضبي تجاهكِ خلال الفترة الماضية، وكسرتكِ رغمًا عني.»

رفعتُ بصري إليه، ثم قلتُ بنبرةٍ واثقة، متأثرةً بما ترسّخ في ذهني، وكأنني أغرد بعيدًا عنه.. أريد أن أريح شيئًا بداخلي يلوعني بسببه:

- أنتَ وأمير والآخرون.. كلكم خونة!

ارتسمت على وجهه علامة استفهام صامتة، قبل أن يرد، فلم يستوعب عبارتي:

- ماذا؟!

بثقةٍ لا يداخلها شك، أعدتُ كلامي، ألقي عليه حكمًا قاطعًا: «لا بد أنك خنتني.. كل الرجال يخونون! أليست هذه طبيعتكم؟ أتريد مني أن أصدق أنك لم تلتقِ بأخرى طوال سنوات زواجنا؟ ولا في أيامك الأخيرة!»

نهض دون تردد، مدَّ يده إلى الرف الصغير بجوار التلفاز. التقط المصحف الشريف، ثم أقسم عليه بصدقٍ نافذٍ أنه لم يدخل يومًا بعلاقةٍ مع أخرى.

وتابع يقول بهمسٍ عاشق: «أنا لم أخنكِ حتى بالخيال.. أنتِ لباسي، لا أرتضي غيركِ دفئًا وسترًا وسكنًا.»

كلماته اخترقتني..

أزاحت الريبة التي زرعها الآخرون في كل مكان، وكأن الخيانة أمرٌ مفروض على كل امرأةٍ أن تتقبّله، يروجون لهذا الأمر رغم قبحه في كل فضاء، حتى كاد يرسخ في ذهني كحقيقةٍ لا جدال فيها..

رغم أنني تمنيت في هذه اللحظة.. أن لا يكون بكل هذا الطهر، حتى لا أظهر أنا بخيانتي بكل هذا الدنس!

يا لعجبي من نفسي!! أنا في قرارتها أعلم بأنه صادق.. فلو كان في حياته أخرى تحلّ مكاني، لما كان ليكسر صمته المقدس ويطلب عودة الوصال بعد كل الفضائح التي شهد عليها القاصي والداني!

نظرتُ إليه مطولًا أبحث في تقاسيمه الصادقة، سألته وكأنني أبرر شكي فيه:

- إذن، لماذا يُقال إن الرجال جميعهم خونة؟

- الخائن سيقول بأن كل الرجال خونة، ليبرر خيانته. ومن تمت خيانتها ستصدق ذلك، لتخفف ألمها، لكن من يخاف الله حقًا، ويحب زوجته، يستحيل أن يخون. لا مبرر للخيانة!

عبارته الأخيرة صفعتني من دون قصد، ومستني جدًا، فحتى أنا راودني الظن الخبيث(بأن ليس هناك من لم تخن زوجها يومًا، لأنني خنت! وحين يتلوث القلب، يرى العالم بعدسته المعتمة.. كل ذي خيانةٍ يظن أن الجميع خونة، وكل آثم يفسّر الطهر زيفًا، والعفاف قناعًا!)

أدركتُ فجأة كم أنا مشوشة! توترتُ أكثر.. راح يتأمل صمتي..

عيناه الثاقبتان قادرتان على اقتحام أعماقي وفضح أوراقي الخفية مهما جاهدت في طمسها، ظلتا تلاحقاني بكل دقة، تلتقطان كل ارتباك في نظراتي الهاربة. شعرتُ في تلك اللحظة وكأنني مكشوفةً أمامه، حتى لو لم أبح بحرف، وبهدوءٍ قاتل، جاء سؤاله كالسهم الذي اخترقني:

- هل هناك أمرٌ آخر.. لا أعرفه!!

تخبطتُ حائرةً بين مشاعري التي تتنازعني وأفكاري هربت إليكَ أنت!

بهدوءٍ رقيق، سحب يدي ووضعها على صدره حيث دوّى نبضه بين أضلعه عاليًا، عنيفًا، ثم همس بصوتٍ دافئ، تخللته نبرة اشتياقٍ موجعة:

- اسمعيه.. لم يخفق حبًا جارفًا وشوقًا، إلا لكِ.

ارتجفتُ، كأن خفقانه تسلل من راحتي إلى أعماقي، يوقظ شيئًا حسبته خمد، يذكرني أن هذا القلب العظيم.. لي أنا!

اضطربت معه نبضاتي، تائهة بين حروف الحب التي لم أعتدها منه.. شعرتُ

وكأنه يعنبني بهذا الغزل المعسول، أم إنه حقًا قد عانى ولهًا بي؟

لم أدرِ أيهما أصدق، ضعفي نحوه؟ أم انجذابي إليك؟!

رفع كفي برفق، قرّبها من شفتيه يكاد يلثمها..

انتفضتُ في اللحظة الأخيرة، سحبتها منه بسرعة مباغتة، وخوفٍ لطّخ قسماتي.

تجمّد في مكانه، تصفعه الدهشة من ردّة فعلي القاسية، والتي بدت كسيفٍ انغرس بصدره المحتدم، كانت أشدّ من أن يحتملها!

لم يكن بوسعه أن يدرك حجم التناقض الذي مزّقني حينها.. لم أجد من اللائق أن تمرّ شفاهه النقية على كفٍّ دنّستها خطاياي، كيف أسمح لوفائه أن يلامس يدًا مرّت عليها قبلات رجلٍ آخر.. أحبيته!؟

لم تسمح لي نفسي، رغم جرأتها، أن أخدعه بهذا الشكل البشع!

وفي الوقت ذاته، انتابني إحساسٌ أشد رعبًا ينهشني.. شعرتُ أنني أخونكَ معه! نعم.. أخونك أنتَ.. وأنا التي وعدتك أنني لن أفعل يومًا!

لم أدرك أيَّ واحدةٍ أنا في هذه اللحظة! ولا أيّ طريق أسلك!

كان شعورًا مخيفًا، عاصفًا، لم أحسب له حسابًا!

تحجرتْ الكلمات في حلقي، لم أستطع مواجهته، ونظرات استغرابه تطاردني، تحاصرني بين عاطفته الغامرة وخذلان يطالبني بتفسير.

فجأة، قفزتُ من مكاني، أدرتُ وجهي عنه، كأنني أفرّ من ظلي، من ذنبي الذي يفتك بروحي ـتهدج صوتي وأنا أقول بصوتٍ خافت، راجٍ، لكنه قاطع:

- أرجوك.. أشعر أنني مشوشة.. ربما من الأفضل أن نبتعد!

لم أستدر ناحيته.. لم أرَ كيف نهض!

ولا كيف انسحب من عندي بصمتٍ موجع، لم أتنبه إلا حين انغلق باب المنزل خلفه، صوتٌ خافت، لكنه دوّى في أعماقي كقنبلةٍ مزقت كل شيء، وجمدتُ في مكاني، جامدة كتمثالٍ هش، بينما شعرتُ بقلبي يتقطع وينزف دمًا..

هل انتهى كل شيء؟ هل خسرته للأبد؟ وقعتُ في حيرتي الممزقة بين نقيضين..

ألم أزهد به! ألم أتعلق بكَ أنت!

لماذا إذن يقوضني هذا الألم وينهشني بوحشية! لماذا شعرتُ أنني من طُعِن وليس هو؟

ملامح دهشته حين انسحبتُ منه، حين صددته بتلك القسوة.. كانت كفيلة بأن ترديني قتيلة!

قضيتُ الليل بطوله أبكي، بلا راحة، بلا نهاية لهذا العذاب، كنتُ بحاجةٍ لأن أراكَ وأسمع صوتك.. أعلم أنني حين أراك وتبوح لي عن اشتياقك وحبك.. قد ينطفئ هذا اللهيب الذي أشعله محمد في صدري، ربما حين أراك فقط، تتلاشى كل هذه الفوضى والحيرة التي تفتك بي.. وأجد سكينتي التي أبحث عنها.. بلا خيانة لأحدكما.

لكنني لم أتمكن من زيارتك صباح الأمس، فقد كان آخر أيام العطلة الصيفية.. انشغلتُ فيه بمشتريات الصغار منذ الصباح، ولولا تنبيه يوسف لي، لكانت تلك المهمة قد سقطت من ذهني تمامًا.. فزيارة محمد تلك، زعزعتْ مشاعري، استحوذت على كل تفكيري وسلبت مني انتباهي وطاقتي.

- أرجوك.. أشعر أنني مشوشة.. ربما من الأفضل أن نبتعد!

لم أستدر ناحيته.. لم أرَ كيف نهض!

ولا كيف انسحب من عندي بصمتٍ موجع، لم أتنبه إلا حين انغلق باب المنزل خلفه، صوتٌ خافت، لكنه دوّى في أعماقي كقنبلةٍ مزقت كل شيء، وجمتُ في مكاني، جامدة كتمثالٍ هش، بينما شعرتُ بقلبي يتقطع وينزف دمًا..

هل انتهى كل شيء؟ هل خسرته للأبد؟ وقعتُ في حيرتي الممزقة بين نقيضين..

ألم أزهد به! ألم أتعلق بكَ أنت!

لماذا إذن يقوضني هذا الألم وينهشني بوحشية! لماذا شعرتُ أنني من طُعِن وليس هو؟

ملامح دهشته حين انسحبتُ منه، حين صددته بتلك القسوة.. كانت كفيلة بأن تردني قتيلة!

قضيتُ الليل بطوله أبكي، بلا راحة، بلا نهاية لهذا العذاب، كنتُ بحاجةٍ لأن أراكَ وأسمع صوتك.. أعلم أنني حين أراك وتبوح لي عن اشتياقك وحبك.. قد ينطفئ هذا اللهيب الذي أشعله محمد في صدري، ربما حين أراك فقط، تتلاشى كل هذه الفوضى والحيرة التي تفتك بي.. وأجد سكينتي التي أبحث عنها.. بلا خيانة لأحدكما.

لكنني لم أتمكن من زيارتك صباح الأمس، فقد كان آخر أيام العطلة الصيفية.. انشغلتُ فيه بمشتريات الصغار منذ الصباح، ولولا تنبيه يوسف لي، لكانت تلك المهمة قد سقطت من ذهني تمامًا. فزيارة محمد تلك، زعزعتْ مشاعري، استحوذت على كل تفكيري وسلبت مني انتباهي وطاقتي.

حقائق مُرّة

عندما أخبرتني أمي أن الدكتور فؤاد تعرض لحادث، اجتاحني حزن عميق، فطلبت منها بإصرار أن نذهب لعيادته في المشفى قبل أن تبدأ المدرسة، لم أكن أدرك حينها سبب ترددها وقلقها الواضح أثناء وصولنا.. كانت وكأنها تحاول الاختباء خلف ستار من الحذر أو الابتعاد عن الأعين التي قد تفضح حضورها

اصطحبتني في الصباح الباكر من يوم الاثنين

قبل بدء المدرسة بيومين فقط، كما لو أنها اختارت الوقت بعناية حتى لا يكون هناك أي زوار لدى الدكتور فؤاد

كانت الممرات هادئة، ووفدنا الغرفة الصغيرة حيث كان ممدًا على سريرٍ يغزوه البياض، قد لُف رأسه بضماداتٍ ولفافاتٍ عريضة، وغزت الكدمات وجهه، وغرق في نومه، غزتني مشاعر مختلفة لرؤيته هكذا، خوفٌ قلق حزن فضول، لم أتمكن حتى من إلقاء التحية عليه، وضعتُ باقة الزهور الصفراء الكبيرة برفق على الطاولة القريبة من السرير. كانت البطاقة المرفقة بها مرقّمة بحرفيّ أمي وحرفي، وكأنها تعمّدت أن تبقيها غامضة، لا يفك شيفرتها إلا هو.

ناولتني هاتفها لأتسلى، ثم أشارت إليّ أن أذهب وأجلس في الممر الموازي

للغرفة، وألا أتحرك حتى تنتهي من حديثها مع الدكتور فؤاد.

رغم أنه كان نائمًا طوال الوقت إلا إنها ظلت تحدثه طويلًا وكأنها تفرغ همومها لبحرٍ لا يرد، وتسرد عليه مواقفَ عديدة مرت بحياتنا جميعًا، وأنصتُ أنا بكل عمق إلى حديثها الذي يصلني إلى مقعدي بدرجة واضحة كلما أرهفت السمع، إلى أن سمعتها تقول وقد اشتد بها الحزن:

- (لم يدرك أحد بأنني كنت سببًا في سقوطك، حتى أنت .. فقدت كل ذكرياتك معي، بل أغلب ذكرياتك، فقد تسبب الارتجاج الذي طال رأسك إلى فقدان مؤقتٍ للذاكرة، ولكن الطبيب طمأن زوجتك بتوقعاته في أن تستعيد ذكرياتك خلال الأيام القادمة فالسبب نفسي).

اتسعت حدقتاي.. لم أصدق أن أمي هي من تسببت في سقوطه!

كانت مشاعر غامضة تجتاحني، خوفٌ، رهبة، غضبٌ مكتوم تجاهها، ولكن لا يمكنني التعبير عنه..

آلمني الجلوس الطويل على المقعد المعدني الأزرق .. فاستلقيت عليه، وإذا بها تخرج من الغرفة وهي تمسح بعض دموعها، وتنظر إليه باشتياق من خلال نافذة الغرفة، بينما لا يزال يغط بنومه، وكأنها كانت مجبرة على توديعه الآن والانصراف قبل أن يحل وقت الظهيرة، قالت وهي تستلم هاتفها مني:

- لم يستطع رؤيتك .. لايزال نائمًا سنعاود زيارته مرة أخرى.

أجفلتُ وغمغمت بغضب والصورة المثالية في ذهني للدكتور فؤاد قد تهشمت:

- لا أريد رؤيته مرة أخرى.

وقبل أن تجيب بوغتتْ بامرأة أنيقة قادمة بالممر، اكسى وجهها بعض الشحوب الناتج عن الإرهاق والحزن، أدركتُ بعد ذلك بأنها زوجة الدكتور فؤاد، بدت تعابيرها مزيجًا من المفاجأة والريبة عندما وقعت عيناها على أمي، لم تمنحها هذه الأخيرة الوقت للحديث وتناثر الشكوك، فاضطرت لكشف أوراقها المخبأة فيما يخصني:

- ابني- أحد الطلاب الذين يرعاهم الدكتور فؤاد في مؤسسته، وقد ألح عليّ كثيرًا لزيارته.

كانت كلماتها تخرج متوترة، والهواء يختقها بعبء الأسرار التي أوشكت على الانكشاف، وبدا واضحًا اندهاش السيدة نسرين كون ابن زميلتها (ليلى) يعاني تحدياتٍ تعليمية، ولكنها لم تُطل، شكرتنا، وقالت بمكر:

- عندما افتقدناك بالعمل حسبتك مريضة..

حزت أمي رأسها: «كلا.. مجرد أيام من إجازتي السنوية، لأتمكن من مصاحبة أطفالي قبل بدء الدراسة.»

تبادلا الحديث على مضض، وانصرفنا، فيما أمي تلوك الشتائم بحق السيدة نسرين وتقلدها عندما قالت (حسبتكِ مريضة!)

في صباح اليوم التالي، بدتْ شاردة أكثر من المعتاد، تحدّق في الفراغ، تصب الشاي في الفنجان حتى فاض دون أن تنتبه. كنت أراقبها بصمت، حتى تذكرت فجأة..

اليوم يتوجب علينا التبضع لشراء مستلزمات المدرسة، فغدًا الأربعاء، أول أيام العام الدراسي الجديد! لكنها لم تذكره، ولم تلمّح إليه حتى-

بدا وكأنها نسيته تمامًا

كما لو أن شيئًا ما قد حدث مساءً، شيء لم نكن نعرفه، يتصارع في رأسها ويستهلك كل طاقتها، حتى أنساها كل شيء آخر.

ذكّرتُها بحماسي المعتاد، عيناي تلمعان بشوق للتبضع، لطالما أحببتُ اقتناء الأشياء الجديدة، قرطاسية متنوعة، أحذية، حقيبة برسومات جميلة، حماسٌ كان يشتعل لكل ذلك أكثر بكثير من فكرة الذهاب إلى المدرسة نفسها.

اقترح حسن أن يرافقنا أبي، فحتى لو لم يكن له دور كبير في الاختيار، لكن وجوده وحده كان كفيلًا بأن يمنحنا شعورًا مضاعفًا بالسعادة، ويساعد في حسم القرار حين تقع أمي في حيرتها، غير أن ردها جاء مختلفًا هذه المرة، نبرتها كانت لطيفة لكنها قاطعة:

- يجب أن تعتادا على أننا قد نفترق.

استاء حسن وأبدى ذلك بوضوح، لكنها لم تكن كعادتها صبورة معه، وأمرته بحزم أن ينهي الموضوع، ربما لأنها هي الأخرى مستاءة وغارقة تحت وطأة الضغوط والتوترات، حتى إنها تعجز عن التركيز فيما حولها.

ذهبنا للتبضّع، وكانت المحلات تعج بالمشترين، بالكاد نجد موطئ قدم في كل مكان ندخله، لكننا رغم الزحام تمكنا من شراء أهم الأساسيات بصعوبة.

عدتُ إلى المنزل مفعمًا بالنشوة أفرز مشترياتي بعناية.. أتصفح الأوراق الجديدة للدفاتر، أفتح الأقلام واحدًا تلو الآخر، أختبر ألوانها بفرح طفولي، كان لكل شيء رائحة البدايات، رائحة الورق النظيف، البلاستيك الذي لم تلمسه يد بعد، الحبر الذي لم يختبر أولى كلماته على الصفحات، نعم! ولأول مرة

سأستخدم أقلام الحبر بالمدرسة، لأنني كبرت وسأصبح في الصف الرابع، فما مضى من السنوات لا نعترف بغير قلم الرصاص.

وضعتُ بعض المشتريات في حقيبة المدرسة استعدادًا لحملها لبيت جدتي ليشاركوني فرحتي بها.

وعلى النقيض مني، ألقى حسن أغراضه بإهمال في وسط الصالون، كأنها لم تعنه أبدًا. وحين طلبتْ منه أمي أن يحملها إلى غرفته، لم يكلّف نفسه عناء الرد، بل انصرف إلى غرفته عابسًا، غارقًا في استيائه المكتوم كما كان أثناء التسوق.

في المساء، كنت في بيت جدتي كعادتي، مترقبًا لحظة وصول أبي.

جلستْ عمتي ياسمين بجوار جدتي تحتسيان الشاي بهدوء، تتناولان الفاكهة في استرخاء، تتبادلان الأحاديث الناعسة كما تفعلان عادة، فمنزلها لا يبعد عنا، وزياراتها لطالما كانت طقسًا يوميًا، أما أنا، فانشغلت باستعراض أدواتي وحقيبتي المدرسية، بعد أن أثنت عليها جدتي.

أمسكتُ بدفتر التلوين الجديد، وشرعتُ في تلوين إحدى الصفحات، أفرغ في رسوماته فرحتي الغامرة، وأحاول أن أسير على الخطوط المنحنية في البداية كما تعلمتُ من الأستاذ كريم.

وما إن أقبل أبي، حتى ركضتُ نحوه متلهفًا ليشاركني فرحة كنزي الصغير.

ألقى التحية على جدتي وعمتي، ثم جلس بقربي، وقبل أن أتمكن من استغراض كنزي عليه، التفت إلى عمتي يسألها عن ابنتها الوحيدة، المشاكسة التي لا تنفصل عنها، رفعت يدها إلى شعرها الذي قصرته إلى حد عنقها

وصبغته بلونٍ بني فاتح جدًا:

- برفقة أبيها، كنت بصالون الحلاقة النسائي، وجئتكم مباشرة...ألا تلاحظ التغيير؟ شعري الجديد! ما رأيك؟

هز رأسه إيجابًا دون مبالاة، ثم انتبه لي وأنا أعرض عليه مشترياتنا، مد يده إلى حقيبتي، يتفحّصها معي باهتمام واضح، يقلب الأدوات، يعلّق بانبهارٍ مفتعل لكنه أسعدني كثيرًا وزاد حماسي لأن أصف له كل ما جرى بالسوق وازدحامه، كان شعوري غامرًا، كما لو أن اهتمامه وتجاوبه هذا يبني كل شيء بداخلي.

نظراته الدافئة، تشعرني بأنني مرئي ومهم، تعيد حبي لذاتي ولعالمي الصغير، ونظرات جدتي وهي ترتشف الشاي تطوف بنا في ارتياح وطمأنينة، ثم التفتَ إليّ وسأل، وهو يعبث بالأقلام الغريبة التي ابتعناها:

- أين حسن؟ لم أره بالأمس.. نادِه.

ذهبتُ مسرعًا أنادي حسن، وعدتُ قبله بنفس الحماس، ثم أكملتُ استعراض أدواتي ودفتر التلوين أمام أبي بحماس مطلق، فأخذه بين يديه يقلب صفحاته، تمر أصابعه على خطوط تلويني وكأنها تحف فنية تستحق التأمل، جلستُ بجانبه أراقبه بغبطة لا توصف.

ظهر أخي أخيرًا عند الباب، لكنه لم يكن كعادته، اقترب ببطء، لم يُلقِ التحية، بدا متململًا.. شيءٌ ما يثقله.

رفع أبي رأسه نحوه، ابتسم له بحب، ثم فتح ذراعه قليلًا وقال بنبرة حانية:

- لم أرك بالأمس..

توقف حسن في منتصف الصالة، ورمق أبي بنظرة مشتعلة، عيناه تغليان بمزيج من الغضب والحزن، ثم صرخ بانفعالٍ لم يعهده منه الآخرون:

-أريدك أن تكون معنا بالمنزل، عندما أسمع صوتك، أركض إليك من غرفتي، لا أن أخرج من البيت برمته لأبحث عنك.

سقطت كلماته في الأثير كحجر ثقيل. بهت أبي، يتجرع غصّة حيرته، لا أحد منا كان يعلم عن سعيه مؤخرًا لحل النزاع، وقوبل بالصد من قبل أمي وجُرِح كبرياؤه بصورة أخرى، التقت أعين الجميع في دهشةٍ، حدجته جدتي مستنكرة:

- حسن! ما كل هذا الغضب!

لكنه لم يتراجع وبكل جرأته التي أتعجب منها وحدته التي لا يعرفها إلا القلة، ضرب الأرض بقدمه الصغيرة بإصرار، وكرر بصوتٍ حاسم:

- أريد أن يعود أبي للمنزل.. الآن!!

فجّر في لحظةٍ كل ما كان يختلج في صدره، وكأنه لم يعد قادرًا على احتمال هذا الشرخ في أسرتنا، لكن جدتي لم تأبه للزلزال العاطفي الذي انفجر أمامها، فهي لا تعامل حسن بشفقة واضحة كما تعاملني، فنظرتْ إلى أبي مصممة وقد جحظت عيناها تحذره بسبابتها:

- لن تعودَ أبدًا إلا بعد خروج تلك المشؤومة منه!

لم يتوقع أحد أن يدوي صوت حسن الحاد في وجه جدته، وكأنه حانق من انهيار عالمه الصغير:

- أنتِ تكرهيننا ..لا تشجعي أبي على ترك أمي.

شهقت جدتي وضربت فخذيها بتعجب! تصلّب وجه أبي، تحوّل حزنه المتراكم إلى غضبٍ مباغت، فهتف فيه موبخًا:

- حسن! ما قلة التهذيب هذه! هيا اعتذر بسرعة.

وبعنادٍ، ووجهٍ يكاد ينفجر من الألم والسخط أصر على موقفه، يرفض الاعتذار رغم جميع المحاولات، عندها زعق أبي بصوتٍ قاسٍ: « ستعاقب، ستحرم من الجهاز اللوحي لمدة أسبوع، وستعتذر من جدتك!»

دارت الدموع في عيني أخي بصمت، وأسرعت قدماه تحملانه خارجًا، متبرمًا، مستاء.

تشنجت يد أبي على دفتري، وربما تكون المرة الأولى التي يوبخ فيها حسن بهذه الطريقة، كنتُ قد اعتدت أن أراه يوبخني، لكن حسن؟ لا، في نظرهم هو الطفل المثالي الذي لم يعرف العقاب قط..

في تلك اللحظة، غمرتني شفقة عميقة ناحيته، لو أن هذا المشهد حدث قبل أشهر فقط، ربما كنت سأبتهج خفية، أجد في ذلك انتصارًا صغيرًا يطفئ غيرتي، لكن الآن..

تغير كل شيء، لم يعد في قلبي متسع لتلك المشاعر القديمة، لم أعد أقارن حب أبي وأمي بحبهما له، بل على العكس، شعرتُ أنني أحبه أكثر، كأننا أخيرًا التقينا في نقطة تساوت فيها كفتا الميزان، بلا تفاضل أو تفضيل، بلا ظلال للغيرة أو الشعور بالغبن، لم نعد مجرد شقيقين يتقاسمان ذات المسكن، بل صرنا شريكين في شعور واحد: أننا مهمان، محبوبان بلا تمييز في المعاملة.

اعتذر أبي حرجًا من والدته الغاضبة، وهي تندب حالها لتجاسر حتى الأطفا

عليها، ولم يسلم هو أيضًا من عباراتها الساخطة وبأنه لم يفلح في تربية عياله، حتى بدأت أنفاسه تتعثر في صدره، وقلبه يضيق، لا يزال دفتر التلوين بين يديه، بدأ يقلب صفحاته دون أن يرى منها شيئًا، يحاول أن يتشاغل به، لكن أفكاره كانت تجلد روحه، تائهًا بين غضبها ووجع ابنه واضطراره لتوبيخه مُكرهًا.

مع دخول عمي أمير، همّ بالنهوض كما يفعل دائمًا، وكأن جسده يتهيأ تلقائيًا للرحيل، لكن هذه المرة، لم تمنحه عمتي ياسمين الفرصة، إذ أسرعت نحونا وجلستْ قربه:

- محمد، أريد أن أستشيرك في أمر.

عدل من وضعية جلوسه على الكنبة، وأصغى إليها باهتمام وهي تضع على دفاتري الساكنة في حجره مجلة تتضمن بعض العروض الترويجية للحواسيب، وتطلب مشورته فيها.

عيناه تتابعان التفاصيل، لكن شيئًا آخر كان يشده..

فضولٌ غير معلن يتسلل إليه حيال حديث عمي، رغم محاولته الظاهرة للتجاهل.

فعلى الجانب الآخر، كان عمي في قمة حماسه، وكأنه غير معنيٍّ بقرار الطلاق الذي تم اتخاذه قبل أيام، جلس جوار جدتي في مواجهتنا، يطوقها بذراعه ويقول راجيًا:

- ألم تغيري رأيكِ بعد بشأن العروس الجديدة!

أجفل أبي للحظة متفاجئًا، لكنه لم يرفع رأسه عما كان في حجره، أما عمتي،

فكانت أسرع في التعبير عن استنكارها، فقالت باستغراب:

- أي عروس هذه! قبل أيام نويتما الانفصال!

ضحك عمي بمكر: «لا تقلقي، سننفصل بسرعة.. ولا توجد مشكلة لو كانت ما تزال على ذمتي!»

اعتدل في جلسته على الكنبة بسعادة متوهجة في عينيه وهو يروي مغامرته الجديدة، كأنه يتباهى بصيد ثمين: «ابنة أحد الجيران هنا.. لمحتها منذ مدة، بصراحة أعجبتني، ولكن تعلمين كنت مقيدًا بزوجة، وطلبتُ اليوم من أمي أن تجس النبض لأنني سأطلق قريبًا كم...»

قبل أن ينهي جملته، دوّى صوت ارتطام الدفاتر بالمقعد، قذفها أبي قربي كأنه لفظ صبره دفعة واحدة، وصاح بحنق:

- هل ستفسد حياة كل الفتيات.. لأنكَ عقيم!

هوت الكلمة الأخيرة كقنبلة مدوية، ارتجّ لها المكان، بل كزلزال ضرب كيان الجميع، وعلى رأس عمي كالصاعقة!

عيناه تجولان في ذهول، تتشبثان بالفراغ، تحاولان استيعاب ما سمع، وتفصدت من جبينه حبات العرق حتى اغرورقت غرته الناعمة بماءٍ لا يرد، وضعتْ عمتي يديها المرتعشتين على فمها، دهشتها تخرسها، بينما تابعت جدتي المشهد بعينين غارقتين في الأسى.

نظراته المتوحشة تبحث عن الخائن الذي أذاع سره الدفين، حتى وقعت على عمتي ياسمين، انعقد ثغره، تاهت الحروف في حنجرته قبل أن تتفجر من عينيه غضبًا، وثب في لحظة سُعار، أنامله قبضت على شعرها الذي كانت

تختال به منذ قليل، فتعالى صراخها المذعور، وقبل أن يتأجج جنونه، انغلقت قبضة أبي الفولاذية حول معصمه، لواها للخلف بقسوة حتى امتزجت صرخات ألمه ببكاء شقيقته..

كان وجه أبي متجهمًا، وكأن سخطه لم يكن ردّ فعل على كلمات عمي فقط، بل غصّة مكتومة على عيني حسن الدامعتين، وعلى أسرتنا التي تمزقت كلوح البازل، ضاعت بعض أجزائه.

تيقنتُ أن العراك قد بدأ مجددًا.. فهرولت نحو دار جدتي، أراقب ما يجري من بعيد، مفزوعًا، أراه وهو يخرج أخيرًا عن صمته، ثم هدده بنبرةٍ مكدودة كالسوط:

- إياك... ثم إياك أن ترفع يدكَ على امرأة! سأكسرها لك!

وكأن كل الساعات التي يقضيها أبي في التدريبات الرياضية تنتظر ضالتها المعهودة، لا تجد ضحية أتعس حظًا من عمي، والذي اختنق بين الألم والغضب، راح يلهث حتى غلبته دموعه، وانفجرت من عينيه رغمًا عنه، وهو يصيح بسخريةٍ مرتجفة: (أصبحتَ مدافعًا عن حقوق المرأة الآن!!) فما زاد ذلك أبي إلا إصرارًا على إيلامه.

في تلك اللحظة، صاحت جدتي بيأس وقد أرهقت بشجارهما المتكرر:

- ستكونان سبب نهايتي.. سأموتُ بسببكما!

أما عمتي، فكانت تحاول التملص من نيران الاتهام، تُقسم بكل الطرق أنها بريئة، بدموعها التي تبلل وجهها وهي تمرر يديها المرتعشتين على شعرها المنكوش محاولة تهذيبه من جديد.

وأخيرًا، دفعه أبي على الأرض.. فتهاوى جالسًا على ركبتيه كجذع شجرة مقطوع بلا حولٍ ولا قوة، كأنما سُحبت الروح من جسده، وكلمات أخيه اللاذعة تحرقه أكثر:

«لم يخبرني أحد، لا تبحث عن مذنب يكون شماعتك الجديدة، أنا عرفت بنفسي.. سلوكياتك وحدها تكشف مرضك الأخلاقي دون حاجة لكلمة واحدة. إياك والعبث بأعراض الناس! تريد الزواج؟ ابحث عن امرأة تناسبك، امرأة تعرف حقيقتك منذ البداية وتقبل بك كما أنت! هناك من ستختارك رغم ظروفك، مطلقة، أرملة، أم لأطفال.. لكنك لا تريد الزواج، تريد الانتقام! الانتقام من الحياة، من قدرك، من نفسك! كم بيتًا ستدمر بعد؟ كم نفسًا ستغدر بها؟ كم رسالة من الله ستحتاج حتى تستيقظ؟ حتى تئب إلى رشدك؟ لقد عدتَ من حافة الموت، ومع ذلك لم تتغير! كنتَ تعبث في الظل، والآن تعبث في وضح النهار بغطاء شرعي! وتستدرج عائلتي إلى خطاياك.. يكفي من خدعتموها الآن وهشّمتم مستقبلها!»

كانت عينا عمي تذرفان دموعه بوجه جامد مرهق، يصرخ منه واقعٌ يعتبره أشد من الفضيحة، واقعٌ لم يرغب يومًا في ظهوره للعلن، لا يحرك ساكنًا، بينما كان الشعور بالذنب يخيم على عمتي وجدتي وهما تنصتان لأبي الذي يقف في مواجهتهم، يحاسبهم جميعًا في ذنبهم المشترك، رفع سبابته في وجه أمير مهددًا:

- وإن فكرتَ يومًا في خداع فتاة أخرى، سأكون لكَ بالمرصاد، وسأتأكد أنها تعلم بوضعك قبل أن تتسلى بها ليومين وترميها مهشمة!

هذه العبارة أيقظت في عمي مشاعر الثأر من أخيه..

وكأن الفرصة واتته بطبقٍ من ذهب ليعيد الطعنة بأشد منها، شدّ كتفيه،

واستعاد صلابته ونهض من الأرض يبتسم ساخرًا، تقدم وأشار بيده إلى صدر أبي مباشرة، ثم قال باستهجان:

- أتدّعي المثالية وأنت أكبر كاذب! تهددني بأنك ستخبر من ساخطبها بحقيقتي!!! تمامًا كما حدث في الماضي؟! كلي شوقٌ لأرى كم فتاة ستخطف مني بعد!

تحجرت الكلمات في حلق أبي، لمْ يعد لأي رد معنى، شبح الماضي لا ينفك يطوق عنقه! يذكره أنه لن ينجلي ولن يُنسى مهما مضت السنون.

لم يجد صوتًا ليجيبه، لكن قبضته المستعرة ردّت بدلًا عنه، محاولةً أن تمحي وطأة العبارة، أن تخفف الطعنة التي انغرست في صدره تنكأ جرحه الغائر بوحشية، ولم يكن الآخر هذه المرة متفرجًا مستسلمًا لوابل اللكمات التي انهمرت عليه كسيلٍ غاضبٍ، بل بادلها بالمثل، وسدّد ضربة خاطفة إلى صدغ أبي، لتتحول القاعة إلى حلبة مصارعة تتوهج بأوارٍ ملتهب، قبضات تتطاير، دفعٌ، لكمٌ، ارتطامٌ بالأثاث.. ركلة هنا، صرخة هناك، وصوتا عمتي وجدتي يزدادان صخبًا.. نحيبٌ يائس ونداءات لا تجد من ينصت إليها، حتى هوت جدتي على المقعد، تتأوه.. يختلط أنينها بكمدها.. تكاد تفقد وعيها..

ساد الذعر!

انطلق الجميع في حركة محمومة، أبي يهرع إليها، يفتح خمارها -الذي يلازمها حتى بالمنزل- لتلتقط أنفاسها، عمي يتخبط في قلقه، يثبت قدميها المرتعشتين، فيما أسرعت عمتي ياسمين تحضر الماء والدواء، الجميع يتحرك في نمط سريع مضطرب، فخرجتُ أنا أيضًا من الغرفة، مترقبًا جدتي.. قلبي يخفق بجنون، حتى عادت أنفاسها تهدأ رويدًا رويدًا بعد أن ابتلعت دواءها.

كان رأسها يستند على حجر أبي، مستلقية على الكنبة الطويلة، عيناها تجوبان وجهه ووجه عمي، نظراتها تقول ما عجز لسانها عن البوح به.. نظراتٌ تحمل عمقًا من العتاب والخذلان، وكأنها ترى أمامها طفلين ضائعين، عوضًا عن رجلين ناضجين.

ركع عمي بجوارها، دموعه تهطل بندم صادق، وصوته يخرج هامسًا، مرتجفًا يقبل يدها: «سامحيني يا أمي... أتعهد لك، سأتغير... لن تحزني بسببي مرة أخرى.»

رفع أبي رأسه، عيناه تائهتان في الفراغ، ثم أومأ بصمت يلتقي بنظراتها المتعبة، إيماءاته الحزينة تشي بعزمه على لجم غضبه عن أخيه.

نهضتْ بتثاقل، مستندة على عمتي، ثم مضت إلى غرفتها لترتاح بدارها.

ظل أبي جالسًا مطرقًا، بينما وقف عمي أمير يمسح عينيه بيديه، يمررهما إلى أعلى حتى منبت غرته، ثم أبقاهما هناك للحظات على جبينه، كأنه يحاول مسح أكثر من مجرد دموع، تنفس بعمق، وهمّ بالانصراف، لكنّ صوت أبي استوقفه عند باب الصالة، جاء هادئًا، باردًا.. كرماد نيران خمدت بعد احتراق طويل:

- لم أدّعِ المثالية يومًا.. ارتكبتُ ذنوبًا عظيمة، وأسعى بصدقٍ للتوبة في كل مرة، فباب التوبة مفتوح لمن يطرقه.

توقف عمي، زفر بضيق، واستدار يطالع أخاه بنظرة متوترة، واصل أبي حديثه بنبرة ثابتة:

- إذا أردتَ حقًا أن تتغير، فعليك أولًا أن تعترف لنفسك بأنك

مخطئ، لأنك كلما استحقرت واستصغرت أخطاءك، أو
تعاميت عنها، لن تجد أبدًا طريقًا للتغيير.

ظل عمي يحدّق في الفراغ، كلمات أبي تتغلغل في عالمه، تطرق بابه المغلق، تحاول أن تقتحم حصونه الصامتة. لم يقل شيئًا، لكنه فجأة هوى جالسًا على الأرض، خانته قدماه تحت وطأة الألم، دفن وجهه على إحدى ركبتيه، وبكى بحرقة، كأنه يحاول أن يفتّت الصخرة الثقيلة الجاثمة على صدره، بصوتٍ مخنوق، خرجت كلماته كاعترافٍ متأخر:

« لن تدرك أبدًا مقدار الوجع الذي ينهشني كلما تذكرت أنني لن أنجب يومًا! كأن شيئًا يسلبني جوهري، ينتزع مني حقي في الامتداد، في أن أترك أثرًا خلفي.. لكن وسط هذا الخراب، هناك لحظات عابرة، واهية، تمنحني الوهم بأنني ما زلت رجلًا كاملًا.. شيءٌ ما يثلج صدري، يبعدني عن حقيقتي، يعيد لي رجولتي الناقصة، ولو للحظات، حين أرى الألم، أو الرعب، أو حتى الذهول في عيون الفتيات.. تلك النظرة المرتبكة، تلك الصدمة التي تغزو ملامحهن، تمنحني إحساسًا بأنني لا أزال ذلك الرجل المهاب، القادر، الذي يُحسب له ألف حساب، لحظات تنسيني أسوء شعور لأي رجل ..رجل يعلم أن صوته سيخفت للأبد، أن دمه سيتوقف عنده، أن اسمه سيندثر وكأنه لم يكن».

طلب أبي مني أن أحضر لعمي كوبًا من الماء ليهدأ، وكأنه أراد إبعادي عمّا سيبوح به، توجهتُ إلى المطبخ، لكن كلماته تسللت إليّ:

« وهل العقم هو ما ينتقص من رجولتك؟ الرجولة ليست قدرةً على الإنجاب، بل مواقف تثبت فيها معدنك، وخصالٌ تعكس إنسانيتك.. الرجولة أن تكون سندًا لمن تحب، أن تقوم بمسؤولياتك دون تقاعس، أن تمنح من

حولك الأمان والراحة، أن تواجه الحياة بحكمة واتزان، لا أن تهرب منها إلى أوهام الظلم والقسوة! أما تظن أنني كنت تائهًا أيضًا؟ ظننتُ أن يوسف بلاني الأعظم، ظلمته، تمنيت لو لم أفعل، وقسوت عليه وهو في أمس الحاجة لعطفي.. لكنني أدركتُ كم كنت جاحدًا لنعم الله، كم كنت أعمى عن الحقيقة! يوسف لم يكن إلا هديةً، من أجمل النعم التي حباني الله بها.. أنت أيضًا، لا تدري أين يكمن الخير في مصابك، ربما يكون العطاء الذي تنتظره متخفيًا في صور ابتلاء، وربما يمنحك الله ما هو أعمق وأبقى مما تراه الآن ناقصًا فيك.. لو رضيتَ وسلّمت، فما نحن إلا في دار امتحان، كلٌّ منا يحمل بلاءه، وكلٌّ يُختبر بطريقته.. فما أعظم من يصبر ويرضى! وما أشد من يتكبر على بلائه فيسقط في هاوية الجحود.. أنت تتمنى .. وأنا أتمنى.. والله يكتب ما به الفضلى لنا جميعًا.»

جنتُ إلى عمي بكوب الماء، وأصابعي ترتجف قليلًا، ابتسمَ بشحوب وهو يستلم الكوب مني، وعيناه، رغم إرهاقهما، تفيضان بحنان:

- وأنا أتمنى ابن كيوسف.

شعورٌ بالذنب طاف بسحنة أبي، كغمامةٍ رماديةٍ عبرتْ ملامحه للحظة، تؤكد مجددًا ندمه المؤلم على استيائه القديم مني، حين كنتُ ابنًا لا يرقى لطموحه، بينما أخوه الآن يتمنى طفلًا.. طفلًا فقط، بلا أي شروط، بلا توقعات، بلا تقييم، أن يكون أبًا فقط..

ابتسم، ربما يحاول الفكاك من وخزة الضمير. قال بنبرةٍ خفيفة تحمل مزيجًا من الاعتذار والمصالحة، مفاوضًا:

- إن أحسنتَ أن تكون له قدوة حسنة، فهو ابنك أيضًا..

شعَ بريق أمل في عيون عمي، وكأن الكلمات بثّت فيه دفئًا، ثم سألني وهو ينهض مداعبًا كعادته ويداه تتوسطان خصره:

- قل لي الحقيقة.. أينا يضرب بشكل أفضل؟!

حدقتُ فيه متعجبًا، أتفحص وجهه الذي تلون بكدماتٍ تتراوح بين درجة ألوانها، وأنفه النازف، وشعره الذي بدا كأن عاصفة مرّت به، أما قميصه القطني الأصفر الذي يرتديه غدا مهترئًا، وانتهت صلاحيته. ثم نظرت إلى أبي، حيث تناثرت بعض أزرار قميصه وارتخى نسيجه بفوضوية.

قال أبي بتعالٍ ساخر يخاطبه، وهو يُعيد إدخال قميصه الفوضوي في بنطاله:

- لم يكن هذا سوى «ضرب تأديبي»..أحذرك أن ترى غضبي الحقيقي.

اتسعت عينا عمي واختلطت ابتسامته الواسعة بنبرة استنكارٍ صاخبة، ثم أشار إلى أبي وقال لي مازحًا: انظر لأبيك كم هو مستفز! يبدو إنه يتوق إلى لكمة أخرى .

قاطعتهما بصوتٍ متردد يخالطه خوف من عودة ذلك الشجار المرعب:

- تعلمنا في المدرسة، (من يضرب .. هو شخص سيء).

انفجرت ضحكة عمي وخطت ابتسامة أبي، ثم ساد صمتٌ قصير، كأن كلماتي أيقظت فيهما شيئًا قد غاب.. فالقتال لا يمر عابرًا أبدًا، هو تجاوزٌ للحدود، إساءة في غير محلها.. فكيف إن كان المعتدى عليه أخًا؟

تبادلا نظرات الاعتذار بصمت.. اقترب عمي من أبي بتردد، ثم انحنى ووضع كفه على كتفه، يهمس بصوت مخنوق: « أعدك يا أخي.. بل أقسم لك سأتغير، أنتم عائلتي أثمن ما لدي.. لا تتركوني تائهًا..»

أرخى أبي عينيه داعمًا، دون أن ينبس بكلمة..

حين غادر عمي وهو يمسح دمعة فرحته بهذا الصلح. جلستُ إلى جوار أبي، فأحسست بيده الدافئة تعبث بخصلات شعري، بحركة لا إرادية لرجل غارق في تأملاته، سارح في دوامة أفكاره، سألني: هل تريدون أن أقلكم للمدرسة غدًا عوضًا عن الحافلة؟

- لا.. أمي ستفعل.. غدًا يوم إجازتها الأخير

تعجّب، ولمعت عيناه وكأنه بدأ يخطط هو الآخر للتغيّب عن العمل.. أو ربما اقتناص بعض الساعات للقائها.

****

خرجت عمتي ياسمين من غرفة جدتي بعد أن اطمأنت إلى نومها، فوثبتُ نحو أدواتي المدرسية أرتبها في الحقيبة استعدادًا للعودة إلى منزلنا، فقد تأخر الوقت كثيرًا، أما عمتي، فظلت واقفة هناك، تطالعه بحيرة وسألته: كيف عرفتَ عنه؟

- سمعتكِ ذات يوم..

قالها بصوت خافت جعل عمتي تجفل للحظة، تحدّق فيه بترقب، تابع دون أن يرفع نظره:

« كنتِ في المطبخ، تخبرين أمي.. لم أقصد استراق السمع، لكن كلماتك وصلتني واضحة، سمعتكِ تفصحين عن استيائك، عن شعورك بالذنب، لأنكِ كنتِ شاهدة على زواجه من فجر، ولم تفعلي شيئًا، وكأنكِ تريدين أن يشاركك أحد هذا العذاب، أن يتحمل معكِ ثقل الضمير، أدركتُ كيف انهارت أمي

معكِ في تلك اللحظة، كيف تلاشت أمامكِ قوتها... ولكن مهما كان الألم الذي شعرتما به، كان الأجدر معرفة الفتاة بالحقيقة منذ البداية.»

هوتْ على المقعد، لم يسألها أحد، لكنها أرادت أن تفرغ ما سجن في قلبها، تبحث عن مستمع، عن كتف تستند إليه ولو بالكلمات:

- ربما قبل سنتين..

قالتها بصوت متعب، تستحضر لحظة قديمة:

«وردتني مكالمة منه في منتصف الليل، كان ذلك غريبًا، علاقتي به وثيقة كما تعلم، لكنه لم يعتد الاتصال في مثل هذا الوقت، وما إن رفعتُ الهاتف، حتى عرفتُ أن شيئًا ما ليس على ما يرام.. صوته كان متهدجًا، مشوشًا، كأنه لم يكن بوعيه تمامًا.. ربما كان تحت تأثير شيء ما، لا أعلم، لكنه لم يكن أمير الذي أعرفه، ظل يردد بصوت باكٍ: (أنا لستُ عقيمًا! أنا لستُ عقيمًا!).. كان يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنعني، لم ينصت إلى أي كلمة قلتها، ثم فجأة! أقفل الخط.»

تابعت وهي تشبك أصابعها ببعضها بقوة، كأنها تحاول تجميع شتات ذكرياتها.. وأنا أنصت لها ومتشاغلٌ بترتيب حاجياتي وكأنني لن أنتهي من هذه المهمة أبدًا:

«رحت أهاتفه لأيام لكنه لم يجب، ثم في أحدها، رد عليّ أخيرًا، كان صوته حزينًا، متعبًا، بالكاد يخرج، لم يتذكر أنه كلمني سابقًا، وحين صارحته بما قاله لي تلك الليلة، أنكر بشدة، ثم فجأة لم يستطع التماسك.. انهار كليًا، واعترف لي بكل شيء، وأمّنني على سره، تعلمون جميعًا أنه عاش العديد من العلاقات

تحت مسميات سرية مختلفة، كانت إحداهن فتاة عربية تعرف عليها هناك، لكنها لم تكتفِ بزواجهما السري، أرادت أن تربطه بها إلى الأبد، ففعلت كل ما بوسعها.. لجأت إلى الوسائل الطبية، إلى أي شيء يمكن أن يجعلها تحمل دون علمه، كانت توهمه بأنها تتناول أدوية لمنع الحمل، لكنها في الواقع تزور الطبيب سرًا لتحقن نفسها بما يساهم في تحقيقه، وأيضًا لم تحمل.. رغم كل محاولاتها، رغم كل الظروف، لم يحدث شيء.»

كان أبي يشعر بعدم الارتياح لحساسية الموضوع والموبقات التي تتضمنها القصة، ولكنه ينصت بتركيز: «وذات يوم.. خلال شجار عابر، نعتَتْه بالعقيم.. لم يكن الشجار مهمًا، لكن كلمتها ترددت كإنذار بالطبل في رأسه: راح يطالبها بأن تشرح، أن تفسر.. وحين حاصرها بالأسئلة، اعترفت له بما فعلته، بكل المحاولات الفاشلة التي لجأت إليها، وكيف لم يثمر أي منها.. انفصل عنها، لكنه لم يستطع الانفصال عن الكلمة التي علقت في رأسه:(عقيم!).»

تنهدت بعمق وأردفت: «أجرى الفحوصات، وتأكد من الأمر.. المسكين لم يستطع احتمال الصدمة، لم يكن من طبيعته أن يلجأ إلى المسكرات، لكنه لم يعرف كيف يواجه هذه الحقيقة، فهرب لأرذل الدروب.. أراد أن يختبئ منها بأي وسيلة، وهكذا، علمتُ بالأمر دون أن يقصد.. كان عقله الباطن يبحث عن ملجأ، عن أمان، ولم يجد إلا شقيقته، واستحلفني بألف يمين أن أخفي سره، وفعلت.. ولكن زيجته الأخيرة لم ترحمني من وطأة الضمير.. فشاركت أمي به..»

هطلتْ من محاجرها دمعات ساخنة ومسحتها وهي تنظر للسماء: رباه اغفر لنا .. فكم أجرمنا بحق الفتاة..

لغة الزهور

وأخيرًا أطلّ يوم الأربعاء، اليوم الأول في المدرسة، استيقظتُ قبل الجميع، متقدًا بحماسٍ يكاد يلتهمني، لم يكن نومي هانئًا، فمشهد الشجار في بيت جدتي ظل يتردد في ذهني ككابوسٍ لا يبرح، ومشهد حسن الغاضب من الجميع، ومع ذلك كانت المدرسة حلمًا يطغى على كل شيء، في أي مقعدٍ سأجلس؟ من سيكون بجانبي؟ وهل سأكون بالفعل في (صف الأبطال)؟ أمي وعدتني بذلك، وقالت إنها ستوافق هذا العام.

أعدت أمي الفطور بخطى متثاقلة، لم تعلق أبدًا على تصرفات حسن المتبرمة، لعلها باتت تعتاد صمته وإعراضه، وتشتتها لا يسمح لها بقيامها بدورها معه كما يجب، ارتدينا ملابسنا الجديدة، كأننا نستعد للعيد، وانطلقت بنا نحو المدرسة، رافقتنا لتتفقد صفوفنا بنفسها، وقبّلت حسن مودّعة بعد أن ضمنت دخوله إلى صفه، ثم أخذت بيدي نحو صفي الجديد.

بالاشتراك مع المعلمة، اختارت لي مقعدًا في الصفوف الأمامية، ثم همست لي بأنها ستأخذني معها في مشوار قصير وتعود لاحقًا، استغربت الأمر؛ فاليوم الأول مخصص للتعارف، ولا رغبة لي في تفويت لحظة واحدة، لكنها وعدتني بأنها لن تتأخر.

ويا للغرابة!

توقفنا مرة أخرى أمام بوابة المستشفى التي يرقد فيها الدكتور فؤاد!

لم أفهم لمَ تصرّ على اصطحابي معها في كل زيارة!

كان وجودي برفقتها حجة مسبقة تلوّح بها حين يفاجئها أحد، لم يختلف الأمر كثيرًا عن الزيارة الماضية؛ الدكتور فؤاد كان نائمًا أيضًا، وأمي تعزي ذلك لتأثير الأدوية والمسكنات.

جلستُ أعبث في هاتفها على المقعد الأزرق خارجًا ووردني اتصال من أبي، وأخبرته بأننا في زيارة للدكتور فؤاد بالمشفى، استغرب زيارتنا في هذا الوقت المبكر وفي يومٍ كهذا، واهتم كثيرًا بالموضوع وسألني عن بعض التفاصيل ثم أغلقتُ الهاتف، بينما كانت أمي تقف إلى جانب السرير، تسرد للطريح النائم ما جرى بينها وبين أبي مساء يوم الاثنين، بكل دقة وكأنها ترغب في إفراغ همها وحيرتها التي مزقتها.

نهضتُ أستطلع المشهد من خلف النافذة الزجاجية حين وخزني صمتها المفاجئ!

دخلتُ للغرفة اقتربت منها وهي تتنقل ببصرها بين باقات الورد الموزعة على طاولات الغرفة، تتفحّصها بتركيز، تقرأ بطاقاتها واحدةً تلو الأخرى بتمعّنٍ مريب، ثم ضحكت بتهكّمٍ مسموع، وكأنها التقطت الخيط!

كانت هناك بطاقة غامضة، مرقّمة بحروفٍ لا تقرأها إلا عين تعرف خباياها.. تشبه تمامًا تلك التي أحضرتها هي قبل يومين، لا أحد سينتبه لحروفٍ كهذه.. إلا من جرب ذات الحيلة، وكتب رسالته على استحياء.. كصرخات صامتة لعلاقةٍ مشبوهة، تنبض فقط في الخفاء.

جلستُ على المقعد في الغرفة، وفتحتُ الهاتف لأستغل الوقت في مراجعة حفظي لإحدى السور. شغّلتُ برنامج التسجيل الصوتي، وبدأت أرتلها بصوتٍ منخفض، أعيد وأصحح وأتأكد من ضبط التجويد.

لم تمضِ دقائق حتى انتبهنا للدكتور فؤاد وقد بدأ يتحرك ببطء، كمن يُجاهد لاستعادة وعيه. اتسعت عيناي، وارتبكتُ راميًا الهاتف جانبًا على عجل، وخرجتُ من الغرفة مسرعًا.

من خلف النافذة، لمحته يفتح عينيه بتثاقل. استدارت أمي نحوه بوجهٍ يقطر حنقًا وقالت بسخرية لاذعة:

- وأخيرًا!! وأخيرًا استيقظت يا دكتور.. هل تتذكرني؟ سردتُ عليك اليوم وفي زيارتي لك قبل يومين كل حكايتي أثناء نومك.. ربما كنتَ قد سمعتني.

استندَ على يديه بصعوبة، يتأوه بخفوت، ثم استوى جالسًا على سريره، كانت عيناه نصف مغمضتين، كأن النور يزعجه، لكنه راح يطالع نافذة الباب بتفحصٍ وترقّب، فخفضتُ رأسي فورًا حتى لا يراني، فلم أعد أرغب في محادثته.

كان وجهه شاحبًا، ومتوجسًا .. يخشى أن يُضبط متلبسًا، قال بصوتٍ خافتٍ مشوب بالقلق، ينقل بصره بينها وبين الباب:

- ليلى.. قلتُ لهم إنني لا أتذكّر، فقط كي لا أضع نفسي وأضعك في شبهة، لم أجد تفسيرًا مقنعًا لوجودي في تلك المنطقة النائية، ولا لمغادرتي الدعوة بتلك الصورة، هذا كل شيء.. هيا أرجوكِ اذهبي، حتى لا يراك أحد.

كان يحاول صرفها برجاءٍ، فأجابت وعلامات الصدمة والفضول تلتهمها:

- كنتُ قد جئت إليك اليوم، حيرى.. ممزقة بين ترددي وحيرتي.. ولكن الآن لم يعد هناك سوى فضولي، ماذا كنتَ تريد أن تقول في ذلك اليوم قبل سقوطك!! هل كنتَ تريد إنقاذ ما تبقَّى، تريد لعلاقتنا أن تستمر!

ثم توقفتْ للحظة، تنهدت بمرارة وتابعت:

- رغم أنني.. فكرت الآن.. ربما لم أعد أرغب بذلك.

قالت عبارتها الأخيرة وهي تنظر لباقة الزهور التي حطمت رئتها، كأنها ترى فيها خيبة لا تقاس: «ليلى الوقت غير مناسب.. نحن في المشفى.»

حدقتْ فيه بحنق، وقالت بإصرارٍ مهزوز يكشف عن صبر نافد، بل كأنها ممزقة، لا تدري أين يقف قلبها: «تكلَّم.. ماذا كنت تريد؟ هل كنت تنوي الزواج بي؟»

ابتسم بمرارة، تلك الابتسامة التي توجع أكثر مما تُطمئن، ثم علا صوته قليلًا رغم الألم الماثل في جسده وروحه، وقال بانفعال مكبوت:

- مصرة على الزواج!؟ كيف أتزوج امرأة خائنة! كنتِ متزوجة تسايريني وتجالسيني مستمتعة بشغفي بكِ في الماضي! والآن، حتى لو بغضتِ زوجكِ أنت مازلتِ متزوجة.. و.. ترغبين..

لم يكمل عبارته.. أخذ نفسًا وتابع وكأنه سئم من المراوغة بجسده المنهك.. وأعصابه تالفة من قيود الأدوية المرهقة..وكأنه يريد الخلاص: « هل تعلمين أنني غذيت فتيل هذه العلاقة فقط لأردّ اعتباري؟! كنت أرغب في أن أجرك إلى قاع الهاوية، ثم .. أنسحب بصمت.»

شهقتْ وفاضت عيناها بالدهشة، وأطرق يتصفح أدراج ذاكرته:

«مساء ذلك اليوم.. عندما انفردنا في مكتبي، أمسكت بيدك ولثمت أناملك.. وكدت أزيح خمارك.. كنت أختبر حدود استسلامكِ لي، وجدتك فريسة ستضيع في شباكي دون مقاومة، ولكن يوسف أنقذك، حين ورد اتصاله.. راجعتُ نفسي ولجمتُها، وأطفأتُ ماكنت بدأته لأنهيه، من أجله.. ومن أجله فقط، لأنني أعزه ولا أرغب في تلطيخ شرفه أكثر.. قررت الابتعاد»

رفع طرفه يتأمل دهشتها وقد لمعت عيناه من جديد: «أما على الساحل، حين شهدتُ رفضكِ لفكرة البُعد.. رغم صراحتي، كنتُ سأقترح أن تكون علاقتنا في الظل.. فذاك يرضيني.. بل يسرني.. فإذا يناسبك يمكننا بدء علاقة جديدة أساسها الصدق.. فأنا بطبعي أكره الزيف والوعود الكاذبة في علاقاتي..»

هالها ما سمعت، كلماته تخرج من فيه كخناجر صدئة، تطحن كبرياءها وكرامتها بوحشية، لم يمنعه حتى وضعه الصحي الحرج من بث سمومه بلا اكتراث!

- لا أصدق! أنت مَن كان رمزًا للتألق والرقي، أتعزي انحدارك الأخلاقي الآن بكل وقاحة!

لم تكتفِ بما هتفتْ.. اختطفت الباقة الغامضة عن الطاولة، وانطلقت بها نحوه.. تحاول اقتلاع الألم من أعماقها، تنوي صفعه بها:

- أيها الواهم الوضيع.. هل تظنني إحدى الساقطات بعلاقاتك المحرمة؟!

اهتز صوته برجاءٍ موجوع، ورفع ذراعه السليمة ليحمي رأسه من وابل الغضب وأغمض عينيه: «اهدئي.. أنا محطم أمامك..»

توقفتْ لوهلة، كأن شيئًا في قلقه هزّ بداخلها إنسانيتها، لكن سخطها كان

أثقل من أن يُكبح، لَجمت أعصابها بصعوبة ثم رمتها على سريره بشزر غير مبالية بساقه المكسورة، وما إن تلاشت الباقة فوق جسده المتعب، وقالت بسخط تبرر: « ماكنت سأسمح لك بلمس حجابي وشرفي ياقذر.. كنتُ مستسلمة لك لأنك خدعتني بعلاجك واستغفلتني.. ولكن.. لا ينفع الندم الآن..»

تهدج صدرها بأنين خافت:

«كم كنت غبية! ألهذه الدرجة يسقط الانسان وتعمى عينيه إن اتبع الهوى! كيف سمحتُ لنفسي أن أضعك وأضع محمد في كفة ميزان واحدة؟ محمد.. رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى! كيف كنتُ حمقاء إلى حد التفريط فيه!!»

راحت دموع ندمٍ مريرة تنداح على وجنتها ببؤس وارتمت على المقعد بعد أن أُثقلت قدماها بهمها، وشفتاها تستعيدان كلماته ودروسه:

«كانت رؤيته صحيحة.. (التخلي القيمي).. أنا بدأت أتخلى شيئًا فشيئًا.. وأنتَ، تخليت عن كل قيمك منذ زمن.»

طالعها بتعجب وكأن الثناء عليه أشعل فجأة غيرةً داخله:

- ألم تتنصلي من حبه!

- بل أحبه.. وأحبه.. وأحبه! أدركت مذ زارني آخر مرة أنني لم أتوقف عن حبه للحظة.. ولكنني كنت أصارع حبه الذي يمزقني، وكم أتوجع على ما فعلته به!

هزّ رأسه مستنكرًا، والضيق يتسلل إلى ملامحه رويدًا فيما هي تمسح دموعها

بيطء، تحاول محو آثار الخيبة عن وجهها .. تُصمت الزلزال الذي يفتك داخلها فاستأنفتْ، بصوتٍ واهن، هشّ:

«أعشق كل ما فيه.. حتى ماشكوت منه.. كيف أستبدله بمثلك؟ كيف التجأتُ إليكَ هاربة من نرجسيته التي كنتُ أزعمها، بينما أنت التجسيد الحقيقي للنرجسية؟ أنت مجرد شيطان.. شيطانٌ زنيم أغواني!»

اعتدل في جلسته بصعوبة، يتلمّس بيده شاشَ جرحه كأن احتقانه أيقظ وجع جسده: «ليلى..»

قاطعته وهي تحدق بعيدًا وكأن الزمن ارتدّ بها إلى ظلّ أبي: «أخبرَني يومًا، أن المواقف الصعبة تصنع الحكمة، نعم تعلمت الآن أن المرأة كالرجل، معرضة للسقوط إن لم تحكم البصر فهو بوابة الهاوية. وأنا.. كنت الدرس الأكبر. أحمد الله الذي كشفك لي قبل أن أقع أكثر، كيف خُدعت بك وأنا زوجة لرجل كمحمد! لاتشوبه شائبة مقارنة بدنس أمثالك! سأعتذر منه ألف مرة.. »

قال بتهكّم مشوب بالغيظ، وكأنه يلوك مرارة استصغاره بين الكلمات:

- فجأة! ذاك الجلاد.. صار قديسًا في عينيك! ليلى، ألتِ مشوشة.. لا ترغبين في العودة لِرجلٍ يقيدكِ بالأعراف والتحفظ و..

قاطعته، وحدّة صوتها تُغلفها قناعة مريرة: «بل لا حظ ولا سعادة للمرأة سوى مع رجل مُحافظ ملتزم بالدين الجوهري لا بالمظاهر ولا التحرر الزائف، رجل يشبهه، صادق في تدينه، حقيقي في وفائه، لا يرتدي قناع الفضيلة، بل يجسدها، يخاف الله فلا يخونني سرًا ويرعى أمانته فلا يؤذيني قصدًا»

نهضت وهي تردف: «الحياة الزوجية لن تكون أبدًا مثالية ولا مكان للكمال

ببطء، تحاول محو آثار الخيبة عن وجهها .. تُصمت الزلزال الذي يفتك داخلها فاستأنفتْ، بصوتٍ واهن، همْس:

«أعشق كل ما فيه.. حتى ماشكوت منه.. كيف أستبدله بمثلك؟ كيف التجأتُ إليكَ هاربة من نرجسيته التي كنتُ أزعمها، بينما أنت التجسيد الحقيقي للنرجسية؟ أنت مجرد شيطان.. شيطانٌ زنيم أغواني!»

اعتدل في جلسته بصعوبة، يتلمّس بيده شاشَ جرحه كأن احتقانه أيقظ وجع جسده: «ليلى..»

قاطعته وهي تحدق بعيدًا وكأن الزمن ارتدّ بها إلى ظلّ أبي: «أخبرَني يومًا، أن المواقف الصعبة تصنع الحكمة، نعم تعلمت الآن أن المرأة كالرجل، معرضة للسقوط إن لم تحكم البصر فهو بوابة الهاوية. وأنا.. كنت الدرس الأكبر. أحمد الله الذي كشفك لي قبل أن أقع أكثر، كيف خُدعت بك وأنا زوجة لرجل كمحمد! لاتشوبه شائبة مقارنة بدنس أمثالك! سأعتذر منه ألف مرة.. »

قال بتهكّم مشوب بالغيظ، وكأنه يلوك مرارة استصغاره بين الكلمات:

- فجأة! ذاك الجلاد.. صار قديسًا في عينيك! ليلى، أنتِ مشوشة.. لا ترغبين في العودة لرجلٍ يقيدكِ بالأعراف والتحفظ و..

قاطعته، وحدّة صوتها تُغلفها قناعة مريرة: «بل لا حظ ولا سعادة للمرأة سوى مع رجل مُحافظ ملتزم بالدين الجوهري لا بالمظاهر ولا التحرر الزائف، رجل يشبهه، صادق في تدينه، حقيقي في وفائه، لا يرتدي قناع الفضيلة، بل يجسدها، يخاف الله فلا يخونني سرًا ويرعى أمانته فلا يؤذيني قصدًا»

نهضت وهي تردف: «الحياة الزوجية لن تكون أبدًا مثالية ولا مكان للكمال

بين الناس، فالجميع يخطئ، لكنها تصبح أقل قسوة حين تعتلي على رجل نبيل، ضميره يصحو إن أخطأ بسرعة.. خوفًا من خالقه».

راقبتُها من وراء الزجاج، بعين طفلٍ لم يُدرك تمامًا ما يجري، لكنه أحسّ - بكل جوارحه الصغيرة - أن أمرًا جسيمًا قد انتهى، وأن شيئًا آخر، غامضًا ومبشّرًا، بدأ يتبرعم في الأفق.. أملٌ خافت، أن يُبعث ذلك الصلح الذي استعصى طويلًا، وأن يعود أبي إلينا، هذه المرة بوجهٍ لا يغادر.

تسلل التبرم إلى ملامحه وهي تهم بالمغادرة، وكأن تخليها عنه بهذه البساطة دون مزيدًا من التوسل والاستجداء، زعزع غروره.

حدّق بها، فوجدها قد انتزعت حقيبتها من على المنضدة، ثم ألجمته بقرارٍ لا رجعة فيه:

- كن مرتاحًا لن تراني بعد اليوم.. كنت حمقاء، عمياء حين أحببتك و..

بترتْ وصلها عندما انتبهتْ لنظراته القلقة تتجه لنافذة الباب، كمن ينظر لحتفه!

أدارت وجهها هي الأخرى ناحيتي، ولكنهما لم يكونا ينظران إليّ.

استنشقتُ عطر أبي الذي يسبقه دائمًا، فاستدرتْ لأفاجئ به يقف خلفي وقد اشتدت قسماته.. بل بدا أن الزمن توقف بداخله!

كان يحمل في يديه باقتي ورد، أحداهما «باقة اعتذار» لأمي والأخرى «باقة تمنٍ للشفاء» للدكتور فؤاد.

أمي وكأنها غرقت في دوامة التوجس والرعب أسرعت نحونا وفتحت الباب بيدٍ ترتعد على أمل أن يكون أبي لم يسمعها، تعثر صوتها: «محمد .. أنا..»

قاطعها يستدرك نفسه:

- هل كنتُ سأظل ألتقطكِ في كل مرة من أحضان الرجال!

كانت العبارة كالسيف الذي مزق كل محاولة منها للدفاع عن نفسها أو التبرير، تكسرت ملامحها كمرآة ضُربت على حين غفلة، ألجمت الكلمات في حلقها كحجر ثقيل سقط في أعماق الهاوية بلا عودة.

لم يمنحها أبي فرصة تهدر وقته، ألقى عليها تلك (الكلمة) المرعبة.. كقذيفة انفجرت في وجه أملها الأخير، بل أملي أيضًا..

كم تمنيتُ أن يلتم شملنا، أن يتحقق حلمي في أسرة مترابطة، وأبوين تعلّما أخيرًا كيف يحتضنان بالحب والتفهم، يظللنا جميعًا سقف واحد!

ولكن الحلم قد انهار في لحظة

أمسك يدي بقوة.. حسم معركته الأخيرة، وجرّني معه بخطوات واثقة.. هكذا فقط..

من دون أن يعلو صوته، أو تمتد قبضته، وكأنها لم تعد تستحق حتى عناء غضبه.

رأيته يرمي الباقتين على المقعد بالممر..

إحداهما تُهشّم اعتذارًا لم يُولد..

والأخرى تُطفئ أمنياتٍ لن تُزهر..

لم يبقَ سوى عبق الورود، شاهدًا صامتًا على خيانة حياةٍ مقدسة لم تكتمل فصولها.

٣٦

كل يوم .. هو بداية..

بعد مضي عامين على التحاقي بمركز تحفيظ القرآن الكريم، بدأت الأستاذة "فضيلة" معلمة التربية الإسلامية تزجّ باسمي في المسابقات القرآنية داخل المدرسة وخارجها، بعد أن أبصرت موهبتي تتنامى بين ثنايا الآيات.. عشقي الكبير للإبحار في أحكام تلاوة القرآن الكريم وتجويده، كان بمثابة حبل النجاة الذي ساهم في رفعي عاليًا نحو أهداب السعادة، وأنقذني من غياهب الضياع، لم أمِل أو أضجر من التعلم المستمر لأحكام التجويد، ربما كنت من أكثر المسجلين في مركز القرآن الكريم اجتهادًا وتدربًا...

كنت أقضي أغلب وقت فراغي في الإنصات المتواصل لأشهر القرّاء، فالوسيط الإدراكي المفضل لدي كما قال اختصاصي التربية الخاصة سابقًا هو السمعي.

حفظتُ الكثير من السور القرآنية بتلاوةٍ متأنية وصوتٍ ساحر، أستطيع التحكم في مدّه وجزره كما أشاء، صرتُ أتلو بعض السور في المحافل الدينية التي أقصدها مع أبي، فكانت العلاقة طردية ومتلازمة بين تطوري في التجويد ومهاراتي الأكاديمية، حتى غدت القراءة أمرًا سلسلًا كالماء لا عُقد فيه، وتطورت مهاراتي الكتابية إلى حد الاتقان.

وفي ذلك الصباح المنتعش بالأخبار السارة، كنا نقف في الطابور الصباحي تحت أضواء الشمس الساطعة. كان الطلاب يتمازحون ويتحادثون بلطافة،

٣٦

كل يوم .. هوّ بداية..

بعد مضي عامين على التحاقي بمركز تحفيظ القرآن الكريم، بدأت الأستاذة "فضيلة" معلمة التربية الإسلامية تزجّ باسمي في المسابقات القرآنية داخل المدرسة وخارجها، بعد أن أبصرت موهبتي تتنامى بين ثنايا الآيات.. عشقي الكبير للإبحار في أحكام تلاوة القرآن الكريم وتجويده، كان بمثابة حبل النجاة الذي ساهم في رفعي عاليًا نحو أهداب السعادة، وأنقذني من غياهب الضياع، لم أمِل أو أضجر من التعلم المستمر لأحكام التجويد، ربما كنت من أكثر المسجلين في مركز القرآن الكريم اجتهادًا وتدربًا...

كنت أقضي أغلب وقت فراغي في الإنصات المتواصل لأشهر القرّاء، فالوسيط الإدراكي المفضل لدي كما قال اختصاصي التربية الخاصة سابقًا هو السمعي.

حفظتُ الكثير من السور القرآنية بتلاوةٍ متأنية وصوتٍ ساحر، أستطيع التحكم في مدّه وجزره كما أشاء، صرتُ أتلو بعض السور في المحافل الدينية التي أقصدها مع أبي، فكانت العلاقة طردية ومتلازمة بين تطوري في التجويد ومهاراتي الأكاديمية، حتى غدت القراءة أمرًا سلسلًا كالماء لا عُقد فيه، وتطورت مهاراتي الكتابية إلى حد الاتقان.

وفي ذلك الصباح المنتعش بالأخبار السارة، كنا نقف في الطابور الصباحي تحت أضواء الشمس الساطعة. كان الطلاب يتمازحون ويتحادثون بلطافة،

بينما كنتُ أشعر بسعادة غامرة كعادتي، إذ كان أحد أصدقائي في مركز التحفيظ معي في نفس الصف، مما جعلنا نتشارك الشغف نفسه، كنا نتناقش بحماس عن أعظم القراء، نقلّد أصواتهم، ونتبارى في إتقان مخارج الحروف، نرقق هذا ونفخم ذاك، وكأننا في مسابقة سرّية بيننا، ثم جاءت التهاني من معلمة التربية الإسلامية عبر الإذاعة المدرسية، بصوتٍ عالٍ، فانبرت العيون ببريق مترقب، رفعت المعلمة الدرع الأول وأعلنته بفخر:

- سعيدة بإخباركم عن الفائزين في مسابقة القرآن الكريم على مستوى مدارس المرحلة الابتدائية في الوطن الغالي، طالبان شرفا المدرسة ورفعا اسمها عاليًا... الطالب المميز المبدع (حامد فيصل سلمان) فاز بالمركز الثاني..

تعالت التهاني والهتافات وعانقنا حامد بفرح، فانتبهنا للمعلمة وهي تبتسم وتكمل التكريم:

- يوسف محمد منصور... فاز بالمركز الثالث

توقفتْ أنفاسي للحظة، تجمدت عيناي على الدرع بين يديها، وكأنني أحاول استيعاب الكلمات التي تساقطت عليّ كمطرٍ دافئ في ليلةٍ شتوية، هل أنا حقًا من بين الفائزين؟ من أنا حتى أحجز لنفسي مكانًا في قائمة المتميزين؟

لم أشعر بجسدي إلا وهو يُرفع عاليًا، تحملني مهللة أيادي زملائي، ورغم هلعي من الارتفاعات، إلا أنني أغمضت عينيّ و تمالكتُ أعصابي وسلّمتُ نفسي لأمواج فرحتي بهذا الانتصار العظيم..

لحظة واحدة، لكنها كانت تساوي الدنيا بأسرها، بل حتى صديقي(حامد) الفائز بالمركز الثاني، الذي كان يزهو بدرعه قبل ثوانٍ، جاء يرفعني مع

الآخرين، وكأن فوزي كان له وقعٌ أعظم من فوزه.

شعرتُ بقلبي يخفق بقوة، لا من الخوف هذه المرة، بل من إحساسٍ غامرٍ بالاعتزاز، وكأنني لم أفز في مسابقة وحسب، بل فاز قلبي الذي كان يخشى الفشل، فازت إرادتي التي لم تيأس..

وفاز كل من آمن بي ولو للحظة واحدة. كان ذلك الفوز حجرًا أول في بنيان نجاتي.. به شيدت سُلّمي، وارتقيت فوق انكساراتي، رغم الفوضى التي عصفت بأسرتي يومها.. ورغم الشروخ التي كانت تتسع في جدراننا.. فالتحديات لم تكن يومًا مرادفًا للسقوط.. بل كانت يدًا خفية تنحتنا، وتُقوّينا، وتمنحنا مع الوقت صلابةً أعمق، وإبداعًا أنقى، ومرونةً لا تكتسب إلا بالعناء

****

الآن، أجلس هنا..

أتكئ برأسي على راحتيّ فوق المقعد الجلدي المريح، أتنقّل بين سطوري المثقلة بالحنين والذكريات، وأمامي يستريح كوب شايٍ ساخن، ينثر حولي سكينة تشبه دفئًا انتظرته طويلًا، ووجدته متأخرًا.. لكن بكامل الحنان، ويقابلني حاسوبي، ذاك الرفيق الوفي الذي أبادله الشغف كأننا عاشقان لا يملان اللقاء.

رفعت بصري بمحبةٍ وامتنان نحو صورة مؤطرة بإطار أبيض مزخرف، تضمّني إلى جوار أخي حسن، في حفل تخرجي من المدرسة.

ثم جُلت بنظري في الأوراق المتناثرة على طاولتي، قصاصاتٌ من أفكاري، وبقايا نجاحاتٍ دونت بعضها.. لازالت مهارتي في الخط تُربكني قليلًا كلما

نظرت إلى الأوراق؛ مقروء نعم، لكنه لا يُرضيني تمامًا، لهذا أجد في الكتابة على الحاسوب عزائي الكبير، فهو صديق لا يُحرجني، ولا يطلق أحكامًا على مهارتي الخطية، بل يُنصت بصمتٍ وولاء.

كمْ كانوا دعاتم في طريقي.. أوصلوني إلى هذا النضج، وهذا النجاح العذب الذي نمت فيه مهاراتي على مهل، كما تنمو الجذور في الأرض العميقة...

لكن صوتًا قديمًا راودني، كأول ضوءٍ أشعل فتيل الإيمان بي حين كان كل ما حولي ظلامًا.

اعتدلتُ في جلستي، والتقطت الهاتف بلهفة، لأسمع ذلك الصوت من جديد:

- مرحبًا أستاذة فضيلة كيف حالك؟ معكِ الطالب الذي لم تدّخري جهدًا في احتوائه.. هل تذكرينني؟

جاءني صوتها يترنم بالترحيب، كما عهدته قديمًا: أهلًا وسهلًا، يوسف! بالطبع لا أنساك يا بني، ما أخبارك؟

تابعتُ مع ابتسامتي القديمة لم تخفها السنون:

- أنا على أبواب التخرج الجامعي. هذه المرة، أطلب منك شيئًا مختلفًا.

- تفضل يا بني.

- كتبتُ حكايتي.. وإن تكن حكاية لن تجرؤ يومًا على رؤية النور، إلا أنني رغبتُ أن تكوني.. آخر سطرٍ يُروى في الجزء الأول منها..

يوسف محمد منصور ٢٠٢٩

ملاحظة (١): جميع الشخصيات والأحداث في هذه الرواية من وحي الخيال، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو محض صدفة غير مقصودة.

ملاحظة (٢): الأشعار والنثريات الواردة تعود للمؤلفة.

ملحظة (٣): الآراء والأفكار الواردة تعبر عن وجهات نظر شخصياتها فقط، ولا تمثل بالضرورة رأي الكاتبة أو معتقداتها.

أنفاسي تمرُّ مني قبل أن أزفر جسدي الصغير المتعب، ككرة مُزِّق
منها بعض الهواء.. فقدت بعضاً جميلة.
تآزري الحركي الواهن يعوقني، يثربص بي، ويشدّني للسقوط.
غرقت في سراديب الرمال كعادتي، لكن رهبتي هذه المرة
سُقِيت بمثلي
هربتُ إلى شتاتي في العالم العلوي، أرتجف كما لو أنني نزلتُ
ببطن الجليد، وأنا أفرغ على رأسي الماء الفاتر علّه يغسل
ارتجافي.. علّه يزيل ما فررت منه..

نافذة على الاغتراب الذي يسكن بعض البيوت

معلومات عن المؤلفة:

- صدر لها ديوان شعري بعنوان الأهازيج وطني!
- فائزة بجوائز تربوية دولية

@mulhemoon

alhamr4kawthar@gmail.com

0 768038 543720